إتحاف القاري

بالتعليقات على شرح السنة

للإمام أبي محمد الحسن بن علي بن خلف
البربهاري رحمه الله
المتوفى ٣٢٩هـ

لمعالي الشيخ الدكتور
صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

أشرف على إخراجها
محمد بن فهد الحصين

الجزء الأول

إتحاف القاري

بالتعليقات على شرح السنة

الله

بسم الله الرحمن الرحيم

إتحاف القاري

بالتعليقات على شرح السنة

للإمام أبي محمد الحسن بن علي بن خلف
البربهاري رحمه الله
المتوفى (٣٢٩) هـ

لمعالي الشيخ الدكتور
صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

أشرف على إخراجها
محمد بن فهد الحصين

الجزء الأول

[illegible]
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الفوزان، صالح بن فوزان
تحف القاري بالتعليقات على شرح السنة / صالح بن فوزان — الرياض
١٤٢٨هـ
٢مج
١- حديث — شرح ٢- السنة النبوية — أ. الخضير، محمد بن فهد (معد) ب. العنوان
ردمك ٦ — ٤٥٤ — ٥٨ — ٩٩٦٠ ٩٧٨ (مجموعة)
٣—٤٥٥—٥٨— ٩٩٦٠ — ٩٧٨ (ج ١)

رقم الإيداع ١٤٢٨/٦٢٥٩
ردمك: ٦ — ٤٥٤— ٥٨ — ٩٩٦٠ — ٩٧٨
٣— ٤٥٥ — ٥٨ — ٩٩٦٠ (ج ١)

الطبعة الثانية ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م

مكتبة الرشد - ناشرون
المملكة العربية السعودية - الرياض
الإدارة: مركز البستان - طريق الملك فهد هاتف ٤٦٠٢٥٩٠
ص ب ١٧٥٢٢ الرياض ١١٤٩٤ هاتف ٤٥٩٣٤٥١ - فاكس ٤٦٠٢٤٩٧
E-mail:rushd@rushd.com
Website:www.rushd.com

فروع المكتبة داخل المملكة

- الرياض: المركز الرئيسي - الدائري الغربي بين مخرجي ٢٧ و ٢٨ هاتف ٤٣٩٩٣٣٣ فاكس ٤٣٩٩٣٨٧
- الرياض: فرع الشمال، طريق عثمان بن عفان، هاتف: ٢٢٥٣٠٥٢
- الرياض: فرع الدائري الشرقي هاتف ٤٩٧١١٩٩ فاكس ٤٩٦١٥٩٩
- فرع مكة المكرمة: شارع الطائف هاتف: ٥٥٨٥٤٠١ فاكس: ٥٥٨٣٥٠٦
- فرع المدينة المنورة: شارع أبي ذر الغفاري هاتف: ٨٣٤٠٦٠٠ فاكس ٨٣٨٣٤٢٧
- فرع جدة: مقابل ميدان الطائرة هاتف: ٦٧٧٦٣٣١ فاكس ٦٧٧٦٣٥٤
- فرع القصيم: بريدة - طريق المدينة هاتف ٣٢٤٢٢١٤ فاكس ٣٢٤١٣٥٨
- فرع أبها: شارع الملك فيصل: هاتف ٢٣١٧٣٠٧ فاكس ٢٢٤٢٤٠٢
- فرع الدمام: شارع الخزان هاتف: ٨١٥٠٥٦٦ فاكس ٨٤١٨٤٧٣
- فرع حائل هاتف ٥٣٢٢٢٤٦ فاكس ٥٦٦٢٢٤٦
- فرع الإحساء: هاتف ٥٨١٣٠٢٨ فاكس ٥٨١٣١١٥
- فرع تبوك هاتف ٤٢٤١٦٤٠ فاكس ٤٢٣٨٩٢٧

مكاتبنا بالخارج

- القاهرة: مدينة نصر: هاتف: ٢٧٤٤٦٠٥ - موبايل: ٠١٠١٦٢٢٦٥٣
- بيروت بئر حسن هاتف ٠٥/٤٦٢٨٩٥ موبايل ٠٣٥٥١٣٥٣ - فاكس ٠٥/٤٦٢٨٩٥

بيان وتحذير من مؤلف الكتاب

الحمدلله / وبعد فإني أحذر من إعادة طباعة هذا الكتاب: إتحاف القاري بالتعليقات على شرح السنة للبربهاري وغيره من كتبي إلا بإذن خطي مني، **ومن طبع شيئاً من كتبي بغير إذن مني فإنه معرض للمساءلة وما يترتب على ذلك من جزاءات نظامية، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.**

كتبه

صالح بن فوزان الفوزان

١٤٣٠/٣/٦هـ



المملكة العربية السعودية

٦/٣/١٤٣٠

بيان وتحذير

الحمدلله وبعد: فإني أحذر من إعادة طباعة هذا الكتاب: إتحاف القاري بالتعليقات على شرح السنة للبربهاري وغيره من كتبي إلا بإذن خطي مني. ومن طبع شيئاً من كتبي بغير إذن مني فإنه معرض للمساءلة وما يترتب على ذلك من جزاءات نظامية. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

كتبه

صالح بن فوزان الفوزان

١٤٣٠/٣/٦هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
رئاسة
إدارة البحوث العلمية والإفتاء
الأمانة العامة لهيئة كبار العلماء

الرقم
التاريخ
المشفوعات
الموضوع

الحمد لله، وبعد: فقد أذنت للأخ الشيخ: محمد بن فهد الحصين بطبع كتابي: إتحاف القاري بالتعليقات على شرح السنة للإمام البربهاري رحمه الله. وفقه الله الجميع للعلم النافع والعمل الصالح. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

كتبه
صالح بن فوزان الفوزان
عضو هيئة كبار العلماء

١٤٢٨/٧/٢١هـ

المقدمة

إنَّ الحَمْدَ لله، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً ﴾ [النساء: ١]. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠- ٧١].

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ تَعَلُّمَ العَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ هُوَ آكَدُ الوَاجِبَاتِ عَلَى المُسْلِمِ، وَأَوْلاهَا بِالاعْتِنَاءِ وَالاهْتِمَامِ، ذَلِكَ أَنَّ قَبُولَ الأَعْمَالِ مُتَوَقِّفٌ عَلَى صِحَّةِ العَقِيدَةِ لاسِيَّمَا وَنَحْنُ فِي زَمَنٍ كَثُرَتْ فِيهِ الفِتَنُ وَالأَهْوَاءُ، وَتَنَوَّعَتْ طُرُقُ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالضَّلالِ، وَتَمَادَى أَهْلُ البَاطِلِ فِي بَاطِلِهِمْ وَتَكَالَبَ أَعْدَاءُ اللهِ عَلَى الإِسْلامِ وَالمُسْلِمِينَ، دَاعِينَ لاسْتِبْدَالِ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ، مُعْرِضِينَ عَنِ الخَالِقِ لاجِئِينَ إِلَى المَخْلُوقِ، تَارِكِينَ نُورَ السُّنَّةِ مِنْ أَجْلِ ظَلامِ البِدْعَةِ، مُدْبِرِينَ عَنِ الهُدَى بُغْيَةً لِلضَّلالِ، وَيَدْعُونَ السَّعَادَةَ وَيَنْشُدُونَ الشَّقَاءَ وَالعِيَاذُ بِاللهِ.

وَمِنْ رَحْمَةِ اللهِ بِأُمَّةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: أَنَّهُ تَتَابَعَ أَئِمَّةُ السُّنَّةِ مُنْذُ القُرُونِ الأُولَى عَلَى بَيَانِ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ وَالتَّحْذِيرِ مِمَّا يُضَادُّهَا، وَالرَّدِّ عَلَى كُلِّ مَنْ خَالَفَهَا، وَسَارَ عَلَى ذَلِكَ المَنْهَجِ الرَّبَّانِيِّ عُلَمَاءُ الأُمَّةِ حَتَّى يَوْمِنَا هَذَا، وَقَدْ كَانَ مِنْ أُولَئِكَ الأَئِمَّةِ الأَبْرَارِ الَّذِينَ نَذَرُوا أَنْفُسَهُمْ لِذَلِكَ: الإِمَامُ المُجَاهِدُ نَاصِرُ السُّنَّةِ وَقَامِعُ أَهْلِ البِدْعَةِ وَالضَّلَالِ أَبُو مُحَمَّدٍ الحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ البَرْبَهَارِيُّ المُتَوَفَّى سَنَةَ (٣٢٩ هـ)، وَالَّذِي أَبْلَى بَلَاءً حَسَنًا فِي الدِّفَاعِ عَنْ دِينِهِ مُضَحِّيًا بِأَحَبِّ الأَشْيَاءِ إِلَيْهِ، وَفَضَّلَ دِينَهُ عَلَى أَغْلَى مَا يَمْلِكُ، وَقَدَّمَ رُوحَهُ رَخِيصَةً زَهِيدَةً فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى، فَتَصَدَّى لِأَصْحَابِ العَقَائِدِ البَاطِلَةِ وَالمَبَادِئِ الفَاسِدَةِ، وَكَانَ عِنْدَهُ مِنَ العَزِيمَةِ مَا تُزَلْزِلُ الجِبَالَ وَهِيَ ثَابِتَةٌ، لَا يَخْشَى إِلَّا اللهَ، فَلَمْ يَشْغَلْهُ إِلَّا هَذَا الدِّينُ، حَامِلًا بِتِلْكَ الرُّوحِ عَلَى طَبَقٍ مِنَ الفِدَاءِ وَالتَّضْحِيَةِ فِي سَبِيلِهِ إِعْزَازًا لِهَذَا الدِّينِ وَمِنْ تَبْلِيغِهِ لِكُلِّ العَالَمِينَ حُبًّا وَمُوَالَاةً وَإِخْلَاصًا للهِ وَلِدِينِهِ الحَنِيفِ، وَأَثْلَجَ اللهُ جل وَعَلا بِكِتَابِهِ الصُّدُورَ، وَأَعَزَّ بِهِ الدِّينَ، وَرَفَعَ بِهِ الرَّايَةَ، يَقُولُ اللهُ جل وَعَلا: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧]، وَقَدْ نَالَ هَذَا الكِتَابُ اهْتِمَامَ الكَثِيرِ مِنَ العُلَمَاءِ عَلَى مَرِّ العُصُورِ، وَفِي عَصْرِنَا هَذَا اخْتَارَ شَيْخُنَا العَلَّامَةُ صَالِحُ بْنُ فَوْزَانَ الفَوْزَانُ شَرْحَ كِتَابِ السُّنَّةِ لِلإِمَامِ البَرْبَهَارِيِّ نَظَرًا لِلْحَاجَةِ المَاسَّةِ إِلَيْهِ فِي هَذَا الوَقْتِ، فَوَفَّقَهُ اللهُ لِبَيَانِ مُفْرَدَاتِهِ، وَشَرْحِ عِبَارَاتِهِ، وَتَسْهِيلِ أَلْفَاظِهِ، وَتَقْرِيبِ المَعَانِي بِكُلِّ سُهُولَةٍ وَيُسْرٍ، مُبَيِّنًا فِي شَرْحِهِ كُلَّ مَا يَحْتَاجُهُ طَالِبُ العِلْمِ فِي هَذَا الشَّرْحِ وَمُوَضِّحًا الإِشْكَالَاتِ فِي كِتَابِ

السُّنَّةِ وَالرَّدِّ عَلَيْهَا، وَبَعْدَ الانْتِهَاءِ مِنْ شَرْحِ هَذَا الكِتَابِ القَيِّمِ تَقَدَّمْتُ بَيْنَ يَدَي شَيْخِي الفَاضِلِ طَالِباً مِنْهُ الإِذْنَ بِإِخْرَاجِ هَذَا الكِتَابِ بِأَجْمَلِ صُورَةٍ، وَأَبْهَى حُلَّةٍ لِتَعُمَّ بِهِ الفَائِدَةُ المَقْصُودَةُ وَالمَرْجُوَّةُ، فَأَذِنَ لِي بِذَلِكَ.

خُطَّةُ البَحْثِ:

عَمَلِي -إِجْمَالاً- يَتَلَخَّصُ فِي ثَلاثَةِ أُمُورٍ:

أَوَّلاً: قِسْمُ الدِّرَاسَةِ.

ثَانِياً: النَّصُّ المُحَقَّقُ.

ثَالِثاً: عَمَلُ فَهَارِسَ عِلْمِيَّةٍ لِلْكِتَابِ.

وَقَسَّمْتُ الدِّرَاسَةَ إِلَى: مُقَدِّمَةٍ، وَثَلاثَةِ مَبَاحِثَ.

أَمَّا المُقَدِّمَةُ: فَذَكَرْتُ فِيهَا أَهَمِّيَّةَ التَّوْحِيدِ، وَسَبَبَ عِنَايَتِي بِهَذَا التَّعْلِيقِ المُبَارَكِ الَّذِي قَامَ بِهِ شَيْخُنَا العَلَّامَةُ صَالِحُ بنُ فَوْزَانَ الفَوْزَانُ، وَخُطَّةَ البَحْثِ.

وَأَمَّا المَبْحَثُ الأَوَّلُ: فَتَرْجَمَةٌ مُخْتَصَرَةٌ لِلإِمَامِ العَلَّامَةِ البَرْبَهَارِيِّ.

وَأَمَّا المَبْحَثُ الثَّانِي: فَتَرْجَمَةُ الشَّيْخِ العَلَّامَةِ صَالِحِ بنِ فَوْزَانَ الفَوْزَانِ.

وَأَمَّا المَبْحَثُ الثَّالِثُ: فَوَصْفُ النُّسَخِ المُعْتَمَدَةِ مِنْ كِتَابِ شَرْحِ السُّنَّةِ لِلْبَرْبَهَارِيِّ، وَمَنْهَجُ البَحْثِ.

وَفِيهِ مَطْلَبَانِ:

المَطْلَبُ الأَوَّلُ: وَصْفُ النُّسَخِ المُعْتَمَدَةِ مِنْ كِتَابِ شَرْحِ السُّنَّةِ لِلْبَرْبَهَارِيِّ.

المَطْلَبُ الثَّانِي: مَنْهَجُ البَحْثِ.

ثُمَّ عَرَضْتُ عَمَلِي فِي الكِتَابِ عَلَى شَيْخِنَا العَلَّامَةِ صَالِحِ بنِ فَوْزَانَ الفَوْزَانِ، بَعْدَ تَفْرِيغِ هَذَا الشَّرْحِ القَيِّمِ، وَبَعْدَ أَنْ عَزَوْتُ الآيَاتِ إِلَى مَظَانِّهَا مِنْ سُوَرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ وَخَرَّجْتُ الأَحَادِيثَ وَعَزَوْتُ كَلَامَ العُلَمَاءِ، وَتَرْجَمْتُ لَهُم وَعَدَّلْتُ وَقَوَّمْتُ مَا طَلَبَهُ الشَّيْخُ مِنِّي عَلَى المَخْطُوطَةِ الَّتِي سَيَأْتِي وَصْفُهَا، مَعَ مُرَاجَعَةِ بَعْضِ طَبَعَاتِ الكِتَابِ، وَإِنِّي لأَتَقَدَّمُ بِالشُّكْرِ وَالدُّعَاءِ لِكُلِّ مَنْ سَاهَمَ مَعِي لإِخْرَاجِ هَذَا الشَّرْحِ بِهَذِهِ الصُّورَةِ.

وَفِي الخِتَامِ أَسْأَلُ اللهَ جَلَّ وَعَلَا أَنْ يُبَارِكَ فِي هَذَا الجُهْدِ، وَأَنْ يَتَقَبَّلَهُ مِنِّي، وَيَجْعَلَهُ خَالِصاً لِوَجْهِهِ الكَرِيمِ صَوَاباً عَلَى سُنَّةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَنْ يُنَوِّرَ بَصَائِرَ وَأَبْصَارَ القَارِئِينَ لِمَعْرِفَةِ الحَقِّ مِنَ البَاطِلِ، وَأَنْ يُوَفِّقَ شَيْخَنَا لِمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَأَنْ يَغْفِرَ لِلإِمَامِ البَرْبَهَارِيِّ رَحِمَهُ اللهُ، وَأَنْ يُسْكِنَهُ فَسِيحَ جَنَّاتِهِ، وَأَنْ يَحْشُرَنَا وَإِيَّاهُ مَعَ ﴿ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩].

وَصَلِّ اللَّهُمَّ وَسَلِّمْ عَلَى مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الأَنَامِ وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ الكِرَامِ، وَسَلِّمْ تَسْلِيماً كَثِيراً.

كتبه: محمد بن فهد الحصين

١٤٢٨/٦/٢٢هـ

m.f.h٢٠٠١@hotmail.com

الرياض

ص . ب: ٢٤٠٨٥٢

رمز: ١١٣٢٢

المَبْحَثُ الأَوَّلُ

تَرْجَمَةُ الإِمَامِ البَرْبَهَارِيِّ

اسْمُهُ وَكُنْيَتُهُ وَنَسَبُهُ:

هُوَ الإِمَامُ، القُدْوَةُ، المُجَاهِدُ، شَيْخُ الحَنَابِلَةِ وَكَبِيرُهُمْ فِي عَصْرِهِ، أَبو مُحَمَّدٍ الحَسَنُ بنُ عَلِيِّ بنِ خَلَفٍ البَرْبَهَارِيُّ. وَ«بَرْبَهَار» هِيَ الأَدْوِيَةُ الَّتِي تُجْلَبُ مِنَ الهِنْدِ.

مَوْلِدُهُ وَنَشْأَتُهُ:

وُلِدَ سَنَةَ «٢٥٣هـ» فِي خِلافَةِ المُعْتَزِّ بِاللهِ مُحَمَّدِ بنِ الخَلِيفَةِ المُتَوَكِّلِ عَلَى اللهِ جَعْفَرِ بنِ المُعْتَصِمِ بِاللهِ العَبَّاسِيِّ، وَكَانَ ذَلِكُمُ الوَقْتُ وَقْتَ تَحَكُّمِ الأَتْرَاكِ بِالسُّلْطَةِ، حَيْثُ كَانُوا يُوَلُّونَ مَنْ شَاؤُوا مِنَ الخُلَفَاءِ وَيَعْزِلُونَ مَنْ شَاؤُوا، وَلَمْ يَسْتَقِرَّ الأَمْرُ نِسْبِيًّا إِلاَّ فِي خِلافَةِ المُعْتَمِدِ عَلَى اللهِ.

فَنَشَأَ الإِمَامُ البَرْبَهَارِيُّ فِي تِلْكَ البِيئَةِ المُضْطَرِبَةِ سِيَاسِيًّا، المُزْدَهِرَةِ عِلْمِيًّا حَيْثُ كَانَ أَهْلُ السُّنَّةِ مُنْتَشِرُونَ فِي البِلادِ، وَعَاصَرَ الإِمَامُ البَرْبَهَارِيُّ جَمْعًا مِنَ الأَئِمَّةِ مِثْلُ: الإِمَامِ ابنِ مَاجَهْ القَزْوِينِيِّ، وأَبِي دَاودَ السِّجِسْتَانِيِّ، صَاحِبَيِ السُّنَنِ، وَحَنْبَلَ بنِ إِسْحَاقَ، والإِمَامِ أَبِي بَكْرٍ المَرُّوذِيِّ، وَإِسْحَاقَ بنِ إِبْرَاهِيمَ بنِ هَانِئٍ، وَأَبِي بَكْرٍ الخَلالِ، وَابنِ قُتَيْبَةَ الدِّيْنَوَرِيِّ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الأَئِمَّةِ.

وَقَدْ صَحِبَ الإمامُ البَرْبَهَارِيُّ جَمَاعَةً مِنْ أَصْحَابِ إِمَامِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللهُ، وَأَخَذَ العِلْمَ عَنْهُمْ، مِمَّا كَانَ لَهُ أَثَرٌ كَبِيرٌ عَلَى شَخْصِيَّتِهِ.

شُيُوخُهُ وَطَلَبُهُ لِلعِلْمِ:

لَقَدْ كَانَ الإمامُ البَرْبَهَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ مُبَرِّزاً فِي طَلَبِ العِلْمِ وَحَرِيصاً عَلَى تَحْصِيلِهِ، حَيْثُ تَلَقَّى العِلْمَ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنْ كِبَارِ أَصْحَابِ الإمامِ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، مِنْهُمْ:

١- أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ الحَجَّاجِ أَبُو بَكْرٍ المَرُّوذِيُّ، الإمامُ، القُدْوَةُ، الفَقِيهُ، المُحَدِّثُ، نَزِيلُ بَغْدَادَ، صَاحِبُ الإمامِ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ، مَاتَ سَنَةَ: ٢٧٥هـ(١).

٢- سَهْلُ بنُ عَبْدِاللهِ بنِ يُونُسَ التُّسْتَرِيُّ أَبُو مُحَمَّدٍ، الإمامُ العَابِدُ، الزَّاهِدُ، مَاتَ سَنَةَ ٢٨٣هـ(٢).

٣- الفَتْحُ بنُ شُخْرُفٍ أَحَدُ العُبَّادِ الزُّهَّادِ، رُوِيَ عَنِ الإمامِ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ أَنَّهُ قَالَ: مَا أَخْرَجَتْ خُرَاسَانُ مِثْلَ الفَتْحِ بنِ شُخْرُفٍ، توفي سَنَةَ: ٢٧٣هـ(٣).

(١) انظُر ترجمتهُ في: طبقات الحنابلة(١/٥٦)، وسير أعلام النبلاء(١٣/١٧٣).
(٢) انظُر ترجمتهُ في: سير أعلام النبلاء(١٦/٥٢٩).
(٣) انظُر: تاريخ بغداد(١٢/٣٨٤- ٣٨٧)، وطبقات الحنابلة(١/٢٥٦).

مَكَانَتُهُ العِلْمِيَّةُ:

لَقَدْ كَانَ الإِمَامُ البَرْبَهَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ إِمَاماً مَهِيباً، قَوَّالاً بِالحَقِّ، دَاعِيَةً لِلسُّنَّةِ وَاتِّبَاعِ الأَثَرِ، عَارِفاً بِالمَذْهَبِ أُصُولاً وَفُرُوعاً، لَهُ صِيتٌ عِنْدَ السُّلْطَانِ وَجَلالَةٍ، وَكَانَ شَدِيداً عَلَى أَهْلِ البِدَعِ وَالأَهْوَاءِ، مُنَابِذاً لَهُمْ بِاليَدِ وَاللِّسَانِ، وَكَانَ مَجْلِسُهُ عَامِراً بِحِلَقِ الحَدِيثِ وَالأَثَرِ وَالفِقْهِ، يَحْضُرُهُ الكَثِيرُ مِنْ أَئِمَّةِ الحَدِيثِ وَالفِقْهِ.

قَالَ أَبُو عَبْدِاللهِ الفَقِيهُ: «إِذَا رَأَيْتَ البَغْدَادِيَّ يُحِبُّ أَبَا الحَسَنِ ابنَ بَشَّارٍ، وَأَبَا مُحَمَّدٍ البَرْبَهَارِيَّ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُ سُنَّةٍ»

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى عُلُوِّ مَكَانَتِهِ: مَا قَالَهُ تِلْمِيذُهُ ابنُ بَطَّةَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «سَمِعْتُهُ - يَعْنِي: البَرْبَهَارِيَّ - لَمَّا أَخَذَ الحُجَّاجُ يَقُولُ: يَا قَوْمِ، إِنْ كَانَ يَحْتَاجُ إِلَى مُعَاوَنَةٍ بِمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ، وَمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ، خَمْسَ مَرَّاتٍ، عَاوَنْتُهُ».

قَالَ ابنُ بَطَّةَ: «وَلَوْ أَرَادَهَا حَصَّلَهَا مِنَ النَّاسِ».

وَلَهُ شِعْرٌ رَائِقٌ فَمِنْ شِعْرِهِ رَحِمَهُ اللهُ:

مَنْ قَنِعَتْ نَفْسُهُ بِبُلْغَتِهَا ... أَضْحَى غَنِيًّا وَظَلَّ مُتَّبِعَا
للهِ دَرُّ القَنَاعَةِ مِنْ خُلُقٍ ... كَمْ مِنْ وَضِيعٍ بِهِ ارْتَفَعَا
تَضِيقُ نَفْسُ الفَتَى إِذَا افْتَقَرَتْ ... وَلَوْ تَعَزَّى بِرَبِّهِ اتَّسَعَا

زُهْدُه وورعُهُ:

لَقَدْ عُرِفَ الإِمَامُ البَرْبَهَارِيُّ بِالزُّهدِ وَالوَرَعِ، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى هَذَا مَا ذَكَرَهُ أَبُو الحَسَنِ بنُ بَشَّارٍ، قَالَ: «تَنَزَّهَ البَرْبَهَارِيُّ مِنْ مِيرَاثِ أَبِيهِ عَنْ سَبْعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ».

وَقَالَ ابنُ أَبِي يَعْلَى: «كَانَ لِلْبَرْبَهَارِيِّ مُجَاهَدَاتٌ وَمَقَامَاتٌ فِي الدِّينِ كَثِيرَةٌ».

تَلامِيذُ الإِمَامِ البَرْبَهَارِيِّ:

لَقَدْ أَخَذَ العِلْمَ عَنْ هَذَا الإِمَامِ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الطُّلَّابِ، وَاسْتَفَادُوا مِنْهُ، مِنْهُم:

١- الإِمَامُ القُدْوَةُ الفَقِيهُ أَبُو عَبْدِاللهِ عُبَيْدُاللهِ بنِ مُحَمَّدٍ العُكْبَرِيُّ، المَعْرُوفُ بِابْنِ بَطَّةَ[1].

٢- الإِمَامُ الوَاعِظُ الكَبِيرُ مُحَمَّدُ بنُ أَحْمَدَ بنِ إِسْمَاعِيلَ البَغْدَادِيُّ أَبُو الحُسَيْنِ بنُ سَمْعُونَ[2].

٣- أَحْمَدُ بنُ كَامِلِ بنِ خَلَفِ بنِ شَجَرَةَ أَبُو بَكْرٍ القَاضِي[3].

٤- الإِمَامُ الفَقِيهُ الحُسَيْنُ بنُ عَبْدِاللهِ البَغْدَادِيُّ الحَنْبَلِيُّ، أَبُو عَلِيٍّ النَّجَّادُ الصَّغِيرُ، مَاتَ فِي حُدُودِ سَنَةِ: ٣٦٠هـ[4].

---

(١) انظر ترجمته في: طبقات الحنابلة(١٤٤/٢) وسير أعلام النبلاء(٥٢٩/١٦).
(٢) انظر ترجمته في: طبقات الحنابلة(١٥٥/٢)، وسير أعلام النبلاء(٥٠٥/١٦).
(٣) انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء(٥٤٤/١٥).
(٤) انظر: طبقات الحنابلة(١٤٠/٢- ١٤١).

٥- مُحَمَّدُ بنُ أَحْمَدَ بنِ صَالِحِ بنِ الإِمَامِ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ، مَاتَ سَنَةَ: ٣٣٠هـ[1].

مِحْنَتُهُ وَوَفَاتُهُ:

قَالَ ابن أبي يعلى: «وَكَانَتْ لِلْبَرْبَهَارِيِّ مُجَاهَدَاتٌ وَمَقَامَاتٌ فِي الدِّينِ كَثِيرَةٌ، وَكَانَ الْمُخَالِفُونَ يُغِيظُونَ قَلْبَ السُّلْطَانِ عَلَيْهِ، فَفِي سَنَةِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ وَثَلاثِمِائَةٍ فِي خِلافَةِ الْقَاهِرِ وَوَزِيرِهِ ابنِ مُقْلَةَ تَقَدَّمَ بِالْقَبْضِ عَلَى الْبَرْبَهَارِيِّ فَاسْتَتَرَ، وَقُبِضَ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنْ كِبَارِ أَصْحَابِهِ، وَحُمِلُوا إِلَى الْبَصْرَةِ وَعَاقَبَ اللهُ تَعَالَى ابنَ مُقْلَةَ عَلَى فِعْلِهِ ذَلِكَ بِأَنْ أَسْخَطَ عَلَيْهِ الْقَاهِرَ وَهَرَبَ ابنُ مُقْلَةَ، وَعَزَلَهُ الْقَاهِرُ عَنْ وِزَارَتِهِ، وَطُرِحَ فِي دَارِهِ النَّارُ. وَقُبِضَ عَلَى الْقَاهِرِ بِاللهِ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ لِسِتٍّ مِنْ شَهْرِ جُمَادَى الآخِرَةِ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ وَثَلاثِمِائَةٍ، وَحُبِسَ وَخُلِعَ وَسُمِلَتْ عَيْنَاهُ فِي هَذَا الْيَوْمِ حَتَّى سَالَتَا جَمِيعاً، فَعَمِيَ، ثُمَّ تَفَضَّلَ اللهُ تَعَالَى وَأَعَادَ الْبَرْبَهَارِيُّ إِلَى حِشْمَتِهِ، وَزَادَتْ حَتَّى إِنَّهُ لَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو عَبْدِاللهِ بنُ عَرَفَةَ الْمَعْرُوفُ بِنِفْطَوَيْهِ، وَحَضَرَ جَنَازَتَهُ أَمَاثِلُ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ كَانَ الْمُقَدَّمُ عَلَى جَمَاعَتِهِمْ فِي الإِمَامَةِ: الْبَرْبَهَارِيُّ، وَذَلِكَ فِي صَفَرٍ سَنَةَ ٣٢٣».

(١) انظر: طبقات الحنابلة(٢/٦٤- ٦٦).

وفي هذهِ السَّنَةِ ازْدادَتْ حِشْمَةُ البَرْبَهارِيِّ، وَعَلَتْ كَلِمَتُهُ وَظَهَرَ أَصْحابُهُ، وَانْتَشَرُوا في الإِنْكارِ عَلَى المُبْتَدِعَةِ..

وَلَمْ تَزَلِ المُبْتَدِعَةُ يُوغِرُونَ قَلْبَ الرَّاضِي عَلَى البَرْبَهارِيِّ، فَتَقَدَّمَ الرَّاضِي إِلى بَدْرٍ الخَرْشَنِيِّ صَاحِبِ الشُّرْطَةِ بِالرُّكُوبِ وَالنِّداءِ بِبَغْدادَ: أَنْ لا يَجْتَمِعَ مِنْ أَصْحابِ البَرْبَهارِيِّ نَفْسانِ فَاسْتَتَرَ، وَكانَ يَنْزِلُ بِالجانِبِ الغَرْبِيِّ بِبابِ مُحَوَّلٍ[1]، فَانْتَقَلَ إِلى الجانِبِ الشَّرْقِيِّ مُسْتَتِراً فَتُوُفِّيَ في الاسْتِتارِ في رَجَبٍ سَنَةَ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ وَثَلاثِمِائَةٍ.

وَقَدْ بَلَغَ مِنَ العُمُرِ سِتًّا، وَقِيلَ: سَبْعاً وَسَبْعِينَ[2] سَنَةً[3].

---

(١) انْظُرْ عَنْ «بابِ مُحَوَّلٍ»: معجم البلدان(٥/٦٦).

(٢) وقع في البداية والنهاية(١٥/١٣٧) أن عمره يَوْمَ مَاتَ: ٩٦سنة، وَهُوَ تصحيف، والصواب: ٧٦سنة. وَاللهُ أَعْلَمُ.

(٣) انْظُرْ تَرْجَمَتَهُ في: طبقات الحنابلة(٢/١٨)، سير أعلام النبلاء(١٥/٩٠)، والكامل في التاريخ لابن الأثير(٧/١٥٩)، والوافي بالوفيات للصفدي(١٢/٩٠).

المبحث الثاني
ترجمة معالي الشيخ صالح بن فوزان الفوزان

اسمه ونسبه:

هو فضيلة الشيخ الدكتور: صالح بن فوزان بن عبدالله، من آل فوزان من أهل الشماسية، الوداعين من قبيلة الدواسر.

نشأته ودراسته:

وُلِد عام ١٣٥٤هـ، وتُوفّي والده وهو صغير، فتربّى في أسرته، وتعلّم القرآن الكريم، وتعلّم مبادئ القراءة والكتابة على يد إمام مسجد البلد، وكان قارئاً متقناً وهو فضيلة الشيخ: حمود بن سليمان التلال، الذي تولّى القضاء أخيراً في بلدة ضرية في منطقة القصيم.

ثم التحق بمدرسة الحكومة حين افتتاحها في الشماسية عام ١٣٦٩هـ، وأكمل دراسته الابتدائية في المدرسة الفيصلية ببريدة عام ١٣٧١هـ، وتعيّن مدرساً في الابتدائي، ثم التحق بالمعهد العلمي ببريدة عند افتتاحه عام ١٣٧٣هـ، وتخرّج فيه عام ١٣٧٧هـ، والتحق بكلية الشريعة بالرياض، وتخرّج فيها عام ١٣٨١هـ، ثم نال درجة الماجستير في الفقه، ثم درجة الدكتوراه من هذه الكلية في تخصص الفقه أيضاً.

أعماله الوظيفية:

بعد تخرّجه في كلية الشريعة عُيّن مدرساً في المعهد العلمي في الرياض، ثم نُقل للتدريس في كلية الشريعة، ثم نُقل للتدريس في

الدِّرَاسَاتِ العُلْيَا بِكُلِّيَّةِ أُصُولِ الدِّينِ، ثُمَّ فِي المَعْهَدِ العَالِي لِلْقَضَاءِ، ثُمَّ عُيِّنَ مُدِيراً لِلْمَعْهَدِ العَالِي لِلْقَضَاءِ، ثُمَّ عَادَ لِلتَّدْرِيسِ فِيهِ بَعْدَ انْتِهَاءِ مُدَّةِ الإِدَارَةِ، ثُمَّ نُقِلَ عُضْواً فِي اللَّجْنَةِ الدَّائِمَةِ لِلإِفْتَاءِ وَالبُحُوثِ العِلْمِيَّةِ، وَلا يَزَالُ عَلَى رَأْسِ العَمَلِ.

أعمالُهُ الأُخرَى:

فَضِيلَةُ الشَّيْخِ عُضْوٌ فِي هَيْئَةِ كِبَارِ العُلَمَاءِ، وَعُضْوٌ فِي المَجْمَعِ الفِقْهِيِّ بِمَكَّةَ المُكَرَّمَةِ التَّابِعِ لِلرَّابِطَةِ، وَعُضْوٌ فِي لَجْنَةِ الإِشْرَافِ عَلَى الدُّعَاةِ فِي الحَجِّ، إِلَى جَانِبِ عَمَلِهِ عُضْواً فِي اللَّجْنَةِ الدَّائِمَةِ لِلْبُحُوثِ العِلْمِيَّةِ وَالإِفْتَاءِ، وَإِمَامٌ وَخَطِيبٌ وَمُدَرِّسٌ فِي جَامِعِ الأَمِيرِ مُتْعِبِ بنِ عَبْدِالعَزِيزِ آلِ سُعُودٍ فِي المَلَزِّ، وَيُشَارِكُ فِي الإِجَابَةِ فِي بَرْنَامَجِ «نُورٌ عَلَى الدَّرْبِ» فِي الإِذَاعَةِ، كَمَا أَنَّ لِفَضِيلَتِهِ مُشَارَكَاتٍ مُنْتَظِمَةً فِي المَجَلاَّتِ العِلْمِيَّةِ عَلَى هَيْئَةِ بُحُوثٍ وَدِرَاسَاتٍ وَرَسَائِلَ وَفَتَاوَى، جُمِعَ وَطُبِعَ بَعْضُهَا، كَمَا أَنَّ فَضِيلَتَهُ يُشْرِفُ عَلَى الكَثِيرِ مِنَ الرَّسَائِلِ العِلْمِيَّةِ فِي دَرَجَتَي المَاجِسْتِيرِ وَالدُّكْتُورَاهْ، وَتَتَلْمَذَ عَلَى يَدَيهِ العَدِيدُ مِنْ طَلَبَةِ العِلْمِ الَّذِينَ يَرْتَادُونَ مَجَالِسَهُ وَدُرُوسَهُ العِلْمِيَّةَ المُسْتَمِرَّةَ.

مَشايخُهُ:

تَتَلْمَذَ فَضِيلَةُ الشَّيْخِ عَلَى أَيْدِي عَدَدٍ مِنَ العُلَمَاءِ وَالفُقَهَاءِ البَارِزِينَ، وَمِنْ أَشْهَرِهِمْ سَمَاحَةُ الشَّيْخِ عَبْدُالعَزِيزِ بنُ بَازٍ، وَسَمَاحَةُ الشَّيْخِ عَبْدُاللهِ

بنُ حُميدٍ، حيثُ كانَ يحضُرُ دُرُوسَهُ في جامعِ بُرَيدةَ. وفضيلةُ الشيخِ مُحمّدُ الأمينُ الشنقيطيُّ، وفضيلةُ الشيخِ عبدُالرّزّاقِ عفيفيٌّ، وفضيلةُ الشّيخِ صالحُ بنُ عبدِالرّحمنِ السّكيتيُّ، وفضيلةُ الشّيخِ صالحُ بنُ إبراهيمَ البليهيُّ، وفضيلةُ الشّيخِ مُحمّدُ بنُ سُبيّلٍ، وفضيلةُ الشّيخِ عبدُاللهِ بنُ صالحٍ الخُليفيُّ، وفضيلةُ الشّيخِ إبراهيمُ بنُ عُبيدٍ العبدُ المُحسنِ، والشّيخُ صالحٌ العليُّ النّاصرُ، وفضيلةُ الشّيخِ حمُودُ بنُ عُقلا الشُّعَيبيُّ. وتتلمذَ على غيرِهِمْ مِنْ شُيُوخِ الأزهرِ المُنتدَبِينَ في الحديثِ والتّفسيرِ واللّغةِ العربيّةِ.

مُؤلّفاتُهُ:

لِفضيلةِ الشّيخِ مُؤلّفاتٌ كثيرةٌ، مِنْ أبرزِها:

١- (التّحقيقاتُ المَرضيّةُ في المَباحثِ الفرضيّةِ) في المَواريثِ، وهُوَ رِسالتُهُ في الماجستيرِ، مُجلّدٌ.

٢- (أحكامُ الأطعمةِ في الشّريعةِ الإسلاميّةِ) وهُوَ رِسالتُهُ في الدُّكتوراهْ، مُجلّدٌ.

٣- (الإرشادُ إلى صحيحِ الاعتقادِ) مُجلّدٌ صغيرٌ.

٤- (شرحُ العقيدةِ الواسطيّةِ) مُجلّدٌ صغيرٌ.

٥- (البيانُ فيما أخطأَ فيهِ بعضُ الكُتّابِ) مُجلّدٌ كبيرٌ.

٦- (مَجمُوعُ مُحاضراتٍ في العقيدةِ والدّعوةِ) مُجلّدانِ.

٧- (الخُطَبُ المِنْبَرِيَّةُ في المُنَاسَبَاتِ العَصْرِيَّةِ) في أَرْبَعِ مُجَلَّدَاتٍ.

٨- (مِنْ أَعْلَامِ المُجَدِّدِينَ فِي الإِسْلَامِ).

٩- (رَسَائِلُ فِي مَوَاضِيعَ مُخْتَلِفَةٍ).

١٠- (مَجْمُوعُ فَتَاوَى فِي العَقِيدَةِ وَالفِقْهِ) مُفَرَّغَةٌ مِن بَرْنَامِج «نُورٌ عَلَى الدَّرْبِ»، وَقَدْ أُنْجِزَ مِنْهُ أَرْبَعَةُ أَجْزَاءٍ.

١١- (نَقْدُ كِتَابِ الحَلَالِ وَالحَرَامِ فِي الإِسْلَامِ).

١٢- (شَرْحُ كِتَابِ التَّوْحِيدِ - لِلشَّيْخِ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِالوَهَّابِ)، شَرْحٌ مَدْرَسِيٌّ.

١٣- (التَّعْقِيبُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الخَطِيبُ فِي حَقِّ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِالوَهَّابِ).

١٤- (المُلَخَّصُ الفِقْهِيُّ) مُجَلَّدَانِ.

١٥- (إِتْحَافُ أَهْلِ الإِيمَانِ بِدُرُوسِ شَهْرِ رَمَضَانَ).

١٦- (الضِّيَاءُ اللَّامِعُ مِنَ الأَحَادِيثِ القُدْسِيَّةِ الجَوَامِعِ).

١٧- (بَيَانُ مَا يَفْعَلُهُ الحَاجُّ وَالمُعْتَمِرُ).

١٨- (كِتَابُ التَّوْحِيدِ) جُزْءَانِ مُقَرَّرَانِ فِي المَرْحَلَةِ الثَّانَوِيَّةِ بِوِزَارَةِ المَعَارِفِ.

١٩- (فَتَاوَى وَمَقَالَاتٌ نُشِرَتْ فِي مَجَلَّةِ الدَّعْوَةِ)، نُشِرَ ضِمْنَ (كِتَابِ الدَّعْوَةِ).

٢٠ - (البِدَعُ وَالمُحْدَثَاتُ وَمَا لا أَصْلَ لَهُ).
٢١ - (مَجَالِسُ شَهْرِ رَمَضَانَ المُبَارَكِ).
٢٢ - (عَقِيدَةُ التَّوحِيدِ).
٢٣ - (أَضْوَاءٌ مِنْ فَتَاوَى ابنِ تَيْمِيَّةَ).
٢٤ - (بُحُوثٌ فِقْهِيَّةٌ في قَضَايَا عَصْرِيَّةٍ).
٢٥ - (مُحَاضَرَاتٌ في العَقِيدَةِ وَالدَّعْوَةِ).
٢٦ - (شَرْحُ كِتَابِ كَشْفِ الشُّبُهَاتِ).
٢٧ - (فِقْهُ وَفَتَاوَى البُيُوعِ).
٢٨ - (دُرُوسٌ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ).
٢٩ - (شَرْحُ زَادِ المُسْتَقْنِعِ).
٣٠ - (المُلَخَّصُ في شَرْحِ كِتَابِ التَّوحِيدِ).
٣١ - (إِعَانَةُ المُسْتَفِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوحِيدِ).
٣٢ - (شَرْحُ مَسَائِلِ الجَاهِلِيَّةِ).
٣٣ - (حُكْمُ الاحْتِفَالِ بِذِكْرَى المَوْلِدِ النَّبَوِيِّ).
٣٤ - (المُنْتَقَى مِنْ فَتَاوَى فَضِيلَةِ الشَّيْخِ صَالِحِ الفَوْزَانِ).
٣٥ - (لَمْحَةٌ عَنِ الفِرَقِ).
٣٦ - (الإِيمَانُ بِالمَلائِكَةِ وَأَثَرُهُ في حَيَاةِ الأُمَّةِ).
٣٧ - (الإِعْلامُ بِنَقْدِ كِتَابِ الحَلالِ وَالحَرَامِ).

٣٨ - (مُجْمَلُ عَقِيدَةِ السَّلَفِ الصَّالِحِ).

٣٩ - (البَيَانُ بِالدَّلِيلِ لِمَا فِي نَصِيحَةِ الرِّفَاعِيِّ وَمُقَدِّمَةِ البُوطِيِّ مِنَ الكَذِبِ الوَاضِحِ وَالتَّضْلِيلِ).

٤٠ - (حَقِيقَةُ التَّصَوُّفِ).

٤١ - (مِنْ مُشْكِلاتِ الشَّبَابِ).

٤٢ - (وُجُوبُ التَّحَاكُمِ إِلَى مَا أَنْزَلَهُ اللهُ).

٤٣ - (الفَرْقُ بَيْنَ البَيْعِ وَالرِّبَا).

٤٤ - (مَسَائِلُ فِي الإِيمَانِ).

٤٥ - (التَّعْلِيقَاتُ المُخْتَصَرَةُ عَلَى مَتْنِ العَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ).

٤٦ - (تَدَبُّرُ القُرْآنِ).

٤٧ - (مِنْ مَشَاهِيرِ المُجَدِّدِينَ فِي الإِسْلامِ).

٤٨ - (وُجُوبُ التَّثَبُّتِ فِي الأَخْبَارِ وَاحْتِرَامِ العُلَمَاءِ).

٤٩ - (مِنْ أُصُولِ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ).

٥٠ - (دَوْرُ المَرْأَةِ فِي تَرْبِيَةِ الأُسْرَةِ).

٥١ - (مَعْنَى لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ).

عِلاوَةً عَلَى العَدِيدِ مِنَ الكُتُبِ وَالبُحُوثِ وَالرَّسَائِلِ العِلْمِيَّةِ، **مِنْهَا مَا هُوَ** مَطْبُوعٌ، وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي طَرِيقِهِ لِلطَّبْعِ.

وهذه المواد معظمها يمكن الاطلاع عليها فقط في الموقع المخصص لفضيلة الشيخ حفظه الله ورعاه بصفحة "المكتبة العلمية".

صوتيات الشيخ حفظه الله:

لفضيلة الشيخ عدد كبير من المواد الصوتية التي أثرى بها المكتبة الإسلامية في علوم مختلفة منها على سبيل المثال:

- شرح لمعة الاعتقاد في اثني عشر شريطاً.
- شرح نونية ابن القيم في أربعة وستين شريطاً.
- شرح العقيدة السفارينية للإمام السفاريني في خمسة عشر شريطاً.
- شرح منظومة الآداب في ستة عشر شريطاً.
- شرح عمدة الأحكام في أحد عشر شريطاً.
- شرح الأصول الثلاثة في عشرة شرائط.
- شرح العقيدة الطحاوية في أربعة عشر شريطاً.
- اللقاء الأسبوعي المفتوح في اثني عشر شريطاً.
- شرح رسائل من مجموعة التوحيد في تسعة شرائط.
- شرح كشف الشبهات في تسعة شرائط أيضاً.
- شرح العقيدة الواسطية في واحد وثلاثين شريطاً.
- شرح مسائل الجاهلية في أربعة عشر شريطاً.
- شرح نواقض الإسلام في عشرة شرائط.

- شَرْحُ بُلُوغِ المَرَامِ فِي ثَمَانِيَةٍ وَسِتِّينَ وَمِائَةِ شَرِيطٍ.
- شَرْحُ زَادِ المُسْتَقْنِعِ فِي تِسْعَةٍ وَسِتِّينَ شَرِيطاً.
- التَّعْلِيقُ عَلَى قُرَّةِ عُيُونِ المُوَحِّدِينَ فِي سِتِّينَ شَرِيطاً.
- **شَرْحُ «العُدَّةِ فِي شَرْحِ العُمْدَةِ» فِي ثَلاثَةٍ وَأَرْبَعِينَ شَرِيطاً.**

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ

وَصْفُ النُّسَخِ الْمُعْتَمَدَةِ، وَمَنْهَجُ الْبَحْثِ

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ: وَصْفُ النُّسَخِ الْمُعْتَمَدَةِ مِنْ كِتَابِ شَرْحِ السُّنَّةِ لِلْبَرْبَهَارِيِّ

اعْتَمَدْتُ عَلَى النُّسْخَةِ الْخَطِّيَّةِ الْوَحِيدَةِ الْمَعْرُوفَةِ مِنْ كِتَابِ شَرْحِ السُّنَّةِ، وَقَابَلْتُهَا بِالطَّبْعَةِ الَّتِي حَقَّقَهَا الشَّيْخُ خَالِدُ بْنُ قَاسِمِ الرَّدَّادِيُّ -الطَّبْعَةِ الثَّانِيَةِ، مَعَ مُقَابَلَةِ مَا وُجِدَ مِنَ الْكِتَابِ فِي طَبَقَاتِ الْحَنَابِلَةِ لِابْنِ أَبِي يَعْلَى الْحَنْبَلِيِّ.

أَوَّلًا: وَصْفُ النُّسْخَةِ الْخَطِّيَّةِ:

وَهِيَ مِنْ مَخْطُوطَاتِ الْمَكْتَبَةِ الظَّاهِرِيَّةِ بِدِمَشْقَ، ضِمْنَ الْمَجْمُوعِ رَقْمِ «١٣» مِنَ الْوَجْهِ الثَّانِي مِنَ الْوَرَقَةِ الْأُولَى إِلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ مِنَ الْوَرَقَةِ رَقْمِ «٢٠»، وَخَطُّهَا وَاضِحٌ، وَنَاسِخُهَا هُوَ الْإِمَامُ الصَّالِحُ أَبُو الْقَاسِمِ عُبَيْدُاللهِ بْنُ حَمْزَةَ[١] وَفِي خَاتِمَتِهَا بَعْضُ السَّمَاعَاتِ.

وَتَقَعُ فِي نَحْوِ ٣٨ صَفْحَةً، مُتَوَسِّطُ عَدَدِ أَسْطُرِ الصَّفْحَةِ خَمْسَةَ عَشَرَ سَطْرًا.

وَقَدْ وَقَعَ فِي الصَّفْحَتَيْنِ الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ مِنَ النُّسْخَةِ إِقْحَامُ اسْمِ أَبِي عَبْدِاللهِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ غَالِبٍ الْبَاهِلِيِّ الْمَعْرُوفِ بِغُلَامِ خَلِيلٍ، وَنِسْبَةُ

(١) هُوَ أَبو القاسم عبيد اللهِ بن حمزة بن إسماعيل بن حمزة الموسوي العلوي الهروي. توفي سَنَةَ: ٥٥٠هـ ذيل تاريخ بغداد(١٧/٤٥)، وتاريخ الإسْلامُ للذهبي(٣٧/٣٩٦).

المَطْلَبُ الثَّانِي: مَنْهَجُ البَحْثِ.

لَقَدْ سَلَكْتُ فِي إِخْرَاجِ الكِتَابِ وَتَوْثِيقِ نُصُوصِهِ مَا يَلِي:

١- أَذْكُرُ فِي أَعْلَى الصَّفْحَةِ مَتْنَ الفِقْرَةِ الَّتِي شَرَحَهَا فَضِيلَةُ الشَّيْخِ صَالِحٍ الفَوْزَانِ، ثُمَّ أَضَعُ خَطًّا فَاصِلاً بَيْنَ المَتْنِ وَالشَّرْحِ، ثُمَّ بَعْدَ الخَطِّ أَضَعُ كَلِمَةَ «**الشَّرْحُ**» ثُمَّ أَذْكُرُ شَرْحَ فَضِيلَةِ الشَّيْخِ صَالِحٍ الفَوْزَانِ.

٢- خَرَّجْتُ الأَحَادِيثَ وَالآثَارَ الوَارِدَةَ فِي المَتْنِ وَالشَّرْحِ، فَإِذَا كَانَ الحَدِيثُ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَوْ أَحَدِهِمَا اكْتَفَيْتُ بِالعَزْوِ إِلَيْهِمَا أَوْ إِلَى أَحَدِهِمَا بِذِكْرِ الجُزْءِ وَرَقْمِ الصَّفْحَةِ وَالرَّقْمِ غَالِباً، مَعَ ذِكْرِ اسْمِ الصَّحَابِيِّ الَّذِي رَوَاهُ إِن لَمْ يَكُنْ مَذْكُوراً فِي المَتْنِ أَوْ الشَّرْحِ.

وَإِذَا كَانَ الحَدِيثُ لَيْسَ فِي الصَّحِيحَيْنِ ذَكَرْتُ مَصَادِرَ تَخْرِيجِهِ بِمَا لَا يَزِيدُ غَالِباً عَنْ خَمْسَةِ مُخَرِّجِينَ، مَعَ ذِكْرِ مَنْ حَكَمَ عَلَيْهِ مِنَ العُلَمَاءِ.

وَإِذَا لَمْ أَقِفْ عَلَى مَنْ أَخْرَجَ الأَثَرَ لَمْ أَتَعَرَّضْ لِتَخْرِيجِهِ دَلَالَةً عَلَى أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَنْ خَرَّجَهُ.

٣- عَزَوْتُ النُّقُولَ إِلَى الكُتُبِ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَى تِلْكَ النُّقُولِ مَعَ ذِكْرِ رَقْمِ الجُزْءِ وَالصَّفْحَةِ.

٤- قُمْتُ بِتَشْكِيلِ الكِتَابِ كَامِلاً مَتْناً وَشَرْحاً حَتَّى تَسْهُلَ قِرَاءَتُهُ عَلَى طَلَبَةِ العِلْمِ عَلَى كَافَّةِ مُسْتَوَيَاتِهِمْ، وَلَمْ أَكْتَفِ بِتَشْكِيلِ المُشْكِلِ لِأَنَّ الإِشْكَالَ أَمْرٌ نِسْبِيٌّ يَصْعُبُ ضَبْطُهُ.

وَأَسْأَلُ اللهَ التَّوفِيقَ وَالسَّدَادَ، وَأَنْ يَنْفَعَ الأُمَّةَ بِهَذَا الكِتَابِ وَشَرْحِهِ، وَأَنْ يَجْزِيَ شَيْخَنَا الشَّيْخَ صَالِحَ بنَ فَوْزَانَ الفَوْزَانَ عَنِ الإِسْلامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْراً.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

نماذجُ من النُّسخ المُعتمدة

صُورةُ صفحة عُنوان الكتاب من النُّسخة الخطيَّة



صورة الصفحة الثانية من النسخة الخطية



صورة الصفحة الأخيرة من النسخة الخطية



صورة الصفحة الأولى من الكتاب من طبعة طبقات الحنابلة


— ١٨ —

باب الحاء من الطبقة الثانية

٥٨٨ ـ الحسن بن علي بن خلف ، أبو محمد البربهاري ، شيخ الطائفة في وقته ، ومتقدمها في الإنكار على أهل البدع ، والمباينة لهم باليد واللسان . وكان له صيت عند السلطان ، وقدم عند الأصحاب . وكان أحد الأئمة العارفين ، والحفاظ للأصول المتقنين ، والثقات المؤمنين .

صحب جماعة من أصحاب إمامنا أحمد ، منهم المروذي ، وصحب سهل التستري .

صُورة الصفحة الأخيرة من الكتاب من طَبْعَة طبقات الحَنابلة



– ٤٣ –

وقال الفضيل بن عياض: من عظم صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام، ومن تبسم في وجه مبتدع فقد استخف بما أنزل الله عز وجل على محمد صلى الله عليه وسلم، ومن زوج كريمته من مبتدع فقد قطع رحمها، ومن تبع جنازة مبتدع لم يزل في سخط الله حتى يرجع.

وقال الفضيل بن عياض: آكل مع يهودي ونصراني، ولا آكل مع مبتدع، وأحب أن يكون بيني وبين صاحب بدعة حصن من حديد.

وقال الفضيل بن عياض: إذا علم الله من الرجل أنه مبغض لصاحب بدعة غفر له، وإن قل عمله، ولا يكن صاحب سنة يمالئ صاحب بدعة إلا نفاقاً. ومن أعرض بوجهه عن صاحب بدعة ملأ الله قلبه إيماناً، ومن انتهر صاحب بدعة آمنه الله يوم الفزع الأكبر، ومن أهان صاحب بدعة رفعه الله في الجنة مائة درجة، فلا تكن صاحب بدعة في الله أبداً.

أنبأنا علي عن ابن بطة قال: سمعت البربهاري يقول: المجالسة للمناظرة تغلق باب الفائدة. قال: وسمعت البربهاري يقول: [illegible] يقوم إلى [illegible] معاوية [illegible] ألف دينار، ومائة ألف دينار، ومائة ألف دينار — خمس [illegible]. قال ابن بطة: [illegible] معاوية [illegible] من الناس.

وقال ابن بطة: [illegible] البربهاري [illegible] جلسه من العوام [illegible] الحنابلة. قال فرجع إليه، وقال: الحنابلة على ثلاثة أصناف، صنف زهاد، يصومون ويصلون. وصنف يكتبون ويتفقهون. وصنف يصفعون لكل مخالف مثلك، وصفعه، وأوجعه.

وسمعت أبي أبا القاسم — نضر الله وجهه — يقول: لم يكن البربهاري يجلس مجلساً إلا ويذكر فيه أن الله عز وجل يقعد محمداً صلى الله عليه وسلم معه على العرش.

ونقلت من خط الوالد السعيد رضي الله عنه قال: نقلت من خط أبي حفص البرمكي قال: ذكر أبو الحسن بن بشار قال: تنزه البربهاري عن ميراث أبيه من [illegible] ألف درهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ المُعَلِّقِ عَلَى الكِتَابِ: فضيلة الشيخ صالح الفوزان

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

هَذَا الكِتَابُ مُؤَلِّفُهُ البَرْبَهَارِيُّ، واسْمُهُ: الحَسَنُ بنُ عَلِيِّ بنِ خَلَفٍ البَرْبَهَارِيُّ، نِسْبَةٌ إِلَى بَرْبَهَارٍ وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الأَدْوِيَةِ[1]، الَّتِي لَعَلَّهُ كَانَ يَشْتَغِلُ بِهَا، أَوْ يَبِيعُهَا فَنُسِبَ إِلَيْهَا. وَهُوَ مِنْ كِبَارِ الحَنَابِلَةِ، أَخَذَ عَمَّنْ أَخَذَ عَنِ الإِمَامِ أَحْمَدَ مِثْلِ المَرْوَذِيِّ[2] وَغَيْرِهِ، وَتَبَحَّرَ فِي العِلْمِ، أَخَذَ العَقِيدَةَ، وَأَخَذَ الفِقْهَ، وَأَخَذَ العِلْمَ عَنْ كِبَارِ الأَئِمَّةِ[3].

واسْمُ الكِتَابِ: **(شَرْحُ السُّنَّةِ)** المُرَادُ بِالسُّنَّةِ هُنَا: طَرِيقَةُ الرَّسُولِ ﷺ، لَيْسَ المُرَادُ بِهَا المَعْنَى المُصْطَلَحَ عَلَيْهِ عِنْدَ المُحَدِّثِينَ: **«أَنَّهُ مَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ تَقْرِيرٍ»**، وَإِنَّمَا المُرَادُ مَا هُوَ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ

---

(١) انْظُرْ: الأنساب للسمعاني(١/٣٠٧).

(٢) أحمد بن محمد بن الحجاج بن عبدالعزيز أبو بكر المروذي، قَالَ ابن أبي يعلى: «كانت أمه مَرْوَذِيَّةً، وأبوهُ خوارزميًا، وَهُوَ المقدم من أصحاب أحمد لورعه وفضله، وكان إمامنا يأنس به، وينبسط إِلَيْهِ، وَهُوَ الذي تولى إغماضه لما مَاتَ، وَغَسَّلَهُ، وَقَدْ رَوَى عنه مَسَائل كثيرة» توفي سَنَةَ ٢٧٥هـ. طبقات الحنابلة(١/٥٦)، وسير أعلام النبلاء(١٣/١٧٣).

(٣) انْظُرْ تَرْجَمَتَهُ فِي: طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى(٢/١٨)، وسير أعلام النبلاء(١٥/٩٠).

طَرِيقَةُ الرَّسُولِ ﷺ، وَطَرِيقَةُ أَصْحَابِهِ، وَطَرِيقَةُ السَّلَفِ الصَّالِحِ، هَذِهِ هِيَ السُّنَّةُ المَأْثُورَةُ، سَوَاءٌ فِي الاعْتِقَادِ أَوْ فِي العِبَادَةِ أَوْ فِي الفِقْهِ، أَوْ فِي الآدَابِ وَالأَخْلَاقِ، كُلُّ هَذَا يُسَمَّى بِالسُّنَّةِ مِنْ حَيْثُ العُمُومُ.

فَقَدْ يَذْكُرُ مَسَائِلَ فِقْهِيَّةً مِثْلَ المَسْحِ عَلَى الخُفَّيْنِ، وَنِكَاحِ المُتْعَةِ مِنْ بَابِ الرَّدِّ عَلَى الفِرَقِ الضَّالَّةِ المُخَالِفَةِ فِيهَا، وَقَدْ يُكَرِّرُ بَعْضَ المَسَائِلِ مِنْ بَابِ التَّأْكِيدِ أَوْ لِتَكَرُّرِ مُنَاسَبَةِ ذِكْرِهَا أَوْ لِزِيَادَةِ البَيَانِ فِيهَا، أَوْ لِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأَغْرَاضِ العِلْمِيَّةِ، وَبِالجُمْلَةِ فَهُوَ كِتَابٌ مُفِيدٌ.

وَتَأْتِي أَهَمِّيَّتُهُ مِنْ قِدَمِهِ فَهُوَ مِنْ كُتُبِ السَّلَفِ الأَقْدَمِينَ الَّذِينَ عَاصَرُوا الأَئِمَّةَ الكِبَارَ، وَأَخَذُوا عَنْهُمْ، وَرَوَوْا عَقِيدَتَهُمُ الصَّافِيَةَ، فَرَحِمَهُ اللهُ مِنْ إِمَامٍ جَلِيلٍ.

وَمَعْنَى **«شَرْح»**: أَيِ: بَيَانٍ، لَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَشْرَحُ كِتَاباً مُعَيَّناً، أَوْ يُفَسِّرُ كِتَاباً مُعَيَّناً، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ أَنَّهُ يُوَضِّحُ طَرِيقَةَ السُّنَّةِ، هَذَا مَعْنَى **(شَرْحُ السُّنَّةِ)**.

كَانَ الأَوَائِلُ يُسَمُّونَ كُتُبَ العَقِيدَةِ بِـ**«السُّنَّةِ»** مِثْلِ هَذَا الكِتَابِ، وَمِثْلِ «السُّنَّةِ» لِلإِمَامِ أَحْمَدَ، وَ«السُّنَّةِ» لابْنِهِ عَبْدِاللهِ، وَ«السُّنَّةِ» لِلأَثْرَمِ، وَ«شَرْحِ أُصُولِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ» لِلالَكَائِيِّ.

وَكَذَلِكَ يُسَمُّونَهَا **«الإِيمَانَ»**، فَيُوضَعُ فِي بَعْضِ الكُتُبِ كِتَابٌ يُسَمَّى «كِتَابَ الإِيمَانِ»، كَمَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ، يَعْقِدُونَ

كِتَابًا وَيُسَمُّونَهُ كِتَابَ الإِيْمَانِ، وَيُورِدُونَ فِيهِ مَا يَخْتَصُّ بِالعَقِيدَةِ، مِن الإِيْمَانِ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، فَيُسَمُّونَهَا «الإِيْمَانَ».

وَقَدْ يُسَمُّونَهَا **«الشَّرِيعَةَ»**، كَكِتَابِ «الشَّرِيعَةِ» لِلإِمَامِ الآجُرِّيِّ الشَّافِعِيِّ.

وَقَدْ يسمونها **«التَّوحِيدَ»**، مِثْلَ «كِتَابِ التَّوْحِيدِ» لابنِ خُزَيْمَةَ، وَكُتُبُ التَّوحِيدِ المَعْرُوفَةُ، وَتُسَمَّى **«العَقِيدَةَ»** وَهُوَ مَا يَعْتَقِدُهُ القَلْبُ، وَيَدِينُ بِهِ وَيَجْزِمُ بِهِ.

وَهَذِهِ الأَسْمَاءُ كُلُّهَا لا اخْتِلافَ بَيْنَهَا، فَهِيَ أَسْمَاءٌ مُتَعَدِّدَةٌ لِشَيْءٍ وَاحِدٍ، فَهَذِهِ مِنَ المُتَرَادِفَاتِ، وَلا مُشَاحَّةَ فِي الأَسْمَاءِ، إِذَا عُلِمَ المُرَادُ، فَلَيْسَ هَذَا مِنَ الاخْتِلافِ، وَإِنَّمَا هَذَا مِنَ الاصْطِلاحِ، وَكُلُّ اصْطِلاحٍ لَهُ وَجْهٌ، فَلا اخْتِلافَ بَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ، وَإِنِ اخْتَلَفَتِ الأَلْفَاظُ وَالمَعْنَى وَاحِدٌ.

أَمَّا مَنْ يُنْكِرُ هَذَا وَيَقُولُ: «العَقِيدَةُ وَالتَّوحِيدُ» اصْطِلاحٌ لَيْسَ عَلَيْهِ دَلِيلٌ، وَلَيْسَ هُوَ مَوجُوداً فِي القُرْآنِ، وَلا فِي السُّنَّةِ»، فَهَذَا تَشْكِيكٌ، يُرِيدُونَ بِهِ أَنْ يَجْتَثُّوا هَذِهِ العَقِيدَةَ، فَجَاؤُوا بِهَذَا الكَلامِ، مِنْ أَجْلِ أَنْ لا يُمَيَّزَ بَيْنَ الفِرَقِ الضَّالَّةِ وَالفِرْقَةِ المُسْتَقِيمَةِ، هَذَا هُوَ الَّذِي غَاظَهُمْ.

وَمِنْ أَجْلِ أَنْ لا يُرَدَّ عَلَى أَهْلِ البَاطِلِ هَذَا قَصْدُ المُتَعَلِّمِينَ مِنْهُمْ، أَمَّا الهَمَجُ وَالرَّعَاعُ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ مِنْ مَزَابِلِ الأَفْكَارِ فَهُمْ يُرَدِّدُونَ هَذِهِ الأَقْوَالِ كَمَا فِي بَعْضِ الصُّحُفِ، وَبَعْضِ مَا يُسَمُّونَهَا مُؤَلَّفَاتٍ!

فَلا يَجُوزُ الالْتِفَاتُ إِلَى هَذِهِ التَّشْكِيكَاتِ وَهَذِهِ الأُمُورِ.

وَهَذَا شَيْءٌ دَرَجَتْ عَلَيْهِ الأُمَّةُ، وَاهْتَمُّوا بِهِ، تَمْيِيزاً بَيْنَ الْحَقِّ وَالبَاطِلِ، وَبَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلالِ، ولَكِنْ أُولَئِكَ لَهُمْ قَصْدٌ فِي هَذَا، هُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَدْمِجُوا النَّاسَ، وَلا يَكُونَ هُنَاكَ فَارِقٌ بَيْنَ مُلْحِدٍ وَزِنْدِيقٍ، وَمُسْتَقِيمٍ وَمُبْتَدِعٍ، وَإِنَّمَا يَبْقَوْنَ تَحْتَ مَظَلَّةِ اسْمِ الإِسْلامِ؛ لأَجْلِ تَوَحُّدِ الْمُسْلِمِينَ بِزَعْمِهِمْ!

فَنَقُولُ لَهُم: الْمُسْلِمُونَ لا يَتَوَحَّدُونَ إِلاَّ عَلَى عَقِيدَةٍ صَحِيحَةٍ، العَقِيدَةِ الَّتِي جَمَعَتِ الصَّحَابَةَ وَكَانُوا مُتَفَرِّقِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ **وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ** ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، مَا الَّذِي جَمَعَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ مِنَ الفُرْقَةِ وَالتَّنَاحُرِ إِلاَّ هَذِهِ العَقِيدَةُ الَّتِي هِيَ مَعْنَى **«لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ»**؟!

فَلا يَجْمَعُ النَّاسَ إِلاَّ العَقِيدَةُ الصَّحِيحَةُ، وَأَمَّا أَنْ يَكُونُوا مُخْتَلِفِينَ فِي اعْتِقَادِهِمْ فَلَنْ يَجْتَمِعُوا أَبَداً.

أَمَّا الاخْتِلافُ فِي الْمَسَائِلِ الفِقْهِيَّةِ الاجْتِهَادِيَّةِ الَّتِي يَحْتَمِلُهَا الدَّلِيلُ فَهَذَا لا يُؤَثِّرُ، وَلا يُحْدِثُ فُرْقَةً وَلا عَدَاوَةً، لأَنَّ هَذَا اجْتِهَادٌ سَائِغٌ، لَكِنَّ الاخْتِلافَ فِي العَقِيدَةِ غَيْرُ سَائِغٍ، وَلا يَجْتَمِعُ عَلَيْهِ الْمُخْتَلِفُونَ أَبَداً، لا يَجْتَمِعُ الْمُخْتَلِفُونَ فِي العَقِيدَةِ مَهْمَا حَاوَلَ مَنْ حَاوَلَ، لأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ الْمُتَضَادَّاتِ، وَلا يُمْكِنُ الجَمْعُ بَيْنَ الْمُتَضَادَّاتِ وَالْمُتَنَاقِضَاتِ.

فَإِذَا كَانُوا يُرِيدُونَ وَحْدَةَ الْمُسْلِمِينَ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يُصَحِّحُوا العَقِيدَةَ أَوَّلاً، العَقِيدَةَ الَّتِي كَانَ الرُّسُلُ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ يَهْتَمُّونَ بِهَا، وَيَبْدَؤُونَ بِهَا. عَلَيْهِمْ أَنْ يُوَحِّدُوهَا أَوَّلاً، فَإِذَا وَحَّدُوا العَقِيدَةَ اتَّحَدَتِ الأُمَّةُ، هَذَا إِنْ كَانُوا جَادِّينَ وَصَادِقِينَ فِي دَعْوَتِهِمْ، لَكِنْ هُمْ يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِي العَقِيدَةِ، وَيَدْعُو إِلَى العَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ، وَيَقُولُونَ: هَذَا يُكَفِّرُ النَّاسَ، وَيُرِيدُ أَنْ يُفَرِّقَ الْمُسْلِمِينَ، وَيُرِيدُ كَذَا وَكَذَا إِلَى آخِرِ مَا يَقُولُونَ.

فَنَقُولُ لَهُمْ: لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَجْمَعُوا الْمُسْلِمِينَ عَلَى غَيْرِ العَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ، إِذْ لَوْ تَوَحَّدَتِ العَقِيدَةُ لاجْتَمَعُوا بِسُهُولَةٍ، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣]، ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣] فَلَنْ يَجْمَعَ النَّاسَ إِلاَّ العَقِيدَةُ الصَّحِيحَةُ، الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الرُّسُلُ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى خَاتَمِهِمْ مُحَمَّدٍ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾

[المؤمنون: ٥٢]، وفي الآيةِ الأُخرى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

لا يَتَوحَّدُونَ إلاَّ عَلَى عِبادةِ رَبٍّ واحِدٍ، وَهُوَ اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالَى، لأنَّهُ هُوَ الرَّبُّ الحَقُّ، وَغَيْرُهُ باطِلٌ، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الحج: ٦٢].

فَهَذا هُوَ مَجالُ تَوحِيدِ المُسْلِمِينَ إنْ كانُوا صادِقِينَ، فَلْيُصَحِّحُوا العَقِيدةَ، وَيَنْفُوا عَنْها الزَّيغَ والدَّخِيلَ، لِتَكُونَ كَما جاءَ بِها مُحَمَّدٌ ﷺ، لأَجْلِ أَنَّ المُسْلِمِينَ يَتَّحِدُونَ عَلَيْها.

وَهَذا هُوَ الذي أَرادَهُ السَّلَفُ كالبَرْبَهارِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ تَأْليفِ هَذِهِ الرَّسائِلِ، وَهَذِهِ الكُتُبِ في بَيانِ العَقِيدةِ الصَّحِيحةِ.

لَمَّا حَدَثَتِ الفِتَنُ والافْتِراقاتُ والضَّلالاتُ كَتَبُوا هَذِهِ العَقائِدَ يَشْرَحُونَ بِها السُّنَّةَ التي كانَ عَلَيْها رَسُولُ اللهِ ﷺ وأَصْحابُهُ والقُرُونُ المُفَضَّلَةُ، التي مَنْ لَزِمَها نَجا، وَمَنْ حادَ عَنْها هَلَكَ، التي قالَ فِيها رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تَرَكْتُكُمْ عَلَى البَيْضاءِ، لَيْلُها كَنَهارِها»[1]، وَيَقُولُ اللهُ جَلَّ وَعَلا:

(١) رَواهُ الإمامُ أَحْمَدُ في المُسْنَدِ(١٢٦/٤)، وابنُ ماجَةَ في سننه(١٦/١رقم٤٣)، وابن أبي عاصم في السُّنَّة(رقم٤٩)، وأبو نعيم في المستخرج على صحيح مسلم(٣٦/١- ٣٧)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين(١٧٥/١) وغيرُهم من حديث العرباض بن سارية ﷺ. قال أبو نعيم: «وهذا حديث جيد من صحيح حديث الشاميين»، وقال الحاكم: «وقد صح هذا الحديث»، وقال المنذري في الترغيب والترهيب(٤٧/١) «إسناده حسن».

﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] هَذَا هُوَ مَناطُ اجْتِمَاعِ الكَلِمَةِ وتوحيدِ الكَلِمَةِ. أَمَّا أَنْ يُقَالَ: "نَجْتَمِعُ عَلَى مَا اتَّفَقْنَا عَلَيْهِ، ويَعْذُرُ بَعْضُنَا بَعْضاً فِيمَا اخْتَلَفْنَا فِيهِ" فَهَذَا مِنَ المُحَالِ إِذَا كَانَ الاخْتِلافُ فِي العَقِيدَةِ، أَمَّا لَوْ كَانَ الاخْتِلافُ فِي الفِقْهِ وَالمَسَائِلِ الفِقْهِيَّةِ المُحْتَمَلَةِ فَهَذَا رُبَّمَا يَسُوغُ، مَعَ أَنَّ الوَاجِبَ اتِّبَاعُ الدَّلِيلِ، حَتَّى فِي مَسَائِلِ الفِقْهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

لَكِنَّ الاخْتِلافَ الفِقْهِيَّ الَّذِي لَهُ احْتِمَالٌ وَوَجْهٌ؛ لا يُحْدِثُ التَّفَرُّقَ بَيْنَ المُسْلِمِينَ، وَلِذَلِكَ أَهْلُ السُّنَّةِ فِيهِمُ الحَنَفِيُّ وَفِيهِمُ المَالِكِيُّ، وَفِيهِمُ الشَّافِعِيُّ، وَفِيهِمُ الحَنْبَلِيُّ، وَلَمْ يَخْتَلِفُوا وَللهِ الحَمْدُ، وَلَمْ يَتَفَرَّقُوا، لأَنَّ هَذِهِ اجْتِهَادَاتٌ فِقْهِيَّةٌ لَهَا وُجُوهٌ، وَلَهَا احْتِمَالاتٌ مِنَ الأَدِلَّةِ. أَمَّا العَقِيدَةُ فَعَقِيدَتُهُمْ وَاحِدَةٌ، الحَنَابِلَةُ وَالشَّافِعِيَّةُ وَالمَالِكِيَّةُ وَالحَنَفِيَّةُ عَقِيدَتُهُمْ وَاحِدَةٌ. وَإِنْ كَانَ فِي أَتْبَاعِهِمْ مَنْ خَالَفَهُمْ فِي العَقِيدَةِ؛ هَذَا يُوجَدُ فِي الحَنَابِلَةِ، وَيُوجَدُ فِي الحَنَفِيَّةِ، وَيُوجَدُ فِي الشَّافِعِيَّةِ، وَيُوجَدُ فِي المَالِكِيَّةِ يُوجَدُ فِيهِمْ مَنْ خَالَفَ الأَئِمَّةَ فِي عَقِيدَتِهِمْ، إِنَّمَا يَنْتَسِبُ إِلَيْهِمْ فِي الفِقْهِ فَقَطْ، وَأَمَّا فِي العَقِيدَةِ فَهُوَ مُخَالِفٌ لَهُمْ، فَهَؤُلاءِ لا يُعْتَبَرُونَ أَتْبَاعاً لِلأَئِمَّةِ، لأَنَّهُمُ اتَّبَعُوهُمْ فِي شَيْءٍ وَخَالَفُوهُمْ فِي شَيْءٍ أَهَمَّ مِنْهُ، فَلا يُعْتَبَرُونَ مِنْ أَتْبَاعِ الأَئِمَّةِ وَهُمْ يُخَالِفُونَهُمْ فِي العَقِيدَةِ.

هَذَا هُوَ الَّذِي حدَا بِالعُلَمَاءِ كَالبَرْبَهَارِيِّ وَغَيْرِهِ إِلَى رَسْمِ الطَّرِيقَةِ الصَّحِيحَةِ المَأْخُوذَةِ مِنْ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ وَهَدْيِ السَّلَفِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَسِيرَ عَلَيْهَا المُسْلِمُونَ، وَهَذَا مِنَ النَّصِيحَةِ للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِكِتَابِهِ وَلأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ.

أَمَّا لَوْ كَانَ الأَمْرُ خَفِيًّا وَلَمْ يُبَيَّنْ وَلَمْ تُؤَلَّفْ هَذِهِ المُؤَلَّفَاتُ لَضَلَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَهَذِهِ المُؤَلَّفَاتُ - وَللهِ الحَمْدُ- نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَحُجَّةٌ مِنَ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

❀ ❀ ❀

قَالَ البَرْبَهَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِلإِسْلامِ، وَمَنَّ عَلَيْنَا بِهِ، وَأَخْرَجَنَا فِي خَيْرِ أُمَّةٍ، فَنَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ لِمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَالحِفْظَ مِمَّا يَكْرَهُ وَيَسْخَطُ.

الشَّرْحُ:

هَذِهِ خُطْبَةُ الكِتَابِ، فَبَدَأَ بِـ«الحَمْدُ للهِ»، عَمَلاً بِالسُّنَّةِ، كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَحْمَدُ اللهَ وَيُثْنِي عَلَيْهِ فِي كِتَابَاتِهِ وَمُخَاطَبَاتِهِ، وَهَكَذَا كَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ وَأَهْلُ العِلْمِ، يَبْدَؤُونَ كُتُبَهُمْ بِـ«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، اقْتِدَاءً بِالكِتَابِ العَزِيزِ، وَبِـ«الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ» اقْتِدَاءً بِفِعْلِ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِنَّهُ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْطُبَ أَوْ يَتَكَلَّمَ أَوْ يُنَبِّهَ عَلَى شَيْءٍ؛ يَحْمَدُ اللهَ وَيُثْنِي عَلَيْهِ[1]، ثُمَّ يُبَيِّنُ مَا يُرِيدُ بَيَانَهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، فَالمُؤَلِّفُ نَهَجَ هَذَا المَنْهَجَ مُقْتَدِيًا بِمَنْ سَلَفَ وَهُوَ البَدَاءَةُ بِـ«الحَمْدُ للهِ».

وَمَعْنَى (الحَمْدُ للهِ) أَيْ: جَمِيعُ المَحَامِدِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَ«الحَمْدُ»: هُوَ المَدْحُ وَالثَّنَاءُ عَلَى المَمْدُوحِ. فَاللهُ جَلَّ وَعَلا يُحْمَدُ لِذَاتِهِ وَيُحْمَدُ لأَسْمَائِهِ

---

(١) كَمَا فِي قِصَّةِ إِسْلامِ ضِمَادٍ الأَزْدِيِّ رضي الله عنه، وَفِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ اسْتَفْتَحَ كَلامَهُ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ الحَمْدَ للهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَمَّا بَعْدُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(٢/٥٩٣رقم٨٦٨) عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

وَصِفَاتِهِ، وَيُحْمَدُ سُبْحَانَهُ عَلَى أَفْعَالِهِ، فَلَهُ جَمِيعُ أَنْوَاعِ الحَمْدِ، لأنَّ جَمِيعَ النِّعَمِ مِنْهُ سُبْحَانَهُ، وَأَمَّا غَيْرُهُ فَيُحْمَدُ عَلَى قَدْرِ مَا يُسْدِي مِنَ الجَمِيلِ، وَلَكِنْ الحَمْدُ المُطْلَقُ الكَامِلُ الشَّامِلُ هُوَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَلا يَجُوزُ لَكَ أَنْ تَقُولَ: «الحَمْدُ لِفُلانٍ» بِمَعْنَى الاسْتِغْرَاقِ، هَذَا لا يَجُوزُ إِلاَّ للهِ، كَمَا فِي القُرْآنِ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة: ٢- ٣] ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١]، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [فاطر: ١].

أَمَّا أَنْ تَقُولَ: «أَشْكُرُ فُلاناً»، أَوْ «أَحْمَدُ فُلاناً عَلَى كَذَا وَكَذَا»، بِمَعْنَى تَخْصِيصِ الشَّيْءِ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ حَمِدْتَهُ أَوْ شَكَرْتَهُ عَلَيْهِ فَلا بَأْسَ، أَمَّا أَنْ تَقُولَ: «الحَمْدُ لِفُلانٍ» فَهَذَا لا يَجُوزُ إِلاَّ فِي حَقِّ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

و(**الله**) اسْمٌ مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى، وَمَعْنَاهُ: المَأْلُوهُ المَعْبُودُ، لأَنَّ الأُلُوهِيَّةَ مَعْنَاهَا العُبُودِيَّةُ.

وَهُوَ اسْمٌ لا يُطْلَقُ إِلاَّ عَلَى اللهِ، وَلَمْ يَتَسَمَّ بِهِ أَحَدٌ غَيْرَ اللهِ أَبَداً، حَتَّى الجَبَابِرَةَ وَالكَفَرَةَ وَالمَلاحِدَةَ مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ سَمَّى نَفْسَهُ «الله»، فِرْعَوْنُ مَا قَالَ: «أَنَا اللهُ»، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤]، فَهَذَا اسْمٌ خَاصٌّ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

و(**رَبِّ العَالَمِينَ**) الرَّبُّ مَعْنَاهُ: المَالِكُ المُتَصَرِّفُ، وَ«العَالَمِينَ»: جَمْعُ عَالَمٍ، وَهُوَ جَمِيعُ المَخْلُوقَاتِ، واللهُ هُوَ رَبُّهَا وَخَالِقُهَا وَمُدَبِّرُهَا وَمَعْبُودُهَا وَإِلَهُهَا.

قَوْلُهُ: (الحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِلإِسْلَامِ) الإِسْلَامُ أَكْبَرُ نِعْمَةٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] فَبِالإِسْلَامِ تَمَّتِ النِّعْمَةُ عَلَى المُسْلِمِينَ، واللهُ جَلَّ وَعَلَا يَقُولُ: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ [يونس: ٥٨] فَضْلُ اللهِ: هُوَ الإِسْلَامُ، وَالرَّحْمَةُ هِيَ القُرْآنُ، فَلْيَفْرَحُوا بِالإِسْلَامِ وَبِالقُرْآنِ.

وَهَذَا فِيهِ الاعْتِرَافُ مِنْكَ بِأَنَّ الفَضْلَ للهِ فِي هِدَايَتِكَ لِلإِسْلَامِ، بِإِرْشَادِكَ إِلَيْهِ، وَتَثْبِيتِكَ عَلَيْهِ، هَذَا فَضْلٌ مِنَ اللهِ، لا بِحَوْلِكَ، وَلا بِقُوَّتِكَ، وَإِنَّمَا هُوَ تَوْفِيقٌ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَهُوَ الَّذِي هَدَاكَ، وَلِذَلِكَ يَقُولُ أَهْلُ الجَنَّةِ إِذَا دَخَلُوا الجَنَّةَ يَوْمَ القِيَامَةِ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣]

قَوْلُهُ: (وَمَنَّ عَلَيْنَا بِهِ) الإِسْلَامُ مِنَّةٌ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَإِلَّا فَاللهُ لا يَجِبُ عَلَيْهِ شَيْءٌ لأَحَدٍ، وَإِنَّمَا هُوَ يَتَفَضَّلُ عَلَى عِبَادِهِ بِالإِسْلَامِ، وَبِالنِّعَمِ، وَبِالعَافِيَةِ، وَبِالأَرْزَاقِ.

قَوْلُهُ: (وَأَخْرَجَنَا فِي خَيْرِ أُمَّةٍ) أَخْذاً مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] فَقَوْلُهُ: ﴿ كُنتُمْ ﴾ هَذَا خِطَابٌ لِلْمُسْلِمِينَ، ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ أَيْ خَيْرَ الأُمَمِ، وَ**(الأُمَّةُ)** المُرَادُ بِهَا الجَمَاعَةُ. ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ تَأَمَّلْ قَوْلَهُ: ﴿ لِلنَّاسِ ﴾، فَخَيْرُ هَذِهِ الأُمَّةِ لا

يَقْتَصِرُ عَلَيْهَا، وَإِنَّمَا يَتَعَدَّى لِلنَّاسِ فِي الدَّعْوَةِ وَالْجِهَادِ وَالتَّعْلِيمِ وَالإِرْشَادِ، لا يَكْفِي أَنْ يَتَعَلَّمَ الإِنْسَانُ وَيَعْمَلَ فِي نَفْسِهِ وَيَتْرُكَ الآخَرِينَ، بَلْ لابُدَّ أَنْ يَنْشُرَ الدَّعْوَةَ، وَيَنْشُرَ العِلْمَ، وَيَنْشُرَ الخَيْرَ، وَيَدْعُو إِلَى اللهِ، وَيَأْمُرَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ، فَيَكُونَ عُضْواً عَامِلاً فِي مُجْتَمَعِ المُسْلِمِينَ، فَقَوْلُهُ: ﴿ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ مَعْنَاهُ: مَا أُخْرِجُوا لأَنْفُسِهِمْ فَقَطْ، وَإِنَّمَا أَخْرَجَهُمُ اللهُ لِلنَّاسِ.

قَوْلُهُ: **(فَنَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ لِمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى)** الإِنْسَانُ يَسْأَلُ اللهَ الثَّبَاتَ، وَلَوْ كَانَ يَعْرِفُ الحَقَّ، وَيَعْمَلُ بِهِ، وَيَعْتَقِدُهُ، فَلا يَأْمَنُ أَنْ يَزِيغَ وَأَنْ يُفْتَنَ، بِأَنْ تَأْتِيَ فِتَنٌ وَتَجْتَاحَهُ، وَيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: **«يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»**[1]، وَقَالَ الخَلِيلُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ فِي دُعَائِهِ: ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦] خَافَ عَلَى نَفْسِهِ، وَهَكَذَا كُلَّمَا قَوِيَ إِيمَانُ الإِنْسَانِ بِاللهِ فَإِنَّهُ يَخَافُ وَلا يَأْمَنُ الفِتَنَ، وَلا يُزَكِّي نَفْسَهُ، بَلْ يَسْأَلُ اللهَ الثَّبَاتَ، وَحُسْنَ الخَاتِمَةِ دَائِماً وَأَبَداً، وَيَخَافُ مِنْ سُوءِ الخَاتِمَةِ، وَيَخَافُ مِنَ الفِتَنِ، وَيَخَافُ مِنَ الزَّيْغِ وَالضَّلالِ، وَمِنْ دُعَاةِ السُّوءِ.

---

(١) رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي المُسْنَدِ(١٨٢/٤)، وابنُ مَاجَة في سننه(رقم١٩٩)، والنَّسَائِيُّ في السُّنن الكُبرى(رقم٧٧٣٨) وابنُ حِبَّان في صَحيحِهِ(رقم٩٣٤)، وَالحَاكِمُ في المُسْتَدْرَكِ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ(٥٢٥/١) وَصَحَّحَهُ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ. وَقَالَ البُوصِيرِيُّ في مِصْبَاحِ الزُّجَاجَةِ(٢٧/١): «إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ».

قَوْلُهُ: **(وَالحِفْظَ مِمَّا يَكْرَهُ وَيَسْخَطُ)** فَيُوَفِّقُنَا لِمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى مِنَ الأَعْمَالِ وَالأَقْوَالِ وَالاعْتِقَادَاتِ، وَيُجَنِّبُنَا مَا يُسْخِطُهُ مِنَ الأَقْوَالِ وَالأَعْمَالِ وَالاعْتِقَادَاتِ، فَهُوَ الهَادِي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهُوَ المُوَفِّقُ، وَهُوَ الدَّالُّ وَالمُرْشِدُ.

[١] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: اعْلَمُوا أَنَّ الإِسْلَامَ هُوَ السُّنَّةُ، وَالسُّنَّةَ هِيَ الإِسْلَامُ، وَلَا يَقُومُ أَحَدُهُمَا إِلَّا بِالآخَرِ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: **(اعْلَمْ)** هَذِهِ كَلِمَةٌ لِلاهْتِمَامِ، وَمَعْنَى «اعْلَمْ»: أَيْ تَعَلَّمْ، وَكَيْفَ تَعْلَمُ أَنَّ الإِسْلَامَ هُوَ السُّنَّةُ؟ إِذَا تَعَلَّمْتَ عَلِمْتَ ذَلِكَ.

فَـ«اعْلَمْ» كَلِمَةٌ يُؤْتَى بِهَا لِلاهْتِمَامِ لِمَا بَعْدَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ [محمد: ١٩] يَعْنِي اعْلَمْ مَعْنَى «لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وَاعْمَلْ بِهِ، ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٨]، فَتَأْتِي كَلِمَةُ «اعْلَمْ» أَوِ «اعْلَمُوا» لِلاهْتِمَامِ لِمَا بَعْدَهَا.

قَوْلُهُ: **(الإِسْلَامُ هُوَ السُّنَّةُ، وَالسُّنَّةُ هِيَ الإِسْلَامُ)**، يَعْنِي: الإِسْلَامُ هُوَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي جَاءَ بِهَا الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَكُلُّ الرُّسُلِ جَاؤُوا بِالإِسْلَامِ، فَكُلُّ نَبِيٍّ دَعَا إِلَى اللهِ، وَجَاءَ بِشَرِيعَةٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَذَلِكَ هُوَ الإِسْلَامُ، فَالإِسْلَامُ عِبَادَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِمَا شَرَعَهُ، وَقَدْ شَرَعَ اللهُ لِلأَنْبِيَاءِ شَرَائِعَ إِلَى آجَالٍ، ثُمَّ يَنْسَخُهَا، فَإِذَا نُسِخَتْ كَانَ الْعَمَلُ بِالنَّاسِخِ هُوَ الإِسْلَامُ، إِلَى أَنْ نُسِخَتْ تِلْكَ الشَّرَائِعُ بِشَرِيعَةِ

مُحَمَّدٍ ﷺ، يَقُولُ اللهُ جَلَّ وَعَلا: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[الرعد: ٣٨-٣٩]، فَالإِسْلامُ هُوَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، مِنَ الدَّعْوَةِ وَالعَمَلِ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِحَسَبِهِ، إِلَى أَنْ جَاءَتْ بِعْثَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَصَارَ الإِسْلامُ هُوَ مَا جَاءَ بِهِ دُونَ غَيْرِهِ، فَمَنْ بَقِيَ عَلَى الأَدْيَانِ السَّابِقَةِ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ، حَيْثُ لَمْ يَنْقَدْ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَمْ يُطِعْ هَذَا الرَّسُولَ ﷺ، لأَنَّ مَا كَانَ عَلَيْهِ قَدِ انْتَهَى وَنُسِخَ، وَالبَقَاءُ عَلَى المَنْسُوخِ لَيْسَ دِيناً للهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِنَّمَا العَمَلُ بِالنَّاسِخِ هُوَ الدِّينُ.

قَوْلُهُ: **(وَالسُّنَّةُ هِيَ الإِسْلامُ)** لا فَرْقَ بَيْنَهُمَا، إِذَا فَسَّرْنَا السُّنَّةَ بِالطَّرِيقَةِ فَلا فَرْقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الإِسْلامِ.

قَوْلُهُ: **(وَلا يَقُومُ أَحَدُهُمَا إِلاَّ بِالآخَرِ)** لا يَقُومُ الإِسْلامُ إِلاَّ بِالسُّنَّةِ، وَلا تَقُومُ السُّنَّةُ إِلاَّ بِالإِسْلامِ، فَالَّذِي يَدَّعِي الإِسْلامَ وَلا يَعْمَلُ بِالسُّنَّةِ -أَيْ: طَرِيقَةِ الرَّسُولِ ﷺ- ؛ لَيْسَ بِمُسْلِمٍ، وَالَّذِي يَعْلَمُ السُّنَّةَ وَلا يُسْلِمُ للهِ؛ لَيْسَ بِمُسْلِمٍ وَإِنْ عَرَفَ السُّنَّةَ، فَلابُدَّ مِنَ الجَمْعِ بَيْنَهُمَا.

❀ ❀ ❀

[٢] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: فَمِنَ السُّنَّةِ لُزُومُ الجَمَاعَةِ، فَمَنْ رَغِبَ غَيْرَ الجَمَاعَةِ وَفَارَقَهَا؛ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ، وَكَانَ ضَالاً مُضِلاً.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: **(فَمِنَ السُّنَّةِ لُزُومُ الجَمَاعَةِ)** مَا دَامَ الأَمْرُ كَذَلِكَ، وَأَنَّ الإِسْلَامَ هُوَ السُّنَّةُ، وَالسُّنَّةُ هِيَ الإِسْلَامُ، فَالسُّنَّةُ أَنْوَاعٌ، **(فَمِنَ السُّنَّةِ لُزُومُ الجَمَاعَةِ)** أَيْ: لُزُومُ جَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ، وَالمُرَادُ بِالجَمَاعَةِ هُنَا: جَمَاعَةُ المُسْلِمِينَ الَّذِينَ عَلَى الحَقِّ.

أَمَّا الجَمَاعَاتُ الَّتِي لَيْسَتْ عَلَى الحَقِّ فَهَذِهِ لا تُسَمَّى الجَمَاعَةَ الحَقِيقِيَّةَ، كُلُّ جَمَاعَةٍ اجْتَمَعَتْ عَلَى ضَلَالَةٍ أَوْ عَلَى مَنْهَجٍ مُخَالِفٍ لِلإِسْلَامِ أَوْ عَلَى طَرِيقَةٍ مُخَالِفَةٍ لِلإِسْلَامِ فَلا تُسَمَّى الجَمَاعَةَ الحَقِيقِيَّةَ المَطْلُوبَةَ المَمْدُوحَةَ.

فَالجَمَاعَةُ المُرَادَةُ هُنَا: هُمْ أَهْلُ الحَقِّ، وَلَيْسَ مِنْ لازِمِ ذَلِكَ أَنْ يَكُونُوا كَثِيرِينَ، بَلْ لَوْ كَانَ وَاحِداً عَلَى الحَقِّ فَإِنَّهُ يُسَمَّى جَمَاعَةً، فَالجَمَاعَةُ: هِيَ مَنْ كَانَ عَلَى الحَقِّ، قَلَّ أَهْلُهُ أَوْ كَثُرُوا، فَتَلْزَمُ مَنْ كَانَ عَلَى الحَقِّ، وَلا تُخَالِفِ الجَمَاعَةَ الَّتِي عَلَى الحَقِّ، بَلْ تَكُونُ مَعَهُمْ عَلَى الحَقِّ، فَمَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ فَسَيَأْتِي بَيَانُهُ.

وَلُزُومُ الجَمَاعَةِ، يَعْنِي عَدَمَ الخُرُوجِ عَنْهَا وَالاخْتِلافِ عَلَيْهَا.

قوله: **(فَمَنْ رَغِبَ غَيْرَ الجَمَاعَةِ وَفَارَقَهَا؛ فَقَد خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلامِ مِنْ عُنُقِهِ)** هَذَا نَصُّ حَدِيثٍ: **«مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلامِ مِنْ عُنُقِهِ»**[1] فَهَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ، فَإِنْ كَانَتِ المُفَارَقَةُ فِي العَقِيدَةِ بِحَيْثُ يَعْبُدُ غَيْرَ اللهِ فَهَذَا كُفْرٌ، وَإِنْ كَانَتِ المُفَارَقَةُ دُونَ ذَلِكَ فَهِيَ ضَلالٌ. فَمُفَارَقَةُ الجَمَاعَةِ لا خَيْرَ فِيهَا، وَفِي الحَدِيثِ: **«عَلَيْكُمْ بِالجَمَاعَةِ فَإِنَّ يَدَ اللهِ عَلَى الجَمَاعَةِ»**[2].

وَلَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ حُذَيْفَةَ بنَ اليَمَانِ بِمَا يَحْصُلُ مِنَ الفِتَنِ وَالتَّفَرُّقِ قَالَ لَهُ حُذَيْفَةُ: مَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: **«أَنْ تَلْزَمَ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ، وَإِمَامَهُمْ»**[3]، فَالجَمَاعَةُ لا تَكُونُ إِلاَّ بِأَمْرَيْنِ:

الأَمْرُ الأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ مَنْهَجُهَا الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ. لَيْسَ مَنْهَجُهَا مَذْهَبَ فُلانٍ وَلا قَوْلَ فُلانٍ، بَلِ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ.

---

(١) رَوَاهُ رواه الإمام أحمد في المُسْنَد(٤/١٣٠)، وَالتِّرْمِذِيّ(٥/١٤٨رقم٢٨٦٣)، وابن خزيمة(٣/١٩٥رقم١٨٩٥)، وابنُ حِبَّان في صَحِيحِهِ(١٤/١٢٤رقم٦٢٣٣)، وَالحَاكِم(١/٢٠٤) وغيرهم من حَدِيْث الحَارِث الأشعري رضي الله عنه وصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيّ، وابن خزيمة وابن حبان الحاكم وغيرهم

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند(١/١٨)، والحميدي في مسنده(١/١٩)، والتِّرْمِذِيّ(٤/٤٦٥رقم ٢١٦٥)، والنَّسَائِيّ في الكُبْرَى(٥/٣٨٨رقم٩٢٢٥)، وابن حبان في صَحِيحه(١٦/ ٢٤٠رقم٧٢٥٤)، والحاكم(١/١١٤) وَغَيْرُهُمْ من حَدِيْث عمر رضي الله عنه، بِأَلْفَاظٍ متقاربة، قَالَ التِّرْمِذِيّ: «حسن صَحِيح غريب من هَذَا الوجه»، وَصَحَّحَهُ ابنُ حِبَّانَ والحَاكم ووافقه الذهبي.

(٣) رواه البخاري في صَحِيحه(٣/١٣١٩رقم٣٤١١)، ومسلم في صَحِيحه(٣/١٤٧٥ رقم١٨٤٧) من حَدِيْث حذيفة رضي الله عنه.

الأَمْرُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ لَهَا إِمَامٌ مُسْلِمٌ يَقُودُهَا، وَتَرْجِعُ إِلَيْهِ، لا يُمْكِنُ أَنْ تَجْتَمِعَ جَمَاعَةٌ بِدُونِ إِمَامٍ، لابُدَّ مِنْ إِمَامٍ يَكُونُ مَرْجِعاً لَهَا، وَلِهَذَا قَالَ لِحُذَيْفَةَ: «**تَلْزَمُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ**» قَالَ: «فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلا إِمَامٌ؟» قَالَ: «**تَعْتَزِلُ تِلْكَ الفِرَقَ**» أَمَرَهُ أَنْ يَعْتَزِلَ تِلْكَ الفِرَقَ فَلا يَكُونُ إِلاَّ مَعَ جَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ، وَلا يَكُونُ مَعَ جَمَاعَاتٍ غَيْرِ جَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ، بَلْ يَبْقَى وَحْدَهُ عَلَى الحَقِّ إِلَى أَنْ يَأْتِيَهُ المَوْتُ وَهُوَ عَلَى ذَلِكَ.

فَهَذَا فِيهِ أَنَّهُ لا يَكُونُ الإِنْسَانُ مَعَ الجَمَاعَاتِ المُخَالِفَةِ لِمَنْهَجِ الحَقِّ، ولا يَكُونُونَ جَمَاعَةً إِلاَّ بِشَرْطَيْنِ: أَنْ يَكُونَ مَنْهَجُهُمُ الكِتَابَ والسُّنَّةَ وَمَنْهَجَ السَّلَفِ الصَّالِحِ، وَأَنْ يَكُونَ لَهُمْ إِمَامٌ مُسْلِمٌ يَقُودُهُمْ وَيَرْجِعُونَ إِلَيْهِ، فَلا دِينَ إِلاَّ بِجَمَاعَةٍ، وَلا جَمَاعَةَ إِلاَّ بِإِمَامٍ، وَلا إِمَامَ إِلاَّ بِسَمْعٍ وَطَاعَةٍ، هَذَا مَنْهَجُ المُسْلِمِينَ، وَهَذَا هُوَ السُّنَّةُ الَّتِي يَشْرَحُهَا رَحِمَهُ اللهُ.

وَفِي هَذَا نَهْيٌ عَنِ الشُّذُوذِ فِي الآرَاءِ وَالمخَالَفَاتِ، وَأَنَّ الإِنْسَانَ يَلْزَمُ الجَمَاعَةَ مَا دَامُوا أَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى ضَلالٍ.

قَوْلُهُ: (خلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلامِ مِنْ عُنُقِهِ) كَانَ مِنْ عَادَةِ العَرَبِ أَنَّهُم يَضَعُونَ لِلأَغْنَامِ رِبَاطاً فِي رِقَابِهَا، حَتَّى لا تَتَفَرَّقَ وَتَضِيعَ، وَيَأْكُلَهَا الذِّئْبُ، وَهَذِهِ الأَرْبِطَةُ تَكُونُ مُتَّصِلَةً بِحَبْلٍ وَاحِدٍ يَجْمَعُهَا مِنْ أَجْلِ المُحَافَظَةِ عَلَيْهَا، فَشَبَّهَ النَّبِيُّ ﷺ لُزُومَ الجَمَاعَةِ بِهَذَا الأَمْرِ، فَإِنَّ الجَمَاعَةَ هِيَ

الرِّباطُ الواقي مِنَ المَهالِكِ، كالرِّباطِ الَّذي يَكُون في رِقابِ الأغْنامِ، يحْفَظُها مِنَ الذِّئبِ، ومِنَ الضَّياعِ.

قَوْلُهُ: **(وكَانَ ضَالاً مُضِلاً)** ضَالاً في نَفْسِهِ عَنِ الطَّرِيقِ، مُضِلاً لِغَيْرِهِ، ضَالاً في نَفْسِهِ، ومُضِلاً لِمَنِ اقْتَدَى بِهِ واتَّبَعَهُ، قَالَ تَعالَى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[النساء:١١٥]، فالواجبُ على المُسْلِمِ أنْ يتَّبِعَ سَبِيلَ المُؤْمِنِينَ، ولا يُخالِفَهُمْ، ولا يَشُذَّ عَنْهُمْ.

[٣] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: والأَسَاسُ الَّذِي تُبْنَى عَلَيْهِ الجَمَاعَةُ: هُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَرَحِمَهُمُ اللهُ أَجْمَعِينَ، وَهُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، فَمَنْ لَمْ يَأْخُذْ عَنْهُمْ؛ فَقَدْ ضَلَّ وَابْتَدَعَ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَالضَّلَالَةُ وَأَهْلُهَا فِي النَّارِ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: **(والأَسَاسُ الَّذِي تُبْنَى عَلَيْهِ الجَمَاعَةُ)** مَنْ هُمُ الجَمَاعَةُ الَّذِينَ هَذَا شَأْنُهُمْ؟ هُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ مِنَ التَّابِعِينَ، وَأَتْبَاعِ التَّابِعِينَ، وَالقُرُونِ الْمُفَضَّلَةِ، هَؤُلَاءِ هُمُ الجَمَاعَةُ، وَمَنِ اقْتَدَى بِهِمْ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ، هَؤُلَاءِ هُمُ الجَمَاعَةُ الَّذِينَ يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ مَعَهُمْ، وَلَوْ نَالَهُ مَا نَالَهُ مِنَ الأَذَى، وَمِنَ التَّهْدِيدِ، وَمِنَ التَّعْيِيرِ، وَمِنَ التَّهَجُّمِ، يَصْبِرُ عَلَى هَذَا، وَيَتَحَمَّلُ، مَا دَامَ أَنَّهُ عَلَى الحَقِّ، فَلَا يَنْحَرِفُ عَنِ الحَقِّ، بَلْ يَصْبِرُ عَلَى مَا أَصَابَهُ، وَإِلَّا فَإِنَّهُ سَيَكُونُ هَدَفًا لِلْمُغْرِضِينَ، وَدُعَاةِ السُّوءِ، وَدُعَاةِ الضَّلَالِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾[التوبة: ١٠٠]، وَقَالَ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارَ فِي سُورَةِ الحَشْرِ قَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ

بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ [الحشر: ١٠]، فالمُتأخِّرُ يَقْتدي بالمُتقدِّمِ مِنْ أهلِ الحَقِّ وأهلِ الخَيْرِ، ولَو كانَ بَيْنَهُ وبَيْنَهُمْ زَمانٌ طَويلٌ، يَلْزَمُ ما كانُوا عَلَيْهِ مَهْمَا كلَّفه ذلِكَ، فَهُوَ يَصْبِرُ.

قَوْلُهُ: **(أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ)** مِنَ المُهَاجِرِيْنَ والأنْصارِ، لأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِيْنَ صَحِبُوا الرَّسُولَ ﷺ، وَجَاهَدُوا مَعَهُ، وَنَصَرُوهُ، وتَحَمَّلُوا الدِّينَ، ونَقَلُوهُ لَنَا، فَهُمُ الوَاسِطَةُ بَيْنَنا وبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فالَّذِيْنَ يَسُبُّونَ الصَّحَابَةَ أَوْ يَتَنَقَّصُوْنَهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَهْدِمُوا الإِسْلامَ، لَكِنَّهُمْ جاؤوا بِهذِهِ الحِيْلَةِ. فإذا تَكلَّمُوا في الصَّحَابَةِ وأَسْقَطُوا قِيمَتَهُمْ مَاذا يَبْقَى حِيْنَئِذٍ مِنَ الوَاسِطَةِ بَيْنَنا وبَيْنَ الرَّسُولِ ﷺ؟ فَقَصْدُهُمْ قَطْعُ الصِّلَةِ بالسَّابِقِيْنَ الأَوَّلِيْنَ مِنَ المُهَاجِرِيْنَ وَالأَنْصَارِ، حَتَّى تَضِلَّ الأُمَّةُ، وَإِلاَّ فَمَا الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى سَبِّ الصَّحَابَةِ؟ هَلْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الصَّحَابَةِ مُشَاحَنَةٌ فِي مَالٍ أَوْ نَحْوِهِ؟ هَلِ الصَّحَابَةُ آذَوْهُمْ وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الصَّحَابَةِ قُرُونٌ مُتَطَاوِلَةٌ؟

فَالَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى هَذَا بُغْضُ القُلُوبِ، لأَنَّ الصَّحَابَةَ هُمُ الَّذِيْنَ حَمَلُوا هَذَا الدِّيْنَ، فَهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَقْطَعُوا الصِّلَةَ بَيْنَ الرَّسُولِ ﷺ وَبَيْنَ أُمَّتِهِ حَتَّى يَسْقُطَ هَذَا الدِّيْنُ، هَذَا هُوَ قَصْدُهُمْ.

قَوْلُهُ: **(وَهُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ)** أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِنْ بَعْدِهِمْ، الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ؛ هُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ، أَيِ أَهْلُ الطَّرِيقَةِ الصَّحِيحَةِ، وَهِيَ السُّنَّةُ الَّتِي يَشْرَحُهَا فِي هَذَا الكِتَابِ.

وَهُمُ الجَمَاعَةُ الحَقِيقِيَّةُ، أَمَّا اجْتِمَاعُ غَيْرِهِمْ عَلَى أُمُورٍ بَاطِلَةٍ؛ **فَهَؤُلَاءِ** لَا يُسَمَّوْنَ الجَمَاعَةَ وَإِنْ كَانُوا عَدَداً كَثِيراً، ﴿ **تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ** ﴾[الحشر: ١٤] فَالجَمَاعَةُ مَنْ كَانُوا عَلَى الحَقِّ، فَالَّذِي يَقُولُ: أَنَا مَعَ الحِزْبِ الفُلَانِي هَذَا الحِزْبُ جَمَاعَةٌ، وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ: الْزَمُوا الجَمَاعَةَ وَهَؤُلَاءِ جَمَاعَةٌ، فَنَقُولُ لَهُمْ: مَنْ قَالَ لَكُمْ إِنَّ هَؤُلَاءِ هُمُ الجَمَاعَةُ؟ الجَمَاعَةُ مَنْ كَانُوا عَلَى الحَقِّ، مَنْ كَانُوا عَلَى السُّنَّةِ، هَؤُلَاءِ هُمُ الجَمَاعَةُ.

قَوْلُهُ: **(فَمَنْ لَمْ يَأْخُذْ عَنْهُمْ فَقَدْ ضَلَّ وَابْتَدَعَ)** من لَمْ يَأْخُذْ دِينَهُ عَنِ الصَّحَابَةِ، الَّذِينَ هُمْ نَقَلَةُ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ فَلَيْسَ هُوَ عَلَى الحَقِّ، فَإِذَا طُعِنَ فِيهِم بَطَلَ نَقْلُهُمْ وَالعِيَاذُ بِاللهِ. وَقَصْدُ أَعْدَاءِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِبْطَالُ الإِسْلَامِ لَكِنْ جَاؤُوا بِهَذِهِ الحِيْلَةِ الخَبِيثَةِ، لِأَجْلِ أَنْ يَفْصِلُوا بَيْنَ المُتَأَخِّرِيْنَ وَالمُتَقَدِّمِيْنَ مِنَ المُسْلِمِينَ حَتَّى يَسْهُلَ ابْتِلَاعُ المُتَأَخِّرِيْنَ، وَيَسْهُلَ اجْتِرَارُهُمْ، أَمَّا إِذَا ارْتَبَطُوا بِالجَمَاعَةِ الأُولَى، وَبِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَلَنْ يَسْهُلَ، بَلْ يَسْتَحِيلُ اجْتِرَارُهُمْ بِإِذْنِ اللهِ.

قَوْلُهُ: **(فَقَدْ ضَلَّ)** أَيْ: ضَاعَ عَنِ الحَقِّ **(وَابْتَدَعَ)**.

البِدْعَةُ: مَا كَانَ مِنَ العِبَادَاتِ أَوِ الاعْتِقَادَاتِ أَوِ الأَقْوَالِ لَيْسَ عَلَيْهِ دَلِيلٌ مِنَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ. قَالَ ﷺ: **«مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»**[1] وفي رِوَايَةٍ: **«مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»**[2]. وَقَالَ: **«وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ»**[3].

فَالبِدْعَةُ: مَا أُحْدِثَ فِي الدِّينِ وَهُوَ لَيْسَ مِنْهُ، وكَيْفَ يُعْرَفُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْهُ؟

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ دَلِيلٌ فَهُوَ لَيْسَ مِنَ الدِّينِ، لأَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلا يَقُولُ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[المائدة: ٣] فَالدِّينُ كَامِلٌ - وَللهِ الحَمْدُ - ، لا يَقْبَلُ الزِّيَادَاتِ، فَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ أَنْ نَعْرِفَ الدِّينَ الَّذِي أَكْمَلَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَنَتَمَسَّكَ بِهِ، وَنَتْرُكَ مَا عَدَاهُ مِنَ الزِّيَادَاتِ، وَالاسْتِحْسَانَاتِ، وَالإِضَافَاتِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، لأَنَّهَا تُبْعِدُ عَنِ اللهِ جَلَّ وَعَلا، وَسَيَأْتِي تَوضِيحُ أَنَّ **«مَا أَحْدَثَ قَوْمٌ بِدْعَةً إِلاَّ نُزِعَ مِثْلُهَا مِنَ**

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(رقم١٧١٨)، وَعَلَّقَهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(٢/٧٥٣، ٦/٢٦٧٥) عن عائشةَ- رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-.

(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(رقم٢٥٥٠)، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(رقم ١٧١٨) عن عائشةَ- رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-.

(٣) جُزْءٌ مِنْ حَدِيثِ العِرْبَاضِ بن سَارِيَةَ ﷺ وَقَدْ سَبَقَ تَخْرِيجه (ص/٤٢).

السُّنَّةِ»(١)، فَهَذَا هُوَ الطَّرِيقُ الصَّحِيحُ الْمُسْتَقِيمُ؛ لُزُومُ الْجَمَاعَةِ، وَلُزُومُ السُّنَّةِ، وَتَرْكُ الْبِدَعِ.

قَوْلُهُ: **(وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ)** فَلَيْسَ هُنَاكَ بِدْعَةٌ حَسَنَةٌ كَمَا يَقُولُهُ بَعْضُهُمْ، بَلِ الْبِدَعُ كُلُّهَا ضَلالَةٌ بِنَصِّ حَدِيثِ الرَّسُولِ ﷺ حَيْثُ قَالَ: **«فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ»**(٢)، فَالْبِدَعُ فِي الدِّينِ لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ حَسَنٌ أَبَداً، بَلْ كُلُّهَا ضَلالَةٌ وَهَذَا كَلامُ الرَّسُولِ ﷺ الَّذِي لا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى.

قَوْلُهُ: **(وَالضَّلالَةُ وَأَهْلُهَا فِي النَّارِ)** الضَّلالُ وَأَهْلُ الضَّلالِ فِي النَّارِ، إِمَّا بِكُفْرِهِمْ، وَإِمَّا بِمَعْصِيَتِهِمْ. فَالْبِدَعُ لَيْسَتْ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ، مِنْهَا مَا هُوَ كُفْرٌ، صَاحِبُهُ مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ كَالاسْتِغَاثَةِ بِالأَمْوَاتِ، وَدُعَاءِ الأَمْوَاتِ، وَالذَّبْحِ لِغَيْرِ اللهِ، وَالنَّذْرِ لِغَيْرِ اللهِ، فَهَذِهِ بِدَعٌ كُفْرِيَّةٌ، وَكَذَا نَفْيُ أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ كَمَا قَالَتِ الْجَهْمِيَّةُ الَّذِينَ يَجْحَدُونَ الأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ، فَهَذَا كُفْرٌ وَالْعِيَاذُ بِاللهِ، لأَنَّهُم وَصَفُوا اللهَ بِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ أَسْمَاءٌ وَلا صِفَاتٌ، فَيَكُونُ إِذاً مَعْدُوماً، لأَنَّ الْمَوْجُودَ لابُدَّ لَهُ مِنْ صِفَاتٍ، وَالَّذِي لَيْسَ لَهُ صِفَاتٌ هُوَ الْمَعْدُومُ، وَلِذَلِكَ حَكَمَ الأَئِمَّةُ بِتَكْفِيرِ الْجَهْمِيَّةِ، الَّذِينَ قَالُوا: الْقُرْآنُ

---

(١) قَالَ حَسَّانُ بنُ عَطِيَّةَ - رَحِمَهُ اللهُ -: **«مَا ابْتَدَعَ قَوْمٌ بِدْعَةً فِي دِينِهِمْ إِلا نَزَعَ اللهُ مِن سُنَّتِهِمْ مِثْلَهَا ثُمَّ لَا يُعِيدُهَا إِلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»** رَوَاهُ الدَّارمي(١/٥٨رقم٩٨)، وَأَبُو نُعَيْم في الحلية(٦/٧٣)، واللالكائي في شرح أصول اعْتِقَاد أهل السنة والجماعة(١/٩٣).

(٢) وَرَدَ هَذَا النَّصُّ فِي عِدَّةِ أَحَادِيثَ مِنْهَا: حَدِيثُ الْعِرْبَاضِ بنِ سَارِيَةَ ﷺ وَقَدْ سَبَقَ تَخْرِيجُهُ(ص/٤٢)، وَمِنْهَا: حَدِيثُ جَابِرٍ ﷺ رَوَاهُ النَّسَائي(٣/١٨٨رقم١٥٧٨)، وابنُ خزيمة في صحيحه(رقم١٧٨٥)، وأصله في صَحِيح مُسْلم(٢/٥٩٢رقم٧٦٨).

مَخْلُوقٌ، فَجَعَلُوا القُرآنَ - الَّذِي هُوَ كَلامُ اللهِ وَوَحْيُهُ وَتَنْزِيلُه- جَعَلُوهُ مَخْلُوقاً مِثْلَ المَخْلُوقَاتِ، وَقَالُوا: اللهُ لا يَتَكَلَّمُ، فَشَبَّهُوهُ بِالجَمَادِ، والَّذِي لا يَتَكَلَّمُ لا يَكُونُ إِلَهاً. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الَّذِي لا يَتَكَلَّمُ لا يَكُونُ إِلَهاً، وَالجَهْمِيَّةُ يَقُولُونَ: اللهُ لا يَتَكَلَّمُ، إِذاً لَيْسَ هُوَ بِإِلَهٍ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ، وَفِي سُورَةِ طه: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾ يَعْنِي العِجْلَ، لَوْ كَلَّمُوهُ لا يَرْجِعُ إِلَيْهِمُ الجَوَابَ، فَهَلْ هَذَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ إِلَهاً؟!! وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ -عَلَيْهِ السَّلامُ- لِعَبَدَةِ الأَصْنَامِ: ﴿ فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾، قالوا لَهُ: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾، قَالَ لَهُم: ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٧].

اللهُ جَلَّ وَعَلا يَقُولُ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠]، وَصَفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ يَقُولُ وَيَتَكَلَّمُ، فَالَّذِي لا يَتَكَلَّمُ لَيْسَ بِإِلَهٍ، وَلِذَلِكَ كَفَّرَ كَثِيرٌ مِنَ الأَئِمَّةِ أَئِمَّةَ الجَهْمِيَّةِ، دُونَ مُقَلِّدِيهِمْ وَأَتْبَاعِهِمُ الَّذِينَ لَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُمُ الحَقُّ، وَإِنَّمَا قَلَّدُوا عَنْ جَهْلٍ، فَهَؤُلاءِ فِيهِم نَظَرٌ، لابُدَّ مِنَ البَيَانِ لَهُمْ، فَإِنْ أَصَرُّوا فَإِنَّهُ يُحْكَمُ بِكُفْرِهِمْ.

❀ ❀ ❀

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَقَالَ عُمَرُ بن الخَطَّابِ ﷺ: "لاَ عُذْرَ لأَحَدٍ في ضَلالَةٍ رَكِبَهَا حَسِبَهَا هُدًى، وَلا في هُدًى تَرَكَهُ حَسِبَهُ ضَلالَةً، فَقَدْ بُيِّنَتِ الأُمُورُ، وَثَبَتَتِ الحُجَّةُ، وَانْقَطَعَ العُذْرُ"[1].

الشَّرْحُ:

قَوْلُ عُمَرَ ﷺ **(لا عُذْرَ لأَحَدٍ..) لأَنَّ** اللهَ بَيَّنَ الحَقَّ، وَفَصَّلَهُ في القُرآنِ وَالسُّنَّةِ، فَلا عُذْرَ لأَحَدٍ حِينَئِذٍ في ضَلالَةٍ، لأَنَّ التَّقْصِيرَ جَاءَ مِنْ قِبَلِهِ، حَيْثُ لَمْ يَبْحَثْ عَنِ الحَقِّ، وَلَمْ يَسْأَلْ أَهْلَ العِلْمِ، فَالضَّلالُ جَاءَ مِنْ قِبَلِهِ، فَهُوَ الَّذِي فَرَّطَ.

قَوْلُهُ: **(حَسِبَهَا هُدًى)** فِيهِ بَيَانُ أَنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئًا، وَاللهُ جَلَّ وَعَلا يَقُولُ: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الزخرف]، فَحُسْبَانُهُمْ لا يَشْفَعُ لَهُمْ، لأَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ عُذْرٌ، حَيْثُ لَمْ يُرَاجِعُوا الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ حَتَّى يَعْرِفُوا الحَقَّ مِنَ البَاطِلِ، وَإِنَّمَا رَكِبُوا أَهْوَاءَهُمْ، ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾، وَمَعَ هَذَا حَكَمَ اللهُ بِكُفْرِهِمْ وَضَلالِهِمْ، فَبِمُجَرَّدِ أَنَّ الإِنْسَانَ يَحْسَبُ أَنَّهُ عَلَى حَقٍّ لا يَصِيرُ هَذَا عُذْرًا

---

(١) رواه أبو يوسف في كتاب الخراج(رقم٣٢)، وابن شبّة في تاريخ المدينة(١٢/٢)، وابن بطة في الإبانة(رقم١٦٢)، والخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه(٣٨٣/١)، وابن حزم في الإحكام(٢١٥/٦)، وابن الجوزيّ في المنتظم(٢٢٥/٤) من طرق عن عمر ﷺ به. ورواه أبو نعيم في الحلية(٣٤٦/٥) عن عمر بن عبدالعزيز رَحِمَهُ اللهُ.

لهُ، إلا إذا لمْ يبلُغهُ شيءٌ من الوحْيِ الإلهيِّ المُنزَّلِ على الرُّسُلِ، لأنَّ الواجبَ عليهِ أنْ يرْجِعَ إلى الكتابِ والسُّنَّةِ، ولا يبْقى على ظنِّه وحُسْبانِه، وعلى ما يقولُهُ لهُ غيْرُهُ أنَّهُ حقٌّ، فهذا ليسَ بعُذْرٍ.

وفي الآيةِ الأُخرى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٠﴾[الأعراف]. انظُرْ كيفَ اتَّخذُوا شياطينَ الإنْسِ والجِنِّ أوْلياءَ منْ دُونِ الله، ويتَّبعُونَهُمْ ويحْسبُونَ أنَّهم مُهتدُونَ؟! فهلِ الشَّياطينُ تُريدُ لهُمُ الخيْرَ؟! قالَ تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦﴾[الزخرف]. انظُرْ قولَهُ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ هذا عُقوبةٌ لهُ، ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ﴾ أيِ الشَّياطينَ ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٧﴾ يحْسبُ الأتْباعُ أنَّهُمْ مُهتدُونَ، فلمْ ينْفعْهُمْ ذلكَ، ولا عُذْرَ لهُمْ فيهِ، لأنَّهم بلَغتْهُ دعْوةُ الرُّسُلِ فلمْ يقْبلُوها.

وإنَّما العُذْرُ يكونُ في المسائلِ الاجْتهاديَّةِ التي يسُوغُ فيها الاجْتهادُ. فيجْتهِدُ الإنْسانُ، ويبْذُلُ وُسْعَهُ وطاقتَهُ في البحْثِ حتَّى يظُنَّ أنَّ هذا هُوَ الحقُّ، فهذا معْذُورٌ لقوْلِهِ ﷺ: **«إذا اجْتهدَ الحاكِمُ فأصابَ فلهُ أجْرانِ، وإنِ اجْتهدَ فأخْطأَ فلهُ أجْرٌ واحِدٌ»**[1].

(١) رواهُ البُخاريُّ في صحيحِه(رقم٧٣٥٢)، ومُسْلمٌ في صحيحِه(رقم١٧١٦) منْ حديثِ عمْرِو بنِ العاصِ، وأبي هُريْرةَ -رضي الله عنهما-.

هَذَا فِي المَسَائِلِ الاجْتِهَادِيَّةِ، أَمَّا المَسَائِلُ التَّوْقِيفِيَّةُ وَهِيَ أُمُورُ العَقِيدَةِ فَلَيْسَ لأَحَدٍ أَنْ يَجْتَهِدَ فِيهَا، بَلِ الوَاجِبُ اتِّبَاعُ الدَّلِيلِ، وَلا مَجَالَ فِيهَا لِلاجْتِهَادِ.

قَوْلُهُ: **(وَلا فِي هُدًى تَرَكَهُ حَسِبَهُ ضَلالَةً)** لَيْسَ الأَمْرُ عَلَى الحُسْبَانِ وَالظَّنِّ، فَيَأْخُذُ ضَلالَةً يَحْسَبُهَا هُدًى، أَوْ يَتْرُكُ حَقًّا يَظُنُّهُ ضَلالَةً، ظَنُّهُ لا يَشْفَعُ لَهُ، لأَنَّ الهُدَى وَالضَّلالَ قَدْ بَيَّنَهُمَا اللهُ فِي القُرْآنِ، وَبَيَّنَهُمَا الرَّسُولُ ﷺ فِي السُّنَّةِ، وَبَيَّنَهُمَا السَّلَفُ فِي سِيرَتِهِمْ وَعَقِيدَتِهِمْ، فَالحَقُّ وَاضِحٌ وَللهِ الحَمْدُ. وَمِنْ رَحْمَةِ اللهِ أَنَّ الحَقَّ وَاضِحٌ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَهَدْيِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، لَيْسَ فِيهِ غُمُوضٌ وَلا لَبْسٌ، كَمَا حَصَلَ لِلأُمَمِ السَّابِقَةِ لِمَّا طَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ وَالْتَبَسَ عَلَيْهِمُ الحَقُّ، وَحُرِّفَتِ الكُتُبُ وَغُيِّرَتْ، أَمَّا هَذِهِ الأُمَّةُ فَالحَقُّ يَبْقَى وَاضِحًا، وَالكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مَحْفُوظَانِ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّغْيِيرِ، فَلَيْسَ لأَحَدٍ عُذْرٌ حِينَئِذٍ.

قَوْلُهُ: **(فَقَدْ بُيِّنَتِ الأُمُورُ)** نَعَمْ قَدْ بُيِّنَتِ الأُمُورُ، لَكِنَّهَا تَحْتَاجُ إِلَى بَحْثٍ وَإِلَى طَلَبٍ، بِأَنْ يَتَعَلَّمَ الإِنْسَانُ، وَيَتَفَقَّهُ، وَيَأْخُذُ العِلْمَ عَنِ العُلَمَاءِ، لا يَأْخُذُ العِلْمَ عَنْ نَفْسِهِ أَوْ عَنْ مِثْلِهِ مِنَ الجُهَّالِ، أَوِ المُتَعَالِمِينَ، أَوْ مِنَ الكُتُبِ، بَلْ يَأْخُذُ العِلْمَ عَنْ أَهْلِهِ، لأَنَّ هَذَا العِلْمَ يُتَلَقَّى عَنِ العُلَمَاءِ، فَالعِلْمُ بِالتَّلَقِّي، وَلَيْسَ بِالأَخْذِ مِنَ الكُتُبِ، الكُتُبُ إِنَّمَا هِيَ أَدَوَاتٌ فَقَطْ لِلْبَحْثِ يَشْرَحُهَا العُلَمَاءُ، وَأَمَّا الوُصُولُ إِلَى الحَقِّ فَهَذَا يُؤْخَذُ عَنْ أَهْلِ العِلْمِ، وَيُرْوَى عَنْهُمْ، خَلَفًا عَنْ سَلَفٍ.

قَوْلُهُ: **(وَثَبَتَتِ الحُجَّةُ، وَانْقَطَعَ العُذْرُ)** مَا لأَحَدٍ عُذْرٌ. فَهَذَا الدِّينُ صَانَهُ اللهُ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّغْيِيرِ، وَصَارَ الحَقُّ وَاضِحاً لا لَبْسَ فِيهِ، بِخِلافِ الأُمَمِ السَّابِقَةِ فَإِنَّهَا لَمَّا طَالَ عَلَيْهَا الأَمَدُ حَرَّفُوا كُتُبَهُمْ وَغَيَّرُوهَا، وَبَدَّلُوهَا فَالْتَبَسَ الحَقُّ وَخَفِيَ.

❀ ❀ ❀

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَذَلِكَ أَنَّ السُّنَّةَ وَالْجَمَاعَةَ قَدْ أَحْكَمَا أَمْرَ الدِّينِ كُلَّهُ، وَتَبَيَّنَ لِلنَّاسِ، فَعَلَى النَّاسِ الاتِّبَاعُ.

الشَّرْحُ:

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ: **(وَذَلِكَ أَنَّ السُّنَّةَ وَالْجَمَاعَةَ قَدْ أَحْكَمَا أَمْرَ الدِّينِ كُلَّهُ)** «ذَلِكَ» إِشَارَةٌ إِلَى مَا سَبَقَ مِنَ الْحَثِّ عَلَى لُزُومِ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

وَقَدْ سَبَقَ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِأَهْلِ السُّنَّةِ الْمُتَمَسِّكُونَ بِسُنَّةِ الرَّسُولِ ﷺ وَبِطَرِيقَتِهِ؛ هَؤُلَاءِ هُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ، وَالْجَمَاعَةِ: هُمُ الَّذِينَ اجْتَمَعُوا عَلَى الْحَقِّ، وَلَمْ يَتَفَرَّقُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ **وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟** ﴾ [آل عمران: ١٠٣] اجْتَمَعُوا عَلَى الْحَقِّ وَلَمْ يَتَفَرَّقُوا عَنْهُ، وَلَمْ يَخْتَلِفُوا فِيهِ. هَؤُلَاءِ هُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ. أَمَّا ﴿ **ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا** ﴾ فَاللهُ جَلَّ وَعَلَا يَقُولُ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿ **لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

(وَذَلِكَ أَنَّ السُّنَّةَ وَالْجَمَاعَةَ أَحْكَمَا) أَيْ: أَتْقَنَا، فَالإِحْكَامُ مَعْنَاهُ: الإِتْقَانُ. أَتْقَنَا أَمْرَ الدِّينِ كُلَّهُ، فَالدِّينُ كُلُّهُ مَحْصُورٌ فِي السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، كَمَا قَالَ ﷺ: **«فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي»**[١]، لَا يَقِي مِنْ شَرِّ هَذَا الاخْتِلَافِ إِلَّا التَّمَسُّكُ بِسُنَّةِ الرَّسُولِ ﷺ،

---

(١) جزء من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه وقد سبق تخريجه (ص/ ٤٢).

وَهِيَ مَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ وَأَصْحَابُهُ فِي العَقِيدَةِ، وَالعِبَادَةِ، وَالمُعَامَلاتِ، وَالأَخْلاقِ، وَالآدَابِ، وَهُمُ الفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ، مِنْ بَيْنِ ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلاَّ وَاحِدَةً. قَالُوا: مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ - فَهَذِهِ الَّتِي اسْتُثْنِيَتْ مِنْ هَذِهِ الفِرَقِ جَمَاعَةٌ مُتَمَيِّزَةٌ فَمَنْ هِيَ؟- قَالَ ﷺ فِي بَيَانِهَا: **«مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»**[1] مَا عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ وَأَصْحَابُهُ هُوَ السُّنَّةُ، فَمَنْ لَزِمَهُ نَجَا، وَلِذَلِكَ سُمُّوا بِالفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ.

قَوْلُهُ: **(وَتَبَيَّنَ لِلنَّاسِ، فَعَلَى النَّاسِ الاتِّبَاعُ)** تَبَيَّنَ لِلنَّاسِ أَنَّ أَمْرَ الدِّينِ كُلِّهِ فِي لُزُومِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، فَلَنْ يُخَالِفَ مَا عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ إِلاَّ أَهْلُ الضَّلالِ، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، فَمَنْ تَرَكَ الحَقَّ وَقَعَ فِي الضَّلالِ، وَالحَقُّ هُوَ مَا عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ دُونَ غَيْرِهِمْ.

❀ ❀ ❀

---

(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي سننه(٥/٢٦رقم٢٦٤١)، وابن نصر المروزي في السنة(ص/٢٣رقم٥٩)، وَالحاكم في المُسْتَدْرَك(١/٢١٨)، والآجُرِّيُّ في الشريعة(رقم٢٣)، واللالكائي في "شرح أصول اعْتِقَاد أهل السنة والجماعة"(رقم١٤٧)، وابن بطة في الإبانة(رقم١٩٦)، قَالَ التِّرْمِذِيّ: «حسن غريب مُفَسَّرٌ»، وحكم بأن الحَدِيثَ ثابتٌ: اللالكائي، والبغوي في شرح السنة(١/٢١٣)، وابن العربي في أحكام القُرآن(٣/٤٣٢)، وَقَالَ العراقي في المغني عن حمل الأسفار(٢/٨٨٥): «إسناد جيد»، وله شاهدٌ من حَدِيث أنس ﷺ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ في الأوسط(رقم٧٨٤٠)، والصغير(رقم٧٢٤)، والجورقاني في كتاب«الأباطيل والمناكير والصحاح والمشاهير»(رقم٢٦٨)، والضياء في المختارة(رقم٢٧٣٣)، قَالَ الجورقاني: «حَدِيثٌ عَزِيزٌ حَسَنٌ مَشْهُورٌ، وَرُوَاتُهُ كُلُّهُمْ ثِقَاتٌ أَثْبَاتٌ كَأَنَّهُمْ بُدُورٌ وَأَقْمَارٌ».

[٤] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّ الدِّينَ إِنَّمَا جَاءَ مِنْ قِبَلِ اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- ، لَمْ يُوضَعْ عَلَى عُقُولِ الرِّجَالِ وَآرَائِهِمْ، وَعِلْمُهُ عِنْدَ اللهِ، وَعِنْدَ رَسُولِهِ، فَلَا تَتَّبِعْ شَيْئاً بِهَوَاكَ؛ فَتَمْرُقَ مِنَ الدِّينِ فَتَخْرُجَ مِنَ الإِسْلَامِ؛ فَإِنَّهُ لَا حُجَّةَ لَكَ، فَقَدْ بَيَّنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأُمَّتِهِ السُّنَّةَ، وَأَوْضَحَهَا لِأَصْحَابِهِ، وَهُمُ الجَمَاعَةُ، وَهُمُ السَّوَادُ الأَعْظَمُ، وَالسَّوَادُ الأَعْظَمُ: الحَقُّ وَأَهْلُهُ، فَمَنْ خَالَفَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ فَقَدْ كَفَرَ.

الشَّرْحُ:

الدِّينُ إِنَّمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَهُوَ الَّذِي شَرَعَ الدِّينَ سُبْحَانَهُ، لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَشْرَعَ دِيناً لَمْ يَأْذَنِ اللهُ بِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾[الشورى: ٢١]، هَذَا اسْتِنْكَارٌ وَتَحْذِيرٌ. فَالدِّينُ هُوَ مَا شَرَعَهُ اللهُ، وَبَلَّغَهُ رَسُولُهُ ﷺ، هَذَا هُوَ الدِّينُ الَّذِي قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا فِيهِ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾[الشورى: ١٣] هَذَا هُوَ شَرِيعَةُ الأَنْبِيَاءِ خُصُوصاً هَؤُلَاءِ الخَمْسَةُ أُولُو العَزْمِ، هَذَا دِينُهُمْ، فَمَنْ حَادَ عَنْهُ أَوِ اخْتَلَفَ عَنْهُ هَلَكَ وَضَلَّ، وَهُوَ مَبْنِيٌّ

عَلى توحيدِ اللهِ عزَّ وَجلَّ، وتركِ عبادةِ ما سِواهُ، والتقيّدِ بِما شرعَهُ اللهُ عزَّ وَجلَّ، والابْتِعادِ عمَّا حرّمَهُ اللهُ، هَذَا هُوَ الدِّيْنُ.

قَوْلُهُ: **(لَمْ يُوضَعْ عَلَى عُقُولِ الرِّجَالِ وَآرَائِهِمْ)** لَيْسَ الدِّيْنُ مَا اسْتَحْسَنَهُ الرِّجَالُ أَوْ رَأَوْهُ، فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ دِينَ اللهِ، هَذَا دِينُ النَّاسِ الَّذِي أَحْدَثُوهُ، أَمَّا دِينُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ الَّذِي شَرَعَهُ، أَمَّا مَا رَآهُ الرِّجَالُ بِآرَائِهِمْ فَهَذَا لَيْسَ هُوَ دِينَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَإِنَّمَا هُوَ دِينُ مَنْ رَآهُ، فَلَا يُنْسَبُ إِلَى اللهِ مِنَ الدِّيْنِ إِلاَّ مَا شَرَعَهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ، وَمَا شَرَعَهُ غَيْرُهُ لا يُنْسَبُ إِلَى اللهِ، وَإِنَّمَا يُنْسَبُ إِلَى مَنْ شَرَعَهُ، وَاللهُ بَرِيءٌ مِنْهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١].

قَوْلُهُ: **(وَعِلْمُهُ عِنْدَ اللهِ، وَعِنْدَ رَسُولِهِ ﷺ)**، أُمُورُ الدِّيْنِ تَوْقِيفِيَّةٌ، لابُدَّ مِنَ الأَدِلَّةِ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ فِي أُمُورِ الدِّيْنِ، يُتَقَيَّدُ بِمَا جَاءَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ أُمُورِ الدِّيْنِ، وَتُتْرَكُ المُحْدَثَاتُ وَالبِدَعُ الَّتِي مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، وَإِنْ كَانَ أَهْلُهَا يَرَوْنَهَا دِيناً، وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللهِ بِهَا، فَنَحْنُ لا نَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، وَلا نُؤْمِنُ بِهَا، لأَنَّ دِينَ اللهِ مَا شَرَعَهُ هُوَ وَرَسُولُهُ.

لأَنَّ الدِّيْنَ مَبْنِيٌّ عَلَى العِلْمِ الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَلا تُتَّبَعُ أَهْوَاءُ النَّاسِ، وَآرَاءُ النَّاسِ، وَمَا اسْتَحْسَنُوهُ، وَمَا تَتَابَعُوا عَلَيْهِ، وَهُوَ لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ فِي كِتَابِ اللهِ أَوْ سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»، وفِي رِوَايَةٍ:

«مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1] فالَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ عَمَلُهُ صَالِحاً مُفِيداً فَعَلَيْهِ بِأَمْرَيْنِ:

الأَمْرُ الأَوَّلُ: إِخْلاصُ دِينِهِ للهِ مِنَ الشِّرْكِ.

وَالأَمْرُ الثَّانِي: اتِّبَاعُهُ سُنَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَإِخْلاصُهُ مِنَ البِدَعِ وَالْمُحْدَثَاتِ.

وسيجد الإِنْسَان مُخَالفات في العَقِيدَة، **مُخَالفات في العِبَادَات**، كَثِيرة، النَّاس لَهُمْ أَهْوَاءٌ ولهم رغبات ولهم آراء ولهم طرق، فَنَحْنُ لا نتبع النَّاس، بَلْ نَعْرِضُ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ عَلَى الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَمَا وَافَقَ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ فَهُوَ حَقٌّ، وَمَا خَالَفَهُمَا فَهُوَ بَاطِلٌ.

قَوْلُهُ: **(فَلا تَتَّبِعْ شَيْئاً بِهَوَاكَ)**، لا تَتَّبِعْ شَيْئاً بِهَوَاكَ وَرَغْبَتِكَ، وَلَكِنْ يَكُونُ هَوَاكَ وَرَغْبَتُكَ تَابِعَيْنِ لِمَا جَاءَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، فَلا تَهْوَى إِلاَّ مَا جَاءَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَلا تَرْغَبْ إِلاَّ مَا جَاءَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ، هَذَا هُوَ سَبِيلُ النَّجَاةِ.

إِذَا اتَّبَعْتَ هَوَاكَ صِرْتَ مِنَ الَّذِيْنَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ، وَلَمْ يَتَّبِعُوا الوَحْيَ الْمُنَزَّلَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥٠﴾[القصص]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ

(١) سبق تخريجه (ص/٥٩).

أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٤٨] قال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الجاثية] فَأَنْتَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: إِمَّا أَنْ تَتَّبِعَ الدِّيْنَ الصَّحِيحَ، وإِمَّا أَنْ تَتَّبِعَ الهَوَى، لا ثَالِثَ لَهُمَا.

قَوْلُهُ: **(فَتَمْرُقَ مِنَ الدِّينِ فَتَخْرُجَ مِنَ الإِسْلامِ)** مَنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ فَإِنَّهُ يَمْرُقُ مِنَ الدِّيْنِ، وَلَو عَلَى المَدَى البَعِيدِ، أَوَّلُ شَيْءٍ يَتَسَاهَلُ فِي المُخَالَفَةِ والهَوَى، ثُمَّ يَتَعَاظَمُ اتِّبَاعُ الهَوَى إِلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدِّيْنِ، فَيَصِيرُ دِيْنُهُ هَوَاهُ، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلا: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ [الجاثية: ٢٣] فَالهَوَى إِلَهٌ آخَرُ، وَلَيْسَ الشِّرْكُ مَقْصُوراً عَلَى عِبَادَةِ الصَّنَمِ أَوْ الوَثَنِ، بَلْ هُنَاكَ شَيْءٌ آخَرُ وَهُوَ الهَوَى، فَقَدْ لا يَعْبُدُ الإِنْسَانُ الأَصْنَامَ، وَالأَشْجَارَ، وَالأَحْجَارَ، وَلا يَعْبُدُ القُبُورَ، لَكِنْ يَتَّبِعُ هَوَاهُ، فَهَذَا عَبْدٌ لِهَوَاهُ، فَعَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يَحْذَرَ، وَلا يَتَّبِعْ إِلاَّ مَا وَافَقَ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ.

قَوْلُهُ: **(فَإِنَّهُ لاَ حُجَّةَ لَكَ، فَقَدْ بَيَّنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأُمَّتِهِ السُّنَّةَ، وَأَوْضَحَهَا لأَصْحَابِهِ)** لا حُجَّةَ لِمَنْ خَالَفَ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، لأَنَّهُ ضَلَّ بَعْدَ البَيَانِ، وَبَعْدَ العِلْمِ ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية: ٢٣]، لَيْسَ جَاهِلاً، بل يَعْرِفُ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَيَعْرِفُ أَقْوَالَ أَهْلِ

العلم، لكنها لا توافق هواه، فيتركها ويأخذ ما يوافق هواه، هذا هو الضلال والعياذ بالله. فاتباع الهوى خطير جداً، فعلى الإنسان أن يحذر من اتباع الهوى. قال الله جل وعلا لنبيه داود عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾[ص]، ولابن الجوزي رحمه الله كتاب في مجلد ضخم اسمه «ذم الهوى» أورد فيه من الأدلة وأقوال أهل العلم والحكم التي تحذر من اتباع الهوى.

فالواجب على الإنسان أن يحذر من هواه، فإنه قد يسلم من عبادة الأصنام والأحجار والأشجار والقبور، ويعرف التوحيد ويعرف السنة، لكن لم يسلم من اتباع هواه، وهذه مصيبة عظيمة، فعلى المسلم أن يحذر من اتباع هواه، ويكون هواه تبعاً لما جاء عن الرسول ﷺ، كما جاء في الحديث قال ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»** صححه النووي في الأربعين، وقال: «رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح»[1].

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في السنة(رقم١٥)، والحسن بن سفيان في الأربعين(رقم٩)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى(ص/١٨٨)، والخطيب في تاريخ بغداد(٤/٣٦٩)، والأصبهاني في الترغيب والترهيب(رقم٣٠)، وفي الحجة في بيان المحجة(رقم١٠٣) والبغوي في شرح السنة(١/٢١٢-٢١٣)، والهروي في ذم الكلام(رقم٣٢٠)، وأبو الطاهر السلفي في معجم السفر(رقم١٢٦٥)، وابن بطة في الإبانة(١/٣٨٧)، وابن الجوزي في ذم الهوى(ص/٢٢-٢٣) وغيرهم عن عبدالله بن عمرو. وقد صححه جماعة من العلماء منهم: أبو نعيم الأصبهاني، والنووي. وقال أبو نصر السجزي في كتابه الإبانة: «حسن غريب» كما في كنز العمال(١/٢١٧).

وَالرَّسُولُ ﷺ مَا تَرَكَ شَيْئًا إِلاَّ وَبَيَّنَهُ لأُمَّتِهِ، حَتَّى قَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ: **«مَا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَطَائِرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي الهَوَاءِ إِلاَّ وَذَكَرَ لَنَا مِنْهُ عِلْمًا»**(١) مَا تَرَكَ شَيْئًا مِمَّا تَحْتَاجُهُ البَشَرِيَّةُ، مِمَّا يُقَرِّبُهَا إِلَى اللهِ، وَيُبْعِدُهَا عَنِ الكُفْرِ وَالضَّلالِ إِلاَّ بَيَّنَهُ، وَقَدْ قَالَ ﷺ: **«إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي»**(٢).

تَرَكَ أُمَّتَهُ عَلَى البَيْضَاءِ لَيْلِهَا كَنَهَارِهَا، وَلَمَّا أَكْمَلَ اللهُ بِهِ الدِّينَ، وَأَتَمَّ بِهِ النِّعْمَةَ انْتَقَلَ إِلَى جِوَارِ رَبِّهِ، بَعْدَمَا بَلَّغَ البَلاغَ المُبِينَ، وَأَوْضَحَ السُّنَّةَ لأَصْحَابِهِ وَقَالَ فِي خُطْبَةِ حَجَّةِ الوَدَاعِ: **«أَلا هَلْ بَلَّغْتُ؟» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»**(٣).

قَوْلُهُ: **(وَهُمُ الجَمَاعَةُ، وَهُمُ السَّوَادُ الأَعْظَمُ)** أَصْحَابُهُ ﷺ هُمُ الجَمَاعَةُ، أَيْ: هُمْ أَصْلُ الجَمَاعَةِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ،

---

(١) رَوَاهُ وَكِيعٌ فِي الزُّهْدِ(رقم٥٢٢)، وَالإِمَامُ أَحْمَدُ فِي المُسْنَدِ(٥/ ١٥٣، ١٦٢)، وَابْنُ سَعْدٍ فِي الطَّبَقَاتِ(٢/ ٣٥٤)، وَالبَزَّارُ فِي مُسْنَدِهِ(رقم٣٨٩٧)، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي المُعْجَمِ الكَبِيرِ(رقم١٦٤٧)، وَالصَّيْدَاوِيُّ فِي مُعْجَمِهِ(ص/١٤٢)، وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ(رقم٧١)، وَالدَّارَقُطْنِيُّ فِي العِلَلِ(٦/ ٢٩٠) وَغَيْرُهُمْ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ الشَّيْخُ سليمان بن عبدالله في تيسير العزيز الحميد(١/) : «إسناد جيد».

(٢) رَوَاهُ الحَاكِمُ فِي المستدرك عَلَى الصحيحين(١/ ١٧١)، والبيهقي في السنن الكبرى(١٠/ ١١٤)، والآجري في الشريعة(رقم١٦٥٧) عن عبدالله بن عباس.

(٣) رَوَاهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(١/ ٣٠رقم٦٧)، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(٣/ ١٣٠٥رقم ١٦٧٩) من حَدِيثِ أَبِي بَكْرَةَ ﷺ.

كَمَا قَالَ ﷺ: **«خَيْرُكُمْ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»**(1) الصَّحَابَةُ، وَالتَّابِعُونَ، وَأَتْبَاعُ التَّابِعِينَ، وَهُمُ القُرُونُ المُفَضَّلَةُ، هَؤُلَاءِ هُمُ الجَمَاعَةُ، وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ فَهُوَ تَابِعٌ لَهُمْ، يَتْبَعُ الأَصْلَ الَّذِي عَلَيْهِ صَحَابَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾[التوبة:100].

هُمُ الجَمَاعَةُ الَّذِينَ أَمَرَنَا اللهُ أَنْ نَكُونَ مَعَهُمْ، وَأَمَرَنَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ نَكُونَ مَعَهُم، وَنَهَانَا عَنْ مُفَارَقَتِهِمْ، وَهُمُ السَّوَادُ الأَعْظَمُ الَّذِي عَلَى الحَقِّ، وَعَلَى الهُدَى، فَالَّذِينَ يُجَهِّلُونَ السَّلَفَ، وَيُقَلِّلُونَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَيَقُولُونَ: هُمْ رِجَالٌ وَنَحْنُ رِجَالٌ، وَيَقُولُونَ: لا مَانِعَ مِنْ أَنْ نُحْدِثَ أَشْيَاءَ وَلَسْنَا مُلْزَمِينَ بِاتِّبَاعِ السَّلَفِ وَأَقْوَالِ السَّلَفِ؛ فَهَذَا ضَلَالٌ وَالعِيَاذُ بِاللهِ. هَذَا فَصْلٌ لآخِرِ هَذِهِ الأُمَّةِ عَنْ أَوَّلِهَا، وَإِذَا انْفَصَلَ آخِرُهَا عَنْ أَوَّلِهَا هَلَكَتْ، وَهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُهْلِكُوا الأُمَّةَ، فَجَاؤُوا بِهَذِهِ الحِيلَةِ: وَهِيَ فَصْلُ الآخِرِينَ عَنْ أَوَّلِ الأُمَّةِ.

يُوجَدُ الآنَ مَنْ يُحَذِّرُ مِنْ مَذْهَبِ السَّلَفِ، وَيُحَذِّرُ مِنَ الرُّجُوعِ إِلَى أَقْوَالِهِمْ. وَيَقُول: هَذَا زَمَانٌ مَضَى، فَيُحَذِّرُ مِمَّا عَلَيْهِ السَّلَفُ، وَيَحُثُّ عَلَى الابْتِكَارِ فِي الدِّينِ!

---

(1) رواه البخاري في صحيحه(رقم 3450)، ومسلم في صحيحه(رقم 2535) من حديث عمران بن الحصين -رضي الله عنه-.

الدِّينُ تَوْقِيفِيٌّ، وَهُوَ اتِّبَاعٌ، وَلَيْسَ ابْتِدَاعًا وَابْتِكَارًا. الابْتِكَارُ يَكُونُ فِي الصِّنَاعَاتِ وَالْمَنَافِعِ الدُّنْيَوِيَّةِ. أَمَّا الدِّينُ فَلَا يُحْدَثُ فِيهِ شَيْءٌ بَعْدَ وَفَاةِ الرَّسُولِ ﷺ، لأَنَّ التَّشْرِيعَ انْتَهَى بِوَفَاةِ الرَّسُولِ ﷺ. فَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الاتِّبَاعُ، وَأَلَّا نُحْدِثَ شَيْئًا مِنْ عِنْدِنَا، وَنَقُولُ: هَذَا هُوَ الَّذِي يُصْلِحُ لِهَذَا العَصْرِ، الإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: «لا يُصْلِحُ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّةِ إِلَّا مَا أَصْلَحَ أَوَّلَهَا»[1] الَّذِي أَصْلَحَ أَوَّلَهَا هُوَ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، فَلَا يُصْلِحُ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّةِ إِلَّا الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَاتِّبَاعُ هَدْيِ السَّلَفِ الصَّالِحِ.

قَوْلُهُ: **(وَالسَّوَادُ الأَعْظَمُ: الحَقُّ وَأَهْلُهُ)** السَّوَادُ هُمْ أَهْلُ الحَقِّ، وَأَهْلُهُ المُتَمَسِّكُونَ بِهِ، وَلَيْسَ مَعْنَى السَّوَادِ الأَعْظَمِ مُجَرَّدَ الكَثْرَةِ، مَعْنَى السَّوَادِ الأَعْظَمِ: مَنْ كَانَ عَلَى الحَقِّ، وَلَوْ كَانُوا قَلِيلِينَ، فَهُمُ السَّوَادُ الأَعْظَمُ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ رَجُلًا وَاحِدًا[2]، مَنْ كَانَ عَلَى الحَقِّ فَهُوَ السَّوَادُ الأَعْظَمُ، لا نَنْظُرُ لِلكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا نَنْظُرُ لِمَا هُوَ عَلَيْهِ، فَقَدْ تَكُونُ الكَثْرَةُ عَلَى ضَلَالٍ،

---

(1) نَقَلَهُ عَنْهُ غَيْرُ وَاحِدٍ، كَالشَّاطِبِيِّ فِي الاعْتِصَامِ، وَابْنِ عَبْدِ الهَادِي فِي تَنْقِيحِ التَّحْقِيقِ(٢/٤٢٣)، وَلَعَلَّ الإِمَامَ مَالِكًا اسْتَفَادَهُ مِنْ شَيْخِهِ وَهْبِ بْنِ كَيْسَانَ، فَقَدْ رَوَى ابْنُ عَبْدِ البَرِّ فِي التَّمْهِيدِ(٢٣/١٠) عَنِ الإِمَامِ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ: كَانَ وَهْبُ بْنُ كَيْسَانَ يَقْعُدُ إِلَيْنَا، وَلَا يَقُومُ أَبَدًا حَتَّى يَقُولَ لَنَا: «اعْلَمُوا أَنَّهُ لَا يُصْلِحُ آخِرَ هَذَا الأَمْرِ إِلَّا مَا أَصْلَحَ أَوَّلَهُ».

(2) روى أبو نعيم في الحلية(٩/٢٣٨) أن رَجُلاً سَأَلَ الإمامَ إسحاقَ بن راهويه: من السواد الأعظم؟ فَقَال: «محمد بن أسلم(الطوسي) وأصحابه ومَنْ تبعه. ثُمَّ قَالَ: سَأَلَ رَجُل ابن المبارك فَقَالَ: يا أبا عبدالرَّحْمَن من السواد الأعظم؟ قَالَ: أبو حمزة السُّكَّرِيُّ. ثُمَّ قال إسحاق: في ذَلِكَ الزمان -يَعْنِي: أبا حمزة- وفي زماننا محمد بن أسلم ومَنْ تبعه. ثُمَّ قال إسحاق: لَوْ سَأَلْتَ الجهال من السواد الأعظم؟ لقالوا: جماعة النَّاس. وَلَا يَعْلَمُون أن الجماعة عالم متمسك بأثر النبي ﷺ وطَرِيقه، فَمَنْ كَانَ مَعَهُ وتبعه فهو الجماعة، ومن خالفه فيه ترك الجماعة. ثُمَّ قال إسحاق: لم أسمع عالمًا مُنْذُ خمسين سَنَة أعلم من محمد بن أسلم».

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يوسف]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الأعراف]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [المائدة]، فَالكَثْرَةُ لا يُغْتَرُّ بِهَا، وَلا تُتَّبَعُ إلاَّ إِذَا كَانَتْ عَلَى الحَقِّ، من كَانَ عَلَى الحَقِّ فَهُوَ الجَمَاعَة سَوَاءٌ كَانُوا قَلِيلِينَ أَوْ كَثِيرِينَ، الضَّابِطُ: هُوَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ، هَلْ هُوَ حَقٌّ أَوْ بَاطِلٌ، فَإِنْ كَانَ حَقًّا فَهُمُ الجَمَاعَةُ وَلَو لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ إِلاَّ وَاحِدٌ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلاً فَهُوَ الضَّلالُ وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ أَكْثَرُ النَّاسِ.

قَوْلُهُ: **(فَمَنْ خَالَفَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ فَقَدْ كَفَرَ)** «كَفَرَ» يَحْتَمِلُ الكُفْرَ الأَكْبَرَ، وَيَحْتَمِلُ الكُفْرَ الأَصْغَرَ، بِحَسَبِ المُخَالَفَةِ. فقوله: **(فَقَدْ كَفَرَ)** لَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ كَفَرَ الكُفْرَ المُخْرِجَ مِنَ المِلَّةِ مُطْلَقًا. قَدْ يَكُونُ هَذَا، وَقَدْ يَكُونُ الكُفْرَ الأَصْغَرَ، المُهِمُّ أَنَّ مُخَالَفَةَ السَّلَفِ كُفْرٌ، قَدْ يَكُونُ أَكْبَرَ وَقَدْ يَكُونُ أَصْغَرَ، حَسَبَ المُخَالَفَةِ.

أَوْ أَنَّ المُرَادَ أَنَّهُ إِذَا خَالَفَهُمْ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ بِالشَّيْءِ اليَسِيرِ، ثُمَّ بِالتَّدَرُّجِ يَخْرُجُ مِنَ الدِّينِ بِالكُلِّيَّةِ، فَيَؤُولُ أَمْرُهُ إِلَى الكُفْرِ، إِذَا اسْتَمَرَّ المُخَالَفَةَ فَيَؤُولُ أَمْرُهُ إِلَى الكُفْرِ الأَكْبَرِ، فَيَخْرُجَ مِنَ الدِّينِ كُلِّهِ، يَتَدَرَّجُ بِهِ الشَّيْطَانُ وَالهَوَى وَالنَّفْسُ الأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنَ الدِّينِ كُلِّهِ.

[٥] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ لَمْ يَبْتَدِعُوا بِدْعَةً قَطُّ حَتَّى تَرَكُوا مِنَ السُّنَّةِ مِثْلَهَا، فَاحْذَرِ المُحَرَّمَاتِ مِنَ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَالضَّلَالَةُ وَأَهْلُهَا فِي النَّارِ.

الشَّرْحُ:

هَذِهِ حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ، وَهِيَ مَأْثُورَةٌ عَنِ السَّلَفِ: **«أَنَّ النَّاسَ مَا أَحْدَثُوا بِدْعَةً إِلَّا فَقَدُوا مِثْلَهَا مِنَ السُّنَّةِ»**[1]. لِأَنَّهُ لَا تَجْتَمِعُ السُّنَّةُ وَالبِدْعَةُ، إِلَّا وَتُخْرِجُ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى، فَلَا يَكُونُ الإِنْسَانُ مُبْتَدِعاً وَسُنِّيًّا، بَلْ إِمَّا أَنْ

---

(١) سَبَقَ ذِكْرُ قَوْلِ حَسَّانَ بْنِ عَطِيَّةَ -رَحِمَهُ اللهُ-: **«مَا ابْتَدَعَ قَوْمٌ بِدْعَةً فِي دِينِهِمْ إِلَّا نَزَعَ اللهُ مِنْ سُنَّتِهِمْ مِثْلَهَا ثُمَّ لَا يُعِيدُهَا إِلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»**، وَقَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ -رَحِمَهُ اللهُ- كَمَا فِي مَجْمُوعِ الفَتَاوَى(١٧٣/٧)-: «وَهَكَذَا أَهْلُ البِدَعِ لَا تَجِدُ أَحَداً تَرَكَ بَعْضَ السُّنَّةِ الَّتِي يَجِبُ التَّصْدِيقُ بِهَا، وَالعَمَلُ إِلَّا وَقَعَ فِي بِدْعَةٍ، وَلَا تَجِدُ صَاحِبَ بِدْعَةٍ إِلَّا تَرَكَ شَيْئاً مِنَ السُّنَّةِ كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ: **«مَا ابْتَدَعَ قَوْمٌ بِدْعَةً إِلَّا تَرَكُوا مِنَ السُّنَّةِ مِثْلَهَا»** رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [المائدة: ١٤] فَلَمَّا تَرَكُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ اعْتَاضُوا بِغَيْرِهِ فَوَقَعَتْ بَيْنَهُمُ العَدَاوَةُ وَالبَغْضَاءُ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] أَيْ: عَنِ الذِّكْرِ الَّذِي أَنْزَلَهُ الرَّحْمَنُ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٤] وَقَالَ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣] فَأَمَرَ بِاتِّبَاعِ مَا أُنْزِلَ وَنَهَى عَمَّا يُضَادُّ ذَلِكَ وَهُوَ اتِّبَاعُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ فَمَنْ لَمْ يَتَّبِعْ أَحَدَهُمَا اتَّبَعَ الآخَرَ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥] قَالَ العُلَمَاءُ: مَنْ لَمْ يَكُنْ مُتَّبِعاً سَبِيلَهُمْ كَانَ مُتَّبِعاً غَيْرَ سَبِيلِهِمْ فَاسْتَدَلُّوا بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ اتِّبَاعَ سَبِيلِهِمْ وَاجِبٌ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَخْرُجَ عَمَّا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ.

يَكُونَ مُبْتَدِعاً، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ سُنِّيًّا، لا يَجْتَمِعَانِ فِيهِ، فَلابُدَّ أَنْ تُخْرِجَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى، وَهَذَا مِنْ مَضَارِّ البِدَعِ.

وَهَذِهِ الحِكْمَةُ المَأْثُورَةُ ثَابِتَةٌ بِالتَّجْرِبَةِ، وَشَاهِدُ هَذَا وَدَلِيلُهُ: أَنَّكَ تَجِدُ أَصْحَابَ البِدَعِ يُبْغِضُونَ الأَحَادِيثَ الصَّحِيحَةَ، وَيُبْغِضُونَ السُّنَنَ، وَأَعْدَى عَدُوٍّ لَهُمْ. وَأَبْغَضُ مَا يَسْمَعُونَ؛ أَنْ يُقَالَ: الحَدِيثُ الفُلانِيُّ يَنْهَى عَنْ هَذَا، أَوْ يُحَرِّمُ هَذَا، لا يُرِيدُونَ أَنْ يَسْمَعُوا الأَحَادِيثَ وَالسُّنَنَ الَّتِي تُخَالِفُ مَا هُمْ عَلَيْهِ، فَهَذِهِ عَلامَةٌ عَلَى أَنَّهَا لا تَجْتَمِعُ السُّنَّةُ وَالبِدْعَةُ. أَمَّا الَّذِي عَلَى السُّنَّةِ فَإِنَّهُ إِذَا سَمِعَ حَدِيثاً عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَإِنَّهُ يَفْرَحُ بِذَلِكَ، فَيُضِيفُ خَيْراً إِلَى خَيْرٍ، وَيُضِيفُ عِلْماً إِلَى عِلْمٍ، صَاحِبُ السُّنَّةِ يَفْرَحُ بِأَحَادِيثِ الرَّسُولِ ﷺ، بَيْنَمَا صَاحِبُ البِدْعَةِ يَنْفِرُ مِنْ أَحَادِيثِ الرَّسُولِ ﷺ، هَذَا شَيْءٌ وَاضِحٌ فِي المُبْتَدِعَةِ أَنَّهُمْ يُحَارِبُونَ السُّنَنَ لأَنَّهَا تَقْضِي عَلَى مَا عِنْدَهُمْ مِنَ البِدَعِ.

وَهَذَا فِيهِ التَّنْفِيرُ مِنَ البِدَعِ، وَأَنَّهَا تُرَحِّلُ السُّنَنَ وَتُرَحِّلُ مَحَبَّةَ السُّنَنِ مِنَ القُلُوبِ.

قَوْلُهُ: **(فَاحْذَرِ المُحَرَّمَاتِ مِنَ الأُمُورِ)**: لأَنَّ المُحَرَّمَاتِ لا خَيْرَ فِيهَا، سَوَاءٌ مُحَرَّمَاتُ الشِّرْكِ أَوِ الكُفْرِ، أَوِ المَعَاصِي، لأَنَّ اللهَ لا يُحَرِّمُ شَيْئاً وَفِيهِ خَيْرٌ، إِنَّمَا يُحَرِّمُ مَا هُوَ شَرٌّ مَحْضٌ، أَوْ شَرٌّ رَاجِحٌ أَوْ شَرٌّ مُسَاوٍ، فَإِذَا اجْتَمَعَ فِي الشَّيْءِ خَيْرٌ وَشَرٌّ فَإِنْ كَانَ الشَّرُّ أَكْثَرَ أَوْ مُسَاوِياً فَتَجَنَّبْهُ، وَإِنْ كَانَ الخَيْرُ أَكْثَرَ فَلا مَانِعَ مِنْ أَخْذِهِ، وَيُغْتَفَرُ الشَّرُّ اليَسِيرُ مَعَ الخَيْرِ الكَثِيرِ.

قوله: **(فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ)**: هذا نصُّ حديثِ العِرْبَاضِ بنِ سَارِيَةَ ﷺ قال: وعظنا رسولُ اللهِ ﷺ موعظةً وجلتْ مِنْهَا القُلُوبُ، وذرفتْ منها العيونُ، فقُلْنَا: يا رسولَ الله، كأنَّها موعظةُ مُودِّعٍ فأوصِنا، قال: **«أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ -وفي رِوَايَةٍ: عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ- فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُم فَسَيَرَى اخْتِلافاً كَثِيراً، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ...»** هَذَا تَحذِيرٌ **«إِيَّاكَ»** كَلِمَةُ تَحذِيرٍ، **«وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ»**، وَفِي رِوَايَةٍ: **«وَكُلَّ ضَلالَةٍ فِي النَّارِ»**[1].

كُلُّ مُحْدَثَةٍ فَهِيَ بِدْعَةٌ، وَالْمُرَادُ «مُحْدَثَةٌ» فِي الدِّينِ، أَمَّا الْمُحْدَثَاتُ فِي أُمُورِ العَادَاتِ وَالْمَنَافِعِ وَالْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلابِسِ، فَهَذِهِ بِدَعٌ لُغَوِيَّةٌ، لَيْسَتْ بِدَعاً شَرْعِيَّةً، لَكِنَّ الْمُحْدَثَاتِ فِي الدِّينِ هِيَ البِدَعُ الْمُحَرَّمَةُ، وَهَذَا فِيهِ رَدٌّ عَلَى الَّذِينَ يُقَسِّمُونَ البِدَعَ إِلَى بِدَعٍ حَسَنَةٍ، وَبِدَعٍ سَيِّئَةٍ، وَبِدَعٍ مُبَاحَةٍ، وَيَقُولُونَ تَعْتَرِيهَا الأَحْكَامُ الخَمْسَةُ، فَهَذَا غَلَطٌ، لأَنَّ البِدَعَ فِي الدِّينِ كُلَّهَا ضَلالَةٌ، بِنَصِّ الرَّسُولِ ﷺ قَالَ: **«فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ»**، وَأَظُنُّهُمْ أَدْخَلُوا البِدَعَ اللُّغَوِيَّةَ وَسَمَّوْهَا بِدَعاً حَسَنَةً،

---

(١) سبق تخريجه (ص/٤٢).

والبِدَعُ اللُّغَوِيَّةُ مُباحةٌ مِثْلُ بِناءِ المَدارِسِ وبِناءِ الأَرْبِطَةِ لِطَلَبةِ العِلْمِ، ومِثْلُ نَقْطِ المَصَاحِفِ، وَنَحْوِهَا سَمَّوْهَا بِدَعاً حَسَنَةً، وَهَذِهِ لَيْسَتْ بِدَعاً، هَذِهِ تَابِعَةٌ لِلسُّنَنِ. وَإِحْيَاءٌ لِلسُّنَنِ. فَبِنَاءُ المَدَارِسِ وَالأَرْبِطَةِ لِطَلَبَةِ العِلْمِ، وَطَبْعُ المَصَاحِفِ وَنَقْطُهَا، هَذِهِ كُلُّهَا مِنَ الإِعَانَةِ عَلَى العِلْمِ، فَهِيَ حَسَنَةٌ، وَهِيَ سُنَنٌ. فَهُمْ إِمَّا أَخَذُوا السُّنَنَ الحَسَنَةَ وَسَمَّوْهَا بِدَعاً، وَإِمَّا أَنَّهُمْ سَمَّوُا الأُمُورَ العَادِيَّةَ بِدَعاً، وَهِيَ لا تَدْخُلُ فِي الدِّينِ، لأَنَّهَا مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا فَلا تَدْخُلُ فِي الدِّينِ.

قَوْلُهُ: **(وَالضَّلالَةُ وَأَهْلُهَا فِي النَّارِ)** كَمَا فِي الحَدِيثِ: **«وكُلُّ ضَلالَةٍ فِي النَّارِ»**[1]، وكَمَا فِي حَدِيثِ الفِرَقِ: **«وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الأُمَّةُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلاَّ وَاحِدَةً»**[2] فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَهْلَ البِدَعِ يَكُونُونَ فِي النَّارِ وَيَتَفَاوَتُونَ، مِنْهُم مَنْ يَكُونُ فِي النَّارِ لِكُفْرِهِ، وَمِنْهُم مَنْ يَكُونُ فِي النَّارِ لِمَعْصِيَتِهِ، مِنْهُم مَنْ يُخَلَّدُ فِي النَّارِ، وَمِنْهُم مَنْ لا يُخَلَّدُ، وَيَكُونُ حُكْمُهُ حُكْمَ أَصْحَابِ الكَبَائِرِ.

(١) سَبَقَ تخريجه (ص/٤٢).
(٢) سَبَقَ تخريجه (ص/٦٧).

[٦] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاحْذَرْ صِغَارَ الْمُحْدَثَاتِ مِنَ الأُمُورِ، فَإِنَّ صِغَارَ الْبِدَعِ تَعُودُ حَتَّى تَصِيرَ كِبَاراً، وَكَذَلِكَ كُلُّ بِدْعَةٍ أُحْدِثَتْ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ كَانَ أَوَّلُهَا صَغِيراً يُشْبِهُ الْحَقَّ، فَاغْتَرَّ بِذَلِكَ مَنْ دَخَلَ فِيهَا، ثُمَّ لَمْ يَسْتَطِعِ الْخُرُوجَ مِنْهَا، فَعَظُمَتْ وَصَارَتْ دِيناً يُدَانُ بِهَا، فَخَالَفَ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ فَخَرَجَ مِنَ الإِسْلَامِ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: **(وَاحْذَرْ صِغَارَ الْمُحْدَثَاتِ مِنَ الأُمُورِ)** يَقُولُ: لا تَتَسَاهَلْ بِشَيْءٍ مِنَ الْبِدْعَةِ وَلَوْ كَانَ صَغِيراً، فَإِنَّهُ يَكْبُرُ، وَيَنْضَافُ إِلَيْهِ غَيْرُهُ، وَهَذَا مِنْ مَفَاسِدِ الْبِدَعِ؛ لأَنَّهُ إِذَا انْفَتَحَ بَابُ الْبِدَعِ زَادَتْ، فَلا يُتَسَاهَلُ فِيهَا، وَيُقَالُ: هَذِهِ بِدْعَةٌ صَغِيرَةٌ وَلا تَضُرُّ، الْبِدْعَةُ مِثْلُ الْجَمْرَةِ وَلَوْ كَانَتْ صَغِيرَةً فَهِيَ تَكْبُرُ حَتَّى تُحْرِقَ الْبَيْتَ أَوِ الْمَتْجَرَ أَوِ الْبَلَدَ كُلَّهُ:

وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ

فَلا يُتَهَاوَنُ بِهَا، بَلْ يُسَدُّ بَابُ الْبِدَعِ نِهَائِيًّا، وَقَد الرَّسُولُ ﷺ: **«إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ»**[١] «إِيَّاكُمْ»: تَحْذِيرٌ مِنْ مُحْدَثَاتِ الْبِدَعِ مُطْلَقاً، سَوَاءٌ كَانَتْ مُحْدَثَاتٍ صَغِيرَةٍ أَوْ مُحْدَثَاتٍ كَبِيرَةٍ لَمْ يَسْتَثْنِ الرَّسُولُ ﷺ شَيْئاً مِنَ الْبِدَعِ، فَنَهْيُهُ عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْبِدَعِ، وَقَالَ: **«وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا»**[٢].

---

(١) سَبَقَ تخريجه (ص/٤٢).
(٢) سَبَقَ تخريجه مِنْ حَدِيثِ جابر ﷺ (ص/٦٠) حاشية رقم/٢.

قَوْلُهُ: **(وَكَذَلِكَ كُلُّ بِدْعَةٍ أُحْدِثَتْ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ كَانَ أَوَّلُهَا صَغِيراً يُشْبِهُ الْحَقَّ فَاغْتَرَّ بِذَلِكَ مَنْ دَخَلَ فِيهَا، ثُمَّ لَمْ يَسْتَطِعِ الْخُرُوجَ مِنْهَا)** الفِتَنُ أَوَّلُ مَا حَدَثَتْ فِي الأُمَّةِ بِسَبَبِ التَّسَاهُلِ مَعَ أَهْلِ الإِفْسَادِ، حَتَّى عَاثُوا فِي الأَرْضِ فَسَاداً، وَغَسَلُوا أَدْمِغَةَ الشَّبَابِ وَالعَوَامِّ، وَحَشَوْهَا مِنَ الشَّرِّ حَتَّى حَصَلَتِ الفِتَنُ فِي الإِسْلَامِ، وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ.

هَذَا كُلُّهُ بِسَبَبِ التَّغَاضِي عَنْ أَهْلِ الشَّرِّ وَتَرْكِهِمْ حَتَّى يَسْتَفْحِلَ الأَمْرُ. فَلَابُدَّ مِنَ الحَزْمِ، وَسَدِّ البَابِ فِي هَذَا الأَمْرِ، وَلَا يَعْصِمُ مِنَ البِدَعِ بَعْدَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا إِلَّا العِلْمُ النَّافِعُ. أَمَّا الَّذِي لَيْسَ عِنْدَهُ عِلْمٌ فَهَذَا يَنْجَرِفُ مَعَ البِدَعِ، وَيَظُنُّهَا طَيِّبَةً، لِأَنَّهُ لَا يَدْرِي عَنِ البِدَعِ. فَلَا يُنْجِي مِنَ البِدَعِ إِلَّا مَا أَمَرَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ قَوْلِهِ: **«فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ»**[1] هَذَا هُوَ الَّذِي يَعْصِمُ مِنَ البِدَعِ، وَهَذَا يَحْتَاجُ إِلَى تَعَلُّمٍ وَتَفَقُّهٍ فِي دِينِ اللهِ. وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ السَّلَفُ أَفْقَهَ الأُمَّةِ؛ كَانُوا أَشَدَّ حَذَراً مِنَ البِدَعِ، وَأَشَدَّ تَحْذِيراً مِنَ البِدَعِ، لِعِلْمِهِمْ بِمَا تَجُرُّهُ إِلَيْهِ.

الفِتَنُ إِذَا اشْتَعَلَتْ فَإِنَّهَا تَأْتِي عَلَى الرَّطْبِ وَاليَابِسِ، تَأْتِي عَلَى الكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ، تَأْتِي عَلَى العُلَمَاءِ وَعَلَى غَيْرِهِمْ. تَأْتِي عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ الخَلَاصَ مِنْهَا، وَلَوْ تَخَلَّصُوا مِنْهَا مَا تَخَلَّصَ مِنْهَا أَهْلُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ وَمَنْ حَوْلَهُمْ، فَهِيَ مِثْلُ النَّارِ إِذَا اشْتَعَلَتْ فِي الحَطَبِ الهَشِيمِ،

(١) سبق تخريجه (ص/٤٢).

يَصْعُبُ إطْفاؤُها، لكِنْ القضاءُ عليْها أوّلَ ما تَحدُثُ سَهْلٌ، أمّا القضاءُ عليْها بَعْدَما تَعْظُمُ وتَتَغلّظُ فإنّهُ صَعْبٌ. فَيجِبُ الحَزْمُ مَعَها، وَعَدَمُ التَّساهُلِ فِيها.

ولَمّا كانَ السّلَفُ في القُرُونِ المُفَضَّلَةِ مُحاصِرِينَ لِلْبِدَعِ ولا يَسْمَحُونَ بِشَيْءٍ مِنْها؛ كانَتِ القُرُونُ المُفَضَّلَةُ أَنْقَى عُصُورِ الأُمّةِ، ولِهَذا أَثْنَى عَلَيْها رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقَوْلِهِ: **«خَيْرُكُمْ قَرْنِي ثُمّ الّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمّ الّذِينَ يَلُونَهُمْ»**(١) لأنّهُمْ ما كانُوا يَتَساهَلُونَ مَعَ البِدَعِ، كانُوا يُحاصِرُونَها، وكانَ أَهْلُها يَخْتَفُونَ مِنْ قُوّةِ أَهْلِ الحَقِّ. فَلَمّا انْقَضَتِ القُرُونُ المُفَضَّلَةُ نَشِطَتِ البِدَعُ وَأَهْلُها والشُّرُورُ، واشْتَعَلَتِ الفِتَنُ بَيْنَ المُسْلِمِينَ، لَكِنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلا تَكَفَّلَ بِحِفْظِ هَذا الدِّينِ، فالدِّينُ مَحْفُوظٌ وللهِ الحَمْدُ، لَكِنَّ الهَلاكَ يَكُونُ عَلَى أَهْلِ الدِّينِ، هُمُ الّذِينَ يَهْلَكُونَ، وأَمّا الدِّينُ فإنّهُ مَحْفُوظٌ بِحِفْظِ اللهِ عَزّ وَجَلّ، ويَقَيِّضُ اللهُ لَهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَيَقُومُ بِهِ، قالَ تَعالَى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾ [محمد: ٣٨]، وقالَ: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة: ٥٤] فَاللهُ لا يُضَيِّعُ دِينَهُ، لَكِنْ نَحْنُ الّذِينَ نَضِيعُ إذا ضَيَّعْنا دِينَنا، وتَمالأْنا مَعَ المُبْتَدِعَةِ، وأَصْحابِ الإحْداثاتِ، وتَساهَلْنا مَعَهُم فإنّنا نَحْنُ الّذِينَ نَضِيعُ، ورُبَّما تَنْشَبُ الفِتْنَةُ والقِتالُ وتُسْفَكُ الدِّماءُ بِسَبَبِها، ولا نَسْتَطِيعُ أنْ نَتَخَلَّصَ مِنْها.

---

(١) رَواهُ البُخارِيُّ في صَحِيحِهِ(رقم ٣٤٥٠)، ومُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ(رقم ٢٥٣٥) من حَدِيثِ عِمْرانَ بنِ الحصين ـ رضي الله عنه ـ.

قَوْلُهُ: **(فَعَظُمَتْ وَصَارَتْ دِيناً يُدَانُ بِهَا)** أيْ أنَّ البِدَعَ إذَا تُرِكَتْ تَصِيرُ هِيَ الدِّينُ فِيمَا بَعْدُ، وَقَدْ سَبَقَ قَوْلُهُ: «مَا أَحْدَثَ النَّاسُ بِدْعَةً إلاَّ رُفِعَ مِثْلُهَا مِنَ السُّنَّةِ»، حَتَّى تَصِيرَ البِدَعُ هِيَ الدِّينُ، وَتُرْفَعُ السُّنَنُ وَتَصِيرُ البِدَعُ هِيَ الدِّينُ عِنْدَ هَذَا المُجْتَمَعِ، وَلَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أنَّ كُلَّ الأُمَّةِ كَذَلِكَ، لَكِنْ المُجْتَمَعَ الَّذِي يَسْمَحُ لِلبِدَعِ بِأنْ تَنْتَشِرَ فِيهِ تَصِيرُ هِيَ الدِّينَ فِيهِ، لَكِنْ لَيْسَ مَعْنَى هَذَا أنَّ الدِّينَ انْقَضَى، بَلْ يَقُومُ أُنَاسٌ آخَرُونَ فِي بُقْعَةٍ ثَانِيَةٍ، أوْ فِي بَلَدٍ آخَرَ، يُقَيِّضُ اللهُ لِهَذَا الدِّينِ مَنْ يَنْصُرُهُ وَيَحْمِيهِ وَيُحَافِظُ عَلَيْهِ.

وَجَاءَ فِي الحَدِيثِ[1] أنَّهُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ تُتَّخَذُ السُّنَنُ بِدَعاً وَالبِدَعُ سُنَناً، حَتَّى إذَا غُيِّرَتْ يُقَالُ: غُيِّرَ الدِّينُ، وَإِذَا أَنْكَرْتَهَا قَالُوا لَكَ: تُنْكِرُ الدِّينَ!

قَوْلُهُ: **(فَخَالَفَ الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ فَخَرَجَ مِنَ الإِسْلاَمِ)** يَعْنِي أنَّ صَاحِبَ البِدْعَةِ يَتَجَارَى بِهِ الأَمْرُ حَتَّى يَكُونَ دِينُهُ كُلُّهُ بِدَعاً وَيَخْرُجَ مِنَ الإِسْلاَمِ. إذَا لَمْ يَبْقَ فِي دِينِهِ شَيْءٌ مِنَ السُّنَنِ.

(١) عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: **«كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَبِسَتْكُمْ فِتْنَةٌ؛ يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَيَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَتَّخِذُهَا النَّاسُ سُنَّةً، فَإِذَا غُيِّرَتْ قَالُوا غُيِّرَتِ السُّنَّةُ»**، قالوا: وَمَتَى ذَلِكَ يا أبا عبدالرحمن؟ قال: **«إِذَا كَثُرَتْ قُرَّاؤُكُمْ، وَقَلَّتْ فُقَهَاؤُكُمْ، وَكَثُرَتْ أُمَرَاؤُكُمْ، وَقَلَّتْ أُمَنَاؤُكُمْ، وَالْتُمِسَتِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ»** رواه الدارمي في سننه(١/٧٥رقم١٨٥)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين(٤/٥٦٠)، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله(١/١٨٨)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى(ص/٤٥٣رقم٧٥٨)، وغيرهم وهو أثر موقوف، له حكم الرفع.

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: فَانْظُرْ - رَحِمَكَ اللهُ - كُلَّ مَنْ سَمِعْتَ كَلَامَهُ مِنْ أَهْلِ زَمَانِكَ خَاصَّةً فَلَا تَعْجَلَنَّ، وَلَا تَدْخُلَنَّ فِي شَيْءٍ مِنْهُ حَتَّى تَسْأَلَ وَتَنْظُرَ: هَلْ تَكَلَّمَ فِيهِ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَ﷿، أَوْ أَحَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ؟ فَإِنْ أَصَبْتَ فِيهِ أَثَراً عَنْهُمْ فَتَمَسَّكْ بِهِ، وَلَا تُجَاوِزْهُ لِشَيْءٍ، وَلَا تَخْتَرْ عَلَيْهِ شَيْئاً فَتَسْقُطَ فِي النَّارِ.

الشَّرْحُ:

لا تَسْتَعْجِلْ فِيمَا تَسْمَعُ مِنَ النَّاسِ خُصُوصاً عِنْدَ تَأَخُّرِ الزَّمَانِ، وَكَثْرَةِ مَنْ يَتَكَلَّمُ وَيُفْتِي وَيَنْتَصِبُ لِلْعِلْمِ وَالْقَوْلِ، وَخُصُوصاً لَمَّا جَدَّتْ وَسَائِلُ الإِعْلَامِ، وَصَارَ كُلٌّ يَهْذُو وَيَتَكَلَّمُ بِاسْمِ الْعِلْمِ وَبِاسْمِ الدِّينِ، حَتَّى أَهْلُ الضَّلَالِ وَالْفِرَقِ الضَّالَّةِ وَالْمُنْحَرِفَةِ صَارُوا يَتَكَلَّمُونَ بِاسْمِ الدِّينِ الآنَ فِي الْفَضَائِيَّاتِ، فَالْخَطَرُ عَظِيمٌ جِدًّا، فَعَلَيْكَ أَيُّهَا الْمُسْلِمُ وَطَالِبُ الْعِلْمِ بِالذَّاتِ أَنْ تَتَثَبَّتَ وَلَا تَسْتَعْجِلَ مَعَ كُلِّ مَا تَسْمَعُ، عَلَيْكَ بِالتَّثَبُّتِ، وَمَعْرِفَةِ مَنِ الَّذِي قَالَ هَذَا؟ وَمِنْ أَيْنَ جَاءَ هَذَا الْفِكْرُ؟ ثُمَّ مَا هِيَ مُسْتَنَدَاتُهُ، وَأَدِلَّتُهُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؟ ثُمَّ أَيْنَ تَعَلَّمَ صَاحِبُهُ؟ وَعَمَّنْ أَخَذَ الْعِلْمَ؟ فَهَذِهِ أُمُورٌ تَحْتَاجُ إِلَى تَثَبُّتٍ، خُصُوصاً فِي هَذَا الزَّمَانِ، فَمَا كُلُّ قَائِلٍ حَتَّى وَلَو كَانَ فَصِيحاً وَبَلِيغاً وَيُشَقِّقُ الْكَلَامَ وَيَأْخُذُ بِالأَسْمَاعِ لَا تَغْتَرَّ بِهِ حَتَّى تَرَى مَدَى مَا عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْفِقْهِ، فَرُبَّمَا يَكُونُ كَلَامُهُ قَلِيلاً لَكِنَّهُ فَقِيهٌ، وَرُبَّمَا يَكُونُ كَلَامُهُ كَثِيراً لَكِنَّهُ جَاهِلٌ لَيْسَ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنَ الْفِقْهِ، بَلْ عِنْدَهُ سِحْرٌ

الكلامِ حتى يغُرَّ الناسَ، ويتظاهرَ بأنَّهُ عالِمٌ، وبأنَّهُ فاهِمٌ، وبأنَّهُ مُفكِّرٌ، ونحوِ ذلك، حتى يغُرَّ الناسَ، ويَخرُجَ بهِمْ عنِ الحقِّ. فليسَ العِبْرَةُ بكثرةِ الكَلامِ وشَقْشَقَتِهِ، بلِ العِبْرَةُ بمَا فيهِ منَ العِلْمِ، ومَا فيهِ منَ التَّأصيلِ، ورُبَّ كَلامٍ قليلٍ مُؤصَّلٍ يَكونُ أنفعَ بكثيرٍ منْ كلامٍ كثيرٍ مُشَقْشَقٍ لا تُمسِكُ منهُ فائدةً إلاَّ القليلَ. وهَذا هُوَ الواقِعُ في زَمانِنا يكثُرُ الكَلامُ ويَقِلُّ العِلْمُ. يكثُرُ القُرَّاءُ ويَقِلُّ الفُقَهاءُ، والفِقْهُ ليسَ هُوَ بكثرةِ الكلامِ أو كثرةِ القِراءةِ، أوْ جَوْدَةِ الكَلامِ، أوْ حُسْنِ التَّعبيرِ، يَقولُ الشَّاعِرُ:

في زُخْرُفِ القَوْلِ تَزْيِينٌ لِبَاطِلِهِ ... وَالحَقُّ قَدْ يَعتَرِيهِ سُوءُ تَعْبِيرِ

تَقُولُ هَذا مُجَاجُ النَّحْلِ تَمْدَحُهُ ... وَإِنْ تَشَأْ قُلْتَ ذَا قَيْءُ الزَّنَابِيرِ

إنْ شِئْتَ أنْ تَمْدَحَ العَسَلَ تَقُولُ: هَذا «مُجَاجُ النَّحْلِ»، وَإِنْ ذَمَمْتَهُ قُلْتَ: هَذا «قَيْءٌ»، بَدلَ «مُجَاجٍ»، وبَدلَ «النَّحْلِ» تَقُولُ: «الزَّنَابِيرِ»، فَالبَلِيغُ يَقْلِبُ الحَقَّ بَاطِلاً، والبَاطِلَ حَقًّا بِبَلاغَتِهِ، فَاحْذَرْ مِنْ هَذا، وَلِهَذا حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ فَصِيحِ اللِّسَانِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ البَقَرَةُ بِلِسَانِهَا[1]، حَذَّرَ مِنْ هَذا، وَقَالَ: **«إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا»**[2] يَعْنِي يَسْحَرُ الأَسْمَاعَ.

---

(1) رواهُ الإمامُ أحمدُ في المُسندِ(٢/١٦٥، ١٨٧)، وابنُ أبي شيبةَ في مُصنَّفِهِ(رقم٢٦٢٩٧)، وأبو داودَ في سُننِهِ(رقم٥٠٠٥)، والتِّرمذيُّ في سُننِهِ(رقم٢٨٥٣)، والطَّبرانيُّ في المُعجَمِ الأوسَطِ(رقم ٩٠٣٠)، والبزَّارُ في مُسندِهِ(رقم٢٤٥٢)، وغيرُهُم عن عبدِاللهِ بنِ عَمْرٍو ﷺ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: **«إنَّ اللهَ يُبغِضُ البَليغَ مِنَ الرِّجالِ الَّذي يَتخلَّلُ بِلِسانِهِ كَما تَتخلَّلُ البَقَرةُ بِلِسانِها»** قالَ التِّرمذيُّ: حسنٌ غريبٌ. وصحَّحَهُ أبو حاتمٍ في العِلَلِ(٢/٣٤١).

(2) رواهُ البخاريُّ في صحيحِهِ(رقم٤٨٥١) عن عبدِاللهِ بنِ عُمَرَ، ورواهُ مُسلمٌ في صحيحِهِ (٨٦٩) عن عمَّارِ بنِ ياسرٍ ﷺ.

فَقَوْلُهُ: (فَانْظُرْ - رَحِمَكَ اللهُ - كُلَّ مَنْ سَمِعْتَ كَلَامَهُ مِنْ أَهْلِ زَمَانِكَ خَاصَّةً فَلَا تَعْجَلَنَّ، وَلَا تَدْخُلَنَّ فِي شَيْءٍ مِنْهُ) هَذَا فِي وَقْتِ الْمُؤَلِّفِ، وَالْمُؤَلِّفُ يَكَادُ يَكُونُ مُعَاصِراً لِلإِمَامِ أَحْمَدَ، لِأَنَّهُ مِنْ تَلَامِيذِ تَلَامِيذِهِ، يَقُولُ: لَا تَعْجَلْ فِي قَبُولِ كَلَامِ أَهْلِ زَمَانِكَ حَتَّى تَتَثَبَّتَ مِنْهُ، أَيْنَ هُوَ مِنْ عَصْرِنَا الْآنَ! عَصْرِ الْأَهْوَاءِ، وَعَصْرِ الْجَهْلِ، وَعَصْرِ اخْتِلَاطِ الْعَالَمِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، حَتَّى أَصْبَحَ يَمُوجُ بِالْفِتَنِ وَالشُّرُورِ وَالْأَفْكَارِ، وَالْعَدُوُّ الْآنَ يُرِيدُ قَلْبَ الدِّينِ رَأْساً عَلَى عَقِبٍ، يُرِيدُنَا أَنْ نَكُونَ تَبَعاً لَهُ، وَيَفْرِضُ عَلَيْنَا أَفْكَارَهُ، وَيَفْرِضُ عَلَيْنَا سِيَاسَتَهُ، فَعَلَيْنَا أَنْ نَتَثَبَّتَ فِي هَذَا الْأَمْرِ، وَنَتَوَقَّفَ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ، وَأَنْ نُقْبِلَ عَلَى تَفَهُّمِ كَلَامِ اللهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ، وَنَتَفَقَّهَ فِي دِينِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

فَالْفِقْهُ فِيهِ عِصْمَةٌ مِنَ الْفِتَنِ، وَالْفِقْهُ هُوَ الْفَهْمُ، قَدْ يَكُونُ الْإِنْسَانُ كَثِيرَ الْحِفْظِ لَكِنْ لَيْسَ عِنْدَهُ فَهْمٌ، فَيَكُونُ هُوَ وَالْعَامِّيُّ سَوَاءً، بَلْ رُبَّمَا يَكُونُ الْعَامِّيُّ أَحْسَنَ مِنْهُ لِأَنَّهُ يَتَوَقَّفُ، وَيَعْرِفُ جَهْلَهُ، وَهَذَا لَا يَعْرِفُ أَنَّهُ جَاهِلٌ، لَيْسَتِ الْمَسْأَلَةُ كَثْرَةَ حِفْظٍ أَوْ كَثْرَةَ كَلَامٍ، الْمَسْأَلَةُ مَسْأَلَةُ فِقْهٍ، وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: **«رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»**[1] فَقَدْ يَحْفَظُ الْإِنْسَانُ وَيَنْقُلُ وَيَرْوِي، لَكِنْ يَكُونُ هُنَاكَ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، **«وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ وَهُوَ غَيْرُ**

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ (٢/٦٢٠ رقم ١٦٥٤)، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (٣/١٣٠٥ رقم ١٦٧٩) من حَدِيثِ أَبِي بَكْرَةَ ﷺ، واللفظ للبخاري.

فَقِيهٍ» هُوَ حَامِلٌ وَنَاقِلٌ لَكِنَّهُ لَيْسَ بِفَقِيهٍ. فَالْفِقْهُ هِبَةٌ مِن اللهِ يُعْطِيهَا اللهُ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، لَكِنْ إِذَا اسْتَغَلَّهَا وَنَمَّاهَا انْتَفَعَ بِهَا، وَإِنْ أَهْمَلَهَا ضَاعَتْ.

قَوْلُهُ: **(فَلاَ تَعْجَلَنَّ، وَلاَ تَدْخُلَنَّ فِي شَيْءٍ مِنْهُ حَتَّى تَسْأَلَ وَتَنْظُرَ: هَلْ تَكَلَّمَ فِيهِ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَ﵃)** هَذِهِ وَصِيَّةٌ عَظِيمَةٌ، إِذَا أَعْجَبَتْكَ كَلامٌ مِنْ أَحَدٍ فِي الدِّينِ. أَمَّا الْكَلامُ الَّذِي فِي أُمُورِ الدُّنْيَا فَلَيْسَ مَوْضُوعَ الْبَحْثِ، لَكِنْ إِذَا أَعْجَبَكَ كَلامٌ فِي الدِّينِ فَلا تَعْجَلْ حَتَّى تَنْظُرَ فِيهِ. هَلْ هُوَ مُؤَسَّسٌ عَلَى حَقٍّ وَأَدِلَّةٍ، أَمْ هُوَ مِنَ الرَّأْسِ وَمِنَ الْفِكْرِ، فَهَذَا غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ اتْرُكْهُ، أَمَّا إِنْ كَانَ مُؤَسَّساً وَمُؤَصَّلاً عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَهَذَا حَقٌّ. فَلا تَعْجَلْ فِي أَخْذِ الْكَلامِ عَلَى عَوَاهِنِهِ، حَتَّى وَلَوْ أَعْجَبَتْكَ فَصَاحَتُهُ وَبَلاغَتُهُ وَقُوَّتُهُ وَجَزَالَتُهُ، لا تَعْجَلْ فِيهِ حَتَّى تَنْظُرَ، وَتَعْرِضَهُ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَتَنْظُرَ مَنْ قَالَهُ هَلْ هُوَ فَقِيهٌ أَمْ لَيْسَ بِفَقِيهٍ؟ حَتَّى تَسْأَلَ أَهْلَ الْعِلْمِ عَنْهُ، وَتَنْظُرَ هَلْ قَالَهُ أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ أَوْ لَمْ يَقُولُوهُ. وَهَذَا مَا حَذَّرْتُ مِنْهُ مَرَّاتٍ، أَقُولُ: لا تُحْدِثُوا اجْتِهَادَاتٍ وَآرَاءً وَأَقْوَالاً وَعِبَارَاتٍ لَمْ تُسْبَقُوا إِلَيْهَا، خُذُوا الْقُدْوَةَ مِنَ السَّلَفِ وَمِنْ كَلامِ السَّلَفِ، لَوْ أَتَيْتَ بِشَيْءٍ لَمْ تُسْبَقْ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ يَكُونُ شُذُوذاً، وَخَطَرُهُ أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِهِ.

---

(١) رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي المسند(١٨٣/٥)، وأبو داود في سننه(٣٢٢/٣رقم٣٦٦٠)، والترمذي في سننه(٣٣/٥رقم٢٦٥٦)، والدارمي في سننه(٨٦/١رقم٢٢٩) و ابن حبان في صحيحه(٢٧٠/١ رقم٦٧) عن زيد بن ثابت﵁ قال الترمذي: حديث حسن، وَصَحَّحَهُ البوصيري في مصباح الزجاجة(٢١٢/٤).

فَكَلامُ الصَّحَابَةِ هُوَ المِيزَانُ، لأَنَّهُمْ تَلامِيذُ الرَّسُولِ ﷺ، يُنْظَرُ قَوْلُهُم فِي الآيَةِ، بِمَاذَا فَسَّرُوهَا، وَفِي الحَدِيثِ، بِمَاذَا شَرَحُوهُ، تَأْخُذُ مِنْ كَلامِهِمْ وَتَفْسِيرِهِمْ لأَنَّهُم أَقْرَبُ إِلَى الحَقِّ مِمَّنْ جَاءَ بَعْدَهُم لأَنَّهُم تَلامِيذُ الرَّسُولِ ﷺ، وَسَمِعُوا التَّأْوِيلَ وَالتَّفْسِيرَ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، وَتَلَقَّوْهُ مِنْهُ، فَهُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَى الحَقِّ. وَلا عِبْرَةَ بِقَوْلِ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الصَّحَابَةَ لا عِبْرَةَ بِهِمْ، هُمْ رِجَالٌ وَلَهُمْ أَفْكَارُهُمْ، وَنَحْنُ رِجَالٌ وَلَنَا أَفْكَارُنَا، وَالزَّمَانُ تَغَيَّرَ!!

فَالدِّينُ بَاقٍ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، وَلا يَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرِ الزَّمَانِ، وَهُوَ شَامِلٌ لِلزَّمَانِ وَالمَكَانِ، وَإِنَّمَا الَّذِي يَتَغَيَّرُ: الاجْتِهَادَاتُ البَشَرِيَّةُ الَّتِي تُخْطِئُ وَتُصِيبُ، أَمَّا الدِّينُ نَفْسُهُ فَلا يَتَغَيَّرُ، لأَنَّهُ صَالِحٌ لِكُلِّ زَمَانٍ وَلِكُلِّ مَكَانٍ، لأَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ. وَلِهَذَا يُوصُونَ وَيَقُولُونَ: عَلَيْكُمْ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِفَهْمِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، لا تُحْدِثْ فَهْماً مِنْ عِنْدِكَ أَوْ مِنْ عِنْدِ المُتَأَخِّرِينَ.

قَوْلُهُ: **(أَوْ أَحَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ)** أي قَالَهُ أَحَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ المُعْتَبَرِينَ، مِنَ الأَئِمَّةِ الَّذِينَ يَسِيرُونَ عَلَى مَنْهَجِ صَحَابَةِ الرَّسُولِ ﷺ؛ لأَنَّهُمْ هُمُ الرُّوَاةُ عَنِ الصَّحَابَةِ، وَالصَّحَابَةُ هُمُ الرُّوَاةُ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ.

قَوْلُهُ: **(فَإِنْ أَصَبْتَ فِيهِ أَثَراً عَنْهُمْ فَتَمَسَّكْ بِهِ)** إِذَا وَجَدْتَهُ مُوَافِقاً لِقَوْلِهِمْ فَتَمَسَّكْ بِهِ.

قَوْلُهُ: **(وَلاَ تُجَاوِزْهُ لِشَيْءٍ)** وَلا تُجاوِزْ قَوْلَ السَّلَفِ لِرأْيِ فُلانٍ وَفُلانٍ مِمَّنْ جَاءَ بَعْدَهُم.

قَوْلُهُ: (وَلاَ تَخْتَرْ عَلَيْهِ شَيْئاً فَتَسْقُطَ فِي النَّارِ) وَلا تَخْتَرْ عَلَى مَا جَاءَ عَنِ السَّلَفِ شَيْئاً مِمَّا جَاءَ بِهِ المُتَأَخِّرونَ فَتَسْقُطَ فِي النَّارِ، لأَنَّكَ خَالَفْتَ طَرِيقَ الجَنَّةِ، وَطَرِيقُ الجَنَّةِ هُوَ مَا عَلَيْهِ ﴿ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩] هَذَا هُوَ طَرِيقُ الجَنَّةِ، وَمَا خَالَفَهُ فَهُوَ طَرِيقُ النَّارِ، وَاللهُ جَلَّ وَعَلا يَقُولُ: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، سَبِيلُ اللهِ وَاحِدٌ، أَمَّا غَيْرُهُ فَهِيَ سُبُلٌ كَثِيرَةٌ، كُلُّ شَيْطَانٍ لَهُ سَبِيلٌ وَلَهُ طَرِيقٌ مِنْ شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالجِنِّ، فَهِيَ طُرُقٌ كَثِيرَةٌ تُوقِعُ مَن يَسْلُكُهَا فِي حَيْرَةٍ، لَكِنَّ الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ وَاحِدٌ لَيْسَ فِيهِ اخْتِلافٌ، وَلا تَضِيعُ إِذَا سَلَكْتَهُ أَبَداً.

[٧] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ أَنَّ الْخُرُوجَ عَنِ الطَّرِيقِ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَمَّا أَحَدُهُمَا فَرَجُلٌ قَدْ زَلَّ عَنِ الطَّرِيقِ، وَهُوَ لاَ يُرِيدُ إِلاَّ الْخَيْرَ؛ فَلاَ يُقْتَدَى بِزَلَّتِهِ فَإِنَّهُ هَالِكٌ، وَرَجُلٌ عَانَدَ الْحَقَّ وَخَالَفَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ؛ فَهُوَ ضَالٌّ مُضِلٌّ، شَيْطَانٌ مَرِيدٌ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ، حَقِيقٌ عَلَى مَنْ عَرَفَهُ أَنْ يُحَذِّرَ النَّاسَ مِنْهُ، وَيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ قِصَّتَهُ، لِئَلاَّ يَقَعَ فِي بِدْعَتِهِ أَحَدٌ فَيَهْلِكَ.

الشَّرْحُ:

لَمَّا وَصَفَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ فِي الْكَلامِ السَّابِقِ الطَّرِيقَ الصَّحِيحَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَسِيرَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُ فِي عَقِيدَتِهِ وَدِينِهِ: ذَكَرَ أَنَّ مَنْ يَخْرُجُ عَنْ هَذَا الطَّرِيقِ فَهُوَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ:

- **الرَّجُلُ الأَوَّلُ:** مَنْ خَرَجَ غَيْرَ مُتَعَمِّدٍ، بَلْ يُرِيدُ الْخَيْرَ لَكِنَّهُ سَلَكَ طَرِيقَ غَيْرِ الْخَيْرِ، وَالاجْتِهَادُ لا يَكْفِي، وَإِنْ كَانَتْ نِيَّةُ صَاحِبِهِ صَالِحَةً، وَمَقْصَدُهُ حَسَناً، لابُدَّ أَنْ يَكُونَ مَعَ ذَلِكَ عَلَى الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ، فَهَذَا يُعْتَبَرُ مُخْطِئاً، وَمَنْ وَافَقَهُ عَلَى ذَلِكَ وَسَارَ مَعَهُ عَلَى الْخَطَإِ وَهُوَ يَعْلَمُ خَطَأَهُ فَهُوَ هَالِكٌ، لأَنَّ هَذَا طَرِيقُ هَلاكٍ، حَتَّى وَلَو لَمْ يَتَعَمَّدْ صَاحِبُهُ الْخُرُوجَ وَإِنَّمَا هُوَ يَلْتَمِسُ الْخَيْرَ.

وَهَذَا هُوَ حَالُ الْكَثِيرِ مِنَ الَّذِينَ يَبْتَكِرُونَ ابْتِكَارَاتٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ فِي عِلْمِ الْعَقِيدَةِ، فَهَذَا أَمْرٌ لا يَجُوزُ، وَلا يُتَابَعُونَ عَلَيْهِ، وَصَاحِبُهُ لَيْسَ عَلَى صَوَابٍ، وَاللهُ جَلَّ وَعَلا يَقُولُ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ

وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾[الأنعام: ١٥٣]، فـأيُّ سَـبِيلٍ يُخرِجُكَ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُستَقِيمِ فَنَحنُ نَرفُضُهُ وَلَو كَانَ صَاحِبُهُ يَقصِدُ الخَيرَ، وَنِيَّتُهُ طَيِّبَةٌ. فَنَحنُ لا نُتَابِعُهُ عَلَى ذَلِكَ، وَهُوَ إِنِ استَمَرَّ عَلَى خَطَئِهِ فَسَيَؤُولُ إِلَى الهَلاكِ، لأَنَّ مَن تَرَكَ الطَّرِيقَ الصَّحِيحَ فِي سَفَرِهِ وَأَخَذَ طَرِيقَ مَضيَعَةٍ هَلَكَ.

- **أَمَّا الرَّجُلُ الثَّانِي: فَهُوَ الْمُتَعَمِّدُ لِلخُرُوجِ، فَهُوَ يَعرِفُ** الحَقَّ، وَيَعرِفُ أَنَّ مَا خَرَجَ إِلَيهِ أَنَّهُ بَاطِلٌ لَكِن يَتَعَمَّدُ الخُرُوجَ عَنِ الحَقِّ، بِقَصدِ إِضلالِ النَّاسِ.

الأَوَّلُ قَصدُهُ إِصلاحُ النَّاسِ لَكِنَّهُ لَم يَسلُكِ الطَّرِيقَ الصَّحِيحَ، وَالثَّانِي قَصدَ إِضلالَ النَّاسِ، وَصَرفَهُم عَنِ الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ، فَهَذَا شَيطَانٌ. لأَنَّ الشَّيَاطِينَ يُخرِجُونَ النَّاسَ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُستَقِيمِ، يَقُولُ إِبلِيسُ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[الأعراف: ١٦] يُرِيدُ أَن يَصرِفَهُم عَنهُ إِلَى الطُّرُقِ الْمُنحَرِفَةِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ ضَرَبَ لِهَذَا مَثَلاً حِينَمَا خَطَّ خَطًّا مُستَقِيماً، وَخَطَّ حَولَهُ خُطُوطاً أُخرَى، فَقَالَ لِلخَطِّ الْمُستَقِيمِ: **«هَذَا صِرَاطُ اللهِ»** وَقَالَ لِلخُطُوطِ الأُخرَى: **«وَهَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنهَا شَيطَانٌ يَدعُو النَّاسَ إِلَيهَا»**[1] هَذَا مِثَالٌ وَاضِحٌ، وَيُطَابِقُهُ مَا ذَكَرَهُ الشَّيخُ

---

(١) رواه الطيالسي في مسنده(رقم٢٤٤)، والإمام أحمد في المسند(١/٤٣٥، ٤٦٥)، وسعيد بن منصور في سننه(رقم٩٣٥)، والدارمي(رقم٢٠٢)، والنسائي في الكبرى(رقم ١١١٧٥)، وابن جرير في تفسيره(٨/٨٨)، وابن أبي عاصم في السنة(رقم١٧)، ومحمد بن نصر في *

هُنَا، فإنَّ الَّذي يخرُجُ بالنَّاسِ عن الصراط المستقيم إلى السبل المحدثة المُبتدَعة، لا يُريدُ لَهُمُ الخيْرَ، وإنَّما يُريدُ لهمُ الهلاكَ وهُوَ شيْطانٌ، سَواءٌ كَانَ مِنْ شياطِينِ الجنِّ أوْ مِنْ شياطِينِ الإنْسِ. علَيْنا أنْ نحْذَرَ مِنْ هَذَا أشَدَّ مِنَ الحَذَرِ مِنَ الأوَّلِ، لأنَّ هذَا مُتَعَمِّدٌ لإضْلالِ النَّاسِ.

قَوْلُهُ: **(فَهُوَ ضَالٌّ مُضِلٌّ، شَيْطَانٌ مَرِيدٌ)** أيْ: هُوَ ضَالٌّ فِي نَفْسِهِ، وَمُضِلٌّ لِغَيْرِهِ، وَهُوَ شَيْطَانٌ مَرِيدٌ، مُتَمَرِّدٌ، يُرِيدُ صَرْفَ النَّاسِ عَنِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ.

قَوْلُهُ: **(حَقِيقٌ عَلَى مَنْ عَرَفَهُ أَنْ يُحذِّرَ النَّاسَ مِنْهُ، وَيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ قِصَّتَهُ، لِئَلاَّ يَقَعَ فِي بِدْعَتِهِ أَحَدٌ فَيَهْلِكَ)** أيْ: هَذَا الَّذِي خَرَجَ عَنِ الحَقِّ مُتَعَمِّداً لا يَجُوزُ السُّكُوتُ عَنْهُ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يُكْشَفَ أَمْرُهُ، وَيُفْضَحَ خِزْيُهُ حَتَّى يَحْذَرَهُ النَّاسُ، وَلا يُقَالُ: النَّاسُ أَحْرَارٌ فِي الرَّأْيِ، حُرِّيَّةُ الكَلِمَةِ، احْتِرَامُ الرَّأْيِ الآخَرِ! كَمَا يُدَنْدِنُونَ بِهِ الآنَ، مِنِ احْتِرَامِ الرَّأْيِ الآخَرِ، فَالمَسْأَلَةُ لَيْسَتْ مَسْأَلَةَ آرَاءٍ، المَسْأَلَةُ مَسْأَلَةُ اتِّبَاعٍ، نَحْنُ قَدْ رَسَمَ اللهُ لَنَا طَرِيقاً وَاضِحاً، وَقَالَ لَنَا سِيرُوا عَلَيْهِ حِينَمَا قَالَ: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى

= السُّنَّة(رقم١٢، ١٣)، وَابنُ أبي حاتم في تفسيرِهِ(رقم٨١٠٢)، والبزَّارُ في مُسْنَدِهِ (رقم١٦٩٤، ١٧١٨، ١٨٦٥)، وَالشَّاشِيُّ في مُسْنَدِهِ(رقم٥٣٥- ٥٣٧)، وَأبو نُعَيم في الحِلْيَةِ(٦/٢٦٣)، وَابنُ حِبَّانَ في صَحِيحِهِ(رقم٦)، وَابنُ وَضَّاحٍ في البِدَعِ وَالنَّهْيِ عَنْهَا(ص/ ٣١)، وَالحَاكِمُ في المُسْتَدْرَكِ(٢/٣١٨)، وَاللالَكَائِيُّ في شَرْحِ أصُولِ الاعْتِقَادِ(رقم٩٢- ٩٣)، وَالبَغَوِيُّ في شَرْحِ السُّنَّة(١/١٩٦)، وَفي تَفْسِيرِهِ(٢/١٤٢)، وَغَيْرُهُمْ عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ ، وَصَحَّحَهُ ابنُ حِبَّانَ، وَالحَاكِمُ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، وَصَحَّحَهُ غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ.

مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فَأيُّ شَخْصٍ يَأْتِينَا وَيُرِيدُ مِنَّا أَنْ نَخْرُجَ عَنْ هَذَا الصِّرَاطِ فَإِنَّنَا: أَوَّلاً: نَرْفُضُ قَوْلَهُ، وَثَانِياً: نُبَيِّنُ وَنُحَذِّرُ النَّاسَ مِنْهُ، وَلا يَسَعُنَا السُّكُوتُ عَنْهُ، لأَنَّنَا إِذَا سَكَتْنَا عَنْهُ اغْتَرَّ بِهِ النَّاسُ؛ لاسِيَّمَا إِذَا كَانَ صَاحِبَ فَصَاحَةٍ وَلِسَانٍ وَقَلَمٍ وَثَقَافَةٍ، فَإِنَّ النَّاسَ يَغْتَرُّونَ بِهِ، وَيَقُولُونَ هَذَا مُؤَهَّلٌ، هَذَا مِنَ الْمُفَكِّرِينَ، كَمَا هُوَ الحَاصِلُ الآنَ، فَالْمَسْأَلَةُ خَطِيرَةٌ جِدًّا.

وَهَذَا فِيهِ وُجُوبُ الرَّدِّ عَلَى الْمُخَالِفِ، عَكْسُ مَا يَقُولُهُ أُولَئِكَ يَقُولُونَ: اتْرُكُوا الرُّدُودَ، دَعُوا النَّاسَ كُلٌّ لَهُ رَأْيُهُ وَاحْتِرَامُهُ، وَحُرِّيَّةُ الرَّأْيِ وَحُرِّيَّةُ الكَلِمَةِ. بِهَذَا تَهْلِكُ الأُمَّةُ، السَّلَفُ مَا سَكَتُوا عَنْ أَمْثَالِ هَؤُلاءِ، بَلْ فَضَحُوهُمْ وَرَدُّوا عَلَيْهِم، لِعِلْمِهِمْ بِخَطَرِهِمْ عَلَى الأُمَّةِ، نَحْنُ لا يَسَعُنَا أَنْ نَسْكُتَ عَنْ شَرِّهِمْ، بَلْ لابُدَّ مِنْ بَيَانِ مَا أَنْزَلَ اللهُ، وَإِلاَّ فَإِنَّنَا نَكُونُ كَاتِمِينَ، مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُولَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩]، فَلا يَقْتَصِرُ الأَمْرُ عَلَى الْمُبْتَدِعِ، بَلْ يَتَنَاوَلُ الأَمْرُ مَنْ سَكَتَ عَنْهُ، فَإِنَّهُ يَتَنَاوَلُهُ الذَّمُّ وَالعِقَابُ، لأَنَّ الوَاجِبَ البَيَانُ وَالتَّوْضِيحُ لِلنَّاسِ، وَهَذِهِ وَظِيفَةُ الرُّدُودِ العِلْمِيَّةِ الْمُتَوَفِّرَةِ الآنَ فِي مَكْتَبَاتِ الْمُسْلِمِينَ كُلُّهَا تَذُبُّ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَتُحَذِّرُ مِنْ هَؤُلاءِ، فَلا يُرَوِّجُ هَذِهِ الفِكْرَةَ - فِكْرَةَ حُرِّيَّةِ الرَّأْيِ وَحُرِّيَّةِ الكَلِمَةِ وَاحْتِرَامِ الآخَرِ.. - إِلاَّ مُضَلِّلٌ كَاتِمٌ لِلحَقِّ.

نَحْنُ قَصْدُنَا الحَقّ، مَا قَصْدُنَا نُجَرِّحُ النَّاسَ أَوْ نَتَكَلَّمُ فِي النَّاسِ، القَصْدُ هُوَ بَيَانُ الحَقِّ، وَهَذِهِ أَمَانَةٌ حَمَّلَهَا اللهُ العُلَمَاءَ، فَلَا يَجُوزُ السُّكُوتُ عَنْ أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ، لَكِنْ مَعَ الأَسَفِ لَوْ يَأْتِي عَالِمٌ يَرُدُّ عَلَى أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ قَالُوا: هَذَا مُتَسَرِّعٌ... إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الوَسَاوِسِ، **فَهَذَا لَا يُخَذِّلُ أَهْلَ العِلْمِ أَنْ يُبَيِّنُوا لِلنَّاسِ شَرَّ دُعَاةِ الضَّلَالِ، لَا يُخَذِّلُهُمْ.**

[٨] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّهُ لاَ يَتِمُّ إِسْلاَمُ عَبْدٍ حَتَّى يَكُونَ مُتَّبِعاً مُصَدِّقاً مُسَلِّماً، فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ قَدْ بَقِيَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ الإِسْلاَمِ لَمْ يَكْفُنَاهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَدْ كَذَّبَهُمْ، وَكَفَى بِهَذَا فُرْقَةً وَطَعْناً عَلَيْهِمْ، فَهُوَ مُبْتَدِعٌ ضَالٌّ مُضِلٌّ، مُحْدِثٌ فِي الإِسْلاَمِ مَا لَيْسَ مِنْهُ.

الشَّرْحُ:

هَذَا تَتِمَّةٌ لِكَلاَمِ السَّابِقِ، فقولُهُ: **(لاَ يَتِمُّ إِسْلاَمُ عَبْدٍ حَتَّى يَكُونَ مُتَّبِعاً مُصَدِّقاً مُسَلِّماً)** مُتَّبِعاً لا مُبْتَدِعاً، مُصَدِّقاً لا شَاكّاً أَوْ مُتَرَدِّداً، **(مُسَلِّماً)** يَعْنِي مُسَلِّماً لِلْكِتَابِ والسُّنَّةِ، لأَنَّ هَذِهِ الأُمُورَ مَحَلُّ تَسْلِيمٍ، وَلَيْسَتْ مَحَلَّ جِدَالٍ، نُسَلِّمُ للهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ، وَلا نُجَادِلُ فِي هَذَا الأَمْرِ، أَوْ نُدْلِي بِرَأْيِنَا -كَمَا يَقُولُونَ- مَعَ كَلامِ اللهِ وَكَلامِ رَسُولِهِ.

قَوْلُهُ: **(فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ قَدْ بَقِيَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ الإِسْلاَمِ لَمْ يَكْفُنَاهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَدْ كَذَّبَهُمْ)** أَيْ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ الصَّحَابَةَ قَصَّرُوا فِي بَيَانِ الحَقِّ وَتَوْضِيحِهِ، وَحَمْلِهِ لِلنَّاسِ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ، وَيَزْعُمُ أَنَّ لَهُ مَجَالاً أَنْ يَتَكَلَّمَ أَوْ يُضِيفَ شَيْئاً؛ فَهَذَا يُرِيدُ الشَّرَّ بِالنَّاسِ، لأَنَّ الصَّحَابَةَ رضي الله عنهم مَا تَرَكُوا مِمَّا سَمِعُوا مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، أَوْ رَأَوْهُ شَيْئاً إِلاَّ بَلَّغُوهُ لِلأُمَّةِ بِأَمَانَةٍ، وَبَيَّنُوهُ لِلأُمَّةِ، وَلِذَلِكَ يُقَدَّمُ تَفْسِيرُ الصَّحَابَةِ عَلَى تَفْسِيرِ غَيْرِهِمْ؛ لأَنَّهُمْ تَلامِيذُ الرَّسُولِ ﷺ، وَسَمِعُوا مِنْهُ ﷺ القُرْآنَ، وَسَمِعُوا مِنْهُ الأَحَادِيثَ،

وَسَمِعُوا مِنْهُ بَيَانَ القُرْآنِ، وَرَأَوْا عَمَلَهُ ﷺ، فَنَقَلُوا ذَلِكَ بِأَمَانَةٍ، فَهُمْ لَمْ يَتْرُكُوا شَيْئاً.

فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُمْ قَصَّرُوا وَتَرَكُوا شَيْئاً لَمْ يُبَلِّغُوهُ فَإِنَّهُ كَذَّابٌ مُفْتَرٍ، ضَالٌّ مُضِلٌّ، يُشَكِّكُ النَّاسَ فِي دِينِ اللهِ، وَفِي حَمَلَتِهِ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهُوَ يُخَوِّنُ الصَّحَابَةَ، كَمَا هِيَ طَرِيقَةُ أَهْلِ البِدَعِ، يُخَوِّنُونَ الصَّحَابَةَ وَيَتَّهِمُونَهُمْ، مِنْ أَجْلِ أَنْ يُسْقِطُوا الوَاسِطَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَيَجِبُ الحَذَرُ مِنْ هَؤُلَاءِ، وَأَنْ نَعْلَمَ قَدْرَ الصَّحَابَةِ وَمَكَانَتَهُمْ ﷺ.

مِنْ أَيْنَ جَاءَنَا هَذَا القُرْآنُ، وَهَذِهِ الأَحَادِيثُ، وَهَذَا الفِقْهُ؟ إِلَّا مِنْ حَمْلِهِمْ وَتَحَمُّلِهِمْ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ، هُمُ الَّذِينَ حَمَلُوهُ لَنَا، وَرَوَوْهُ لَنَا كَامِلاً، كُلٌّ عَلَى قَدْرِ مَا وَهَبَهُ اللهُ، وَكُلٌّ عَلَى قَدْرِ طَاقَتِهِ، مَا تَرَكُوا شَيْئاً مِنْ دِينِ اللهِ إِلَّا بَلَّغُوهُ كَمَا تَحَمَّلُوهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهُمْ مَوْضِعُ الثِّقَةِ، لِأَنَّ اللهَ اخْتَارَهُمْ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ، وَالحَمْلِ عَنْهُ، وَالرِّوَايَةِ عَنْهُ، اخْتَارَهُمُ اللهُ لِذَلِكَ، فَيَأْتِي مَنْ يَتَّهِمُهُمْ بِالتَّقْصِيرِ!! أَوْ يَتَّهِمُهُمْ بِالنَّقْصِ!! لَا يَقُولُ هَذَا إِلَّا ضَالٌّ مُضِلٌّ، يُرِيدُ أَنْ يَقْطَعَ صِلَةَ الأُمَّةِ بِصَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَبِالتَّالِي يَقْطَعُ صِلَتَهُمْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، نَحْنُ مَا حَضَرْنَا مَجَالِسَ الرَّسُولِ ﷺ وَلَا سَمِعْنَاهَا، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَهُ قُرُونٌ، فَالصَّحَابَةُ الأَكْرَمُونَ ﷺ هُمُ الَّذِينَ بَلَّغُونَا عَنِ الرَّسُولِ ﷺ، فَمَقَامُ الصَّحَابَةِ فِي الدِّينِ مَقَامٌ عَظِيمٌ، وَلَا يُتَّهَمُونَ أَنَّهُمْ أَخْفَوْا شَيْئاً، أَوْ كَتَمُوا شَيْئاً وَلَمْ يُبَيِّنُوهُ.

قوله: **(فَهُوَ مُبْتَدِعٌ ضَالٌّ مُضِلٌّ، مُحْدِثٌ فِي الإِسْلَامِ مَا لَيْسَ مِنْهُ)** هَذَا هُوَ قَصْدُهُ، أَنْ يُحْدِثَ فِي الإِسْلَامِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، وَلَا يَتَمَكَّنُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا طَعَنَ فِي الصَّحَابَةِ وَخَوَّنَهُمْ وَكَذَّبَهُمْ، حِينَئِذٍ هُوَ يَبْتَكِرُ مِنْ عِنْدِهِ أَشْيَاءَ، وَيَقُولُ: هَذَا هُوَ الدِّينُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ نَسِيرَ عَلَيْهِ، هَذَا هَدَفُهُمْ مِنْ تَكْذِيبِ الصَّحَابَةِ وَتَخْوِينِهِمْ وَتَنَقُّصِهِمْ أَنْ تَسْمَحَ لَهُمُ الْفُرْصَةُ لِيَضَعُوا لِلنَّاسِ دِيناً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، وَبِحَسَبِ عُقُولِهِمْ وَآرَائِهِمْ، وَأَنْ نَأْخُذَ عَنْ شُيُوخِ الضَّلَالِ وَأَئِمَّةِ الضَّلَالِ، الَّذِينَ بَدَّلُوا سُنَّةَ الرَّسُولِ ﷺ بِالْكَذِبِ، وَزَيَّفُوا مَشَايِخَ وَأَسَانِيدَ مِنْ عِنْدِهِمْ مُخَالِفَةً لِمَصَادِرِ الإِسْلَامِ، وَهَذَا شَيْءٌ وَاضِحٌ مَوْجُودٌ فِي تُرَاثِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ.

لَكِنْ - بِحَمْدِ اللهِ - أَنَّهُ بَقِيَ مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الضَّلَالِ مُحَاصَراً، تَكْشِفُهُ أَضْوَاءُ الْحَقِّ وَأَنْوَارُ الْوَحْيِ، تَكْشِفُ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ هَذَا الْكَذِبِ الْكَثِيرِ الْمُدَوَّنِ فِي كُتُبِهِمْ.

❀ ❀ ❀

[٩] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي السُّنَّةِ قِيَاسٌ، وَلاَ تُضْرَبُ لَهَا الأَمْثَالُ، وَلاَ تُتَّبَعُ فِيهَا الأَهْوَاءُ، بَلْ هُوَ التَّصْدِيقُ بِآثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، بِلا كَيْفٍ وَلاَ شَرْحٍ، وَلاَ يُقَالُ: لِمَ وَلاَ كَيْفَ؟.

الشَّرْحُ:

السُّنَّةُ المُرَادُ بِهَا هُنَا: العَقِيدَةُ، لأَنَّ هَذَا الكِتَابَ فِي مَوْضُوعِ العَقِيدَةِ، والعَقِيدَةُ هِيَ السُّنَّةُ، وَهَذَا الكِتَابُ اسْمُهُ: «شَرْحُ السُّنَّةِ»، سُمِّيَتْ سُنَّةً لأَنَّ السُّنَّةَ هِيَ الطَّرِيقُ، والعَقِيدَةُ تَوْقِيفِيَّةٌ، لا مَجَالَ لِلزِّيَادَةِ فِيهَا أَبَداً، مَدَارُهَا عَلَى مَا جَاءَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَا خَالَفَ مَا جَاءَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّهُ بَاطِلٌ وَضَلالٌ. فَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ العُلَمَاءِ أَنَّ العَقِيدَةَ تَوْقِيفِيَّةٌ، لا يَدْخُلُهَا القِيَاسُ، لأَنَّ القِيَاسَ إِنَّمَا هُوَ فِي مَسَائِلِ الفِقْهِ، هِيَ الَّتِي يَدْخُلُهَا القِيَاسُ، وهِيَ أَحْكَامُ الحَلَالِ وَالحَرَامِ، أَمَّا مَسَائِلُ العَقِيدَةِ فَلَيْسَ فِيهَا قِيَاسٌ، وَإِنَّمَا هِيَ تَسْلِيمٌ وَانْقِيَادٌ لِمَا جَاءَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ مِنْ غَيْرِ تَدَخُّلٍ.

قَوْلُهُ: **(وَلا تُتَّبَعُ فِيهَا الأَهْوَاءُ)** يَعْنِي لا يُقَالُ فِي العَقِيدَةِ مَا وَافَقَ الهَوَى يُؤْخَذُ، وَمَا خَالَفَ الهَوَى يُرَدُّ، كَمَا هِيَ طَرِيقَةُ أَهْلِ الضَّلالِ، وَلِذَلِكَ سُمُّوا أَهْلَ الأَهْوَاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ [القصص: ٥٠]، فَمَنْ لَمْ يُسَلِّمْ لِلْعَقِيدَةِ الثَّابِتَةِ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَهُوَ إِنَّمَا يَتَّبِعُ هَوَاهُ، وَلِذَلِكَ يُسَمَّى أَهْلُ البِدَعِ فِي العَقِيدَةِ: أَهْلَ الأَهْوَاءِ، لأَنَّهُم

اتبعوا أهواءهم كما في الآية ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾.

قوله: **(بَلْ هُوَ التَّصْدِيقُ بِآثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، بِلا كَيْفٍ وَلاَ شَرْحٍ، وَلاَ يُقَالُ: لِم، وَلاَ كَيْفَ؟)** أي: التَّسْلِيمُ لأَقْوَالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ في أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ وَأُمُورِ العَقِيدَةِ، **(بِلا شَرْحٍ)**، يَعْنِي بِلا شَرْحٍ يُخَالِفُ مَعْنَاهَا الصَّحِيحَ، وَهُوَ الشَّرْحُ الَّذِي يُخَالِفُ مَدْلُولَ النُّصُوصِ، وَهَذَا انْتَشَرَ في الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَالأَشَاعِرَةِ كَزَعْمِهِم أَنَّ الْمُرَادَ بِاليَدِ: القُدْرَةُ، وَالْمُرَادَ بِالوَجْهِ: الذَّاتُ، وَالْمُرَادَ بِالاسْتِوَاءِ: الاسْتِيلاءُ. هَذَا شَرْحٌ بَاطِلٌ، لَيْسَ هَذَا هُوَ مَعْنَى هَذِهِ النُّصُوصِ، فَقَوْلُهُ: **(بِلا شَرْحٍ)** يَعْنِي بِلا شَرْحٍ بَاطِلٍ، أَمَّا شَرْحُهَا بِمَعْنَى بَيَانِ مَعْنَاهَا الصَّحِيحِ فَهَذَا حَقٌّ.

❀ ❀ ❀

[١٠] فالكَلامُ والخُصومَةُ وَالجِدالُ وَالمِراءُ مُحْدَثٌ، يَقْدَحُ الشَّكَّ في القَلْبِ، وَإِنْ أَصابَ صاحِبُهُ الحَقَّ وَالسُّنَّةَ.

الشَّرْحُ:

هَذِهِ الأُمورُ: الكَلامُ، وَالجِدالُ، وَالخُصوماتُ، الَّتي حَصَلَتْ بَيْنَ الفِرَقِ كُلُّها أُمورٌ مُحْدَثَةٌ، وَالَّذي سَبَّبَها هُوَ اتِّباعُ الأَهْواءِ، وَمَنْ كانَ هَواهُ تابِعاً لِما جاءَ بِهِ الرَّسولُ ﷺ فَإِنَّهُ لا يَكونُ عِنْدَهُ شَكٌّ وَلا مِراءٌ وَلا جِدالٌ وَلا خُصومَةٌ، لِأَنَّهُ مُسَلِّمٌ مُنْقادٌ، قالَ تَعالَى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[البقرة: ٣٨]، ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[طه: ١٢٣]، المَسْأَلَةُ مَسْأَلَةُ اتِّباعٍ وَانْقِيادٍ وَتَسْليمٍ لِأَمْرِ اللهِ وَرَسولِهِ، مِنْ غَيْرِ جِدالٍ وَمُخاصَماتٍ، ما وَقَعَ أَهْلُ الضَّلالِ بِالخُصوماتِ وَالجِدالِ إِلَّا بِسَبَبِ أَنَّهُمْ لَمْ يُسَلِّموا للهِ وَلِرَسولِهِ كَما سَلَّمَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَماعَةِ، وَلِذَلِكَ تَجِدونَ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالجَماعَةِ -وَللهِ الحَمْدُ- مُتَّحِدينَ لَيْسَ بَيْنَهُمُ اخْتِلافٌ في أَمْرِ العَقيدَةِ، إِنَّما الخِلافُ عِنْدَ الفِرَقِ الضَّالَّةِ، قالَ تَعالَى: ﴿ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[البقرة: ١٣٧]، وَمِصْداقُ هَذا في آيَةٍ أُخْرَى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[الأنعام: ١٥٣].

قَوْلُهُ: **(وَإِنْ أَصابَ صاحِبُهُ الحَقَّ وَالسُّنَّةَ)** أَيْ: فَهُوَ مُخْطِئٌ لِأَنَّهُ أَصابَهُما مِنْ غَيْرِ الطَّريقِ الصَّحيحِ، لِأَنَّ الطَّريقَ الصَّحيحَ: هُوَ التَّسْليمُ،

وعدمَ الخوضِ والجدالِ والمِراءِ الذي يشحنُ القلوبَ، ويبعثُ على الأحقادِ. ويَبْعثُ أيضاً على أشدَّ مِنْ ذلِكَ وَهُوَ التكفيرُ، لأنَّ الفِرَقَ الضَّالَّةَ يُكفِّرُ بعضُها بعضاً، ويُضلِّلُ بعضُها بعضاً، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]، كُلُّ واحِدٍ يَعْتبِرُ أنَّ ما هُوَ عليهِ هُوَ الصَّحيحُ، أمَّا أهْلُ السُّنَّةِ والجماعةِ الَّذينَ سلَّموا الأمْرَ وانقادُوا فإنَّهم لم يَحصُلْ بينَهم خِلافٌ وللهِ الحمْدُ، ولا يُكفِّرُ بعضُهُم بعضاً، ولا يُضلِّلُ بعضُهُم بعضاً، بَلْ يُثْني بعضُهُمْ على بعضٍ، ويَقْتدِي بعضُهُمْ ببعضٍ، لأنَّهم على طَريقٍ صَحيحٍ، إنَّما تحصُلُ الإحَنُ والأحقادُ والتَّكفيرُ والتَّضليلُ بسببِ مُخالفةِ الحَقِّ، والأخْذِ بالآراءِ والأفكارِ، لا شكَّ أنَّ كُلَّ واحِدٍ يُريدُ أنْ ينتصِرَ لِرأيِهِ، ولا يَقْبَلُ أنْ تقولَ لهُ: أنتَ مُخطِئٌ، معْنى هذا أنَّكَ تتَّهِمُ عقْلَهُ بالنَّقصِ، وهُوَ لا يرْضَى بهذا، لكِنْ إذا قُلْتَ لِصاحِبِ الحَقِّ إذا أخطأَ: أنتَ أخطأتَ الدَّليلَ، أخطأتَ السُّنَّةَ، فإنَّهُ يقْبَلُ؛ لأنَّ قَصْدَهُ الحَقُّ، وليْسَ قَصْدُهُ الانتصارَ لِرأيِهِ، فإذا قُلْتَ: يا فُلانُ، أنتَ أخطأتَ السُّنَّةَ، وأخطأتَ الدَّليلَ، فإنَّهُ يقْبَلُ ويتراجَعُ، أمَّا إذا قُلْتَ لِصاحِبِ الهَوَى: أنتَ أخطأتَ؛ فإنَّهُ يَغْضَبُ ويَشْتدُّ، وهذِهِ علامَةُ أهْلِ الأهْواءِ، أنَّ كُلَّ واحِدٍ يُريدُ أنْ ينتصِرَ لِهواهُ، أمَّا صاحِبُ الحَقِّ فهُوَ يُريدُ أنْ ينتصِرَ لِلحَقِّ، وهُوَ يبحثُ عنِ الحَقِّ، والحِكْمَةُ ضالَّةُ المؤمِنِ أينَما وجدَها أخذَها.

❀ ❀ ❀

[١١] وَاعْلَمْ - رَحِمَكَ اللهُ - أَنَّ الْكَلاَمَ فِي الرَّبِّ تَعَالَى مُحْدَثٌ، وَهُوَ بِدْعَةٌ وَضَلاَلَةٌ، وَلاَ يُتَكَلَّمُ فِي الرَّبِّ إِلاَّ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ، وَمَا بَيَّنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَصْحَابِهِ، فَهُوَ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - وَاحِدٌ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] رَبُّنَا أَوَّلٌ بِلاَ مَتَى، وَآخِرٌ بِلاَ مُنْتَهَى، يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، وَهُوَ عَلَى عَرْشِهِ اسْتَوَى، وَعِلْمُهُ بِكُلِّ مَكَانٍ، وَلاَ يَخْلُو مِنْ عِلْمِهِ مَكَانٌ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: **(أَنَّ الْكَلاَمَ فِي الرَّبِّ تَعَالَى مُحْدَثٌ، وَهُوَ بِدْعَةٌ وَضَلاَلَةٌ)**

أي: الكَلامُ فِي ذَاتِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى وفِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ أَمْرٌ مُحْدَثٌ، أَحْدَثَهُ أَهْلُ الضَّلالِ الَّذِينَ لا يُسَلِّمُونَ لِلنُّصُوصِ، ولَيْسَ عِنْدَهُم خَشْيَةٌ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَهُمْ يَتَكَلَّمُونَ فِي ذَاتِ الرَّبِّ وَيَتَكَلَّمُونَ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَيَجْحَدُونَ وَيَنْفُونَ مَا أَثْبَتَهُ اللهُ لِنَفْسِهِ أَوْ مَا أَثْبَتَهُ لَهُ رَسُولُهُ، وَيَأْتُونَ مِنْ عِنْدِهِمْ بِآرَاءٍ وَيَقُولُونَ: هَذِهِ هِيَ الصَّوَابُ، يَتَكَلَّمُونَ فِي تَفْسِيرِ النُّصُوصِ بِغَيْرِ تَفْسِيرِهَا، أَوْ أَنَّهُم يَقُولُونَ: مَا نَفْهَمُهَا نُفَوِّضُهَا إِلَى اللهِ، وَيَصِيرُ كَلامُ اللهِ وَكَلامُ رَسُولِهِ بِمَنْزِلَةِ الكَلامِ الأَعْجَمِيِّ الَّذِي لا يَفْهَمُهُ العَرَبُ، فَالوَاجِبُ عَلَى المُسْلِمِينَ أَنْ يَسْتَمِرُّوا مَعَ الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ، وَعَلَى طَرِيقِ السَّلَفِ، وَأَلاَّ يَلْتَفِتُوا لِهَؤُلاءِ المُضَلِّلِينَ، الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ، يُجَادِلُونَ فِي القُرْآنِ، وَيُجَادِلُونَ فِي السُّنَّةِ،

شَأْنُهُمُ الجِدَالُ، فَهَؤُلَاءِ يَجِبُ الحَذَرُ مِنْهُم، هَؤُلَاءِ لَيْسُوا مُتَّبِعِينَ، وَإِنَّمَا هُمْ مُبْتَدِعُونَ يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ.

قَوْلُهُ: **(وَلَا يَتَكَلَّمُ فِي الرَّبِّ إِلَّا بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي القُرْآنِ)** لَمَّا نَهَى عَنِ الجِدَالِ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالخُصُومَاتِ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ؛ بَيَّنَ الوَاجِبَ، وَهُوَ: أَنْ نُقِرَّ القُرْآنَ وَالسُّنَّةَ كَمَا جَاءَا، عَلَى مَعْنَاهَا المَعْنَى المَأْخُوذُ مِنَ اللُّغَةِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا القُرْآنُ وَالسُّنَّةُ؛ فَالعِلْمُ مَعْرُوفٌ مَعْنَاهُ فِي اللُّغَةِ، كَذَلِكَ الوَجْهُ مَعْرُوفٌ، وَالعَيْنُ، وَاليَدُ، وَالاسْتِوَاءُ، وَالعُلُوُّ، كُلُّ هَذِهِ وَأَمْثَالُهَا مَعْرُوفٌ مَعْنَاهَا فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا القُرْآنُ، أَهْلُ الضَّلَالِ يَقُولُونَ: لَيْسَ هَذَا الكَلَامُ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَانْقَسَمُوا إِلَى قِسْمَيْنِ:

- قِسْمٌ قَالُوا: نَتَوَقَّفُ، وَنَقُولُ: ظَاهِرُهَا غَيْرُ مُرَادٍ، وَلَا نَفْهَمُ المُرَادَ مِنْهَا، وَهُمُ المُفَوِّضَةُ.
- وَقِسْمٌ هُمُ المُؤَوِّلَةُ -وَهُمُ الأَكْثَرُ-، أَوَّلُوهَا بِغَيْرِ مَعْنَاهَا الصَّحِيحِ.

فَضَلُّوا، وَأَضَلُّوا، وَشَغَلُوا النَّاسَ، وَشَحَنُوا الكُتُبَ بِهَذِهِ المُنَاظَرَاتِ وَالمُجَادَلَاتِ وَالمُخَاصَمَاتِ بِغَيْرِ طَائِلٍ.

فَالوَاجِبُ التَّسْلِيمُ لِمَا فِي القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ، عَلَى مُرَادِ اللهِ وَرَسُولِهِ، لِأَنَّ اللهَ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَعْلَمُ بِغَيْرِهِ. وَأَعْلَمُ الخَلْقِ بِاللهِ هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ. أَمَّا نَحْنُ فَعِلْمُنَا قَاصِرٌ، نَحْنُ

لا نعلم كثيراً مِمَّا في أنْفُسِنَا مِنَ التَّفَاصِيلِ وَالعُرُوقِ وَالحَوَاسِّ، هُنَاكَ أشْيَاءُ لا نَعْرِفُهَا، هَلْ تَعْرِفُ الرُّوحَ مَا هِيَ؟ العَقْلُ مَا هُوَ؟ إذَا كُنْتَ لا تَعْرِفُ شَيْئاً مِنْ جِسْمِكَ وَلا مِنْ نَفْسِكَ؛ فَكَيْفَ تَتَكَلَّمُ فِي ذَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الَّتِي لا يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾[طه: ١١٠]، هَذَا خَارِجٌ عَنْ مَعْلُومَاتِهِمْ وَعَنْ تَصَوُّرَاتِهِمْ، وَلا يُقَاسُ اللهُ بِخَلْقِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هَذَا مِنْ تَنَقُّصِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَهُوَ أعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، وَأصْدَقُ قِيلاً، وَأحْسَنُ حَدِيثاً مِنْ خَلْقِهِ، كَمَا يَقُولُ شَيْخُ الإسْلامِ رَحِمَهُ اللهُ فِي الوَاسِطِيَّةِ[1].

قَوْلُهُ: (وَمَا بَيَّنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأصْحَابِهِ) مَدَارُ الأسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ عَلَى الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَتَفْسِيرُهَا أيْضاً فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلُغَةِ العَرَبِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الشَّرْعُ، وَلا نَذْهَبُ لِمَنْطِقِ أرِسْطُو أوْ أفْلاطُونَ أوْ فُلانٍ أوْ عَلاَّنٍ، هَذَا مِنَ التَّجَنِّي عَلَى شَرِيعَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَمِنِ اسْتِبْدَالِ الوَحْيِ بِالمَنْطِقِ وَعِلْمِ الكَلامِ، وَمَاذَا جَنَى عِلْمُ الكَلامِ وَالجِدَالِ عَلَى هَؤُلاءِ مِنَ الضَّلالِ وَالخَيْبَةِ وَالخُسْرَانِ! وَلَم يَصِلُوا إلَى نَتِيجَةٍ، وَهَذَا بِإقْرَارِهِمْ.

أفْنَوْا أعْمَارَهُمْ بِالجِدَالِ وَالخُصُومَاتِ وَأقَرُّوا فِي نِهَايَةِ الأمْرِ أنَّهُم مَا وَصَلُوا إلَى نَتِيجَةٍ، وَلَو أنَّهُم سَلَّمُوا للهِ وَلِرَسُولِهِ لاسْتَرَاحُوا.

(١) العقيدة الواسطية (ص/٧).

وَبِهَذَا يَقُولُ قَائِلُهُمْ:

نِهَايَةُ إِقْدَامِ العُقُولِ عِقَالُ ... وَأَغْلَبُ سَعْيِ العَالَمِينَ ضَلَالُ

وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا ... وَحَاصِلُ دُنْيَانَا أَذًى وَوَبَالُ

وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا ... إِلاَّ أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا[1]

فَقَدْ صَارُوا فِي شَكٍّ وَفِي رَيْبٍ، أَمَّا الَّذِينَ سَلَّمُوا للهِ وَلِرَسُولِهِ فَقَدِ اسْتَرَاحُوا مِنْ هَذَا.

وَيَقُولُ أَهْلُ الضَّلَالِ أَيْضاً:

لَعَمْرِي لَقَدْ طُفْتُ المَعَاهِدَ كُلَّهَا ... وَسَيَّرْتُ طَرْفِي بَيْنَ تِلْكَ المَعَالِمِ

فَلَمْ أَرَ إِلاَّ وَاضِعاً كَفَّ حَائِرٍ ... عَلَى ذَقَنٍ أَوْ قَارِعاً سِنَّ نَادِمِ[2]

طَافَ المَعَاهِدَ كُلَّهَا، مَعَاهِدَ الكَلَامِ وَالمَنْطِقِ وَالجِدَالِ، وَسَيَّرَ طَرْفَهُ بَيْنَهَا فَلَمْ يَجِدْ فِيهَا مَا يَشْفِي العَلِيلَ وَقَالَ[3]: «لَقَدْ تَأَمَّلْتُ الطُّرُقَ الكَلَامِيَّةَ، وَالمَنَاهِجَ الفَلْسَفِيَّةَ؛ فَمَا رَأَيْتُهَا تَشْفِي عَلِيلاً، وَلَا تَرْوِي غَلِيلاً، وَرَأَيْتُ أَقْرَبَ الطُّرُقِ طَرِيقَةَ القُرْآنِ؛ اقْرَأْ فِي الإِثْبَاتِ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[فاطر: ١٠]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه: ٥]، وَاقْرَأْ فِي

(١) هذه الأبيات للفخر الرازي. انظر: درء تعارض العقل والنقل(١/١٦٠)، ومنهاج السُّنَّة(٥/٢٧١).

(٢) هذان البيتان للشهرستاني صاحب كتاب الملل والنحل، انظر: درء تعارض العقل والنقل(١/١٥٩)، ومنهاج السُّنَّة(٥/٢٧٠).

(٣) القائل هُوَ الرَّازي كَمَا في كتاب النبوات لشيخ الإِسْلَام(ص/١١٧).

النَّفْيِ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[الشورى: ١١]، ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾[طه: ١١٠].

قَوْلُهُ: **(فَهُوَ- جَلَّ ثَنَاؤُهُ- وَاحِدٌ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾)** هُوَ سُبْحَانَهُ وَاحِدٌ، لا يُشَارِكُهُ أَحَدٌ لا فِي ذَاتِهِ، وَلا فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَلا فِي خَلْقِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَلا فِي عِبَادَتِهِ، لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ، فَلِمَاذَا تُتْعِبُ نَفْسَكَ؟! أَنْتَ مَخْلُوقٌ وَهُوَ خَالِقٌ، كَيْفَ يُحِيطُ الْمَخْلُوقُ بِالْخَالِقِ جَلَّ وَعَلا؟! فَأَنْتَ مَجَالُكَ أَنْ تُسَلِّمَ للهِ وَلِرَسُولِهِ، وَلا تُجَادِلْ وَلا تُمَارِ، وَلا تُتْعِبْ نَفْسَكَ وَتُتْعِبِ الآخَرِينَ، هَذَا هُوَ الْوَاجِبُ وَالْفَرْضُ، وَلِذَلِكَ الصَّحَابَةُ لَمْ يَتَكَلَّفُوا هَذَا التَّكَلُّفَ، وَلا تَوَقَّفُوا عِنْدَ آيَةٍ أَوْ عِنْدَ حَدِيثٍ، بَلْ يَقْرَؤُونَهَا وَيُسَلِّمُونَ لَهَا وَيَعْتَقِدُونَ مَا فِيهَا، وَلا حَصَلَ عِنْدَهُمْ مَشَاكِلُ أَبَداً، فَالْمَجَالُ هُوَ مَجَالُ التَّسْلِيمِ وَالانْقِيَادِ، وَلا نَخُوضُ فِي الْعَقَائِدِ بِمَا خَاضَ بِهِ أَهْلُ الْجَدَلِ وَأَهْلُ الْكَلامِ وَأَهْلُ الْمَنْطِقِ، فَتَكُونُ النَّتِيجَةُ كَمَا أَقَرُّوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْحَيْرَةِ وَالاضْطِرَابِ، وَعَدَمِ الْوُصُولِ إِلَى نَتِيجَةٍ، كَمَا قَالَ أَحَدُهُمْ:

وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا ... إِلاَّ أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا
قَالَ فُلانٌ وَقَالَ فُلانٌ، وَإِنْ قَالَ كَذَا فَالْجَوَابُ كَذَا.

قَوْلُهُ: **(رَبُّنَا أَوَّلٌ بِلاَ مَتَى، وَآخِرٌ بِلاَ مُنْتَهَى)** اللهُ جَلَّ وَعَلا أَوَّلٌ بِلا بِدَايَةٍ، وَآخِرٌ بِلا نِهَايَةٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾

[الحديد: ٣] أَسْمَاءٌ مُتَقَابِلَةٌ، الأَوَّلُ يُقَابِلُهُ الآخِرُ، الظَّاهِرُ يُقَابِلُهُ البَاطِنُ، وَقَدْ فَسَّرَ النَّبِيُّ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ فِي قَوْلِهِ: **«أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»**[1] هَذَا تَفْسِيرُ الرَّسُولِ ﷺ، ثُمَّ يَأْتِي مَنْ يُفَسِّرُ غَيْرَ تَفْسِيرِ الرَّسُولِ وَيَقُولُ: الظَّاهِرُ يَعْنِي ظَهَرَ لِلْعُقُولِ وَظَهَرَ بِالْبَرَاهِينِ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ فَوْقَ المَخْلُوقَاتِ أَوْ أَنَّهُ عَالٍ عَلَى العَرْشِ.... ! فَهَذَا بَاطِلٌ، مُخَالِفٌ لِتَفْسِيرِ الرَّسُولِ ﷺ، أَعْلَمُ النَّاسِ بِاللهِ هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَقَدْ فَسَّرَ هَذِهِ الآيَةَ بِتَفْسِيرٍ وَاضِحٍ، بِأَنَّ «الأَوَّلُ» هُوَ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، **(أَوَّلٌ بِلا بِدَايَةٍ)**، وَ«الآخِرُ» هُوَ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ، **(آخِرٌ بِلا نِهَايَةٍ)**، وَ«الظَّاهِرُ» الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ، فَوْقَ مَخْلُوقَاتِهِ ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٨]، ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ [الأنعام: ٦١] لَهُ فَوْقِيَّةُ الذَّاتِ، وَفَوْقِيَّةُ القَدْرِ، وَفَوْقِيَّةُ القَهْرِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، **«وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»** يَعْنِي أَنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ وَلا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، فَهُوَ مَعَ كَوْنِهِ عَالِيًا عَلَى مَخْلُوقَاتِهِ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ بَوَاطِنِهِمْ وَمَا تُخْفِيهِ صُدُورُهُمْ، ﴿ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران: ٥]

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (٤/ ٢٠٨٤ رقم ٢٧١٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ثُمَّ يَجِيءُ مَنْ يَقُولُ: اللهُ جَلَّ وَعَلا لا فَوْقَ، وَلا تَحْتَ، وَلا يَمْنَة، وَلا يَسْرَة، وَلا دَاخِلَ العَالَمِ وَلا خَارِجَهُ، فَهَذَا مَعْنَاهُ أَنَّهُ مَعْدُومٌ، كَمَا فِي كُتُبِ عُلَمَاءِ الكَلامِ.

قَوْلُهُ: **(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، وَهُوَ عَلَى عَرْشِهِ اسْتَوَى)** فَكَوْنُهُ يَعْلَمُ مَا فِي الأَرْضِ وَمَا تَحْتَ الأَرْضِ وَمَا تَحْتَ الثَّرَى لا يَتَنَافَى مَعَ كَوْنِهِ فَوْقَ العَرْشِ، لأَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلا يُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَلا يُحِيطُ بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شَيْءٌ، وَالخَلْقُ كُلُّهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ صَغِيرٌ كَلا شَيْءٍ، وَهُوَ العَظِيمُ، الكَبِيرُ، المُتَعَالِ، الجَلِيلُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَلا نَقِيسُهُ بِأَنْفُسِنَا، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الزمر: ٦٧]، المَخْلُوقَاتُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ كَلا شَيْءٍ، وَإِنْ كَانَتْ فِي أَنْظَارِ النَّاسِ عَظِيمَةً لَكِنْ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ كَلا شَيْءٍ أَمَامَ عَظَمَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لَكِنْ هَؤُلاءِ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ حِينَ جَحَدُوا قُدْرَتَهُ وَعَظَمَتَهُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[الحج: ٧٣-٧٤] مَا عَرَفُوا عَظَمَةَ اللهِ وَقُدْرَتَهُ وَجَلالَهُ وَعِلْمَهُ، فَهُمْ يَقِيسُونَهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَلِذَلِكَ تَنَقَّصُوا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ.

إِذَا كُنْتُمْ بِأَجْمَعِكُمْ مِنْ أَوَّلِكُمْ إِلَى آخِرِكُمْ وَجِنِّكُمْ وَإِنْسِكُمْ لَوِ اجْتَمَعْتُمْ لِخَلْقِ ذُبَابٍ -أَقَلِّ شَيْءٍ- لا تَسْتَطِيعُونَ، وَخُصُوصاً الَّذِينَ

تَدْعُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنَ الآلِهَةِ وَالأَرْبَابِ ﴿ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ﴾، لَوْ نَجْمَعُ مَهَرَةَ الأَطِبَّاءِ وَالحُذَّاقَ فِي العَالَمِ وَالصُّنَّاعَ وَالمُخْتَرِعِينَ وَنَقُولُ لَهُمْ: أَوْجِدُوا لَنَا ذُبَاباً لا يَسْتَطِيعُونَ، مَعَ أَنَّهُم يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَبْنُوا البَوَاخِرَ الهَائِلَةَ وَالَّتِي فِيهَا مَطَارَاتٌ وَتَحْمِلُ الطَّائِرَاتِ، وَيَبْنُوا الطَّائِرَاتِ الكَبِيرَةَ، يَقْدِرُونَ عَلَى صُنْعِ هَذِهِ الأَشْيَاءِ، أَمَّا خَلْقُ الذُّبَابِ، وَإِيدَاعُ الرُّوحِ فِيهِ؛ فلا يَسْتَطِيعُونَ، هُمْ يُصَوِّرُونَ صُورَةَ الذُّبَابِ، وَالإِنْسَانِ، وَالسَّبُعِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، لَكِن لا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَجْعَلُوهُ يَمْشِي وَيَتَكَلَّمُ، إِنَّمَا يُخَطِّطُونَ فَقَطْ تَخْطِيطاً، لَكِنْ نَفْخَ الرُّوحِ مِنْ أَمْرِ اللهِ جَلَّ وَعَلا، فَكَيْفَ يُقَاسُ الخَالِقُ جَلَّ وَعَلا بِالمَخْلُوقِ؟! لا تَبْلُغُهُ العُقُولُ وَالأَوْهَامُ، وَلا تَتَخَيَّلُهُ الأَفْكَارُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَوْلُهُ: (يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى وَهُوَ عَلَى عَرْشِهِ اسْتَوَى) لا يَتَنَافَى اسْتِوَاؤُهُ عَلَى العَرْشِ مَعَ كَوْنِهِ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، فَلا يُقَالُ أَنَّهُ إِذَا اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يَكُونُ بَعِيداً عَنِ النَّاسِ، وَلا يَسْمَعُ، وَلا يَرَى، فَهَذَا تَشْبِيهٌ لِلرَّبِّ بِالمَخْلُوقِ.

فَاللهُ جَلَّ وَعَلا: الأَشْيَاءُ عِنْدَهُ سَوَاءٌ، لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، القَرِيبُ وَالبَعِيدُ، وَأَوَّلُ الخَلْقِ وَآخِرُهُ، وَالدُّنْيَا وَالآخِرَةُ كُلُّ شَيْءٍ هُوَ فِي عِلْمِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلِذَلِكَ هَذَا الكَوْنُ الهَائِلُ يُسَيِّرُهُ سُبْحَانَهُ بِقُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ وَصَنْعَتِهِ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[فاطر: ٤١]، سَيَّرَ

الأفْلاكِ، وَسَيْرُ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ، عَلَى هَذَا الحِسَابِ الدَّقِيقِ الَّذِي لا يَتَخَلَّفُ، وَلا يَغْلَطُ، وَلا يُخْطِئُ، هَذَا مَنِ الَّذِي نَظَّمَهُ هَذَا التَّنْظِيمَ؟ هُوَ اللهُ جَلَّ وَعَلا.

القَمَرُ، وَالنُّجُومُ، مُنَظَّمَةٌ سَائِرَةٌ كَمَا هِيَ، إِلَى أَنْ يَشَاءَ اللهُ نِهَايَةَ هَذِهِ الدُّنْيَا، وَالانْتِقَالَ إِلَى الآخِرَةِ، الَّذِي نَظَّمَهَا حَكِيمٌ عَلِيمٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فَلَوْ تَأَمَّلْتَ فِي هَذَا الكَوْنِ لأَدْرَكْتَ عَظَمَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، النَّاسُ لَمَّا يَرَوْنَ آلَةً دَقِيقَةً يَتَعَجَّبُونَ مِنْ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ، وَهَذَا الصَّانِعِ، وَهِيَ قِطْعَةٌ صَغِيرَةٌ، فَكَيْفَ بِالكَوْنِ كُلِّهِ الَّذِي لا يَتَخَلَّفُ، مَنِ الَّذِي يُمِدُّهُ، وَمَنِ الَّذِي يَصُونُهُ؟ مَنِ الَّذِي يَصُونُ هَذَا الكَوْنَ كُلَّهُ وَلا يَتَغَيَّرُ، وَلا يَتَخَلَّفُ، وَلا يُقَصِّرُ فِيهِ شَيْءٌ؟ هُوَ اللهُ جَلَّ وَعَلا.

هَذِهِ المَخْلُوقَاتُ الصَّغِيرُ مِنْهَا وَالكَبِيرُ؛ مَنِ الَّذِي يَجْلِبُ لَهَا الأَرْزَاقَ؟ مَخْلُوقَاتٌ هَائِلَةٌ؛ مَنِ الَّذِي أَوْجَدَ لَهَا الرِّزْقَ كُلٌّ بِحَسَبِ حَالِهِ؟ هُوَ اللهُ جَلَّ وَعَلا.

فَالوَاجِبُ أَنْ نُسَلِّمَ لِمَا جَاءَ عَنِ اللهِ لأَنَّهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ، وَنُسَلِّمُ لِمَا جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ لأَنَّ الرَّسُولَ أَعْلَمُ الخَلْقِ بِرَبِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلا نَعْتَرِضُ، وَلا نَتَدَخَّلُ بِعُقُولِنَا وَأَفْكَارِنَا.

فَلا مُنَافَاةَ بَيْنَ كَوْنِهِ **(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى وَهُوَ عَلَى عَرْشِهِ اسْتَوَى).**

وَقَوْلُهُ: **(وَعِلْمُهُ بِكُلِّ مَكَانٍ، وَلاَ يَخْلُو مِنْ عِلْمِهِ مَكَانٌ)** عِلْمُهُ بِكُلِّ مَكَانٍ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران: ٥]، ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي

ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[الأنعام: ٥٩]، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ ﴾ يَعْني بالنَّوْمِ، ﴿ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم ﴾ أي: ما كَسَبْتُمْ، ﴿ بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾[الأنعام: ٦٠] تقُومُونَ مِنَ النَّوْمِ، مَن الذي أنامَكُمْ في الأوَّلِ، وَمَنِ الَّذي أيْقَظَكُمْ؟ هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعالَى، فَلَوْ فَكَّرْتَ في هَذا الكَوْنِ لَدَلَّكَ هَذا عَلَى عَظَمَةِ اللهِ، وَسَلَّمْتَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ. لَوْ تَأمَّلْتَ في كَلامِ الرَّسُولِ ﷺ وَمَا أخْبَرَ بِهِ مِنَ الحَوَادِثِ المَاضِيَةِ وَالمُسْتَقْبَلَةِ، الَّتي تَأتِي كَمَا أخْبَرَ ﷺ، مَنِ الَّذِي دَلَّهُ عَلَى هَذا؟ هُوَ اللهُ جَلَّ وَعَلا، هُوَ الَّذي أوْحَى إلَيْهِ، لَيْسَ هُوَ مِنْ عِنْدِهِ، وَإنَّما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَوْ نَزَّلْتَ الأحَادِيثَ عَلَى الوَقَائِعِ فَإنَّكَ تَتَعَجَّبُ، الرَّسُولُ ﷺ يَذْكُرُ لَنَا مِنْ سِيَرِ الأنْبِياءِ وَالأمَمِ الشَّيْءَ الكَثِيرَ مَعَ أنَّ عَصْرَهُ مُتَأخِّرٌ، مَنِ الَّذي أطْلَعَهُ عَلَى هَذا؟ هُوَ اللهُ جَلَّ وَعَلا، فَهَذا دَلِيلٌ عَلَى أنَّهُ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ، هَذا القُرْآنُ العَظِيمُ لا يُمْكِنُ أنْ يَأتِيَ بِهِ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[الإسراء: ٨٨]، هُوَ مِنْ كَلامِ اللهِ جَلَّ وَعَلا، وَإنَّما الرَّسُولُ مُبَلِّغٌ عَنِ اللهِ جَلَّ وَعَلا، ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾[الأنعام: ١٩] فَهُوَ مُبَلِّغٌ عَنِ اللهِ جَلَّ وَعَلا.

[١٢] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَلاَ يَقُولُ فِي صِفَاتِ الرَّبِّ تَعَالَى: كَيْفَ؟ وَلِمَ؟ إِلاَّ شَاكٌّ فِي اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

الشَّرْحُ:

لا يُسْأَلُ عَنِ الكَيْفِيَّةِ، وَلا يُسْأَلُ عَنِ التَّعْلِيلِ لِمَ قَالَ كَذَا؟ بَلْ يُسَلِّمُ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، لأَنَّهُ لا يَعْلَمُ الكَيْفِيَّةَ إِلاَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

[١٣] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالقُرآنُ كَلامُ اللهِ وَتَنْزِيلُهُ وَنُورُهُ، وَلَيسَ مَخْلُوقاً؛ لأَنَّ القُرآنَ مِنَ اللهِ، وَمَا كَانَ مِنَ اللهِ فَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ، وَهَكَذَا قَالَ مَالِكُ بنُ أَنسٍ، وَأَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُمُ اللهُ، وَمَنْ قَبْلَهما مِنَ الفُقَهاءِ وَمَنْ بَعْدَهُمَا، وَالمِرَاءُ فِيه كُفْرٌ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: **(وَالقُرآنُ كَلامُ اللهِ وَتَنْزِيلُهُ وَنُورُهُ، وَلَيسَ مَخْلُوقاً)** مِن اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ: أَنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ، تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً، وَسَمِعَهُ مِنْهُ جِبْرِيلُ، وَنَزَلَ بِهِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، هَذِهِ عَقِيدَةٌ لَمْ يُخَالِفْ فِيهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ السَّائِرِينَ عَلَى سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَإِنَّمَا خَالَفَ فِيهَا أَهْلُ الضَّلالِ مِنَ الجَهْمِيَّةِ أَتْبَاعِ الجَهْمِ بنِ صَفْوَانَ، وَأَفْرَاخِ الجَهْمِيَّةِ مِنَ المُعْتَزِلَةِ، وَالزَّيْدِيَّةِ، وَالشِّيعَةِ، كُلُّ هَؤُلاءِ أَخَذُوا عَنِ الجَهْمِيَّةِ هَذِهِ المَسْأَلَةَ. وَكَذَلِكَ الإِبَاضِيَّةُ كُلُّهُمْ يَسِيرُونَ عَلَى هَذَا المَنْهَجِ المُخَالِفِ لِمَنْهَجِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، فَيَرَوْنَ أَنَّ القُرآنَ مَخْلُوقٌ، لأَنَّ اللهَ عِنْدَهُم لا يُوْصَفُ بِأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ، كَمَا أَنَّهُ لا يُوصَفُ بِالسَّمْعِ وَالبَصَرِ وَالعِلْمِ وَالإِرَادَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ، وَلا يُوْصَفُ بِأَنَّ لَهُ وَجْهاً، وَأَنَّ لَهُ يَدَيْنِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ. وَقَصْدُهُم من هَذَا إِفْسَادُ العَقِيدَةِ وَإِنْ كَانُوا يَتَظَاهَرُونَ أَنَّ قَصْدَهُم تَنْزِيهُ اللهِ جَلَّ وَعَلا عَنْ مُشَابَهَةِ المَخْلُوقِينَ، وَهَذَا زَعْمٌ بَاطِلٌ؛ فَإِنَّ صِفَاتِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ لا تُشْبِهُ صِفَاتِ المَخْلُوقِينَ، الرَّبُّ جَلَّ وَعَلا لَهُ أَسْمَاءٌ وَصِفَاتٌ تَلِيقُ بِهِ وَبِعَظَمَتِهِ، وَلِلْمَخْلُوقِينَ أَسْمَاءٌ وصِفَاتٌ تَلِيقُ بِهِمْ

وَبَشَرِيَّتِهِمْ، فلا تَشابُهَ بَيْنَ النَّوْعَيْنِ مِنْ جِهَةِ الحَقِيقَةِ والكَيْفِيَّةِ، وَإِنْ كانَتْ تَشْتَرِكُ في المَعْنَى وَاللَّفْظِ، وَهَذا ما يُسَمَّى بِالمُتَواطِئِ، لَكِنَّها لا تَشْتَرِكُ في الحَقِيقَةِ وَالكَيْفِيَّةِ. هَذا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ، وَدَلِيلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ مِنْ كِتابِ اللهِ: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦] أَضافَ الكَلامَ إِلَى نَفْسِهِ سُبْحانَهُ وتَعالَى، وَقالَ في المُنافِقِينَ: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [الفتح: ١٥] أَضافَهُ إِلَى نَفْسِهِ، وَالأَدِلَّةُ مِنَ السُّنَّةِ وَمِنْ إِجْماعِ الأُمَّةِ كَثِيرَةٌ عَلَى هَذِهِ المَسْأَلَةِ، فَهِيَ مَسْأَلَةٌ يَقِينِيَّةٌ بِلا شَكٍّ، وَلا يُؤَثِّرُ فِيها اخْتِلافُ أَهْلِ الضَّلالِ، بِأَنَّ القُرْآنَ كَلامُ اللهِ، وَهُوَ فَرْدٌ مِنْ أَفْرادِ كَلامِهِ سُبْحانَهُ، اللهُ يَتَكَلَّمُ وَلا يَزالُ يَتَكَلَّمُ مَتَى شاءَ، إِذا شاءَ، بِما شاءَ، مَوْصُوفٌ بِالكَلامِ، وَهَذا القُرْآنُ مِنْ أَفْرادِ كَلامِ اللهِ، تَكَلَّمَ بِالتَّوْراةِ، وَبِالإِنْجِيلِ، وَبِالزَّبُورِ، يَتَكَلَّمُ بِالأَمْرِ وَالنَّهْيِ، يَقُولُ لِلشَّيْءِ: كُنْ فَيَكُونُ ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] فَأَثْبَتَ لِنَفْسِهِ القَوْلَ، ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وَكَلَّمَ مُوسَى بِكَلامٍ سَمِعَهُ مُوسَى حِينَما أَرْسَلَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ. فَاللهُ جَلَّ وَعَلا مَوْصُوفٌ بِالكَلامِ، وَمِنْ كَلامِهِ القُرْآنُ الكَرِيمُ.

وَأَمَّا قَوْلُ أَهْلِ الضَّلالِ أَنَّ إِضافَتَهُ إِلَى اللهِ مِنْ إِضافَةِ المَخْلُوقِ إِلَى خالِقِهِ، مِثْلُ: ناقَةِ اللهِ، وَبَيْتِ اللهِ، فَنَقُولُ: هَذا مِنَ الافْتِراءِ وَالتَّلْبِيسِ، فَالمُضافُ إِلَى اللهِ قِسْمانِ:

- **الأَوَّلُ**: إِضافَةُ مَعانٍ.

• **الثَّانِي**: إضَافَةُ أعْيَانٍ.

المَعَانِي: إضَافَتُهَا إلَى اللهِ إضَافَةُ صِفَةٍ إلَى مَوصُوفٍ، وَهِيَ إضَافَةٌ حَقِيقِيَّةٌ، فَهِيَ مِنْ صِفَاتِهِ؛ كَالكَلَامِ، وَالسَّمْعِ، وَالبَصَرِ.

وَإضَافَةُ الأعْيَانِ: كَالنَّاقَةِ، وَالبَيْتِ، هَذِهِ إضَافَةُ مَخْلُوقٍ إلَى خَالِقِهِ، وَهِيَ إضَافَةُ تَشْرِيفٍ. فَهُمْ خَلَطُوا بَيْنَ الأمْرَيْنِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ هَذَا وَهَذَا، وَلِذَلِكَ نَصَّ أهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ عَلَى هَذِهِ المَسْألَةِ فِي كُتُبِ العَقَائِدِ لِيَرُدُّوا عَلَى أهْلِ الضَّلَالِ. وَإذَا كَانَ اللهُ لَيْسَ لَهُ كَلَامٌ كَمَا يَزْعُمُونَ فَكَيْفَ يَأمُرُ وَيَنْهَى؟ وهذا مَعْنَاهُ أنَّهَا تَتَعَطَّلُ الأحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ، وَيَنْهَدِمُ أصْلُ الأصُولِ وَهُوَ القُرْآنُ. فَإذَا انْهَدَمَ هَذَا الأصْلُ انْهَدَمَ الإسْلَامُ، وَلَكِنْ هُمْ يَلُوذُونَ بِالتَّنْزِيهِ، وَلَيْسَ هَذَا هُوَ التَّنْزِيهُ، هَذَا تَعْطِيلٌ، وَفَرْقٌ بَيْنَ التَّعْطِيلِ وَبَيْنَ التَّنْزِيهِ، التَّنْزِيهُ: هُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥]، هَذَا هُوَ التَّنْزِيهُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ وَهُوَ نَفْيُ أنْ يُشَبَّهَ المَخْلُوقُ بِالخَالِقِ، أوْ يُسَاوَى المَخْلُوقُ بِالخَالِقِ، هَذَا هُوَ الَّذِي يُنَزَّهُ اللهُ جَلَّ وَعَلَا عَنْهُ، أمَّا نَفْيُ الصِّفَاتِ فَهَذَا تَعْطِيلٌ نَاشِئٌ عَنِ التَّشْبِيهِ، فَهُمْ شَبَّهُوا أوَّلًا ثُمَّ عَطَّلُوا ثَانِياً، وَلَيْسَ تَنْزِيهاً، فَفَرْقٌ بَيْنَ التَّنْزِيهِ والتَّعْطِيلِ.

جَاءَتِ الأشَاعِرَةُ بِشَيْءٍ عَجِيبٍ أعْجَبَ مِنْ قَوْلِ الجَهْمِيَّةِ فَقَالُوا: كَلَامُ اللهِ يَنْقَسِمُ إلَى قِسْمَيْنِ: مَعَانٍ، وَألْفَاظٌ.

المعاني هي كلامُ الله، والله يُوصَفُ بأنَّ له كلاما وهو المعنى القديمُ القائمُ بنفسِه، أمّا أنّ الله يتكلّمُ بحرفٍ وبصوتٍ فهذا منفيٌّ عندهم عن الله، ويقولون هو معنًى قائمٌ بنفسِه سبحانَه وتعالى، وأمّا اللفظُ: فهو كلامُ المخلوقِ، أي: هو من كلامِ جبريلَ أو من كلامِ محمدٍ ﷺ.

فجعلوا القرآنَ مكوّنًا من شيئين: من مخلوقٍ، وغيرِ مخلوقٍ. فلا هم صاروا مع أهلِ السنّةِ، وقالوا: القرآنُ غيرُ مخلوقٍ، ولا هم صاروا مع الجهميّةِ وقالوا: القرآنُ كلُّه مخلوقٌ، كانوا مذبذبين، مثلُ مقالةِ النصارى في المسيحِ: أنّه مكوّنٌ من شيئين: من اللاهوتِ، والناسوتِ، ويقولون: اتّحدَ اللاهوتُ بالناسوتِ.

فالحاصلُ: أنّ هذه مسألةٌ عظيمةٌ جدًّا، ولا يهولنّكم قولُ المخذّلين الذين يدّعون أنّهم من أهلِ السنّةِ، ويقولون: ما تحتملُ هذه المسألةُ هذا الجدالَ، والإمامُ أحمدُ مبالغٌ في كونِه امتنعَ أنْ يقولَ بخلقِ القرآنِ، وأنّ المسألةَ لا تحتملُ كلَّ هذا، هذا موجودٌ في كتاباتِ بعضِ من ينتسبُ إلى العلمِ، وبعضُهم يقولُ: ما حصلَ بينَ أحمدَ وخصومِه خلافٌ سياسيٌّ!

فإذا تأمّلتَ وجدتَ المسألةَ ليستْ خفيفةً، إذا نفى أنْ يكونَ القرآنُ كلامَ اللهِ فماذا يبقى معنا؟! إذا عُطّلَ الربُّ من صفةِ الكلامِ فهذا نقصٌ في الربِّ سبحانَه؛ لأنّ الذي لا يتكلّمُ ليسَ بإلهٍ، والله سبحانَه عابَ على اليهودِ لمّا عبدوا العجلَ فقالَ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾، الربُّ لابدَّ أنّه يتكلّمُ، ويدبّرُ، ويأمرُ وينهى، فالله إذا نُفيَ عنه الكلامُ صارَ لا يصلُح

بِلإِلٰهِيَّةِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ. فَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ عَظِيمَةٌ، وَلِهَذَا فَإِنَّ الإِمَامَ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللهُ وَقَفَ مَوْقِفَ الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ، وَلَمْ يَتَنَازَلْ، وَلَمْ يَتَأَوَّلْ، وَصَبَرَ عَلَى المِحْنَةِ، صَبَرَ عَلَى السِّجْنِ وَعَلَى الضَّرْبِ، وَعَلَى الإِهَانَةِ، مِنْ ثَلَاثَةِ خُلَفَاءَ: المَأْمُونُ، وَالمُعْتَصِمُ، وَالوَاثِقُ، كُلُّهُمْ تَتَابَعُوا عَلَى تَعْذِيبِهِ، يُرِيدُونَ مِنْهُ أَنْ يَتَنَازَلَ، فَأَبَى رَحِمَهُ اللهُ وَثَبَتَ، وَفِي آخِرِ عَهْدِ الوَاثِقِ يُقَالُ إِنَّهُ رَجَعَ لَمَّا حَصَلَتْ عِنْدَهُ مُنَاظَرَةٌ بَيْنَ عَالِمٍ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَبَيْنَ بِشْرٍ المَرِيسِيِّ، وَانْكَسَرَ المَرِيسِيُّ عِنْدَ ذَلِكَ تَرَاجَعَ الوَاثِقُ(1).

---

(1) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء(١٠/٣٠٧- ٣٠٩): «قال إبراهيم بن أسباط: حمل رجل مقيد، فأدخل على ابن أبي دؤاد بحضور الواثق، فقال لأحمد بن أبي دؤاد: أخبرني عن ما دعوتم الناس إليه، أعلمه رسول الله ﷺ فما دعا إليه أم شيء لم يعلمه؟ قال: بل علمه. قال: فكان يسعه أن لا يدعو الناس إليه وأنتم لا يسعكم؟ فبهتوا، وضحك الواثق، وقام قابضاً على فمه، ودخل مجلسه ومد رجليه وهو يقول: أمر وسع رسول الله ﷺ أن يسكت عنه ولا يسعنا؟! ثم أمر أن يعطي الشيخ ثلاث مئة دينار، وأن يرد إلى بلده.

وعن طاهر بن خلف قال: سمعت المهتدي بالله بن الواثق يقول: كان أبي إذا أراد أن يقتل رجلاً أحضرنا. قال: فأتي بشيخ مخضوب مقيد، فقال أبي: ائذنوا لأحمد بن أبي دواد وأصحابه.

وأدخل الشيخ فقال: السلام عليكم يا أمير المؤمنين. فقال: لا سلم الله عليك. قال: بئس ما أدبك مؤدبك! قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦]، فقال أحمد بن أبي دؤاد: الرجل متكلم. قال: كلمه. فقال: يا شيخ، ما تقول في القرآن؟ قال: لم تنصفني، ولي السؤال! قال: سل. قال: ما تقول أنت؟ قال: مخلوق. قال: هذا شيء علمه رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر والخلفاء أم لم يعلموه؟ فقال: شيء لم يعلموه. قال: سبحان الله! شيء لم يعلموه وعلمته أنت؟!! فخجل، وقال: أقلني. قال: المسألة بحالها، ما تقول في القرآن؟ قال: مخلوق. قال: شيء علمه رسول الله؟ قال: علمه. قال: أعلمه ولم يدع الناس إليه؟ قال: نعم. قال: فوسعه ذلك؟ قال: نعم. قال: أفلا وسعك ما وسعه ووسع الخلفاء بعده؟! فقام الواثق فدخل الخلوة، واستلقى وهو يقول: شيء لم يعلمه النبي ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي علمته أنت! سبحان الله! عرفوه ولم يدعوا إليه الناس! فهلا وسعك ما وسعهم! ثم أمر برفع قيد الشيخ، وأمر له بأربع مئة دينار، وسقط من عينه ابن أبي دؤاد، ولم يمتحن بعدها أحداً».

فَالحاصِلُ: أنَّ هَذِهِ المَسْألَةَ عَظِيمَةٌ، وَهِيَ مُهِمَّةٌ جِدًّا لا يُتَهاوَنُ بِها، ولا يُقالُ -كَما يَقُولُهُ بَعْضُ الجُهّالِ وَالكُتّابِ وَالمُثَقَّفِينَ، أَوِ الأَشاعِرَةُ، أَوْ مَنْ نَحا نَحْوَهُمْ-: هَذِهِ مَسْأَلَةٌ لا تَحْتَمِلُ كُلَّ هَذا الاهْتِمامِ، وَهَذِهِ الرُّدُودُ، وَقَدِ احْتَجَّ الإِمامُ أَحْمَدُ عليهم بِقَوْلِهِ: ﴿ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾[التوبة: ٦] ﴿ كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾[الفتح: ١٥] «قالَ اللهُ» أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ الكَلامَ وَالقَوْلَ.

(وتَنْزِيلُهُ) أيِ: القُرآنَ، أَنْزَلَهُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِواسِطَةِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ، قالَ تَعالَى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[الشعراء: ١٩٣-١٩٥] فَهَذا واضِحٌ وَجَلِيٌّ، وَمَعَ هَذا فَيَأْتِي مَنْ يَقُولُ: القُرْآنُ مَخْلُوقٌ غَيْرُ مُنَزَّلٍ، واللهُ لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ، واللهُ لا يُوصَفُ بِالكَلامِ!! تَعالَى اللهُ عَمّا يَقُولُونَ.

قَوْلُهُ: **(ونُورُهُ)** القُرْآنُ يُوصَفُ بِأَنَّهُ نُورٌ، قالَ تَعالَى: ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾[الشورى: ٥٢]، وَيُسَمَّى رُوحًا، ﴿ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾[الشورى: ٥٢] رُوحٌ لأَنَّ القُلُوبَ تَحْيا بِهِ، كَما أَنَّ الأَبْدانَ تَحْيا بِالرُّوحِ، فَهُوَ رُوحُ القُلُوبِ، والرُّوحُ المَعْرُوفَةُ رُوحُ الأَبْدانِ، فَهُوَ نُورٌ، وَهُوَ رُوحٌ، وَهُوَ هُدًى، وَهُوَ تَذْكِرَةٌ وَمَوْعِظَةٌ، وَلَهُ أَسْماءٌ كَثِيرَةٌ مِمّا يَدُلُّ عَلَى عَظَمَتِهِ.

قَوْلُهُ: **(لأنَّ القُرْآنَ مِنَ اللهِ، وَمَا كَانَ مِنَ اللهِ فَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ)** اللهُ جَلَّ وَعَلا بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ، فَهُوَ خَالِقٌ وَغَيْرُهُ مَخْلُوقٌ، فَلا يُقَالُ: إِنَّ الأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ مَخْلُوقَةٌ، لأَنَّهَا مِنَ اللهِ، وَمَا كَانَ مِنَ اللهِ فَهُوَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، بِمَعْنَى أَنَّ اللهَ يُوصَفُ بِهَا، فَاللهُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ خَالِقٌ، وَمَا عَدَاهُ فَهُوَ مَخْلُوقٌ.

قَوْلُهُ: **(وَهَكَذَا قَالَ مَالِكُ بنُ أَنَسٍ، وَأَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُمُ اللهُ)** هَذَا قَوْلُ الأَئِمَّةِ، وَمِنْهُم مَالِكٌ إِمَامُ دَارِ الهِجْرَةِ، وَالإِمَامُ أَحْمَدُ، الَّذِي عُذِّبَ عَلَى هَذَا، وَأُوذِيَ رَحِمَهُ اللهُ وَصَبَرَ، وَغَيْرُهُم مِنْ أَئِمَّةِ أَهْلِ السُّنَّةِ، هَذَا قَوْلُهُم.

قَوْلُهُ: **(وَمَنْ قَبْلَهُمَا مِنَ الفُقَهَاءِ وَمَنْ بَعْدَهُمَا)** يَعْنِي لَمْ يَنْفَرِدِ الإِمَامُ مَالِكٌ وَالإِمَامُ أَحْمَدُ بِهَذَا، بَلْ قَالَ بِهِ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَأَتْبَاعِ التَّابِعِينَ، وَمَنْ بَعْدَهُم مِمَّنْ جَاءَ بَعْدَهُم مِنَ الأَئِمَّةِ.

قَوْلُهُ: **(وَالمِرَاءُ فِيهِ كُفْرٌ)** المِرَاءُ فِي القُرْآنِ هَلْ هُوَ مَخْلُوقٌ أَوْ غَيْرُ مَخْلُوقٍ؟ أو أَنَّ الإِنْسَانَ يَتَشَكَّكُ وَيَقُولُ: مَا أَدْرِي، المَسْأَلَةُ خِلافِيَّةٌ، كَمَا يَقُولُونَهُ الآنَ.

فَقَدْ ظَهَرَتْ ظَاهِرَةٌ الآنَ؛ يَقُولُونَ: المَسْأَلَةُ خِلافِيَّةٌ، فَنَقُولُ: عِنْدَ الاخْتِلافِ المُتَّبَعُ الدَّلِيلُ، فَمَا تُعُبِّدْنَا بِخِلافِ النَّاسِ وَأَقْوَالِ النَّاسِ، تُعُبِّدْنَا بِالدَّلِيلِ، فَنَعْرِضُ الخِلافَ عَلَى الدَّلِيلِ، مَا قَامَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ فَهُوَ الحَقُّ، مَا خَالَفَ الدَّلِيلَ فَهُوَ البَاطِلُ، وَاللهُ لَمْ يَتْرُكْنَا لِلآرَاءِ وَالأَقْوَالِ وَالخِلافِ، بَلْ

قَالَ: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾[النساء: ٥٩]، ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ ﴾[الشورى: ١٠]، فَيَجِبُ الرَّدُّ إِلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، فَيُؤْخَذُ مَا قَامَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ، وَيُتْرَكُ مَا خَالَفَ الدَّلِيلَ، وَأَمَّا الَّذِي يَأْخُذُ القَوْلَ الَّذِي يُوَافِقُ هَوَاهُ أَوْ شَهْوَتَهُ وَلَو خَالَفَ الدَّلِيلَ فَهَذَا ضَالٌّ، هَذَا يَعْبُدُ هَوَاهُ، أَمَّا الَّذِي يَعْبُدُ اللهَ فَيَأْخُذُ الَّذِي قَامَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ مِنْ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ.

❀ ❀ ❀

[١٤] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيمَانُ بِالرُّؤْيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَرَوْنَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بِأَعْيُنِ رُؤُوسِهِمْ، وَهُوَ يُحَاسِبُهُمْ بِلاَ حَاجِبٍ وَلاَ تُرْجُمَانٍ.

الشَّرْح:

وَمِنْ مَسَائِلِ الْعَقِيدَةِ الْمُهِمَّةِ الْعَظِيمَةِ: إِثْبَاتُ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِيَاناً بِأَبْصَارِهِمْ، كَمَا يَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَكَمَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْواً لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ، كَمَا جَاءَ فِي الأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ، الَّتِي تَوَاتَرَتْ فِي إِثْبَاتِ رُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ، وَقَدْ سَاقَ الإِمَامُ ابنُ الْقَيِّمِ فِي «حَادِي الأَرْوَاحِ»[١] الأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي هَذَا، وَتَوَسَّعَ فِي ذَلِكَ بِأَسَانِيدِهَا، وَهِيَ مُتَوَاتِرَةٌ فِي إِثْبَاتِ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ عِيَاناً بِأَبْصَارِهِمْ.

وَخَالَفَ فِي ذَلِكَ أَهْلُ الضَّلاَلِ مِنَ الْفِرَقِ الضَّالَّةِ كَالْمُعْتَزِلَةِ وَمَنْ ذَهَبَ مَذْهَبَهُمْ، فَنَفَوا الرُّؤْيَةَ، وَهِيَ مَذْكُورَةٌ فِي الْقُرْآنِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[يونس:٢٦]، جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: أَنَّ الزِّيَادَةَ هِيَ: النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى[٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (١/١٩٦ فما بعدها).

(٢) روى مُسْلِمٌ في صَحيحه (١/١٦٣ رقم ١٨١) عَنْ صُهَيْبٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئاً أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾».

فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق: ٣٥]، وَالمَزِيدُ هُوَ: النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى[1]، وجَاءَ في سُورَةِ القِيامَةِ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]. نَاضِرةٌ بالضَّادِ مِنَ النُّضْرَةِ، وَهِيَ البَهَاءُ. ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ [المطففين: ٢٤] ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٣] بالظَّاءِ، أَيْ: بِأَبْصَارِهَا تَنْظُرُ إِلَى اللهِ جَلَّ وَعَلا، يَتَنَعَّمُونَ بِذَلِكَ أَشَدَّ مِمَّا يَتَنَعَّمُونَ بِنَعِيمِ الجَنَّةِ، هَذَا فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ، فِي سُورَةِ المُطَفِّفِينَ قَالَ فِي الكُفَّارِ: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين: ١٥] مَحْجُوبُونَ عَنْ رُؤْيَةِ اللهِ، فَإِذَا كَانَ الكُفَّارُ مَحْجُوبِينَ عَنْ رُؤْيَةِ اللهِ فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ المُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ عَزَّ وَجَلَّ، وذَلِكَ لأَنَّ المُؤْمِنِينَ آمَنُوا بِهِ فِي الدُّنْيَا وَلَمْ يَرَوْهُ، بَلِ اعْتَمَدُوا عَلَى البَرَاهِينِ فَآمَنُوا بِهِ، وَصَدَّقُوا رُسُلَهُ، فَآمَنُوا بِهِ وَلَمْ يَرَوْهُ فِي الدُّنْيَا؛ فَأَكْرَمَهُمُ اللهُ فِي الجَنَّةِ فَتَجَلَّى لَهُمْ وَرَأَوْهُ عِيَاناً، لَمَّا آمَنُوا بِهِ فِي الدُّنْيَا وَلَمْ يَرَوْهُ، وَأَمَّا الكُفَّارُ لَمَّا كَفَرُوا بِهِ فِي الدُّنْيَا حَجَبَهُمُ اللهُ عَنْ رُؤْيَتِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ جَزَاءً لَهُم، ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴾ [النبأ: ٢٦].

وَمِنَ الشُّبَهِ الَّتِي اعْتَمَدَ عَلَيْهَا المُعْتَزِلَةُ وَمَنْ قَالَ بِقَوْلِهِمْ: أَنَّ اللهَ قَالَ لِمُوسَى ﴿ لَن تَرَانِي ﴾، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ

(١) ورد ذلكَ في حديث أنسٍ ﷺ، رَوَاهُ الإمام الشافعي في مسنده(ص/٧٠)، والبزار في مسنده(رقم٣٥١٩- كشف الأستار)، وابن جرير في تفسيره(١٧٥/٢٦) وغيرهم، وَصَحَّحَهُ الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة(٢٧٢/٦رقم٢٢٩).

مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ﴾ [الأعراف: ١٤٣] قَالُوا: وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللهَ لا يُرَى، نَقُولُ: نَعَمْ هَذَا فِي الدُّنْيَا، لأَنَّ الوَاقِعَةَ هَذِهِ حَصَلَتْ فِي الدُّنْيَا، نَحْنُ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ اللهَ لا يُرَى فِي الدُّنْيَا، فَمُوسَى سَأَلَ أَنْ يَرَاهُ فِي الدُّنْيَا، قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلا: ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِى ﴾ يَعْنِي فِي الدُّنْيَا، وَالنَّفْيُ بـ«لَنْ» لا يَقْتَضِي التَّأْبِيدَ، بَلْ هُوَ نَفْيٌ مُؤَقَّتٌ، فَهُوَ ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِى ﴾ يَعْنِي: لَنْ تَرَانِي فِي الدُّنْيَا، وفِي لُغَةِ العَرَبِ أَنَّ النَّفْيَ بـ«لَنْ» لا يَقْتَضِي التَّأْبِيدَ، وَلِهَذَا يَقُولُ ابنُ مَالِكٍ فِي الكَافِيَةِ الشَّافِيَةِ فِي النَّحْوِ:

وَمَنْ يَرَى النَّفْيَ بِـ لَنْ مُؤَبَّداً   فَقَوْلَهُ ارْدُدْ وَسِوَاهُ فَاعْضُدَا[1]

أَيْ أَنَّ «لَنْ» لا تَقْتَضِي النَّفْيَ المُؤَبَّدَ. وَالدَّلِيلُ أَيْضاً: أَنَّ اللهَ قَالَ فِي اليَهُودِ: ﴿ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝٩٤ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا ﴾ [البقرة: ٩٤-٩٥]، مَعَ أَنَّهُ جَاءَ أَنَّهُم فِي الآخِرَةِ يَتَمَنَّوْنَ المَوْتَ لِيَسْتَرِيحُوا مِنَ العَذَابِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [الزخرف: ٧٧]، طَلَبُوا المَوْتَ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ «لَنْ» لَيْسَتْ لِلنَّفْيِ المُؤَبَّدِ، هَذَا هُوَ مُقْتَضَى اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَهُوَ مُقْتَضَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ القُرْآنُ.

قَالُوا أَيْضاً: مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللهَ لا يُرَى، قَوْلُهُ: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، نَقُولُ لَهُم: هَذَا لَيْسَ نَفْياً

(١) انظر: الكافية الشافية لابن مالك (٣/١٥٣١) مع شرحها لولده بدر الدين محمد.

للرُّؤْيَةِ، وَإِنَّمَا هُوَ نَفْيٌ لِلإِدْرَاكِ، مَا قَالَ لا تَرَاهُ الأَبْصَارُ، قَالَ: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ﴾ وَنَفْيُ الإِدْرَاكِ غَيْرُ نَفْيِ الرُّؤْيَةِ، فَالأَبْصَارُ تَرَاهُ لَكِنَّهَا لا تُدْرِكُهُ، يَعْنِي لا تُحِيطُ بِهِ. فَالإِدْرَاكُ هُوَ: الإِحَاطَةُ بِاللهِ جَلَّ وَعَلا، فَهُمْ وَإِنْ رَأَوْهُ فِي الجَنَّةِ لا يُحِيطُونَ بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَالْمَنْفِيُّ هُوَ الإِدْرَاكُ الَّذِي بِمَعْنَى الإِحَاطَةِ، فَهِيَ تَرَاهُ لَكِنَّهَا لا تُدْرِكُهُ، لَكِنَّهَا تَرَاهُ بِمُوجِبِ الأَدِلَّةِ، وَالجَمْعُ بَيْنَ النُّصُوصِ هُوَ الوَاجِبُ، إِذَا حَصَلَ شَيْءٌ مِنَ الاخْتِلافِ بَيْنَ النُّصُوصِ فَمَهْمَا أَمْكَنَ الجَمْعُ فَيُجْمَعُ بَيْنَهَا، وَهَذَا وَاضِحٌ وَالحَمْدُ للهِ، وَكَلامُ اللهِ لا يَتَنَاقَضُ أَبَداً، بَلْ يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضاً، أَمَّا الَّذِي يَأْخُذُ آيَةً وَيَتْرُكُ الآيَةَ الأُخْرَى فَهَذَا مِنْ أَهْلِ الزَّيْغِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾[آل عمران: ٧]، فَالقُرْآنُ يُسْتَدَلُّ بِهِ كُلِّهِ ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾[آل عمران: ٧] كَمَا يَقُولُ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ، فَيُفَسِّرُ القُرْآنُ بَعْضُهُ بَعْضاً، وَلا يَخْتَلِفُ أَبَداً، لأَنَّ اللهَ نَفَى عَنْهُ الاخْتِلافَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[النساء: ٨٢]، فَإِذَا أَشْكَلَتْ عَلَيْكَ آيَةٌ فَإِنَّكَ تَلْتَمِسُ فِي القُرْآنِ مَا يُفَسِّرُهَا، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَإِنَّكَ تَذْهَبُ إِلَى السُّنَّةِ تَجِدُ فِي السُّنَّةِ مَا يُفَسِّرُهَا، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي السُّنَّةِ مَا يُفَسِّرُهَا فَإِنَّكَ تَذْهَبُ إِلَى أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ رَوَوْا عَنِ الرَّسُولِ ﷺ تَجِدُ فِي أَقْوَالِهِمْ مَا يُفَسِّرُ الآيَةَ الَّتِي أَشْكَلَتْ عَلَيْكَ. القُرْآنُ وَللهِ الحَمْدُ مَحْفُوظٌ فِي لَفْظِهِ وَفِي مَعْنَاهُ، لا يَتَعَارَضُ وَلا يَتَنَاقَضُ، إِنَّمَا التَّعَارُضُ فِي أَفْهَامِ البَشَرِ.

وَكَذَلِكَ الْمُتَعَالِمُونَ الَّذِينَ لَمْ يَدْرُسُوا الْعِلْمَ وَلَمْ يَأْخُذُوا قَوَاعِدَ الاسْتِدْلَالِ وَالْمَدَارِكِ، يَسْتَدِلُّونَ بِلا فِقْهٍ، وَيُثْبِتُونَ أَشْيَاءَ مَا أَثْبَتَهَا قَبْلَهُمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، بِسَبَبِ الْجَهْلِ وَالتَّعَالُمِ، فَهَذِهِ الْقَضَايَا عَظِيمَةٌ، تَحْتَاجُ إِلَى تَعَلُّمٍ، وَإِلَى دِقَّةٍ، وَإِلَى تَرَوٍّ، وَإِلَى تَثَبُّتٍ، لأَنَّ الْعَقِيدَةَ هِيَ الأَصْلُ، وَأَيُّ خَلَلٍ فِيهَا فَهُوَ خَلَلٌ فِي الأَصْلِ. فَهَذَا حَاصِلُ خِلافِ النَّاسِ فِي رُؤْيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. فَاللهُ لا يُرَى فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا يَرَاهُ الْمُؤْمِنُونَ فِي الآخِرَةِ، وَيُحْجَبُ عَنْهُ الْكَافِرُونَ.

قَوْلُهُ: **(وَالإِيمَانُ بِالرُّؤْيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)** لِمَاذَا قَالَ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ لأَنَّهُ لا يُرَى جَلَّ وَعَلا فِي الدُّنْيَا.

قَوْلُهُ: **(يَرَوْنَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بِأَعْيُنِ رُؤُوسِهِمْ)** قَالَ: بِأَعْيُنِ رُؤُوسِهِمْ نَفْيًا لِتَأْوِيلِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: مَعْنَى «يَرَوْنَ رَبَّهُمْ»؛ أَيْ: بِقُلُوبِهِمْ، لا بِأَبْصَارِهِمْ.

قَوْلُهُ: **(وَهُوَ يُحَاسِبُهُمْ بِلاَ حَاجِبٍ وَلاَ تُرْجُمَانٍ)** أَيْ: فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ عِنْدَ الْحِسَابِ يَخْلُو الْعَبْدُ بِرَبِّهِ وَيُحَاسِبُهُ اللهُ عَلَى أَعْمَالِهِ بِلُغَتِهِ الَّتِي يَفْهَمُهَا الْعَبْدُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، التُّرْجُمَانُ: هُوَ الَّذِي يَنْقُلُ الْمَعْنَى مِنْ لُغَةٍ إِلَى لُغَةٍ أُخْرَى، كَالَّذِي يَنْقُلُ الْمَعْنَى مِنَ اللُّغَةِ الإِنْجِلِيزِيَّةِ إِلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَوِ الْعَكْسِ، لأَنَّ اللُّغَاتِ كَثِيرَةٌ.

[١٥] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيمَانُ بِالمِيزَانِ يَوْمَ القِيَامَةِ، يُوزَنُ فِيهِ الخَيْرُ وَالشَّرُّ، لَهُ كِفَّتَانِ وَلَهُ لِسَانٌ.

الشَّرْحُ:

مِنْ مَسَائِلِ العَقِيدَةِ: الإِيمَانُ بِالمِيزَانِ، الَّذِي تُوزَنُ بِهِ أَعْمَالُ العِبَادِ يَوْمَ القِيَامَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾[الأعراف: ٨-٩]، في الآيَةِ الأُخْرَى﴿ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾[المؤمنون: ١٠٣]، إِذَا ثَقُلَ مِيزَانُ الحَسَنَاتِ سَعِدَ العَبْدُ، وَإِذَا انْعَكَسَ وَثَقُلَتِ السَّيِّئَاتُ هَلَكَ العَبْدُ، ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ ۝١١ ﴾[القارعة: ٦-١١]، وَهَذَا مِنْ عَدْلِ اللهِ جَلَّ وَعَلا، أَنَّهُ يُوازِنُ بَيْنَ حَسَنَاتِهِمْ وَسَيِّئَاتِهِمْ بِمِيزَانٍ يَرَوْنَهُ، مِيزَانٍ مَحْسُوسٍ، لَهُ كِفَّتَانِ، وَلَهُ لِسَانٌ، تُوضَعُ الحَسَنَاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالسَّيِّئَاتُ فِي كِفَّةٍ، كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، خِلافاً لِلْمُعْتَزِلَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: المُرَادُ بِالمَوَازِينِ وَالمِيزَانِ: إِقَامَةُ العَدْلِ، وَإِلاَّ فَلَيْسَ هُنَاكَ مِيزَانٌ مَحْسُوسٌ بِنَاءً عَلَى مَذْهَبِهِمُ البَاطِلِ؛ لأَنَّهُم يَعْتَمِدُونَ عَلَى

عُقُولِهِمْ. وَلا يَعْتَمِدُونَ عَلَى النُّصُوصِ، فَالْمِيزَانُ حَقِيقِيٌّ، لَهُ كِفَّتَانِ، كَمَا جَاءَ فِي الأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ[1].

قَوْلُهُ: **(يُوزَنُ فِيهِ الخَيْرُ وَالشَّرُّ)** أَيِ: الحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ.

قَوْلُهُ: **(لَهُ كِفَّتَانِ وَلَهُ لِسَانٌ)** لَهُ كِفَّتَانِ كَمَا جَاءَ فِي الأَحَادِيثِ، تُوضَعُ الحَسَنَاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالسَّيِّئَاتُ فِي كِفَّةٍ، كَمَا فِي حَدِيثِ البِطَاقَةِ فِي قِصَّةِ الَّذِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ سِجِلاً، كُلُّ سِجِلٍ مِنْهَا مَدُّ البَصَرِ مَمْلُوءَةٌ بِالسَّيِّئَاتِ، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ لَكَ مِنْ حَسَنَةٍ؟ فَيَقُولُ: لا يَا رَبِّ، فَيَتَعَاظَمُ هَذِهِ الصَّحَائِفَ الكَبِيرَةَ وَيَقُولُ: لا يَا رَبِّ، فَيُقَالُ: بَلَى، إِنَّكَ لا تُظْلَمُ عِنْدَنَا لَكَ حَسَنَةٌ، فَيُؤْتَى بِبِطَاقَةٍ فِيهَا شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَشَهَادَةُ أَنَّ مُحَمَّدً رَسُولُ اللهِ، فَتُوضَعُ فِي كِفَّةٍ، وَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كِفَّةٍ فَتَرْجَحُ البِطَاقَةُ، وَتَطِيشُ السِّجِلاَّتُ، فَيَدْخُلُ الجَنَّةَ[2]. هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هُنَاكَ كِفَّتَيْنِ لِهَذَا المِيزَانِ تُوضَعُ فِيهَا الأَعْمَالُ يَوْمَ القِيَامَةِ.

---

(١) وَسَيَأْتِي ذِكْرُ بَعْضِهَا، وَقَالَ أَبُو الحسن الأشعري في مقالات الإسلاميين(١/٤٧٢): وَقَالَ أهل الحقّ: له لسان وكفتان، توزن في إحدى كفتيه الحسنات، وفي الأخرى السيئات... وَقَالَ أهل البدع بإبطال الميزان، وقالوا: موازين وليس بمعنى كفّاتٍ وألْسُنٍ، ولكنها المجازاة يجازيهم الله بأعمالهم وزناً بوزن، وأنكروا الميزان...

(٢) عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «يُصَاحُ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الخَلائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُنْشَرُ لَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلاً، كُلُّ سِجِلٍ مِنْهَا مَدُّ البَصَرِ، ثُمَّ يُقَالُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئاً فَيَقُولُ: لا يَا رَبِّ. فَيُقَالُ: أَلَكَ عُذْرٌ، أَوْ حَسَنَةٌ؟ فَيَهَابُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لا. فَيُقَالُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَاتٍ، وَإِنَّهُ لا ظُلْمَ عَلَيْكَ. فَيُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ، فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاَّتِ؟! فَيُقَالُ: إِنَّكَ لا تُظْلَمُ. فَتُوضَعُ السِّجِلاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلاتُ، وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ» =

(وَلَهُ لِسَانٌ) لِسَانُ المِيْزَانِ مَعْرُوفٌ عِنْدَ النَّاسِ، يُسَمُّونَهُ قَلْبَ المِيْزَانِ الَّذِي يَمِيلُ يَمْنَةً أَوْ يَسْرَةً، فَإِذَا تَسَاوَتِ الكِفَّتَانِ اعْتَدَلَ قَلْبُ المِيْزَانِ، وَإِذَا رَجَحَتْ كِفَّةٌ مَالَ القَلْبُ.

* رَوَاهُ ابنُ المُبَارَكِ في الزُّهْدِ(رقم ٣٧١)، وَفي مُسْنَدِهِ(رقم ١٠٠)، والإمَامُ أَحْمَدُ في مُسْنَدِهِ(٢/ ٢١٣، ٢٢٢)، والتِّرْمِذِيُّ في سُنَنِهِ(رقم ٢٦٣٩)، وَابنُ مَاجَةَ في سُنَنِهِ(رقم ٤٣٠٠)، وَابنُ حِبَّانَ في صَحِيحِهِ(رقم ٤٦١)، والحَاكِمُ في المُسْتَدْرَكِ(١/ ٥٢٩)، والبَغَوِيُّ في شَرْحِ السُّنَّةِ(رقم ٤٣٢١)، وَغَيْرُهُمْ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: «حَسَنٌ غَرِيبٌ»، وَصَحَّحَهُ ابنُ حِبَّانَ، والحَاكِمُ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ.

[١٦] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيمَانِ بِعَذَابِ القَبْرِ، وَمُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ.

الشَّرْحُ:

كَذَلِكَ مِنْ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ: الإِيمَانُ بِعَذَابِ القَبْرِ، وَنَعِيمِ القَبْرِ. فَالمَيِّتُ إِمَّا أَنْ يُعَذَّبَ فِي قَبْرِهِ، وَإِمَّا أَنْ يُنَعَّمَ، إِلَى أَنْ يُبْعَثَ يَوْمَ القِيَامَةِ.

وَالقَبْرُ: هُوَ مَنْزِلَةٌ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَلِذَلِكَ يُسَمَّى بِالبَرْزَخِ، لأَنَّ البَرْزَخَ: هُوَ الحَاجِزُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ [الرَّحْمَن: ١٩- ٢٠]، لا يَبْغِي المَالِحُ عَلَى العَذْبِ، وَلا يَبْغِي العَذْبُ عَلَى المَالِحِ، لأَنَّ اللهَ جَعَلَ بَيْنَهُمَا فَاصِلاً، لا يَخْتَلِطُ هَذَا بِهَذَا، فَالبَرْزَخُ: هُوَ الفَاصِلُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، لأَنَّ الدُّورَ ثَلاثٌ:

- **دَارُ الدُّنْيَا.**
- **وَدَارُ البَرْزَخِ.**
- **وَدَارُ القَرَارِ.**

هَذِهِ الدُّورُ الَّتِي يَمُرُّ بِهَا العِبَادُ، دَارُ الدُّنْيَا مَحَلُّ العَمَلِ، وَدَارُ البَرْزَخِ وَهِيَ مَحَلُّ الانْتِظَارِ، وَدَارُ القَرَارِ هِيَ دَارُ الجَزَاءِ. وَاللهُ جَلَّ وَعَلا يَقُولُ: ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ [التكاثر: ٢] فَدَلَّ عَلَى أَنَّ المَقَابِرَ لَيْسَتْ مَحَلَّ إِقَامَةٍ، بَلْ الإِنْسَانُ فِيهَا مِثْلُ الزَّائِرِ الَّذِي يَزُورُ وَيَرْتَحِلُ، جَعَلَ المُكْثَ فِي المَقَابِرِ زِيَارَةً، لأَنَّهُ يُقِيمُ فِيهَا ثُمَّ يَرْتَحِل.

لكِنْ في فترَةِ وُجُودِهِ في القبْرِ أوّلَ ما يُوضَعُ في القبْرِ ويُسوّى عليْهِ التُّرابُ، وينْصرِفُ النّاسُ عنْهُ، «وإنّهُ ليسْمَعُ قرْعَ نِعالِهِمْ»(١)، يأْتِيهِ ملَكانِ في القبْرِ فيُجْلِسانِهِ وتُعادُ رُوحُهُ في جسَدِهِ، ويحْيا حياةً برْزخيّةً، وليْستْ مِثْلَ الحياةِ الّتِي في الدُّنْيا. فيسْألانِهِ: منْ ربُّك؟ وما دِينُك؟ ومنْ نبِيُّك؟ فإذا أجابَ على هذِهِ الأسْئِلةِ بِجوابٍ صحِيحٍ نجا، ويسْعدُ سعادةً لا شقاءَ بعْدها، ويُوسّعُ لهُ في قبْرِهِ مدّ بصرِهِ، ويُفْتحُ لهُ بابٌ إلى الجنّةِ، ويأْتِيهِ مِنْ رَوْحِها وطِيبِها، ويُؤْمرُ لهُ بِفِراشٍ مِن الجنّةِ(٢)، فلا يزالُ في نعِيمٍ في قبْرِهِ، وهذا أمْرٌ غيْبِيٌّ لا نعْلمُهُ، فلوْ فتحْنا القبْر ما وجدْنا مِنْ ذلِك شيْئًا، لأنّهُ في عالمٍ ونحْنُ في عالمٍ آخر.

وأمّا المنافِقُ والمُرْتابُ فإنّهُ يقُولُ «إذا قِيل لهُ: منْ ربُّك؟ قال: لا أدْرِي، منْ نبِيُّك؟ لا أدْرِي، ما دِينُك؟ لا أدْرِي»، حتّى وإنْ كان في الدُّنْيا مُتعلِّمًا ويحْفظُ المُتُون والشُّرُوح، ويحْفظُ اللُّغة، وهُو خطِيبٌ مُصْقِعٌ، ومُتحدِّثٌ مُفوّهٌ، لكِنْ إذا كان ليْس عِنْدهُ إيمانٌ؛ فإنّهُ يتلعْثمُ في القبْرِ، ويعْجزُ عنِ الجوابِ، عِنْدما يُسْألُ عنْ هذِهِ المسائِلِ يتلجْلجُ،

---

(١) رواهُ البُخارِيُّ في صحِيحِهِ(١/٤٤٨رقم١٢٧٣)، ومُسْلِمٌ في صحِيحِهِ(٤/٢٢٠٠رقم٢٨٧٠) عن أنس ﷺ.

(٢) ورد ذلِك في الحدِيثِ البراء بن عازِبٍ ﷺ، رواهُ الطيالسي في مسنده(ص/١٠٢)، والإمامُ أحْمدُ في المُسْند(٤/٢٨٧)، وأبو داود في سننه(٤/٢٣٩رقم٤٧٥٣)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين(١/٩٣- ٩٦) وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وصحّحهُ ابن القيم في "إعلام الموقعين" (١ / ٢١٤).

وَيَقُولُ: «هَا هَا لا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئاً فَقُلْتُهُ، فَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلاعُهُ، وَيَأْتِيهِ مِنْ سَمُومِهَا وَحَرِّهَا، وَيُفْرَشُ لَهُ فِرَاشٌ مِنَ النَّارِ»[1].

فَعَذَابُ القَبْرِ أَوْ نَعِيمُهُ ثَابِتَانِ فِي الكِتَابِ والسُّنَّةِ قَالَ ﷺ: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ: مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ»[2] فَكَانَ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ[3].

وَفِي القُرْآنِ إِشَارَاتٌ إِلَى عَذَابِ القَبْرِ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ ﴾ [السجدة: ٢١] قَالُوا: هَذَا عَذَابُ القَبْرِ. وَقِيلَ: عَذَابُ الدُّنْيَا، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦] يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا هَذَا فِي القَبْرِ، لَمَّا مَاتُوا صَارُوا يُعْرَضُونَ عَلَى النَّارِ غُدُوًّا وَعَشِيًّا، فَإِذَا قَامَتِ القِيَامَةُ يُقَالُ: ﴿ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن

(١) جُزْءٌ مِنْ حَدِيثِ البَرَاءِ ﷺ الَّذِي سَبَقَ تَخْرِيجُهُ (ص/١٣١).
(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ (١/٤٦٣رقم١٣١١)، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (١/٤١٢رقم٥٨٨) عن أبي هريرة ﷺ.
(٣) رَوَاهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ (١/٣٥٦رقم١٠٠٢)، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (١/٤١٠رقم٥٨٤) عن عائشة رضي الله عنها.

ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴾ [طه:١٢٤].
قالوا: معيشة ضنكاً في القبرِ[١]، والعياذُ باللهِ.

فالأدلةُ على عذابِ القبرِ متواترةٌ، فمَنْ كذَّبَ بعذابِ القبرِ مِنَ المُعتزلةِ ومَنْ نحا نحوَهُمْ فإنَّهُ مُخالِفٌ للأدلةِ المتواترةِ، ويكونُ مُختلَّ العقيدةِ والعياذُ باللهِ، وفاقِداً لأصلٍ مِنْ أصولِ العقيدةِ وهُوَ الإيمانُ بعذابِ القبرِ، فإنْ كانَ متعمِّداً عارِفاً بالنُّصوصِ لكنْ يُكابِرُ ويَنفي فهُوَ كافِرٌ، أمَّا إذا كانَ متأوِّلاً أوْ مُقلِّداً أوْ جاهِلاً فهذا لا يُكفَّرُ، لكنْ يُضلَّلُ ولا يُكفَّرُ.

قَوْلُهُ: **(وَمُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ)** «مُنْكَرٌ» و«نَكِيرٌ» اسمانِ للمَلَكَيْنِ الَّذيْنِ يأتِيانِهِ في صُورةٍ مُروِّعةٍ، يُقالُ لأحدِهِما: «المُنْكَرُ» والآخَرُ: «النَّكِيرُ»، كَمَا جاءَ ذلِكَ في الأحاديثِ[٢].

---

(١) ذكرَ ابن كثيرٍ في تفسيرِه(٣/١٧٠) أنَّهُ ثبتَ تفسيرُ «معيشةً ضنكاً» بعذابِ القبرِ عن أبي سعيد الخدري وأبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا.

(٢) رواهُ التِّرمذيّ في سُننِهِ(٣/٣٨٣رقم١٠٧١)، وابن أبي عاصم في السنة(٢/٤١٦رقم٨٦٤)، والحارث بن أبي أسامة في مسنده(١/٣٧٧رقم٢٨٠)، وابن حبان في صحيحه(٧/٢٨٦رقم٣١١٧) عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ.
قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إذا قُبِرَ المَيِّتُ أتاهُ مَلَكانِ أسودانِ أزرقانِ، يُقالُ لأحدِهِما المُنْكَرُ، والآخَرُ النَّكِيرُ»** قال التِّرمذيّ: «حسن غريب».

[١٧] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيمَانُ بِحَوْضِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضٌ، إِلاَّ صَالِحاً عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَإِنَّ حَوْضَهُ ضَرْعُ نَاقَتِهِ.

الشَّرْحُ:

كَذَلِكَ مِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ: الإِيمَانُ بِالحَوْضِ، فَالرَّسُولُ ﷺ لَهُ حَوْضٌ، وَكُلُّ نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ لَهُ حَوْضٌ تَرِدُهُ أُمَّتُهُ، لأَنَّ النَّاسَ يُصِيبُهُمْ عَطَشٌ شَدِيدٌ، يَحْتَاجُونَ إِلَى المَاءِ، وَحَوْضُ نَبِيِّنَا هُوَ أَعْظَمُ الحِيَاضِ، طُولُهُ شَهْرٌ، وَعَرْضُهُ شَهْرٌ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ العَسَلِ، وَآنِيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ يَشْرَبُ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَداً[١]، وَيُذَادُ عَنْهُ المُرْتَدُّونَ الَّذِينَ ارْتَدُّوا بَعْدَ الرَّسُولِ ﷺ، وَيُذَادُ عَنْهُ مَنْ كَذَّبَ بِهِ -وَاللهُ أَعْلَمُ- مِنْ أَهْلِ البِدَعِ.

(١) ورد في ذلك أحاديث متواترة منها: ما رواه مسلم في صحيحه(١٧٩٣/٤ رقم٢٢٩٢) عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال رسول الله ﷺ: «حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ، وَمَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ الوَرِقِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ من المِسْكِ، وكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلا يَظْمَأُ بَعْدَهُ أَبَدًا». وروى في صحيحه(٢١٧/١ رقم٢٤٧) عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ حَوْضِي أَبْعَدُ من أَيْلَةَ مِنْ عَدَنٍ لَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا من الثَّلْجِ، وَأَحْلَى من العَسَلِ بِاللَّبَنِ، وَلَآنِيَتُهُ أَكْثَرُ من عَدَدِ النُّجُومِ وَإِنِّي لَأَصُدُّ النَّاسَ عَنْهُ، كما يَصُدُّ الرَّجُلُ إِبِلَ النَّاسِ عن حَوْضِهِ» قالوا: يا رسول الله، أتعرفنا يومئذ؟ قال: «نعم لَكُمْ سِيمَا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ من الأُمَمِ تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ من أَثَرِ الوُضُوءِ، وَلَيُصَدَّنَّ عَنِّي طَائِفَةٌ مِنْكُمْ فلا يَصِلُونَ فَأَقُولُ يا رَبِّ هَؤُلَاءِ من أَصْحَابِي فَيُجِيبُنِي مَلَكٌ فيقول وَهَلْ تَدْرِي ما أَحْدَثُوا بَعْدَكَ».

قَوْلُهُ: **(وَلِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضٌ، إلاَّ صَالِحاً عَلَيْهِ السَّلامُ فَإِنَّ حَوْضَهُ ضَرْعُ نَاقَتِهِ)** هَذَا الاستِثْنَاءُ لَمْ يَثْبُتْ فِيمَا أَعْلَمُ، وَالصَّوابُ أَنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضاً كَمَا جَاءَ في الحَدِيثِ[1].

(١) ورد ذلكَ من حديث سمرةَ بن جندب ﷺ قَالَ: قال رسول اللهِ ﷺ: «إنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةً وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً» رَوَاهُ البُخَارِيُّ في التَّاريخ الكبير(١/٤٤)، والتِّرمذيّ(٤/٦٢٨رقم٢٤٤٣)، وابن أبي عاصم في السنة(رقم٧٣٤)، والطَّبَرَانِي في المُعْجَم الكبير (٧/٢١٢رقم٦٨٨١)، وصَحَّحَهُ الحافظ المزي بِطُرُقِهِ كَمَا ذَكَرَهُ ابنُ كَثِيرٍ في تفسيره(١/٣٦٣).

[١٨] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيمَانُ بِشَفَاعَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِلْمُذْنِبِينَ الْخَاطِئِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَى الصِّرَاطِ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ جَوْفِ جَهَنَّمَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ وَلَهُ شَفَاعَةٌ، وَكَذَلِكَ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ وَالصَّالِحُونَ، وَللهِ بَعْدَ ذَلِكَ تَفَضُّلٌ كَثِيرٌ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَالْخُرُوجُ مِنَ النَّارِ بَعْدَمَا احْتَرَقُوا، وَصَارُوا فَحْماً.

الشَّرْح:

مِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ: الإِيمَانُ بالشَّفَاعَةِ بِالشُّرُوطِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ جَلَّ وَعَلا: أَنْ تَكُونَ بِإِذْنِهِ، وَأَنْ يَكُونَ المَشْفُوعُ فِيهِ مِنْ أَهْلِ الإِيمَانِ. أَمَّا إِنْ كَانَ المَشْفُوعُ فِيهِ مِنْ أَهْلِ الكُفْرِ فَإِنَّهَا لا تُقْبَلُ فِيهِ الشَّفَاعَةِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ [المدثر: ٤٨]، ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨]؛ فَالكَافِرُ لَيْسَ فِيهِ شَفَاعَةٌ أَبداً. وَأَمَّا المُؤْمِنُ فَإِنَّ الشَّفَاعَةَ ثَابِتَةٌ فِي حَقِّهِ إِذَا أَذِنَ اللهُ جَلَّ وَعَلا، وَأَعْظَمُ الشُّفَعَاءِ وَسَيِّدُ الشُّفَعَاءِ هُوَ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، فَلَهُ شَفَاعَاتٌ خَاصَّةٌ بِهِ. وَهُنَاكَ شَفَاعَاتٌ يَشْتَرِكُ فِيهَا هُوَ وَغَيْرُهُ.

قَوْلُهُ: **(وَالإِيمَانُ بِشَفَاعَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِلْمُذْنِبِينَ الخَاطِئِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَعَلَى الصِّرَاطِ)** الرَّسُولُ ﷺ هُوَ أَعْظَمُ مَنْ يَشْفَعُ يَوْمَ القِيَامَةِ، بَلْ إِنَّهُ يَشْفَعُ فِي أَهْلِ المَوْقِفِ كُلِّهِمْ، أَنَّ اللهَ يُرِيحُهُمْ مِنَ المَوْقِفِ وَيُحَاسِبُهُمْ، لأَنَّهُ يَطُولُ عَلَيْهِم المَوْقِفُ، مَعَ الضَّنْكِ الشَّدِيدِ، وَالحَرِّ الشَّدِيدِ، وَالعَطَشِ الشَّدِيدِ،

وَالخوفِ الشّديدِ، يَطُولُ عليهم الموْقِفُ، موْقِفُ الحشرِ، فيتقدّمون إلى أولِي العزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، يطْلُبُون منْهُمْ أنْ يَدْعُو اللهَ أنْ يُرِيحَهُمْ مِن الموْقِف، إمّا إلى الجنّةِ وإمّا إلى النّارِ، فيأتُون إلى آدمَ فيعتذِرُ، ويأتُون إلى نُوحٍ فيعتذِرُ، ويأتُون إلى إبْراهِيمَ فيعتذِرُ، ويأتُونَ إلى مُوسَى فيعتذِرُ، ويأتُون إلى عِيسَى فيعتذِرُ، ويأتُونَ إلى مُحمّدٍ ﷺ فيقُولُ: **«أنا لها، ثمّ يأتِي ويخِرُّ ساجِداً تحْتَ العرْشِ»** لأنّهُ لا يَشْفَعُ لأحدٍ إلاّ بإذْنِ اللهِ، فهُوَ يخِرُّ ساجِداً ويدْعُو ربّهُ حتّى يُقالَ لهُ: **«يا مُحمّدُ، ارفعْ رأسَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، واشْفعْ تُشفّعْ، فيأذنُ اللهُ لهُ بالشّفاعةِ، فيشفعُ في أهْلِ المحْشرِ»**[1] في أنْ ينْتقِلُوا مِنَ المحْشرِ إلى الحِسابِ، وهذِهِ هِيَ الشّفاعةُ العُظْمَى الّتِي فضّلهُ اللهُ بِها على الخلْقِ، قالَ تعالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩]، المقامُ المحْمُودُ: هُوَ الشّفاعةُ العُظْمَى، وفِي الدُّعاءِ الّذِي يُقالُ بعْدَ الأذانِ: **«آتِ مُحمّداً الوَسِيلةَ والفضِيلةَ، وابْعثْهُ مقاماً محْمُوداً الّذِي وعدْتَهُ»**[2]، هذِهِ الشّفاعةُ العُظْمَى.

وكذلِكَ يَشْفَعُ فِي أهْلِ الكبائِرِ مِنَ الأُمّةِ، يَشْفعُ فِيهِمْ ﷺ؛ إمّا ألاّ يدْخُلُوا النّارَ، وإمّا أنْ يُخْرَجُوا مِنْها إذا دخلُوها، فيشفعُ فِيهِمْ ﷺ، وهذِهِ ليْستْ خاصّةً بِهِ، فهُوَ يشْفعُ، وجمِيعُ الأنْبِياءِ يشْفعُونَ، والأوْلِياءُ

(١) رواهُ البخاريّ(٤/١٦٢٤رقم٤٢٠٦)، ومُسلمٌ(١/١٨٢- ١٨٣رقم١٩٣) عن أنسٍ ﷺ.
(٢) رواهُ البخاريّ في صحيحِهِ(١/٢٢٢رقم٥٨٩) عن جابرٍ ﷺ.

يَشْفَعُونَ، وَالأَفْرَاطُ -وَهُمُ الَّذِينَ مَاتُوا صِغَارًا يَشْفَعُونَ فِي أَهْلِ الكَبَائِرِ، خِلَافًا لِلْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَالخَوَارِجِ، وَالخَوَارِجُ هُمْ: الَّذِينَ يَخْرُجُونَ عَلَى الأَئِمَّةِ -أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ- بِالسَّيْفِ، وَيَشُقُّونَ عَصَا الطَّاعَةِ، وَأَيْضًا الَّذِينَ يُكَفِّرُونَ الْمُسْلِمَ بِالكَبَائِرِ الَّتِي دُونَ الشِّرْكِ، هَؤُلَاءِ هُمُ الخَوَارِجُ، سُمُّوا خَوَارِجَ لأَنَّهُم خَرَجُوا عَنِ الْمَشْرُوعِ، وَخَرَجُوا عَلَى وَلِيِّ الأَمْرِ، وَشَقُّوا عَصَا الطَّاعَةِ. هَؤُلَاءِ يَنْفُونَ الشَّفَاعَةَ، وَيَقُولُونَ: مَنْ دَخَلَ النَّارَ لا يَخْرُجُ مِنْهَا، ويستدلُّونَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧] نَقُولُ: هَذِهِ فِي الكُفَّارِ، فَالكُفَّارُ لا يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ، وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الْمَقْصُودَةُ هُنَا فَهِيَ فِي أَهْلِ الإِيمَانِ مِنْ أَصْحَابِ الكَبَائِرِ، وَهِيَ ثَابِتَةٌ، وَاللهُ جَلَّ وَعَلَا يَقُولُ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] دلَّ عَلَى أَنَّهُ إِذَا أَذِنَ يَشْفَعُ أَحَدٌ عِنْدَهُ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦] هَذِهِ فِيهَا شَرْطَا الشَّفَاعَةِ:

- يَأْذَنُ اللهُ، هَذَا الشَّرْطُ الأَوَّلُ.
- وَيَرْضَى، هَذَا الشَّرْطُ الثَّانِي، يَرْضَى عَنِ الْمَشْفُوعِ فِيهِ، وَهُوَ لا يَرْضَى إِلاَّ عَنِ الْمُؤْمِنِ، أَمَّا الكَافِرُ فَلا يَرْضَى عَنْهُ.

فَالْمُخَالِفُونَ لأَهْلِ السُّنَّةِ فِي الشَّفَاعَةِ عَلَى طَرَفَيْ نَقِيضٍ: مِنْهُمْ مَنْ أَنْكَرَ الشَّفَاعَةَ، وَهُمُ الخَوَارِجُ، وَالْمُعْتَزِلَةُ، الَّذِينَ يُكَفِّرُونَ بالكَبَائِرِ الَّتِي دُونَ الشِّرْكِ.

وَالطَّرَفُ الثَّانِي: مَنْ يَغْلُو فِي إِثْبَاتِ الشَّفَاعَةِ، وَهُمُ المُتَصَوِّفَةُ وَالقُبُورِيَّةُ، الَّذِينَ يَعْتَمِدُونَ عَلَى الشَّفَاعَةِ، وَيَلْجَؤُونَ إِلَى القُبُورِ، وَيَسْتَغِيثُونَ بِالأَمْوَاتِ، يَطْلُبُونَ مِنْهُمُ الشَّفَاعَةَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨] يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَشْفَعُوا لَهُمْ عِنْدَ اللهِ.

أَمَّا الوَسَطُ: فَهُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، لَمْ يَنْفُوا الشَّفَاعَةَ مُطْلَقاً، وَلَمْ يُثْبِتُوهَا مُطْلَقاً، بَلْ أَثْبَتُوهَا بِالشَّرْطَيْنِ الوَارِدَيْنِ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. هَذَا حَاصِلُ البَحْثِ فِي الشَّفَاعَةِ.

وَقَوْلُهُ: (المُذْنِبِينَ الخَاطِئِينَ) يَعْنِي تكون الشفاعة لِلْمُؤْمِنِينَ المُذْنِبِينَ، الَّذِينَ لَمْ يَصِلُوا إِلَى حَدِّ الكُفْرِ.

(وَعَلَى الصِّرَاطِ) أَيْ: وَيَشْفَعُ النَّبِيُّ ﷺ لِلْمُؤْمِنِينَ حَالَ مُرُورِهِمْ عَلَى الصِّرَاطِ، وَيَشْفَعُ لِمَنْ دَخَلَ النَّارَ بِإِخْرَاجِهِ مِنْهَا إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ، فَيَشْفَعُ عَلَى الصِّرَاطِ إِذَا مَرَّ النَّاسُ عَلَيْهِ، وَهُوَ الجِسْرُ المَنْصُوبُ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ، يَمُرُّ النَّاسُ عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَلَمْحِ البَصَرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالبَرْقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرِّيحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالفَرَسِ الجَوَادِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَرِكَابِ الإِبِلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْدُو عَدْواً، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي مَشْياً، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْحَفُ زَحْفاً، وَمَنْ يُخْطَفُ وَيُلْقَى فِي جَهَنَّمَ، كُلُّ الخَلَائِقِ تَمُرُّ عَلَى هَذَا الجِسْرِ، المُؤْمِنُونَ وَالكُفَّارُ، وَلَا يُنْجِيهِمْ إِلَّا أَعْمَالُهُمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم: ٧١] يَعْنِي عَلَى

الصِّراط ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٧١- ٧٢]، فلا يَنْجُو إلاَّ أَهْلُ التَّقْوى، وَأَمَّا الكُفَّارُ فَإِنَّهُمْ يَهْلِكُونَ في جَهَنَّمَ، وَالعِيَاذُ بِاللهِ، هَذَا هُوَ الصِّرَاطُ.

قَوْلُهُ: **(وَلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ تَفَضُّلٌ كَثِيرٌ عَلَى مَنْ يَشَاءُ)** وَقَدْ يُخْرِجُ اللهُ مِنَ النَّارِ بَعْضَ المُؤْمِنِينَ بِغَيْرِ شَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ، بَلْ بِفَضْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يُخْرِجُ أُنَاساً مِنَ النَّارِ بِفَضْلِهِ سُبْحَانَهُ، بِغَيْرِ شَفَاعَةٍ مِنْ أَحَدٍ، بَلْ بِفَضْلِهِ جَلَّ وَعَلا.

قَوْلُهُ: **(وَالخُرُوجُ مِنَ النَّارِ بَعْدَمَا احْتَرَقُوا وَصَارُوا فَحْماً)** اللهُ جَلَّ وَعَلا أَخْبَرَ أَنَّ أَهْلَ النَّارِ المُخَلَّدُونَ فِيهَا لا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلا يَحْيَوْنَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ [الأعلى: ٩- ١٣] فَالَّذِي لا يَقْبَلُ التَّذْكِيرَ وَلا يَقْبَلُ المَوْعِظَةَ وَيَسْتَمِرُّ فِي غَيِّهِ فَهَذَا يَدْخُلُ جَهَنَّمَ، وَيَبْقَى فِيهَا لا يَحْيَى حَيَاةً مُرِيحَةً، وَلا يَمُوتُ مَوْتاً مُرِيحاً، بَلْ يَبْقَى فِي عَذَابٍ، أَمَّا مَنْ دَخَلَهَا مِنْ عُصَاةِ المُوَحِّدِينَ فَإِنَّهُ يَحْتَرِقُ وَيَصِيرُ فَحْماً، فَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ، وَيُوضَعُ فِي نَهْرٍ يُقَالُ لَهُ نَهْرُ الحَيَاةِ، فَتَنْبُتُ أَجْسَامُهُمْ، فَإِذَا تَكَامَلَتْ أَجْسَامُهُمْ أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الجَنَّةِ.

❀ ❀ ❀

[١٩] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيمَانُ بِالصِّرَاطِ عَلَى جَهَنَّمَ، يَأْخُذُ الصِّرَاطُ مَنْ شَاءَ اللهُ، وَيَجُوزُ مَنْ شَاءَ اللهُ، وَيَسْقُطُ فِي جَهَنَّمَ مَنْ شَاءَ اللهُ، وَلَهُمْ أَنْوَارٌ عَلَى قَدْرِ إِيمَانِهِمْ.

الشَّرْحُ:

مِمَّا يَجْرِي فِي يَوْمِ القِيَامَةِ: المُرُورُ عَلَى الصِّرَاطِ كَمَا مَرَّ ذِكْرُهُ.

وَالصِّرَاطُ فِي اللُّغَةِ: هُوَ الطَّرِيقُ، وَالمُرَادُ بِهِ هُنَا: الجِسْرُ المَضْرُوبُ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ، وَهُوَ دَقِيقٌ جِدًّا؛ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرِ وَأَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ، وَأَحَرُّ مِنَ الجَمْرِ، يَمُرُّ الخَلَائِقُ عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ، فَمَنْ نَجَا فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ لَمْ يَنْجُ هَلَكَ، وَمُرُورُ النَّاسِ عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَلَمْحِ البَصَرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالبَرْقِ الخَاطِفِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرِّيحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَأَجَاوِيدِ الخَيْلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَرِكَابِ الإِبِلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْدُو عَدْواً عَلَى قَدَمَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي مَشْياً، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْحَفُ زَحْفاً، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْطَفُ وَيُلْقَى فِي جَهَنَّمَ. وَهَذَا مَذْكُورٌ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ، وَفِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ٦٨﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٦٨-٧١] يَعْنِي جَهَنَّمَ، وَهَذَا الوُرُودُ هُوَ المُرُورُ عَلَى الصِّرَاطِ، فَهَذَا هُوَ الوُرُودُ

المذكور في القرآن، والخطابُ للمؤمنين وغيرهم ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ يمرُّ عليه المؤمنون والكفار والمنافقون وكلُّ الخلق يمرون على هذا الصراط. فمن نجا منه دخل الجنة، ومن سقط هلك، ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾ ولا ينجي إلا التقوى، لا ينجي قوة البدن، ولا كثرة المال، ولا الجاه، ما ينجي إلا تقوى الله سبحانه وتعالى، هذا نصُّ القرآن الكريم.

وجاءت في السنة أحاديث في أهوال القيامة ومنها: المرور على الصراط. فلابد من الإيمان بالصراط والمرور عليه، ولا يكفي الإيمان بذلك بل لابد من العمل، فيستعد الإنسان للمرور عليه بالتقوى، وهي العمل الصالح. قوله: **(يأخذ الصراط من شاء الله، ويجوز من شاء الله)**، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٧٢] لأن الصراط عليه كلاليب تخطف من أمرت بخطفه.

(ويجوز) يعني: يمرُّ عليه.

قوله: **(ولهم أنوار على قدر إيمانهم)** في يوم القيامة أهل الإيمان يكون لهم نور يمشون به، كما قال تعالى: ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم: ٨]، ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [الحديد: ١٢]. المنافقون يعطون نوراً في الأول، لأنهم دخلوا في الإسلام

وأظهَرُوا الإسْلامَ فيُعامَلونَ بمثْلِ ما أظهَرُوا، يُعطَونَ نورًا مِنْ بابِ الخِداعِ، كَما أنَّهم خادَعُوا بإسْلامِهِمْ فيُعطَونَ نُورًا خِداعًا لَهُمْ، ثُمَّ ينْطَفِئُ نُورُهُمْ، ويَبْقَوْنَ في ظُلْمَةٍ. ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا ﴾ يَعْني: انْتَظِرُوا، لأنَّهم يَمْشُونَ خَلْفَ المؤْمِنينَ ﴿ ٱنظُرُونَا ﴾ يَعْني انْتَظِرُونا ﴿ نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ يَعْني في الدُّنْيا ﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[الحديد: ١٣-١٥] فالإيمانُ يكُونُ نُورًا يَوْمَ القِيامَةِ يَسِيرُ بِهِ صاحِبُهُ، بَيْنَما الكُفّارُ والمُنافِقُونَ في ظُلْمَةٍ والعِياذُ باللهِ لا يَدْرُونَ أيْنَ يَذْهَبُونَ.

[٢٠] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيمَانُ بِالأَنْبِيَاءِ وَالْمَلَائِكَةِ.

الشَّرْحُ:

مِنْ أُصُولِ الإِيمَانِ وَأَرْكَانِ الإِيمَانِ: الإِيمَانُ بِالْمَلَائِكَةِ وَالأَنْبِيَاءِ، وَهَذَا كَمَا فِي حَدِيثِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: **«أَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ؟ قَالَ: الإِيمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»**[1] وَفِي الْقُرْآنِ: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وَفِي قوله تَعالَى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٦]، فَيَجِبُ الإِيمَانُ بِالْمَلَائِكَةِ كُلِّهِمْ مَنْ سَمَّى اللهُ مِنْهُمْ وَمَنْ لَمْ يُسَمِّ، وَالْمَلَائِكَةُ: جَمْعُ مَلَكٍ، وَهُمْ عَالَمٌ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ، خَلَقَهُمُ اللهُ مِنَ النُّورِ، وَأَمَّا الْجِنُّ فَاللهُ خَلَقَهُمْ مِنَ النَّارِ، وَأَمَّا

---

(١) رواه مُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ(١/٣٦رقم٨) عن عمر بن الخطاب ﷺ.

الإِنْسُ فإنْ خَلَقَهُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ. كما ذكرَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ذَلِكَ. فالإيمانُ بالملائكةِ كُلِّهِمْ مَنْ سَمَّى اللهُ مِنْهُمْ وَمَنْ لَمْ يُسَمِّ نُؤْمِنُ بِهِمْ جَمِيعاً، أَمَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِبَعْضِهِمْ وَيَكْفُرُ بِبَعْضِهِمْ فَهُوَ كَافِرٌ بِالْجَمِيعِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾[البقرة: ٩٧- ٩٨]، فالَّذِي يَكْفُرُ بِمَلَكٍ واحِدٍ مِنَ المَلائِكَةِ كافِرٌ بِجَمِيعِ المَلائِكَةِ، كَاليَهُودِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: جِبْرِيلُ عَدُوٌّ لَنا، لَوْ كَانَ الَّذِي نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ غَيْرَ جِبْرِيلٍ لأَطَعْنَاهُ، لَكِنْ نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ وَهُوَ عَدُوُّنا فَلا نُؤْمِنُ بِهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾[البقرة: ٩٧][1] لَيْسَ هُوَ مِنْ جِبْرِيلَ، إِنَّمَا هُوَ مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَلا، وجِبْرِيلُ إِنَّمَا هُوَ رَسُولٌ مِنَ اللهِ مُوَكَّلٌ بالوَحْيِ.

وَمِنَ الطَّوائِفِ الضَّالَّةِ المُنْتَسِبَةِ لِلإِسْلامِ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ جِبْرِيلَ خَانَ الأَمانَةَ، لأَنَّ الرِّسالَةَ كَانَتْ لِعَلِيٍّ وَلَكِنْ جِبْرِيلَ خَانَ الأَمانَةَ وَأَدَّاها

---

(١) رواهُ البُخارِيُّ في صَحِيحِهِ(١٦٢٨/٤رقم٤٢١٠) عن عبدالله بن سلام أنه قال عن جبريل: "ذاكَ عَدُوُّ اليَهُودِ من المَلائِكَةِ" فقرأ ﷺ هذه الآيةَ: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾.

بِمُحَمَّدٍ ﷺ! قَالَ شَاعِرُهُمْ: «خَانَ الأَمِينُ فَصَدَّهَا عَنْ حَيْدَر» يَعْنِي: عَنْ عَلِيٍّ ﷺ.

قَالَ المُؤَلِّفُ: «وَنُؤْمِنُ بِالرُّسُلِ وَالأَنْبِيَاءِ»

- وَالنَّبِيُّ: مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِشَرْعٍ، وَلَمْ يُؤْمَرْ بِتَبْلِيغِهِ.
- وَالرَّسُولُ: مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِشَرْعٍ وَأُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ.

وَالفَرْقُ بَيْنَ النَّبِيِّ وَالرَّسُولِ أَنَّ الرَّسُولَ يُبْعَثُ بِشَرِيعَةٍ مُنَزَّلَةٍ عَلَيْهِ، بِخِلَافِ النَّبِيِّ فَإِنَّهُ يُبْعَثُ بِشَرِيعَةٍ مُنَزَّلَةٍ عَلَى مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ، كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّهُم بُعِثُوا بِرِسَالَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالتَّوْرَاةِ ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ ﴾[المائدة: ٤٤] فَهُمْ يَحْكُمُونَ بِالتَّوْرَاةِ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَمْ يَأْتُوا بِشَرِيعَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ، بِخِلَافِ الرَّسُولِ فَإِنَّهُ يَأْتِي بِشَرِيعَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ وَيُؤْمَرُ بِتَبْلِيغِهَا، أَمَّا النَّبِيُّ فَيُؤْمَرُ بِتَبْلِيغِ رِسَالَةِ مَنْ قَبْلَهُ، وَقَدْ يُوحَى إِلَيْهِ فِي قَضِيَّةٍ خَاصَّةٍ. هَذَا هُوَ الفَرْقُ، وَمَنْ كَفَرَ بِنَبِيٍّ وَاحِدٍ فَهُوَ كَافِرٌ بِالجَمِيعِ، كَافِرٌ حَتَّى بِالنَّبِيِّ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ يُؤْمِنُ بِهِ، لِأَنَّ الأَنْبِيَاءَ إِخْوَةٌ. قَالَ ﷺ: **«الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ»**(1) سِلْسِلَةٌ وَاحِدَةٌ، طَرِيقَتُهُمْ

---

(1) رواه البخاريُّ في صحيحه(٣/١٢٧٠رقم٣٢٥٩)، ومسلمٌ في صحيحه(٤/١٨٣٧رقم٢٣٦٥) عن أبي هريرة ﷺ، ولفظ البخاري: **«والأنبياءُ إخوةٌ لِعَلَّاتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»**.

وَاحِدَةٌ، فَمَنْ كَذَّبَ بِوَاحِدٍ مِنْهُمْ فَهُوَ مُكَذِّبٌ بِالْجَمِيعِ، لأَنَّ الَّذِي مَعَ هَذَا مَعَ الآخَرِ، كُلُّهُمْ رُسُلُ اللهِ. فَالَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ يُؤْمِنُ بِمُوسَى كَالْيَهُودِ وَيَكْفُرُونَ بِعِيسَى وَبِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا الصَّلاةُ وَالسَّلامُ؛ فَهَؤُلاءِ كَافِرُونَ بِجَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ، حَتَّى النَّبِيِّ الَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُم يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَهُوَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ، لأَنَّ فِي الكِتَابِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى ذِكْرٌ لِمُحَمَّدٍ ﷺ قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٦] لَكِنْ حَمَلَهُمُ الحَسَدُ عَلَى الكُفْرِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، لأَنَّهُم يُرِيدُونَ أَنْ لا تَخْرُجَ النُّبُوَّةُ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَهُمْ يَحْتَكِرُونَ فَضْلَ اللهِ. ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء: ٥٤] فَالَّذِي حَمَلَهُمْ هُوَ الحَسَدُ وَالبَغْيُ، وَإِلاَّ فَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، لأَنَّهُم يَجِدُونَهُ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ. كَذَلِكَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلامُ بَشَّرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦] وَمَنْ هُوَ الرَّسُولُ الَّذِي جَاءَ بَعْدَ عِيسَى؟ لَمْ يَأْتِ بَعْدَ عِيسَى رَسُولٌ إِلاَّ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَاسْمُهُ

أَحْمَدُ، وَسَمَّهُ مُحَمَّد، وَلَهُ أَسْمَاءٌ كَثِيرَةٌ ؛ فَالَّذِي يَكْفُرُ بِعِيسَى كَافِرٌ بِالْجَمِيعِ، وَالَّذِي يَكْفُرُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ كَافِرٌ بِالْجَمِيعِ، وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ وَعَلا: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٥] مَعَ أَنَّ أَوَّلَ الرُّسُلِ نُوحٌ وَهُمْ كَذَّبُوا نُوحاً، لَكِنْ قَالَ: كَذَّبُوا الْمُرْسَلِينَ يَعْنِي الَّذِينَ جَاؤُوا مِنْ بَعْدِهِ، لأَنَّ مَنْ كَذَّبَ بِرَسُولٍ فَهُوَ مُكَذِّبٌ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ، ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٢٣]، ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٤١]، ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٧٦]، فَالَّذِي يَكْفُرُ بِوَاحِدٍ هُوَ كَافِرٌ بِالْجَمِيعِ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١] مَعَ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِبَعْضٍ. لَكِنْ لا يَكْفِي الإِيمَانُ بِالبَعْضِ، لابُدَّ مِنَ الإِيمَانِ بِالجَمِيعِ لأَنَّهُمْ كُلَّهُمْ رُسُلُ اللهِ، وَكُلُّهُمْ جَاؤُوا مِنْ عِنْدِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يُبَشِّرُ أَوَّلُهُمْ بِآخِرِهِمْ، وَيُؤْمِنُ آخِرُهُمْ بِأَوَّلِهِمْ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ. هَذَا مَذْهَبُ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ.

❀ ❀ ❀

[٢١] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيمَانُ بِأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ، وَأَنَّهُمَا مَخْلُوقَتَانِ، الْجَنَّةُ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، وَسَقْفُهَا الْعَرْشُ، وَالنَّارُ تَحْتَ الأَرْضِ السَّابِعَةِ السُّفْلَى، وَهُمَا مَخْلُوقَتَانِ، قَدْ عَلِمَ اللهُ تَعَالَى عَدَدَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمَنْ يَدْخُلُهَا، وَعَدَدَ أَهْلِ النَّارِ وَمَنْ يَدْخُلُهَا، لاَ تَفْنَيَانِ أَبَداً، بَقَاؤُهُمَا مَعَ بَقَاءِ اللهِ أَبَدَ الآبِدِينَ، وَدَهْرَ الدَّاهِرِينَ، وَآدَمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ كَانَ فِي الْجَنَّةِ الْبَاقِيَةِ الْمَخْلُوقَةِ، فَأُخْرِجَ مِنْهَا بَعْدَمَا عَصَى اللهَ عَزَّ وَجَلَّ.

الشَّرْحُ:

مِنْ أَرْكَانِ الإِيمَانِ: الإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الآخِرِ بِجَمِيعِ مَا فِيهِ، وَمِمَّا فِي الْيَوْمِ الآخِرِ: الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، وَهُمَا دَارَا الْجَزَاءِ، فَالْمُؤْمِنُونَ فِي الْجَنَّةِ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، وَالْكُفَّارُ فِي النَّارِ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ، فَهُمَا دَارَا الْجَزَاءِ، وَالدُّنْيَا دَارُ عَمَلٍ لَيْسَ فِيهَا جَزَاءٌ، وَالآخِرَةُ دَارُ جَزَاءٍ وَلَيْسَ فِيهَا عَمَلٌ، فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَهُوَ كَافِرٌ، لأَنَّهُ لابُدَّ أَنْ يَشْمَلَ الإِيمَانُ كُلَّ مَا صَحَّ فِي الْيَوْمِ الآخِرِ وَمِنْ ذَلِكَ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، هَذَا مَذْكُورٌ فِي الْقُرْآنِ فِي مَوَاضِعَ، فَالَّذِي يَكْفُرُ بِهِمَا أَوْ يُأَوِّلُهُمَا كَالْقَرَامِطَةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ يُأَوِّلُونَهُمَا فَهَؤُلاءِ كُفَّارٌ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلابُدَّ مِنَ الإِيمَانِ بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَأَنَّهُمَا دَارَانِ حَقِيقِيَّتَانِ، دَارٌ لِلْمُتَّقِينَ وَدَارٌ لِلْكَافِرِينَ، وَهُمَا بَاقِيَتَانِ، وَهُمَا مَوْجُودَتَانِ الآنَ، مَخْلُوقَتَانِ الآنَ، وَبَاقِيَتَانِ لا تَفْنَيَانِ، قَالَ تَعَالَى فِي الْجَنَّةِ: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[آل عمران:١٣٣]، وَقَالَ فِي النَّارِ: ﴿ أُعِدَّتْ

﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، وكَلِمَةُ «أُعِدَّتْ»: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا مَوْجُودَةٌ وَمُعَدَّةٌ. وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهَا تُخْلَقُ فِيمَا بَعْدُ، بِدَلِيلِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرَ أَشْيَاءَ تَدُلُّ عَلَى وُجُودِ الجَنَّةِ وَالنَّارِ. مِنْهَا قَوْلُهُ ﷺ: **«إِنَّ شِدَّةَ الحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ»**[1] وَقَالَ فِي شِدَّةِ البَرْدِ: **«جَعَلَ اللهُ لِجَهَنَّمَ نَفَسَيْنِ: نَفَساً فِي الصَّيْفِ، وَذَلِكَ أَحَرُّ مَا تَجِدُونَ، وَنَفَساً فِي الشِّتَاءِ، وَذَلِكَ شِدَّةُ البَرْدِ فَهُوَ مِنْ زَمْهَرِيرِ جَهَنَّمَ»**[2] فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمَا مَوْجُودَتَانِ، وَالجَنَّةُ كَذَلِكَ مَوْجُودَةٌ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُتَّقِينَ. وَوَكَّلَ بِهِمَا مَلَائِكَةً. وَفِي حَدِيثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **«مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ»**[3] الشَّاهِدُ فِي قَوْلِهِ: **«وَأَنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ»**، وَفِي اسْتِفْتَاحِ النَّبِيِّ ﷺ لِصَلَاةِ اللَّيْلِ أَنَّهُ قَالَ: **«لِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَوَعْدُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ»**[4].

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(١/١٩٨رقم٥١٠)، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(١/٤٣٠رقم٦١٥) عن أبي هريرة ﷺ. ورواية البُخَارِيِّ: عن أبي هُرَيْرَةَ وابنِ عُمَرَ ﷺ.

(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(١/١٩٩رقم٥١٢)، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(١/٤٣١رقم٦١٧) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) رَوَاهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(٣/١٢٦٨رقم٣٢٥٢)، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(١/٥٧رقم٢٨).

(٤) رَوَاهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(١/٣٧٧رقم١٠٦٩)، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(١/٥٣٢رقم٧٦٩) عن ابن عباس ﷺ.

قَوْلُهُ: **(وأنَّهُمَا مَخْلُوقَتَانِ)** أيْ: مخلوقتان الآن.

قَوْلُهُ: **(الجَنَّةُ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَسَقْفُهَا العَرْشُ)** هذا صَحَّ في الحديث **«إنَّ في الجنَّةِ مائَةَ دَرَجةٍ أعدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ في سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»**[1] دَلَّ عَلَى أنَّ الجَنَّةَ في السَّمَاءِ في عِلِّيِّينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾[المطففين: ١٨] أَعْلَى شَيْءٍ، وَالنَّارُ في أَسْفَلِ سَافِلِينَ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾[المطففين: ٧-٨].

قَوْلُهُ: **(قَدْ عَلِمَ اللهُ عَدَدَ أَهْلِ الجَنَّةِ وَمَنْ يَدْخُلُهَا)** اللهُ جَلَّ وَعَلا عَلِمَ كُلَّ شَيْءٍ بِعِلْمِهِ الأَزَلِيِّ، وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّهُ عَلِمَ أَهْلَ الجَنَّةِ وَمَنْ يَدْخُلُهَا، وَعَلِمَ أَهْلَ النَّارِ وَمَنْ يَدْخُلُهَا، لا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى شَيْءٌ، كُلُّ شَيْءٍ عَلِمَهُ وَكَتَبَهُ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ.

قَوْلُهُ: **(لا تَفْنَيَانِ أَبَداً)** الجَنَّةُ وَالنَّارُ دَارَانِ بَاقِيَتَانِ لا تَفْنَيَانِ أَبَداً، وهَذَا فِيهِ رَدٌّ عَلَى مَنْ يَرَى أَنَّ الجَنَّةَ وَالنَّارَ تَفْنَيَانِ، وَيَقُولُونَ: لِئَلاَّ تُشَارِكَ اللهَ في البَقَاءِ، وَهُمُ الَّذِينَ يَمْنَعُونَ التَّسَلْسُلَ فِي المَاضِي، وَالتَّسَلْسُلَ فِي المُسْتَقْبَلِ، جَهْلاً مِنْهُم. وَنَقُولُ: هُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ أَبَدِيَّةِ اللهِ وَأَبَدِيَّةِ الجَنَّةِ

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ في صَحِيحِهِ(٣/١٠٢٨رقم٢٦٣٧) عن أبي هريرة ﷺ.

وَالنَّارِ. أَبَدِيَّةُ اللهِ جَلَّ وَعَلا لائِقَةٌ بِهِ، صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ جَلَّ وَعَلا، وَأَمَّا أَبَدِيَّةُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ فَهِيَ بِإِبْقَاءِ اللهِ وَخَلْقِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فَهِيَ أَبَدِيَّةٌ مُكْتَسَبَةٌ. اللهُ جَلَّ وَعَلا هُوَ الَّذِي أَعْطَاهَا التَّأْبِيدَ. أَمَّا اللهُ جَلَّ وَعَلا فَأَزَلِيَّتُهُ وَأَبَدِيَّتُهُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ، صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ.

قَوْلُهُ: **(بَقَاؤُهُمَا مَعَ بَقَاءِ اللهِ أَبَدَ الآبِدِينَ)** بَقَاؤُهُمَا مَعَ بَقَاءِ اللهِ، وَبَقَاءُ اللهِ لا نِهَايَةَ لَهُ. فَكَذَلِكَ بَقَاءُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ لا نِهَايَةَ لَهُمَا، وَلا تَشَابُهَ بَيْنَ البَقَاءَيْنِ وَالأَبَدِيَّتَيْنِ، كَسَائِرِ الصِّفَاتِ.

قَوْلُهُ: **(وَدَهْرَ الدَّاهِرِينَ)** «دَهْرَ الدَّاهِرِينَ» تَأْكِيدٌ.

قَوْلُهُ: **(وَآدَمُ عَلَيْهِ السَّلامُ كَانَ فِي الجَنَّةِ البَاقِيَةِ المَخْلُوقَةِ)** لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ وَحَصَلَ مَا حَصَلَ مِنْ إِكْرَامِ اللهِ لَهُ، وَإِظْهَارِ فَضْلِهِ عَلَى المَلائِكَةِ حَسَدَهُ إِبْلِيسُ عَلَى ذَلِكَ وَأَبَى أَنْ يَسْجُدَ لَهُ، عَصَى اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ بَابِ الحَسَدِ وَالكِبْرِ، اللهُ جَلَّ وَعَلا قَالَ لآدَمَ ﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ [البقرة: ٣٥] فَاللهُ أَسْكَنَهُمَا الجَنَّةَ إِكْرَامًا لَهُمَا، وَهَذِهِ الجَنَّةُ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ لَمَّا حَصَلَ مِنْ إِبْلِيسَ مَعَ آدَمَ مِنْ إِغْوَاءِ آدَمَ وَأَكْلِهِ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نُهِيَ عَنْهَا؛ أَهْبَطَ اللهُ آدَمَ وَأَهْبَطَ إِبْلِيسَ إِلَى الأَرْضِ ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٣٨] فَهَبَطُوا إِلَى الأَرْضِ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لآدَمَ لأَنَّهُ تَابَ إِلَى اللهِ هُوَ وَزَوْجُهُ ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣]، ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ

رَبُّهُ. فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ (طه: ١٢١-١٢٢) فَتَابَ آدَمُ وَحَوَّاءُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ إِلَى اللهِ فَتَابَ اللهُ عَلَيْهِمَا، أَمَّا إِبْلِيسُ فَإِنَّهُ اسْتَمَرَّ فِي غَيِّهِ وَلَمْ يَتُبْ، وَلِذَلِكَ طَرَدَهُ اللهُ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلَعَنَهُ، وَجَعَلَهُ قَوَّاداً لِكُلِّ شَرٍّ.

قَوْلُهُ: **(فَأُخْرِجَ مِنْهَا بَعْدَمَا عَصَى اللهَ عَزَّ وَجَلَّ)** إِخْرَاجُهُ مِنَ الْجَنَّةِ عُقُوبَةٌ لَهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ، لَكِنَّهُ تَابَ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا ذَكَرَ اللهُ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ.

❀ ❀ ❀

(٢٢) قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيمَانُ بِالْمَسِيحِ الدَّجَّالِ.

الشَّرْحُ:

مِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ: الإِيمَانُ بِالْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ يَخْرُجُ فِي اليَهُودِ وَيَتْبَعُهُ اليَهُودُ، وَهُوَ الْمَهْدِيُّ الَّذِي يَنْتَظِرُهُ اليَهُودُ، لأَنَّ الْمَهْدِيَّ كُلٌّ يَدَّعِيهِ، اليَهُودُ يَدَّعُونَهُ وَمَهْدِيُّهُمْ هُوَ الْمَسِيحُ الدَّجَّالُ. الشِّيعَةُ يَنْتَظِرُونَ الْمَهْدِيَّ الْمُخْتَفِيَ فِي السِّرْدَابِ كَمَا يَقُولُونَ مِنْ ذُرِّيَّةِ الْحُسَيْنِ ﷺ، وأَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ يَنْتَظِرُونَ الْمَهْدِيَّ الَّذِي أَخْبَرَ عَنْهُ الرَّسُولُ ﷺ فِي الأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الْمُتَوَاتِرَةِ فِي الْمَعْنَى وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَيْتِ الرَّسُولِ ﷺ وَمِنْ آلِ الحَسَنِ بنِ عَلِيٍّ، يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، وَيُبَايِعُهُ الْمُسْلِمُونَ، وَيُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَيَمْلأُ الأَرْضَ عَدْلاً، وَيُصَلِّي بِالْمُسْلِمِينَ. وَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ خَرَجَ الْمَسِيحُ الدَّجَّالُ، فَلا يَزَالُ الْمُسْلِمُونَ فِي عَنَاءٍ مِنْهُ حَتَّى يَنْزِلَ عِيسَى بنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ. فَهُنَاكَ مَسِيحَانِ:

- مَسِيحُ الضَّلالَةِ وَهُوَ الدَّجَّالُ.
- وَمَسِيحُ الهِدَايَةِ وَهُوَ عِيسَى بنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ.

وَالْمَسِيحُ الدَّجَّالُ سُمِّيَ بِالْمَسِيحِ لِسُرْعَةِ سَيْرِهِ فِي الأَرْضِ، لأَنَّهُ يُهَيِّئُ اللهُ لَهُ مِنَ الأَسْبَابِ مَا يُمَكِّنُهُ مِنْ سُرْعَةِ السَّيْرِ فِي الأَرْضِ، لِلأَذَى وَلِلشَّرِّ وَالفِتْنَةِ. وَسُمِّيَ بِالدَّجَّالِ مِنَ الدَّجَلِ وَهُوَ الكَذِبُ، لأَنَّ الدَّجَّالَ: هُوَ أَبْلَغُ فِي الدَّجَلِ وَهُوَ الكَذِبُ، لأَنَّهُ كَذَّابٌ، حَتَّى إِنَّهُ يَدَّعِي أَنَّهُ هُوَ اللهُ، وَيَفْتِنُ النَّاسَ بِسَبَبِهِ إِلاَّ مَنْ ثَبَّتَهُ اللهُ، وَمَعَهُ جَنَّةٌ وَنَارٌ، وَيَعْمَلُ خَوَارِقَ

وَهِيَ: خَوارِقُ شَيْطَانِيَّةٌ لَيْسَتْ كَرَامَاتٍ، وَإِنَّمَا هِيَ خَوارِقُ شَيْطَانِيَّةٌ، يُجْرِيهَا اللهُ عَلَى يَدِهِ لِلْفِتْنَةِ وَابْتِلَاءِ العِبَادِ. فَخَطَرُهُ شَدِيدٌ وَلِذَلِكَ حَذَّرَتْ مِنْهُ الأَنْبِيَاءُ، وَأَكْثَرُ مَنْ حَذَّرَ مِنْهُ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَسْتَعِيذَ مِنْ فِتْنَتِهِ فِي صَلَاتِنَا فِي التَّشَهُّدِ الأَخِيرِ، حَيْثُ نَسْتَعِيذُ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ: مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ.

وفِتْنَتُهُ هِيَ أَكْبَرُ فِتْنَةٍ تَجْرِي عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ وَالعِيَاذُ بِاللهِ، هَذَا هُوَ المَسِيحُ الدَّجَّالِ. وبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ قَدْ ضَايَقَ المُسْلِمِينَ وَآذَاهُمْ وَامْتَحَنَهُمْ وَإِذَا بِالمَسِيحِ عِيسَى بنِ مَرْيَمَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، فَيَطْلُبَ الدَّجَّالَ وَيَقْتُلَهُ، وَيُرِيحَ المُسْلِمِينَ مِنْهُ، وَيَتَوَلَّى الأَمْرَ، وَيَعْدِلُ فِي الأَرْضِ، وَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الخِنْزِيرَ، وَلَا يَبْقَى دِينٌ إِلَّا دِينُ الإِسْلَامِ، تَبْطُلُ اليَهُودِيَّةُ وَالنَّصْرَانِيَّةُ وَأَدْيَانُ الكُفْرِ وَلَا يَبْقَى إِلَّا الإِسْلَامُ، وَيَحْكُمُ بِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَيَكُونُ تَابِعاً لَهُ، لأَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالمَسِيحُ إِنَّمَا يَنْزِلُ تَابِعاً لِلرَّسُولِ ﷺ، وَحَاكِماً بِشَرِيعَتِهِ شَرِيعَةِ الإِسْلَامِ. هَذَا هُوَ مَا يَكُونُ مِنْ ظُهُورِ الدَّجَّالِ، وَمِنْ نُزُولِ المَسِيحِ.

وسُمِّيَ عِيسَى مَسِيحاً: قِيلَ: لأَنَّهُ يَمْسَحُ ذَا العَاهَةِ فَيَبْرَأُ بِإِذْنِ اللهِ، وَهَذَا مِنْ مُعْجِزَاتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أَنَّهُ يَمْسَحُ بِيَدِهِ عَلَى الأَعْمَى وَالأَبْرَصِ وَالأَكْمَهِ فَيَزُولُ مَرَضُهُ بِمَسْحَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولِذَلِكَ سُمِّيَ المَسِيحُ بِمَعْنَى المَاسِحِ.

❀ ❀ ❀

[٢٣] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيمَانُ بِنُزُولِ عِيسَى بنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ، يَنْزِلُ فَيَقْتُلُ الدَّجَّالَ، وَيَتَزَوَّجُ، وَيُصَلِّي خَلْفَ القَائِمِ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَيَمُوتُ وَيَدْفِنُهُ الْمُسْلِمُونَ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: **(وَالإِيمَانُ بِنُزُولِ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ)** وَهُوَ مِنْ عَلامَاتِ السَّاعَةِ الكُبْرَى.

(نُزُولُهُ) يَعْنِي مِنَ السَّمَاءِ، لأَنَّ اللهَ رَفَعَهُ، لَمَّا أَرَادَ اليَهُودُ قَتْلَهُ وَجَاؤُوا إِلَيْهِ لِيُبَاشِرُوا قَتْلَهُ وَصَلْبَهُ وَدَخَلُوا عَلَيْهِ رَفَعَهُ اللهُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ، وَأَلْقَى شَبَهَهُ عَلَى رَجُلٍ، فَقَتَلُوا ذَلِكَ الرَّجُلَ يَظُنُّونَ أَنَّهُ الْمَسِيحُ، وَلَيْسَ هُوَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧] فَأَلْقَى اللهُ شَبَهَهُ عَلَى هَذَا الرَّجُلِ. قِيلَ: لأَنَّ هَذَا الرَّجُلَ هُوَ الَّذِي دَلَّهُمْ عَلَيْهِ، فَعَاقَبَهُ اللهُ. وَقِيلَ: إِنَّهُ مِنْ أَتْبَاعِ عِيسَى مِنَ الحَوَارِيِّينَ قَالَ لَهُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلامُ: سَيُلْقَى عَلَيْكَ شَبَهِي وَتَكُونُ لَكَ الجَنَّةُ، فَصَبَرَ الرَّجُلُ وَتَقَبَّلَ هَذَا الشَّبَهَ وَالقَتْلَ وَالصَّلْبَ، لأَنَّهُ يُرِيدُ الجَنَّةَ بِذَلِكَ.

قَوْلُهُ: **(يَنْزِلُ فَيَقْتُلُ الدَّجَّالَ)** يَقْتُلُ الدَّجَّالَ بِبَابِ لُدٍّ وَهُوَ مَكَانٌ مَعْرُوفٌ، يَطْلُبُ عِيسَى بنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ الدَّجَّالَ، فَإِذَا رَآهُ ذَابَ، كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ، ثُمَّ يَدْنُو مِنْهُ فَيَضْرِبُهُ بِحَرْبَتِهِ، فَيَقْتُلُهُ.

قَوْلُهُ: **(وَيَتَزَوَّجُ، وَيُصَلِّي خَلْفَ الْقَائِمِ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ)**، قَوْلُهُ: **(يَتَزَوَّجُ)** جَاءَ فِي بَعْضِ الآثَارِ لَكِنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ[1]. أَمَا أَنَّهُ يُصَلِّي خَلْفَ الْمَهْدِيِّ فَهَذَا ثَابِتٌ. يَطْلُبُ مِنْهُ الْمَهْدِيُّ أَنْ يُصَلِّيَ بِالْمُسْلِمِينَ، لأَنَّهُ يَنْزِلُ وَقْتَ صَلاةِ الْفَجْرِ، وَالْمُسْلِمُونَ مُجْتَمِعُونَ لِلصَّلاةِ فَيَطْلُبُ مِنْهُ الْمَهْدِيُّ أَنْ يُصَلِّيَ بِالْمُسْلِمِينَ، فَيَقُولُ الْمَسِيحُ: **«لا، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ أَئِمَّةٌ»**[2]، فَيُصَلِّي خَلْفَ الْمَهْدِيِّ.

وَالْقَائِمُ: هُوَ الْمَهْدِيُّ، مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِاللهِ، اسْمُهُ كَاسْمِ الرَّسُولِ ﷺ، وَاسْمُ أَبِيهِ كَاسْمِ أَبِي الرَّسُولِ، وَهُوَ مِنْ بَيْتِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رضي الله عنه. قَالُوا: الْحِكْمَةُ وَاللهُ أَعْلَمُ: أَنَّ الْحَسَنَ رضي الله عنه لَمَّا تَنَازَلَ عَنِ الْخِلافَةِ لِمُعَاوِيَةَ رضي الله عنه مِنْ أَجْلِ حَقْنِ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، أَكْرَمَهُ اللهُ فَجَعَلَ الْمَهْدِيَّ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ.

قَوْلُهُ: **(وَيَمُوتُ وَيَدْفِنُهُ الْمُسْلِمُونَ)** هَذَا فِي الْقُرْآنِ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾[النساء: ١٥٩] فَهُوَ يَمُوتُ كَمَا يَمُوتُ سَائِرُ الْبَشَرِ، ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾[الأنبياء: ٣٤] فَهُوَ يَمُوتُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ فِي آخِرِ عُمُرِهِ الَّذِي كَتَبَهُ اللهُ لَهُ، وَيَدْفِنُهُ الْمُسْلِمُونَ كَمَا يَدْفِنُونَ مَوْتَاهُمْ.

---

(١) رُوِيَ عن ابن عباس، انظر: فتح الباري (٦/٤٩٣)، وعمدة القاري (١٦/٤٠).

(٢) رواه مسلم في صحيحه (١/١٣٧ رقم ١٥٦) من حديث جابر رضي الله عنه وفيه: «فينزل عيسى بن مريم ﷺ فيقول أميرهم: تعال صلِّ لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة».

[٢٤] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيمَانُ بِأَنَّ الإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، وَنِيَّةٌ وَإِصَابَةٌ، يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، يَزِيدُ مَا شَاءَ اللهُ، وَيَنْقُصُ حَتَّى لاَ يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ.

الشَّرْحُ:

الإِيمَانُ فِي اللُّغَةِ: هُوَ التَّصْدِيقُ الجَازِمُ، الَّذِي مَعَهُ ائْتِمَانٌ ولا يَعْتَرِيهِ شَكٌّ. فَيُقَالُ: آمَنَ لَهُ أَيْ: صَدَّقَهُ، ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾[يوسف: ١٧] أَيْ: لَسْتَ بِمُصَدِّقٍ لَنَا، ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ﴾[العنكبوت: ٢٦] يَعْنِي: صَدَّقَ عَنْهُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ.

أَمَّا الإِيمَانُ فِي الشَّرْعِ: فَإِنَّهُ هُوَ اعْتِقَادٌ بِالقَلْبِ، وَنُطْقٌ بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالجَوَارِحِ، يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالمَعْصِيَةِ، لا يَكُونُ الإِيمَانُ إِلاَّ مِنْ مَجْمُوعِ هَذِهِ الأَشْيَاءِ، فَمَنْ آمَنَ بِقَلْبِهِ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِلِسَانِهِ لَمْ يَكُنْ مُؤْمِناً. لأَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلا قَالَ فِي الكُفَّارِ: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[الأنعام: ٣٣]، وَقَالَ فِي فِرْعَوْنَ: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الإسراء: ١٠٢] وَقَالَ جَلَّ وَعَلا عَنِ الكُفَّارِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِهِ: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[النمل: ١٤] فَالإِيمَانُ بِالقَلْبِ لا يَكْفِي كَمَا تَقُولُهُ المُرْجِئَةُ، وَلَيْسَ بِإِيمَانٍ. وكَذَلِكَ الإِيمَانُ بِاللِّسَانِ أَيْضاً لا يَكْفِي، لأَنَّ هَذَا إِيمَانُ المُنَافِقِينَ ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾[الفتح: ١١].

والإيمانُ بالقلبِ والقولُ باللسانِ لا يكفيانِ أيضاً كما تقولُهُ بعضُ المُرجئةِ. هذا لا يكفي لابُدَّ من العملِ بالجوارحِ. فالذي يؤمنُ بقلبِه وبلسانِه ولكنَّهُ لا يُصلِّي أبداً ولا يصومُ، ولا يؤدِّي حجَّ الفريضةِ، ولا يعملُ أيَّ عملٍ من الأعمالِ هذا كافرٌ، ولو كانَ يؤمنُ بلسانِهِ وينطقُ ويعتقدُ بقلبِهِ، ويشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وأنَّ محمداً رسولُ اللهِ، لكنْ تَرْكُهُ العملَ من غيرِ عذرٍ لا يجعلُهُ مؤمناً، إلاَّ إذا تَرَكَ العملَ لِعُذرٍ كالمُكرَهِ والناسي والجاهلِ، وكذا الذي دخلَ في الإسلامِ ولم يتمكنْ من العملِ؛ بأنْ أسلَمَ ثُمَّ ماتَ في الحالِ. فهذا لا يُحسَبُ عليهِ العملُ لأنَّهُ لم يتمكنْ، كذلكَ المخبولُ في عقلِهِ هذا لا يتمكنُ من العملِ، أمَّا إذا كانَ متمكناً من العملِ وتركَهُ نهائياً فهذا ليسَ بمؤمنٍ.

بعضُهُم زادَ في تعريفِ الإيمانِ -كما ذكرَ المؤلِّفُ- مسألةً رابعةً وهي اتِّباعُ السُّنَّةِ، يقولونَ: «الإيمانُ: قولٌ واعتقادٌ وعملٌ وسُنَّةٌ». يعني: اتِّباعَ السُّنَّةِ، يخرجُ بذلكَ المبتدعةُ الذينَ لا يعملونَ بالسُّنَّةِ، وإنَّما يعملونَ بالمُحدَثاتِ. وهذا ذكرَهُ المؤلِّفُ هنا في قولِهِ: **(نيةٌ وإصابةٌ)** أي: عملٌ بالسُّنَّةِ، أمَّا الذي يعملُ عملاً خاطئاً بالبدعِ والخُرافاتِ والمُحدَثاتِ فهذا لا يكونُ مؤمناً.

(ويزيدُ بالطاعةِ) هذا من تمامِ التعريفِ، أنَّ الإيمانَ يزيدُ بالطاعةِ، وهذا صريحٌ في القرآنِ ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾[مريم: ٧٦]، ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾[الأنفال: ٢]، ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟

يمنًا﴾ [المدثر: ٣١]، هذا صريحٌ أنَّ الإيمانَ يزيدُ بالطَّاعاتِ، **(وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ)**. لأنَّ الشَّيْءَ الَّذي يزيدُ ينقُصُ، وأيضاً جاءَ في الحديثِ: **«أَنَّ الَّذِي لا يُنْكِرُ الْمُنْكَرَ بِقَلْبِهِ لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»**[1]. دلَّ على أنَّ الإيمانَ يضعُفُ حتَّى يصيرَ مثلَ حبَّةِ الخَرْدَلِ، وجاءَ في الحديثِ الصَّحيحِ: **«أَنَّهُ يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ»**[2]. فدلَّ على أنَّ الإيمانَ يضعُفُ حتَّى يكونَ مثلَ حبَّةِ الخَرْدَلِ، وقالَ تعالَى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [آل عمران: ١٦٧] عندهُمْ إيمانٌ ضعيفٌ وهُمْ للكُفرِ أقربُ، فدلَّ على أنَّ الإيمانَ يضعُفُ، وحتَّى إنَّ صاحبَهُ يكونُ أقربَ إلى الكُفرِ والعياذُ باللهِ.

هذا معنى قولِهِ: **(وَيَنْقُصُ حَتَّى لا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ)** ينقُصُ حتَّى لا يبقَى منهُ شيءٌ وقدْ يبقَى منهُ مقدارُ حبَّةِ خردلٍ، وهذهِ تنفعُ صاحبَها يومَ القيامةِ يُخرَجُ بها مِنَ النَّارِ، وإذا لمْ يبقَ حبَّةُ خردلٍ فإنَّهُ يكونُ مِنْ أهلِ النَّارِ المُخلَّدينَ فيها.

❀ ❀ ❀

(١) رواهُ مُسلمٌ في صحيحِهِ (١/٦٩رقم٥٠) مِنْ حديثِ عبدِاللهِ بنِ مسعودٍ ﷺ وفيه: «ومَنْ جاهَدَهُمْ بقلبِهِ فهُوَ مؤمنٌ وليسَ وراءَ ذلكَ من الإيمانِ حبَّةُ خردلٍ».

(٢) رواهُ البخاريُّ في صحيحِهِ (٤/١٦٢٤رقم٤٢٠٦)، ومُسلمٌ في صحيحِهِ (١/١٨٢-١٨٣رقم ١٩٣) عن أنسٍ ﷺ.

[٢٥] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَأَفْضَلُ هَذِهِ الأُمَّةِ وَالأُمَمِ كُلِّهَا بَعْدَ الأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، هَكَذَا رُوِيَ لَنَا عَنِ ابْنِ عُمَرَ؛ قَالَ: كُنَّا نَقُولُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا: إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ، وَيَسْمَعُ بِذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ فَلَا يُنْكِرُهُ.

الشرح:

أَفْضَلُ القُرُونِ: القَرْنُ الَّذِي بُعِثَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، وهِيَ القُرُونُ المُفَضَّلَةُ، وأَفْضَلُ القُرُونِ المُفَضَّلَةِ: هُمُ الصَّحَابَةُ ﷺ، ثُمَّ الصَّحَابَةُ يَتَفَاضَلُونَ أَفْضَلُهُمْ: أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ، الَّذِي آمَنَ بِالرَّسُولِ أَوَّلَ مَا جَاءَ ﷺ، وآزَرَهُ وَدَافَعَ عَنْهُ، وَأَنْفَقَ أَمْوَالَهُ فِي نُصْرَتِهِ، وَلَازَمَهُ حَتَّى مَاتَ، ثُمَّ تَوَلَّى الخِلَافَةَ مِنْ بَعْدِهِ وَقَامَ بِهَا أَعْظَمَ قِيَامٍ، وَثَبَّتَ اللهُ بِهِ الدِّينَ، بَعْدَمَا تَزَلْزَلَتْ أَقْدَامُ النَّاسِ بِوَفَاةِ الرَّسُولِ ﷺ، ثَبَّتَهُ اللهُ ثَبَاتَ الجِبَالِ، حَتَّى ثَبَتَ بِهِ الأُمَّةُ، وَرَدَّ بِهِ المُرْتَدِّينَ وَالكُفَّارَ، فَوَطَّدَ الإِسْلَامَ بَعْدَ وَفَاةِ الرَّسُولِ ﷺ، ثُمَّ تُوُفِّيَ وَدُفِنَ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ، فَهُوَ صَاحِبُهُ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَهُوَ صَاحِبُهُ فِي الغَارِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] فَهُوَ أَفْضَلُ الأُمَّةِ. ثُمَّ يَلِيهِ: عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ ﷺ ثَانِي الخُلَفَاءِ، ثُمَّ يَلِيهِ: عُثْمَانُ ﷺ، ثُمَّ يَلِيهِ: عَلِيٌّ ﷺ، هَؤُلَاءِ هُمُ الخُلَفَاءُ الأَرْبَعَةُ الرَّاشِدُونَ ﷺ وَأَرْضَاهُمْ.

ثُمَّ بقيةُ العشرةِ المفضَّلين المشهودِ لهم بالجنةِ، وهم: الخلفاءُ الأربعةُ، وسعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ، وسعيدُ بنُ زيدِ بنِ عمرِو بنِ نُفيلٍ، وطلحةُ بنُ عُبيدِالله، والزُّبيرُ بنُ العوَّامِ، وأبو عُبيدةَ عامرُ بنُ الجرّاحِ، وعبدُالرحمنِ بنُ عوفٍ؛ فهؤلاءِ هُمُ العشرةُ المشهودُ لهم بالجنةِ، شهِدَ لهمُ الرسولُ ﷺ بالجنةِ، فهم أفضلُ الصحابةِ.

قال النبيُّ ﷺ: **«أبو بكرٍ في الجنّةِ، وعُمَرُ في الجنّةِ، وعَليٌّ في الجنّـةِ، وعُثمانُ في الجنّـةِ، وطَلْحَـةُ في الجنّـةِ، والزُّبيرُ في الجنّةِ، وعَبْدُالرَّحمَنِ بنُ عَوْفٍ في الجنّةِ، وسَعْدُ بنُ أبي وقّاصٍ في الجنّةِ، وسَعيدُ بن زَيْدِ بنِ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ في الجنّةِ، وأبو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرّاحِ في الجنّةِ»**(1).

ثُمَّ من بعدهم: أصحابُ غزوةِ بدرٍ، ثُمَّ أصحابُ بيعةِ الرِّضوانِ من المهاجرينَ والأنصارِ، ثُمَّ الذينَ أسلموا وهاجروا قبلَ الفتحِ، أفضلُ من الذينَ أسلموا وهاجروا بعدَ الفتحِ، فهُم يتفاضلونَ ﷺ، حسَبَ سابقتِهم في الإسلامِ، ومقامِهم في الإسلامِ، ولهُمُ الفضيلةُ العامّةُ التي لا يبلُغُها أحدٌ وهي: الصُّحبةُ لرسولِ اللهِ ﷺ، والهجرةُ، فالمهاجرونَ أفضلُ من الأنصارِ. هذِهِ فضيلةٌ عامّةٌ لجميعِهم، لا يبلُغُها أحدٌ ممَّن جاءَ بعدَهم، فهم أفضلُ القرونِ وخيرُ القرونِ ﷺ وأرضاهُم.

---

(1) رواه الإمام أحمد في مسنده(1/193)، والترمذي في سننه(5/647رقم3747)، وابن حبان في صحيحه(15/463رقم7002)، وغيرهم.

فالذي يطعنُ فيهم أو يُبغضُهم كافرٌ باللهِ، لأنَّ الله أثنى عليهم ومدحهم واختارهم لصحبةِ نبيِّه محمدٍ ﷺ. فالذي يطعنُ في الصحابةِ أو يُكفِّرُهم أو يتنقَّصُهم كافرٌ باللهِ عزَّ وجلَّ، مُكذِّبٌ للهِ ولرسولِه، لأنَّ الله تعالى قال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[التوبة: ١٠٠]، ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾[الفتح: ١٨].

قولُهُ: **(هكذا رُوِيَ لنا عن ابنِ عُمَرَ؛ قال: كُنَّا نقولُ ورسولُ اللهِ ﷺ بينَ أظهُرِنا: إنَّ خيرَ النَّاسِ بعدَ رسولِ اللهِ ﷺ: أبو بكرٍ وعُمَرُ ثُمَّ عُثمانُ**[1]) أمَّا أبو بكرٍ وعُمَرُ فهذا إجماعٌ، وأمَّا المفاضلةُ بينَ عُثمانَ وعليٍّ فإنَّها محلُّ خلافٍ، بعضُهُم يُفضِّلُ عُثمانَ، وبعضُهُم يُفضِّلُ عليًّا رضيَ اللهُ تعالى عنهُما وأرضاهُما، أمَّا أبو بكرٍ وعُمَرُ فهُما أفضلُ الأُمَّةِ بإجماعِ المُسلمينَ، هذا في الفضيلةِ، أمَّا في الخِلافةِ: فلابُدَّ من هذا التَّرتيبِ: أبو بكرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثمانُ، ثُمَّ عليٌّ، فمَنْ طعَنَ في خِلافةِ واحدٍ مِن هؤلاءِ فهو ضالٌّ.

يقولُ شيخُ الإسلامِ في الواسطيَّةِ[2]: «مَنْ طعَنَ في خِلافةِ واحدٍ مِن هؤلاءِ فهو أضلُّ مِن حمارِ أهلِه» لأنَّهُ مُخالفٌ لإجماعِ المُسلمينَ، لأنَّ

(١) رواهُ البُخاريُّ في صحيحِه (٣/١٣٥٢ رقم ٣٤٩٤) عن عبدالله بن عمر رضيَ الله عنهُما قال: **«كنا في زَمَنِ النَّبيِّ ﷺ لا نَعدِلُ بأبي بكرٍ أحدًا، ثُمَّ عُمَرَ، ثُمَّ عُثمانَ، ثُمَّ نَترُكُ أصحابَ النَّبيِّ ﷺ لا نُفاضِلُ بينَهُم».**

(٢) العقيدة الواسطية (ص/٤٢).

الْمُسْلِمِينَ أَجْمَعُوا على تقديم أبي بكرٍ في الخلافةِ، ثُمَّ تقديم عمر بعده، ثُمَّ عُثْمَانَ، ثُمَّ عليٍّ، فَالَّذِي يُقَدِّمُ عَلِيًّا وَيَقُولُ هُوَ أَحَقُّ بِالخِلَافَةِ حَتَّى مِنْ أَبِي بَكْرٍ. وَيَقُولُ إِنَّ الخِلَافَةَ بَعْدَ الرَّسُولِ ﷺ لِعَلِيٍّ، لأَنَّهُ وَصِيُّ الرَّسُولِ وَهُوَ الخَلِيفَةُ، وَلَكِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَالصَّحَابَةَ ظَلَمُوهُ وَأَخَذُوا الخِلَافَةَ مِنْهُ.! هَذَا تَضْلِيلٌ لِلأُمَّةِ -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- وَمُخَالَفَةٌ لِلنُّصُوصِ الوَارِدَةِ فِي تَرْتِيبِ هَؤُلَاءِ الخُلَفَاءِ.

فَالتَّرْتِيبُ فِي الخِلَافَةِ مَحَلُّ إِجْمَاعٍ، أَمَّا التَّرْتِيبُ فِي الأَفْضَلِيَّةِ بَيْنَ عَلِيٍّ وَعُثْمَانَ فَهَذَا مَحَلُّ خِلَافٍ، وَالصَّحِيحُ: أَنَّ عُثْمَانَ أَفْضَلُ، لأَنَّ الصَّحَابَةَ وَفِيهِمْ عَلِيٌّ رضي الله عنه اخْتَارُوهُ خَلِيفَةً لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَعَلِيٌّ مَوْجُودٌ، وَاخْتِيَارُ الصَّحَابَةِ لِعُثْمَانَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ أَفْضَلُ، وَيَقُولُ عَبْدُالرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ: «رَأَيْتُ النَّاسَ لا يَعْدِلُونَ بِعُثْمَانَ»[1] فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ أَفْضَلُ.

(١) رواه البخاريّ في صحيحه(٦/٢٦٣٤رقم٦٧٨١) عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

ثُمَّ أَفْضَلُ النَّاسِ بَعْدَ هَؤُلَاءِ: عَلِيٌّ، وَطَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَسَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ، وَعَبْدُالرَّحْمَنِ بنِ عَوْفٍ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ عَامِرُ بْنُ الْجَرَّاحِ، وَكُلُّهُمْ يَصْلُحُ لِلْخِلَافَةِ.

ثُمَّ أَفْضَلُ النَّاسِ بَعْدَ هَؤُلَاءِ: أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، الْقَرْنُ الْأَوَّلُ الَّذِي بُعِثَ فِيهِمْ: الْمُهَاجِرُونَ الْأَوَّلُونَ، وَالْأَنْصَارُ، وَهُمْ مَنْ صَلَّى الْقِبْلَتَيْنِ.

الشَّرْحُ:

أَيْ: أفضلُ الصَّحَابَةِ بَعْدَ الخُلَفَاءِ الثَّلَاثَةِ بَقِيَّةُ العَشَرَةِ المُبَشَّرِينَ بِالجَنَّةِ وَهُمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ المؤلفُ رحمه الله.

وَقَوْلُهُ: (**كُلُّهُمْ يَصْلُحُ لِلْخِلَافَةِ**) أَيْ: أَصْحَابُ الشُّورَى الَّذِينَ فَوَّضَ إِلَيهِمْ عُمَرُ رضي الله عنه اخْتِيَارَ الخَلِيفَةِ مِنْ بَعْدِهِ، لأَنَّ عُمَرَ لَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ جَعَلَ الشُّورَى فِي اخْتِيَارِ الخَلِيفَةِ يَرْجِعُ إِلَى هَؤُلَاءِ البَاقِينَ، لأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُم يَصْلُحُ لِلْخِلَافَةِ فَرَدَّ الأَمْرَ إِلَيْهِمْ فَاخْتَارُوا عُثْمَانَ رضي الله عنه.

قَوْلُهُ: (**القَرْنُ الأَوَّلُ**) مِنَ القُرُونِ المُفَضَّلَةِ، وَهُمُ القَرْنُ الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِم الرَّسُولُ ﷺ وَآمَنُوا بِهِ.

والأَصْحَابُ: جَمْعُ صَحَابِيٍّ، وَالصَّحَابِيُّ: مَنْ لَقِيَ النَّبِيَّ ﷺ مُؤْمِنًا بِهِ، وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ.

- فالَّذي آمَنَ بالنَّبيِّ ﷺ ولَمْ يَلقهُ لَيسَ صَحابيًا كالنَّجاشيِّ، إنَّما يُعتَبرُ مِنَ التَّابعِينَ.
- والَّذي لَقيَهُ ولَمْ يُؤمِنْ بِهِ فَهذا لَيسَ بِصَحابيٍّ، لأنَّ المُشرِكينَ والكُفَّارَ لَقُوا النَّبيَّ ﷺ ولَمْ يُؤمِنُوا بِهِ.
- والَّذي لَقيَهُ وآمنَ بِهِ ثُمَّ ارْتَدَّ بَطُلَتْ صُحبَتُهُ، إذا مَاتَ عَلَى الرِّدَّةِ، أمَّا لَوْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ، ورَجَعَتْ صُحبَتُهُ.

ولِهذا يَقُولُ الحَافِظُ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ في كِتَابِهِ «النُّخْبَة» في تَعرِيفِ الصَّحَابيِّ: «مَنْ لَقِيَ النَّبيَّ ﷺ مُؤمِناً بِهِ، ومَاتَ عَلَى ذَلِكَ، ولَو تَخلَّلَتْ رِدَّةٌ في الأصَحِّ»[1]. يَعنِي في أصَحِّ قَوْلَي العُلَماءِ.

القَوْلُ الثَّانِي: أنَّهُ تَبطُلُ صُحبَتُهُ ولَو تَابَ. لأنَّ الرِّدَّةَ تُبطِلُ الأعْمَالَ الَّتِي قَبلَهَا.

قَوْلُهُ: **(القَرْنُ الأوَّلُ الَّذي بُعِثَ فِيهِم: المُهَاجِرُونَ الأوَّلُونَ، والأنصَار، وَهُمْ من صَلَّى القِبْلَتَيْنِ)** المُهَاجِرُونَ مُقَدَّمُونَ في الذِّكْرِ عَلَى الأنصَارِ. فدلَّ عَلَى أنَّ المُهَاجِرِينَ أفْضَلُ، بِفَضْلِ الهِجْرَةِ في سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. لأنَّهُمْ تَرَكُوا أوْطَانَهُمْ وأمْوَالَهُمْ، واللهُ جَلَّ وَعَلا يَذْكُرُ المُهَاجِرِينَ قَبْلَ الأنصَارِ في كَثِيرٍ مِنَ الآيَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾[التوبة: ١٠٠] ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ

(١) نخبة الفكر (ص/٥٧٥- مع شرح ملا علي القاري).

﴿أُخْرِجُوا مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨] إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ﴾ [الحشر: ٩] يعني الأنصار؛ فيقدّم ذكر المهاجرين على الأنصار، ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧] دلّ على أنّ المهاجرين أفضل من الأنصار. والأنصار: جمع أنصاري، وهم: المؤمنون من الأوس والخزرج، أهل المدينة الذين بايعوا الرسول ﷺ في بيعة العقبة، وهاجر إليهم ﷺ، وناصروه وآزروه وآووه، وآووا الصحابة ﷺ معه، قال تعالى فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، كانوا في الأوّل يسمّون: الأوس والخزرج، ثمّ لمّا بايعوا الرسول ﷺ على النصرة سمّاهم الأنصار، أي: أنصار الرسول ﷺ.

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: ثُمَّ أَفْضَلُ النَّاسِ بَعْدَ هَؤُلَاءِ: مَنْ صَحِبَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْماً أَوْ شَهْراً أَوْ سَنَةً أَوْ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرَ، نَتَرَحَّمُ عَلَيْهِمْ، وَنَذْكُرُ فَضْلَهُمْ، وَنَكُفُّ عَنْ زَلَلِهِمْ، وَلَا نَذْكُرُ أَحَداً مِنْهُمْ إِلَّا بِالخَيْرِ، لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «إِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا».

وَقَالَ سُفْيَانُ بنُ عُيَيْنَةَ: «مَنْ نَطَقَ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِكَلِمَةٍ فَهُوَ صَاحِبُ هَوَى».

الشرح:

الصُّحْبَةُ تَتَفَاضَلُ: مِنْهَا صُحْبَةٌ كَثِيرَةٌ وَمُلَازَمَةٌ لِلرَّسُولِ ﷺ طَوِيلَةٌ أَوْ مَنْ صُحْبَةٌ قَلِيلَةٌ، لَكِنْ صَاحِبُهَا لَهُ فَضْلُ الصُّحْبَةِ وَلَو كَانَتْ صُحْبَتُهُ قَلِيلَةً.

قَوْلُهُ: **(نَتَرَحَّمُ عَلَيْهِم وَنَذْكُرُ فَضْلَهُمْ وَنَكُفُّ عَنْ زَلَلِهِم)** حَقُّهُمْ عَلَيْنَا: أَنَّنَا نَتَرَضَّى عَنْهُمْ، وَنَتَرَحَّمُ عَلَيْهِم، وَنَقْتَدِي بِهِمْ، وَنُثْنِي عَلَيْهِم، وَنَكُفُّ أَلْسِنَتَنَا عَنِ الطَّعْنِ فِيهِم أَوْ فِي أَحَدٍ مِنْهُم، أَوْ أَنْ نَخُوضَ فِيمَا جَرَى بَيْنَهُمْ مِنَ الفِتْنَةِ وَالحُرُوبِ، لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مُجْتَهِدٌ؛ فَمِنْهُمْ مُجْتَهِدٌ مُصِيبٌ لَهُ أَجْرَانِ، وَمِنْهُمْ مُجْتَهِدٌ أَخْطَأَ وَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ، وَالخَطَأُ مَغْفُورٌ. ثُمَّ أَيْضاً لَهُم مِنَ الأَعْمَالِ الجَلِيلَةِ مَا يُكَفِّرُ مَا يَحْصُلُ مِنْ بَعْضِهِمْ مِنَ الخَطَإِ.

قَوْلُهُ: **(وَلَا نَذْكُرُ أَحَداً مِنْهُمْ إِلَّا بِالخَيْرِ)** لِأَنَّهُم يُرِيدُونَ الحَقَّ وَاجْتَهَدُوا، وَكُلٌّ مِنْهُم عَمِلَ بِاجْتِهَادِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ مُصِيبٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ

هُوَ مُخْطِئٌ مَغْفُورٌ لَهُ، وَكُلُّهُمْ صَحَابَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلا تَدْخُلْ فِيمَا جَرَى بَيْنَهُمْ. تَأَمَّلْ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ يَعْنِي بَعْدَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [الحشر: ١٠].

وَلِهَذَا يَقُولُ شَيْخُ الإِسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ فِي ذَلِكَ: «مِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ: سَلامَةُ قُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ لِصَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ»[(١)]. سَلامَةُ قُلُوبِهِمْ: فَلا يُبْغِضُونَ أَحَداً مِنْهُم، وَسَلامَةُ أَلْسِنَتِهِمْ: فَلا يَتَكَلَّمُونَ فِي حَقِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَلا يَتَنَقَّصُونَهُ. وَالنَّبِيُّ ﷺ قَالَ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: **«لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ»**[(٢)] **«لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي»** ثُمَّ يَأْتِي مُتَخَلِّفُ عَقْلٍ مُهْتَزُّ الإِيمَانِ وَفِيهِ هَوًى وَيَتَكَلَّمُ فِي صَحَابَةِ الرَّسُولِ ﷺ!! وَهَذَا لَوْ كَانَ مِنَ الفِرَقِ الضَّالَّةِ لَمْ نَسْتَكْثِرْ عَلَيْهِ، لَكِنَّ المُشْكِلَةَ أَنَّهُ يَنْتَسِبُ إِلَى أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، وَيَقُولُ: هَذَا مِنَ التَّحْقِيقِ التَّارِيخِيِّ!! وَهَلْ أَنْتَ مُكَلَّفٌ بِالتَّحْقِيقِ التَّارِيخِيِّ؟! تَدْخُلُ فِي شَيْءٍ لا تَدْرِي عَنْهُ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ خُطُورَةٌ وَتُشَكِّكُ النَّاسَ فِي صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ، وَتُوغِرُ قُلُوبَ النَّاسِ عَلَى صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ!! **الوَاجِبُ**: الإِمْسَاكُ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ.

---

(١) العقيدة الواسطية (ص/٤٠).

(٢) رواهُ البخاريّ في صحيحهِ (٣/١٣٤٣ رقم ٣٤٧٠)، ومُسْلِمٌ في صحيحهِ (٤/١٩٦٧ رقم ٢٥٤١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

قوله: (لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: **«إِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا»**[1]).

وأصرح منه قوله ﷺ: **«لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي»** هذا نهيٌ عن سبِّ أحدٍ من الصحابة. فالواجب أن نترحَّمَ عليهم، وأن نستغفر لهم عملاً بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾[الحشر: ١٠]، وأن نكُفَّ ألسنتنا وأقلامنا عن الكلام في صحابة الرسول ﷺ، وأن ندافع عنهم، ونردَّ على من يتنقَّصُ أحداً من الصحابة، ونبطِلَ قوله، لأنَّه مخالفٌ للعقيدة الصحيحة، عقيدةِ أهل السُّنَّة والجماعة.

وشيخ الإسلام في الواسطيَّة يقول: «ما نُقِلَ عنهم إمَّا أنَّه غير صحيح فهو من الكذب والدسِّ، والصحيح منه صاحبُه مجتهدٌ، والمجتهد إنْ أصاب فله أجران وإنْ أخطأ فله أجرٌ واحدٌ، وأيضاً لهم من الفضائل ما يغمُرُ ويغطِّي ما يحصُلُ من بعضهم من الخطإ»[2]. الرسول ﷺ قال في حاطب بن أبي بلتعة ﷺ لمَّا اجتهد وكتب لأهل مكَّة، وقال عمر ﷺ: دعني أضرب عنق هذا المنافق، قال ﷺ: **«لا تَدْرِي يَا عُمَرُ، لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»**[3]، وكان هذا الصحابيُّ ممَّن شهد بدراً.

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير(١٠/١٩٨)، وأبو نعيم في حلية الأولياء(٤/١٠٨) عن عبدالله بن مسعود ﷺ. قال الحافظ العراقي في "تخريج الأحياء" (١/٥٠): "رواه الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد حسن".

(٢) العقيدة الواسطية(ص/٤٠).

(٣) رواه البخاري(٣/١٠٩٥رقم٢٨٤٥)، ومسلم(٤/١٩٤١رقم٢٤٩٤) من حديث علي ﷺ.

قوله: (**وَقَالَ سُفْيَانُ بنُ عُيَيْنَةَ: «مَنْ نَطَقَ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِكَلِمَةٍ فَهُوَ صَاحِبُ هَوًى»**) لأنَّهُ لا يَتكلَّمُ فِيهِم إلاَّ صَاحِبُ هوًى وتَعَرُّض لأصحابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

الوَاجِبُ لِصَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ المَحبَّةُ وَالإجْلالُ وَالإكْرامُ، وَمَعْرِفَةُ قَدْرِهِمْ، وَالاقْتِدَاءُ بِهِمْ، لأَنَّهُم خَيْرُ القُرُونِ، وَلأَنَّهُم رَأَوا النَّبِيَّ ﷺ وآمَنُوا بِهِ، صَحِبُوهُ وَنَصَرُوهُ، جَاهَدُوا مَعَهُ، وَتَحَمَّلُوا العِلْمَ عَنْهُ، فَهُمْ أَفْضَلُ هَذِهِ الأُمَّةِ، بَلْ هُمْ أَفْضَلُ الخَلْقِ بَعْدَ النَّبِيِّينَ، لأَنَّ اللهَ اخْتَصَّهُمْ بِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَأَفْضَلِ المُرْسَلِينَ، فَلا يَطْعَنُ فِيهِم إلاَّ مَنْ فِي قَلْبِهِ غِلٌّ وَحِقْدٌ عَلَى الإسْلامِ. فَهُوَ لا يَطْعَنُ فِيهِم لأَشْخَاصِهِمْ، إنَّمَا يَطْعَنُ فِيهِمْ لأَجْلِ مَا قَامُوا بِهِ مِنْ نُصْرَةِ هَذَا الدِّينِ، وَتَبْلِيغِهِ لِلنَّاسِ بِأَمَانَةٍ.

فَالَّذِي يَطْعَنُ فِيهِم إنَّمَا يَطْعَنُ مِنْ أَجْلِ هَذَا، لأَنَّهُ حَاقِدٌ عَلَى الإسْلامِ، وَمَوْتُورٌ مِنَ الإسْلامِ فَهُوَ يَتَشَفَّى بِذَلِكَ، وَلأَجْلِ أَنْ يَقْطَعَ صِلَةَ الأُمَّةِ بِنَبِيِّهَا مُحَمَّدٍ ﷺ، لأَنَّهُمْ هُمُ الوَاسِطَةُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرَّسُولِ ﷺ، فَهَذَا قَصْدُ مَنْ يَطْعَنُ فِيهِم.

وَلِهَذَا لَمَّا ذَكَرَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارَ فِي سُورَةِ الحَشْرِ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ١٠] فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الَّذِي يَطْعَنُ فِيهِم أَوْ فِي أَحَدٍ مِنْهُمْ إنَّمَا هُوَ لِغِلٍّ يَجِدُهُ فِي قَلْبِهِ عَلَيْهِم، وَلِهَذَا قَالَ سُفْيَانُ بنُ عُيَيْنَةَ الإمَامُ الجَلِيلُ: **«مَنْ نَطَقَ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ**

اللهِ ﷺ **بِكَلِمَةٍ فَهُوَ صَاحِبُ هَوًى**، فالهوى هُوَ الَّذي حمله على هذا، وَالْهَوَى هُوَ بُغْضُهُمْ وَالحِقْدُ عَلَيْهِم، فَلِذَلِكَ تَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ مَنْ يَطْعَنُ فِي صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. وَقَدْ افْتُضِحُوا بِالكَذِبِ وَالكَرَاهِيَةِ بَيْنَ النَّاسِ، فلا يَرَاهُمْ أَحَدٌ إِلاَّ وَهُوَ يَكْرَهُهُمْ، لأَنَّ اللهَ وَضَعَ لَهُمْ البُغْضَ فِي الأَرْضِ، فَلا أَحَدَ يَرَى مَنْ يُبْغِضُ صَحَابَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلاَّ وَهُوَ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ بُغْضاً لَهُمْ، وَكَرَاهِيَةً لَهُم، نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ.

وَهَذا لا يَضُرُّ صَحَابَةَ رَسُولِ اللهِ، وَلا يَضُرُّ الإِسْلامَ، فَالصَّحَابَةُ مَوفُورٌ لَهُمْ قَدْرُهُمْ وَأَجْرُهُمْ، وَالإِسْلامُ مُسْتَمِرٌّ وَيَنْتَصِرُ وَللهِ الحَمْدُ، وَإِنَّمَا هَؤُلاءِ يَضُرُّونَ أَنْفُسَهُمْ، لَكِنَّ الخَوْفَ عَلَى مَنْ يَقْرَأُ كُتُبَهُمْ مِمَّنْ لَيْسَ عِنْدَهُ عِلْمٌ، فَيَقَعُ فِي نَفْسِهِ شَيْءٌ عَلَى صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَيَتَأَثَّرُ بِذَلِكَ، وَكَمْ وَقَعَ مِنْ فَرِيسَةٍ مِنْ أَبْنَاءِ المُسْلِمِينَ بِسَبَبِ مُطَالَعَةِ كُتُبِ هَؤُلاءِ، لأَنَّهُ إِذَا قَرَأَهَا تَأَثَّرَ بِهَا، وَوَجَدَ فِي نَفْسِهِ بُغْضاً لِصَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَوْ عَلَى الأَقَلِّ يَقِلُّ قَدْرُهُمْ عِنْدَهُ وَيَنْتَقِصُونَ عِنْدَهُ.

فَهَذَا هُوَ الخَوْفُ عَلَى شَبِيبَةِ المُسْلِمِينَ، وَعَلَى الَّذِينَ لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنَ العِلْمِ أَنْ يَتَأَثَّرُوا بِهَذِهِ الكُتُبِ الَّتِي تَطْعَنُ فِي صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ، لاسِيَّمَا وَأَنَّهَا تُنْشَرُ الآنَ وَتُنَمَّقُ، وَتُخْرَجُ فِي أَحْسَنِ إِخْرَاجٍ مِنَ الطِّبَاعَةِ وَمِنَ التَّجْلِيدِ، وَيُرَوِّجُونَهَا فِي المَعَارِضِ، يَجِدُونَ ذَلِكَ فُرْصَةً لَهُمْ لِيَنْشُرُوا وَيُشِيعُوا الوَقِيعَةَ فِي صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَلا شَكَّ أنَّ الطَّعْنَ في صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ طَعْنٌ في الرَّسُولِ ﷺ، كَيْفَ يَكُونُ صَحَابَتُهُ مِنْ هَؤُلاءِ الَّذِينَ وَصَفُوهُمْ بِهَذِهِ الأَوْصَافِ القَبِيحَةِ. هَذَا طَعْنٌ في الرَّسُولِ ﷺ.

وَأَيْضاً هُوَ تَكْذِيبٌ لِكِتَابِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ أَثْنَى عَلَى الصَّحَابَةِ فِي القُرْآنِ العَظِيمِ فِي آيَاتٍ مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: ١٨- ١٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ يَعْنِي صِفَتَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ، فَهُمْ مَذْكُورُونَ فِي التَّوْرَاةِ، كَمَا ذُكِرَ نَبِيُّهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ، ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ الَّذِي نَزَلَ عَلَى عِيسَى ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩] فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لا يَغْتَاظُ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ، وَلا يُبْغِضُهُمْ إِلاَّ كَافِرٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، فَهَذِهِ هِيَ عَلامَةُ الكُفْرِ، فَبُغْضُ صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، كُفْرٌ وَنِفَاقٌ وَالعِيَاذُ بِاللهِ.

قوله: **(بكلمةٍ فهُوَ صاحِبُ هَوًى)** أي: إذا تكلم في تنقص الصحابة بكلمةٍ واحدةٍ فهُوَ صاحِبُ هوًى.

إذا كانَ هذا يحصُلُ بكلمةٍ واحدةٍ فكيفَ بالذي يؤلِّفُ كُتُباً في سبِّهِمْ والوقيعةِ فيهم، وتلمُّسِ العثراتِ لهُمْ، وتضخيمِها؟! كيفَ بهذا؟! إذا كانَ مَنْ نطقَ بكلمةٍ في صحابةِ رسُولِ اللهِ فهُوَ صاحِبُ هوًى، يعني يتَّبعُ هواهُ، لأنَّهُ ما تكلَّمَ إلاَّ لهوًى في نفسِهِ، وبُغضٍ لِصحابةِ رسُولِ اللهِ.

❀ ❀ ❀

[٢٦] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالسَّمْعُ والطَّاعَةُ للأئمَّةِ فِيمَا يُحِبُّ اللهُ وَيَرْضَى، وَمَنْ وَلِيَ الخِلافَةَ بِإِجْمَاعِ النَّاسِ عَلَيهِ وَرِضَاهُمْ بِهِ فَهُوَ أَمِيرُ المُؤمِنِينَ، لاَ يَحِلُّ لأَحَدٍ أَنْ يَبِيتَ لَيْلَةً وَلاَ يَرى أَنْ لَيْسَ عَلَيهِ إِمَام، بَرّاً كَانَ أَوْ فَاجِراً.

الشَّرْحُ:

مِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ المَبْنِيَّةِ عَلَى كِتَابِ اللهِ وسُنَّةِ الرَّسُولِ ﷺ: السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لِوُلاةِ أُمُورِ المُسْلِمِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩] ﴿ مِنكُمْ ﴾ يَعْنِي مِنَ المُسْلِمِينَ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ»**(١)، فِي رِوَايَةٍ: **«وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ»**(٢)، وَفِي رِوَايَةٍ: **«عَبْدٌ مُجَدَّعُ الأَطْرَافِ»**(٣) يَعْنِي مُقَطَّعَ الرِّجْلَيْنِ وَاليَدَيْنِ، مَا دَامَ أَنَّهُ وَلِيُّ أَمْرٍ، تَجِبُ طَاعَتُهُ بِالمَعْرُوفِ، فَهَذَا مِنْ أُصُولِ

---

(١) جُزْءٌ من حديث العِرْبَاضِ بن سارِيةَ رضي الله عنه، وَقَدْ سَبَقَ تَخْرِيجُهُ(ص/٤٢).

(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ في صَحِيحِهِ(٢٦١٢/٦رقم٦٧٢٣) عن أنسٍ رضي الله عنه، ومُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ(١٤٦٨/٣رقم١٨٣٧) عن أم حصين رَضِيَ الله عنها، وفي بعض ألفاظ حديثها عند مُسْلِم: «وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا مُجَدَّعَ الأَطْرَافِ».

(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ(١٤٦٨/٣رقم١٨٣٧) عن أم حصين رَضِيَ الله عنها، وفي(٤٤٨/١رقم٦٤٨) عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه.

العقيدة. والذي يخرج على أئمة المسلمين يكون من الضالين، إمّا أنه خارجيٌّ، أو معتزليٌّ، أو صاحبُ نحلةٍ باطلةٍ تُخالفُ سُنّةَ الرّسُولِ ﷺ.

قولُهُ: **(والسّمْعُ والطّاعةُ للأئمّةِ فيمَا يُحِبُّ اللهُ ويَرْضَى)** بهذا القيْدِ فيمَا يُحِبُّ اللهُ ويَرْضَى، أمّا المَعْصِيَةُ فلا يُطَاعُونَ فيهَا، قَالَ ﷺ: **«لا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ»**(1)، وقَالَ عَلَيْهِ الصّلاةُ والسّلامُ: **«إنّمَا الطّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ»**(2)، ولَيْسَ مَعْنَى ذلِكَ أنّهُ إذَا أمَرَ وَلِيُّ الأمْرِ بِمَعْصِيَةٍ مِنَ المَعَاصِي أنّهَا تَنْخَلِعُ إمَامَتُهُ، بَلْ إنّهُ لا يُطَاعُ فِي هذهِ المَعْصِيَةِ، ولَكِنْ يُطَاعُ فِيمَا لَيْسَ فِيهِ مَعْصِيَةٌ، وتَبْقَى وِلايَتُهُ، ويُطَاعُ فِيمَا لَيْسَ بِمَعْصِيَةٍ.

قولُهُ: **(وَمَنْ وَلِيَ الخِلافَةَ بِإجْمَاعِ النّاسِ عَلَيْهِ، وَرِضَاهُمْ بِهِ؛ فَهُوَ أمِيرُ المُؤْمِنِينَ)** هذَا بَيَانٌ بِمَا تَنْعَقِدُ بِهِ الإمَامَةُ، فَإنّ الإمَامَةَ تَنْعَقِدُ بِأحَدِ أُمُورٍ:

الأمْرُ الأوّلُ: مَا ذَكَرَهُ المُؤلّفُ، وَهُوَ مَنِ اخْتَارَهُ المُسْلِمُونَ، وَالمُرَادُ بِالّذِينَ يَخْتَارُونَ الإمَامَ هُمْ أهْلُ الحَلِّ وَالعَقْدِ مِنَ العُلَمَاءِ وَالأُمَرَاءِ وَأصْحَابِ السّيَاسَةِ، وَأُمَرَاءِ الأجْنَادِ، ولَيْسَ مَعْنَاهُ أنّ اخْتِيَارَ الإمَامِ لِكُلِّ أحَدٍ مِنَ الصّبْيَانِ وَالنّسَاءِ وَالحَضَرِ وَالبَدْوِ، لأنّ النّاسَ تَبَعٌ لأهْلِ الحَلِّ

---

(1) رواهُ الإمامُ أحمدُ في المسندِ(4/432، 5/66)، والطّبرانيّ في المُعجم الكبيرِ(18/185)، والقضاعي في مسند الشهاب(2/55)، وغيرُهم واللفظ للطّبرانيّ، والقضاعي، ولفظ أحمدَ: **«لا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ»**. وأصله في الصحيحين من حديث علي ﷺ وهُوَ الآتي.

(2) رواهُ البخاريّ في صحيحه(4/1577رقم4085)، ومُسلمٌ في صحيحه(3/1469رقم1840) من حديث علي ﷺ. ولفظ مُسلم: **«لا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، إنّمَا الطّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ»**

وَالعَقْدِ. فَإِذَا اخْتَارَ أَهْلُ الحَلِّ وَالعَقْدِ إِمَامًا؛ وَجَبَ عَلَى البَقِيَّةِ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَهَذَا كَمَا حَصَلَ فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، فَإِنَّ الصَّحَابَةَ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَجْمَعُوا عَلَى بَيْعَةِ الصِّدِّيقِ، فَكَانَتْ بَقِيَّةُ الأُمَّةِ تَابِعَةً لِمَنِ اخْتَارَ الصِّدِّيقَ، وَلَمْ يُفْتَحِ المَجَالُ لِكُلِّ أَحَدٍ لِيُشَارِكَ فِي الاخْتِيَارِ، لِأَنَّ هَذَا مِنِ اخْتِصَاصِ أَهْلِ الحَلِّ وَالعَقْدِ. فَالمُسْلِمُونَ اخْتَارُوا أَبَا بَكْرٍ ﷺ أَفْضَلَهُمْ، وَهَذَا اخْتِيَارٌ لَهُ أَدِلَّةٌ مِنْ سُنَّةِ الرَّسُولِ ﷺ:

أَوَّلُهَا: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَفْضَلُ الصَّحَابَةِ عَلَى الإِطْلَاقِ، مَا خَالَفَ فِي هَذَا أَحَدٌ.

وَثَانِيًا: أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَعْطَى إِشَارَاتٍ بِاسْتِخْلَافِهِ مِنْهَا: أَنَّهُ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ قَدَّمَهُ لِلصَّلَاةِ لِيَؤُمَّ المُسْلِمِينَ فِي مِحْرَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ[1]، وَيَقِفَ مَوْقِفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، هَذِهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ هُوَ إِمَامُهُمْ فِي الخِلَافَةِ، كَمَا هُوَ إِمَامُهُمْ فِي الصَّلَاةِ، فَاخْتَارُوا أَبَا بَكْرٍ ﷺ، وَقَالُوا: أَيَرْضَاكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِدِينِنَا، وَلَا نَرْضَاكَ لِدُنْيَانَا؟! وَانْعَقَدَتْ بَيْعَتُهُ، وَأَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلَى ذَلِكَ مَنْ بَاشَرَ الاخْتِيَارَ وَمَنْ لَمْ يُبَاشِرْ فَهُوَ تَبَعٌ، وَالمُسْلِمُونَ جَمَاعَةٌ وَاحِدَةٌ وَيَدٌ وَاحِدَةٌ.

الأمر الثاني: وَلَمَّا حَضَرَتْ أَبَا بَكْرٍ الوَفَاةُ اخْتَارَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ وَعَيَّنَهُ بَدَلًا عَنْهُ، فَسَمِعَ المُسْلِمُونَ وَأَطَاعُوا، وَهَذِهِ هِيَ الطَّرِيقَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ طُرُقِ

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (١/٢٣٦ رقم ٦٣٣)، وَمُسْلِمٌ (١/٣١٣ رقم ٤١٨) عن عَائِشَةَ رضيَ اللهُ عنها.

ثُبوتِ الإمامةِ وَهُوَ أنْ يَختارَ وَلِيُّ الأمرِ وَلِيًّا لِلعَهدِ يَخلُفُهُ بعدَ موتِهِ كما فَعَلَ أبو بَكرٍ حَيثُ اختارَ عُمَرَ ﷺ.

الأمرُ الثالثُ: إذا تَغَلَّبَ واحِدٌ مِنَ المُسلِمينَ، وأَخضَعَ النّاسَ لإمارَتِهِ فإنَّهُ يَكونُ أميراً وإماماً لَهُم، مِثلُ ما حَصَلَ مِنْ عَبدِالمَلِكِ بنِ مَروانَ، فإنَّهُ لَمّا حَصَلَ الاختِلافُ بَعدَ وَفاةِ يَزيدَ بنِ مُعاوِيَةَ، فإنَّ عَبدَالمَلِكِ بنَ مَروانَ بنِ الحَكَمِ قامَ بالأمرِ، وكانَ رَجُلاً شَهماً حازِماً قَوِيًّا ونَفَعَ اللهُ بِهِ، وانعَقَدَتْ بَيعَتُهُ، وَسَمِعَ المُسلِمونَ لَهُ، وأطاعوا، فَكانَ في ذلِكَ الخَيرُ لِلمُسلِمينَ.

فَهذِهِ هِيَ الطُّرُقُ الَّتي تَثبُتُ بِها وِلايَةُ الإمامِ؛ إمّا باختِيارِ أهلِ الحَلِّ وَالعَقدِ، وَإمّا بأنْ يَعهَدَ السّابِقُ لِلّاحِقِ، وَإمّا بأنْ يَتَغَلَّبَ واحِدٌ مِنَ المُسلِمينَ حينَما يَكونُ لَهُم إمامٌ، وَيَخضَعَ النّاسُ لَهُ، وَيَنقادوا لَهُ، فَلا يَجوزُ لأحَدٍ أنْ يَشُقَّ العَصا.

وقَولُهُ: (بإجماعِ المُسلِمينَ) لا تَفهَمْ مِنْ هَذا أنَّهُ لابُدَّ مِنِ اختِيارِ المُسلِمينَ كُلِّهِمْ، وَلَكِنْ يَحصُلُ ذلِكَ بإجماعِ أهلِ الحَلِّ وَالعَقدِ، كالحاصِلِ في عَهدِ أبي بَكرٍ ﷺ، وَكالحاصِلِ في خِلافَةِ عُثمانَ ﷺ، فَإنَّ الَّذينَ اختارُوهُ هُمْ أهلُ الشّورى، وَهُمُ الباقونَ مِنَ العَشَرَةِ المُبَشَّرينَ بالجَنَّةِ، اختارُوهُ فَثَبَتَتْ إمامَتُهُ، وَلَمْ يَعتَرِضْ أحَدٌ عَلى ذلِكَ، بَلْ أجمَعوا عَلى إمامَةِ عُثمانَ ﷺ.

قَولُهُ: **(لا يَحِلُّ لأحَدٍ أنْ يَبيتَ لَيلَةً وَلا يَرى أنْ لَيسَ عَلَيهِ إمامٌ، بَرًّا كانَ أوْ فاجِراً)** هذِهِ مَسألَةٌ مُهِمَّةٌ جِدًّا وَهِيَ أنَّهُ لا يَجوزُ لِلإنسانِ أنْ يَخرُجَ

عَنْ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَيَشُقَّ عَصَا الطَّاعَةِ فَإِنَّهُ إِنْ فَعَلَ ذَلِكَ **«وَبَاتَ لَيْلَةً وَلَيْسَ لَهُ إِمَامٌ»** يَعْتَقِدُ إِمَامَتَهُ، فَهَذَا **«قَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ»**(1).

بِمَعْنَى أَنَّهُ كَانَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَمُرْتَبِطاً مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا خَرَجَ عَنْ طَاعَةِ الإِمَامِ فَإِنَّهُ قَطَعَ الارْتِبَاطَ بِالْمُسْلِمِينَ، مِثْلُ: صِغَارِ الأَغْنَامِ الَّتِي يُجْعَلُ لَهَا حَبْلٌ مُمْتَدٌّ وَفِيهِ دَرَكَاتٌ تُدْخَلُ فِيهَا رُؤُوسُ صِغَارِ الغَنَمِ لِتَحْفَظَهَا مِنَ الضِّبَاعِ، يُسَمَّى الرِّبَقَ، فَشَبَّهَ اجْتِمَاعَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى إِمَامٍ بِذَلِكَ، فَمَنْ خَرَجَ عَنْ طَاعَةِ الإِمَامِ فَقَدْ خَلَعَ هَذِهِ الرِّبْقَةَ وَتَعَرَّضَ لِلضِّبَاعِ وَلِلذِّئَابِ وَلِلأَهْوَاءِ. وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَكْفُرُ، مَعْنَاهُ: أَنَّهُ فَارَقَ الجَمَاعَةَ، وَخَرَجَ عَنِ الطَّاعَةِ، فَصَارَ كَالبَهِيمَةِ الَّتِي خَرَجَتْ مِنَ الرِّبَاطِ، وَتَعَرَّضَتْ لِلسِّبَاعِ وَالنَّهْبِ وَالسَّلْبِ.

ولا يَقُلْ: أَنَا مَا بَايَعْتُ، وَلَيْسَ لِي إِمَامٌ، فَأَنْتَ وَاحِدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمَّا بَايَعَ أَهْلُ الحَلِّ وَالعَقْدِ فَأَنْتَ تَابِعٌ لَهُمْ.

---

(1) روى مُسْلِمٌ في صحيح مُسْلِم(٣/١٤٧٨رقم١٨٥١) من حديث عبدالله بن عمر وفيه: «وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»، وفي رواية عن ابن عمرَ عِنْدَ الحَاكِمِ في الْمُسْتَدْرَكِ عَلَى الصحيحين(١/١٥٠): «مَنْ خَرَجَ مِنَ الجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلامِ مِنْ عُنُقِهِ حَتَّى يُرَاجِعَهُ»، قَالَ: «وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ عَلَيْهِ إِمَامُ جَمَاعَةٍ فَإِنَّ مَوْتَتَهُ مَوْتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ»

[٢٧] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالحَجُّ وَالغَزْوُ مَعَ الإِمَامِ مَاضٍ، وَصَلَاةُ الجُمُعَةِ خَلْفَهُمْ جَائِزَةٌ، وَيُصَلَّى بَعْدَهَا سِتُّ رَكَعَاتٍ، يَفْصِلُ بَيْنَ كُلِّ رَكْعَتَيْنِ، هَكَذَا قَالَ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ.

الشَّرْحُ:

صَلَاحِيَّاتُ الإِمَامِ كَثِيرَةٌ، وَمَحَلُّ إِحْصَائِهَا وَجَمْعِهَا وَالاطِّلَاعِ عَلَيْهَا: الأَحْكَامُ السُّلْطَانِيَّةُ الَّتِي أُلِّفَتْ فِي هَذَا، مِثْلُ: «الأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ» لِلْمَاوَرْدِيِّ، وَ«الأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ» لأَبِي يَعْلَى الحَنْبَلِيِّ، وَكُتُبٌ أُلِّفَتْ فِي هَذَا فِيهَا بَيَانُ صَلَاحِيَّاتِ الإِمَامِ، وَهَذَا مَذْكُورٌ فِي كُتُبِ الفِقْهِ، وَفِي كُتُبِ العَقَائِدِ أَيْضاً كَمَا هُنَا:

أَوَّلاً: أَنَّهُ يَتَوَلَّى صَلَاةَ الجُمُعَةِ وَالعِيدَيْنِ، وَيُصَلِّي المُسْلِمُونَ خَلْفَهُ، إِلَّا أَنْ يَخْتَارَ هُوَ، وَيَخْلُفَ مِنَ العُلَمَاءِ أَوْ مِنْ طَلَبَةِ العِلْمِ مَنْ يُصَلِّي بِالنَّاسِ. لَكِنَّ الأَصْلَ أَنَّهُ أَحَقُّ بِالإِمَامَةِ فِي الجُمُعَةِ وَالعِيدَيْنِ، فَإِنِ اسْتَخْلَفَ مَنْ يَقُومُ بِهَذَا فَلَهُ ذَلِكَ، وَهَذَا عَلَيْهِ العَمَلُ الآنَ.

ثَانِياً: هُوَ الَّذِي يُقِيمُ الحَجَّ، وَيَقُودُ الحَجِيجَ، وَيَتَأَمَّرُ عَلَيْهِم، وَيَنْظُرُ فِي مَشَاكِلِهِمْ.

ثَالِثاً: إِقَامَةُ الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ مِنْ صَلَاحِيَّاتِ الإِمَامِ هُوَ الَّذِي يَأْمُرُ بِهِ. وَهُوَ الَّذِي يُنَظِّمُ الرَّايَاتِ، وَهُوَ الَّذِي يَخْتَارُ الجُنُودَ وَالمُقَاتِلِينَ، وَيُؤَمِّرُ الأُمَرَاءَ، وَيُجَنِّدُ السَّرَايَا وَالجُيُوشَ، وَيُسَلِّحُ المُجَاهِدِينَ، وَيُوَجِّهُهُمْ إِلَى

غزوِ العدوِّ، ويُعيِّنُ لهم الجهةَ التي يَغزُونها. فالجهادُ مِن صلاحيَّاتِ الإمامِ وليسَ الجهادُ فوضى، كُلُّ مَنْ أرادَ حملَ السِّلاحِ ويُقتِّل ويَهجُم ويَقُولَ: أنا أُجاهدُ في سبيلِ الله. هذا ليسَ جهاداً في سبيلِ الله، الجهادُ في سبيلِ اللهِ مُنظَّمٌ ومَضبوطٌ بضوابطَ شرعيَّةٍ، أمَّا إذا دَخلَتْهُ الفوضى صارَ تخريباً، وصارَ ضَررُهُ أكثرَ مِن نفعِهِ إنْ كانَ فيهِ نفعٌ، فالضَّررُ النَّاجمُ عنْهُ أكثرُ، فالأمورُ لها ضوابطُ، والجهادُ أمرُهُ عظيمٌ، يَحتاجُ إلى الضِّباطِ، ويَحتاجُ إلى تقيُّدٍ بأحكامِ الجهادِ المَذكورةِ في الكتابِ والسُّنَّةِ وكلامِ أهلِ العلمِ، ليسَ الأمرُ فوضى، بأنْ يأتيَ واحدٌ مِن دُعاةِ الفتنةِ ويتزَعَّمُ هؤلاءِ الغالِينَ أو المتطرِّفينَ أو الجُهَّالِ الذينَ لا يَدرُونَ يتزَعَّمُهُمْ ويَقُولُ: نُجاهدُ في سبيلِ اللهِ. هذا يُعتبَرُ مِنَ الضَّررِ على الإسلامِ والمُسلمينَ وليسَ هذا جهاداً؛ لأنَّهُ لمْ يتقيَّدْ بضوابطِ الجهادِ، وإذا لمْ يتقيَّدْ بضوابطِ الجهادِ صارَ فساداً وليسَ جهاداً، وكُلُّ شيءٍ تجاوزَ حدَّهُ فإنَّهُ ينقلِبُ إلى ضدِّهِ، فهُمْ يقولونَ الآنَ لِمَنْ أنكرَ عليهِم: أنتُم تمنَعُونَ الجهادَ في سبيلِ اللهِ، نقولُ: نحنُ لا نمنَعُ الجهادَ في سبيلِ اللهِ، لكنْ نقولُ: لابُدَّ أنْ ينضبِطَ الجهادُ بالضَّوابطِ الشَّرعيَّةِ، وما تعملُونَهُ هذا فوضى وليسَ جهاداً، واللهُ لمْ يأمُرْ بهذا.

فإقامةُ الحجِّ، والغزوِ، والجُمُعةِ، والعيدِ مِن صلاحيَّاتِ وليِّ الأمرِ.

قولُهُ: **(وصلاةُ الجُمُعةِ خلفَهُمْ جائزةٌ)** يَعني ولو كانَ عندَهُم فِسقٌ، ولو كانَ عندَهُم مَعاصٍ؛ فإنَّهُ يُصلَّى خلفَهُمْ؛ لأنَّ في الصَّلاةِ خلفَهُمْ

جمعٌ بكلمةٍ. وأيضاً الفاسقُ إذا أحسنَ فأحسِنْ معهُ، ولهذا لمّا قالوا لعثمانَ ﷺ وهو محصورٌ: إنَّ فلاناً يؤمُّ النّاسَ، وهو ليسَ بإمامٍ، وإنَّما هو إمامُ فتنةٍ. قالَ: **«يا ابنَ أخي إذا أحسَنَ النّاسُ فأحسِنْ معَهُم، وإذا أساؤوا فتجنَّبْ إساءَتَهُم»**[1] فإذا صلّى نُصلّي معهُ إذا كانَ وليَّ أمرٍ ولو كانَ عندهُ فِسقٌ أو مُخالفةٌ، لِما في ذلكَ منَ المَصلحةِ؛ ولأنَّ الصَّلاةَ عِبادةٌ، والفاسقُ إذا صلّى يُشجَّعُ على هذا، ويُدعى لهُ. وقدْ صلّى الصَّحابةُ خلفَ الأُمراءِ الّذينَ عليهِم مُلاحظاتٌ كالحَجّاجِ وغيرِهِ، صلّى خلفَهُم صحابةُ رسولِ اللهِ، امتِثالاً لأمرِ الرَّسولِ ﷺ، وجمعاً للكلِمةِ.

قولُهُ: **(ويُصلّي بعدَهَا ستَّ ركعاتٍ)**، هذهِ مسألةٌ فقهيّةٌ جاءتْ بمُناسبةِ ذكرِ صلاةِ الجُمُعةِ، فالجُمُعةُ ليسَ لها راتِبةٌ قبلَها، فمَنْ جاءَ إلى المَسجدِ فإنّهُ يُصلّي ما تيسَّرَ لهُ ويَجلسُ ينتظرُ، وإنِ استمرَّ في الصَّلاةِ حتّى يحضُرَ الإمامُ فهوَ أفضلُ، على أنّهُ نفلٌ مُطلقٌ ليسَ لهُ علاقةٌ بصلاةِ الجُمُعةِ. أمّا راتِبةُ الجُمُعةِ فهيَ بعدَها، أقلُّها ركعتانِ، وأكثرُها على المَشهورِ أربعُ ركعاتٍ بسلامَيْنِ، وجاءَ في روايةٍ: أنّها ستُّ ركعاتٍ بثلاثِ تسليماتٍ، إذاً: يكونُ أقلُّها ركعتانِ وأكثرُها ستُّ ركعاتٍ أو أربعُ ركعاتٍ، كما هوَ المَشهورُ.

---

(1) رواهُ البخاريُّ في صحيحِهِ(1/246رقم663) عن عُبيدِالله بنِ عديِّ بنِ خيارٍ به.

قوله: (**يفصل بين كل ركعتين، هكذا قال أحمد بن حنبل**[1]) أي: ليس معنى ذلك أنه يصلي ست ركعات سرداً بسلام واحد، بل ست ركعات، كل ركعتين بسلام، أو أربع ركعات كل ركعتين بسلام. هذا هو الأفضل. ونسبته إلى الإمام أحمد لأن المصنف حنبلي، ويعرف مذهب الإمام أحمد، هذا رواية عن أحمد أنها ست ركعات، والمشهور أنها أربع ركعات.

❀❀❀

(1) في مسائل عبدالله بن الإمام أحمد (ص/١٢١ رقم ٤٣٧) قال عبدالله: سألت أبي: كم يصلي الرجل بعد الجمعة؟ قلت: الذي هو أحب إليك؟ قال: «إن شاء صلى أربعاً بعد الجمعة، وإن شاء صلى ستاً إلا أنه يسلم في كل ركعتين، وكذلك صلاة النهار كلها مثنى مثنى»، وانظر: (رقم ٤٣٦).

[٢٨] **قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالخِلَافَةُ فِي قُرَيْشٍ إِلَى أَنْ يَنْزِلَ عِيسَى بنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.**

الشَّرْحُ:

إِذَا تَشَاحَّ أَكْثَرُ مِنْ وَاحِدٍ فِيمَنْ يَلِي الإِمَامَةَ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَصْلُحُ لِلإِمَامَةِ. فَإِنَّهُ يُقَدَّمُ القُرَشِيُّ لِمِيزَتِهِ عَلَى غَيْرِهِ لِقَوْلِهِ ﷺ: **«الأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ»**(١)، وقَوْلِهِ: **«قَدِّمُوا قُرَيْشاً، وَلَا تَقَدَّمُوهَا»**(٢)، فَإِذَا كَانَ القُرَشِيُّ صَالِحاً، وَحَصَلَتْ مُشَاحَّةٌ مَنِ الَّذِي يَتَوَلَّى؟ فَإِنَّهُ يُقَدَّمُ القُرَشِيُّ لِوَصِيَّةِ الرَّسُولِ ﷺ بِذَلِكَ؛ وَلِأَنَّ الصَّحَابَةَ لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ الأَنْصَارُ: «مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُم أَمِيرٌ»، قَالَ لَهُمْ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: «إِنَّ العَرَبَ لَا تَدِينُ بِهَذَا الأَمْرِ إِلَّا لِهَذَا الحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ»(٣)، فَبَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رضي الله عنه، وَمِنْ بَعْدِهِ عُمَرُ. وَمِنْ بَعْدِهِ عُثْمَانُ. وَمِنْ بَعْدِهِ عَلِيٌّ، وَمِنْ بَعْدِهِ مُعَاوِيَةُ وَمِنْ بَعْدِهِ بَنُو أُمَيَّةَ. وَبَعْدَهُمْ بَنُو العَبَّاسِ كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ. أَمَّا إِذَا تَمَّ الأَمْرُ وَانْعَقَدَ فَإِنَّهُ تَلْزَمُ الطَّاعَةُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ قُرَشِيًّا، أَوْ كَانَ القُرَشِيُّ لَا يَصْلُحُ لِلإِمَامَةِ،

---

(١) رواه الطيالسي في مسنده(١/٢٨٤)، والإمام أحمد في المسند(٣/١٢٩)، والنسائي في السنن الكبرى(٣/٤٧٦رقم٥٩٤٢)، وابن أبي عاصم في السنة(رقم١٠٢٠)، وأبو يعلى في مسنده(٧/٩٤)، والبيهقي في السنن الكبرى(٣/١٢١) وصححه الضياء في المختارة(٤/٤٠٣رقم١٥٧٦)

(٢) رواه ابن أبي عاصم في السنة(رقم١٥١٩)، والطبراني في المعجم الكبير- كما في مجمع الزوائد(١٠/٢٥)

(٣) انظر: صحيح البخاري(٣/١٣٤١رقم٣٤٦٧)

فمُجرَّدُ كونِهِ قُرَشِيًّا لايُخوِّلُهُ للإمامةِ إلاّ إذا كانَ مَعَ القُرَشيَّةِ صالحاً لها ولَمْ يكُنْ هُناكَ إمامٌ قائِمٌ.

قولُهُ: **(إلَى أنْ يَنْزِلَ عيسَى بنُ مَرْيَمَ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ)** إشارَةٌ إلَى أنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلامُ حِينَمَا يَنْزِلُ وَإِمامُ المُسْلِمينَ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِاللهِ المَهْدِيُّ، وَهُوَ مِنْ بَيْتِ الحَسَنِ بنِ عَلِيِّ بنِ أبِي طَالِبٍ؛ فَدَلَّ عَلَى أنَّ آخِرَ الأئِمَّةِ يَكُونُ مِنْ قُرَيْشٍ، وَأَوَّلُهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ وَهُوَ أبو بَكْرٍ ﷺ. وَهَذا حَسَبَ الإمْكَانِ كَمَا ذَكَرْنَا، وإذا مَا وُجِدَ أحَدٌ مِنْ قُرَيْشٍ فلا تُعَطَّلُ الوِلايَةُ، أوْ إذا قَامَ بالأمْرِ غَيْرُ قُرَشِيٍّ وَكَانَتْ فِيهِ صَلاحِيَةٌ أنَّنا نُبْعِدُهُ وَنَقُولُ: لا تَصْلُحُ لَهَا، فَيَجِبُ مَعْرِفَةُ هَذِهِ الأُمُورِ.

❀❀❀

[٢٩] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَمَنْ خَرَجَ عَنْ إِمَامٍ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَهُوَ خَارِجِيٌّ، قَدْ شَقَّ عَصَا الْمُسْلِمِينَ، وَخَالَفَ الآثَارَ، وَمِيتَتُهُ مِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: **(وَمَنْ خَرَجَ عَنْ إِمَامٍ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَهُوَ خَارِجِيٌّ)** مَنْ خَرَجَ عَنْ طَاعَةِ وَلِيِّ الأَمْرِ وَشَقَّ عَصَا الطَّاعَةِ بِحُجَّةِ أَنَّ وَلِيَّ الأَمْرِ عِنْدَهُ مَعَاصٍ أَوْ مُخَالَفَاتٌ، كَمَا فَعَلَ الْخَوَارِجُ؛ فَهَذَا لَهُ حُكْمُ الْخَوَارِجِ، وَالْخَوَارِجُ فِئَةٌ ضَالَّةٌ ظَهَرَتْ بِذْرَتُهَا فِي عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ حِينَمَا جَاءَ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ وَقَالَ لِلرَّسُولِ ﷺ: لَمَّا رَآهُ يَقْسِمُ غَنِيمَةً قَالَ لَهُ: اعْدِلْ يَا مُحَمَّدُ، فَإِنَّكَ لَمْ تَعْدِلْ. فَقَالَ ﷺ: **«وَيْلَكَ فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟!»** فَلَمَّا وَلَّى الرَّجُلُ قَالَ ﷺ: **«يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا»** يَعْنِي مِنْ جِنْسِهِ **«قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ إِلَى صَلَاتِهِمْ، وَعِبَادَتَكُمْ إِلَى عِبَادَتِهِمْ، يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ، وَلَا يَتَجَاوَزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ؛ فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ»**(1) فَيَجِبُ قِتَالُهُمْ وَذَلِكَ لِأَجْلِ كَفِّ شَرِّهِمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ.

وَهَذَا إِذَا أَظْهَرُوا السِّلَاحَ، وَحَمَلُوا السِّلَاحَ، أَمَّا مُجَرَّدُ أَنَّهُمْ يُظْهِرُونَ رَأْيَ الْخَوَارِجِ وَيَتَكَلَّمُونَ، وَلَكِنْ لَا يُقَاتِلُونَ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ سِلَاحٌ؛ فَنَحن

---

(1) رواه البخاري في صحيحه(٣/١٢١٩رقم٣١٦٦)، ومسلم في صحيحه(٢/٧٤١رقم١٠٦٤) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

نُنْكِرُ عليهِمْ، ونبيِّنُ لهُمْ ضلالَهُمْ ولا نُقاتِلُهُمْ. لكن إذا صار لهُمْ شوْكَةٌ وصارُوا يُقاتِلُون المُسْلمين فلا يجُوزُ للمُسْلِمِينَ أنْ يتْرُكُوهُمْ، بلْ يجبُ على وليِّ الأمْرِ أنْ يُقاتِلَهُمْ. ويَجِبُ على المُسْلِمِينَ أنْ يكُونُوا مَعَ وليِّ الأمْرِ عَلَيْهِمْ، كَمَا حَصَلَ في خِلافَةِ عَلِيٍّ ﷺ لمَّا قَاتَلَ الخَوَارِجَ في النَّهْرَوَانِ، وانْضَمَّ الصَّحَابَةُ إِلَيْهِ، وَقَاتَلُوا مَعَهُ الخَوارِجَ حتَّى قَتَلَهُمْ شَرَّ قِتْلَةٍ، وَنَالَ بِذَلِكَ الأَجْرَ الَّذِي وَعَدَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ في قَوْلِهِ: **«فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْراً لِمَنْ قَتَلَهُمْ»**[1]. وَهَذَا مِنْ فَضَائِلِ عَلِيٍّ ﷺ، وفَضَائِلُهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا: أَنَّهُ قَاتَلَ الخَوَارِجَ، وَحَقَّقَ فِيهِمْ قَوْلَ الرَّسُولِ ﷺ.

قَوْلُهُ: **(قَدْ شَقَّ عَصَا المُسْلِمِينَ، وَخَالَفَ الآثَارَ، وَمِيتَتُهُ مِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ)** فَالخَوَارِجُ هُمُ الَّذِينَ شَقُّوا عَصَا الطَّاعَةِ، وَخَرَجُوا عَلَى وَلِيِّ الأَمْرِ، وَكَذَلِكَ هُمُ الَّذِينَ يُكَفِّرُونَ المُسْلِمِينَ بِالكَبَائِرِ الَّتِي دُونَ الشِّرْكِ فَلَهُمْ عَلامَتَانِ:

- **العَلامَةُ الأُولَى:** خُرُوجُهُمْ عَلَى وَلِيِّ أَمْرِ المُسْلِمِينَ، وَمُحَاوَلَتُهُمْ خَلْعَ وَلِيِّ الأَمْرِ.
- **العَلامَةُ الثَّانِيَةُ:** أَنَّهُم يُكَفِّرُونَ المُسْلِمِينَ بِالكَبَائِرِ الَّتِي دُونَ الشِّرْكِ.

(١) جزء من حديث أبي سعيد ﷺ السابق (ص/١٨٦)

والذي حملهم على هذا هو الغلوُّ والعبادةُ بالله، ولهذا حذر النبيُّ ﷺ من الغلوِّ قال: **«إيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الغُلُوُّ»**[1] وهو الزيادةُ في الدِّين، والزيادةُ على المشروع في إنكار المُنكر. هذا هو الغُلُوُّ الذي دفع الخوارج إلى ما حصل منهم. غلوا في إنكار المُنكر حتَّى شقُّوا عصا الطاعة، وغلوا في العبادة حتَّى كفَّروا مُرتكبي الكبيرة من المُسلمين.

وقوله: (خالفَ الآثار) يعني الأحاديثَ الواردةَ عن الرَّسُول ﷺ في لزوم طاعة وليِّ أمرِ المُسلمين.

(وَمِيتَتُهُ مِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ)، أي: لأنَّ فيه خصلةً من خصال الجاهليَّة، لأنَّ العرب في الجاهليَّة كانوا مُتفرِّقين إلى قبائل، ليس لهم إمامٌ يجمعُهم، بل كلُّ قبيلةٍ مُستقلَّةٌ بنفسِها، وتُغير على القبيلة الأخرى، ولم يجتمعوا إلَّا بعدما بعث الله مُحمَّداً ﷺ، دعاهم إلى الإسلام فأسلموا، وصاروا تحت رايةٍ واحدةٍ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ

(١) رواه الإمام أحمد في المُسند(١/ ٢١٥، ٣٤٧)، والنسائيُّ في سُننه(رقم٣٠٥٧)، وابن ماجة في سُننه(رقم٣٠٢٩)، والطَّبرانيُّ في المُعجم الكبير(رقم١٢٧٤٧)، وابن خُزيمة في صحيحه(رقم ٢٨٦٧-٢٨٦٨)، وابن حبَّان في صحيحه(رقم٣٨٧١)، والحاكم في المُستدرك على الصَّحيحين(١/ ٤٦٦) وصحَّحه على شرط الشَّيخين وأقرَّه الذَّهبيُّ.

تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٦] هَذَا مِنْ ثَمَرَةِ طَاعَةِ وَلِيِّ أَمْرِ المُسْلِمِينَ، كُلُّ هَذِهِ الخَيْرَاتِ تَحْصُلُ: انْبِسَاطُ الأَمْنِ، وَطَلَبُ الرِّزْقِ، وَامْتِدَادُ النَّاسِ فِي السَّعْيِ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ بِسَبَبِ أَمْنِ الطُّرُقِ. أَمَّا إِذَا كَانَ هُنَاكَ خَوْفٌ فَالنَّاسُ لا يُسَافِرُونَ، وَلا يَبِيعُونَ وَيَشْرُونَ خَوْفاً عَلَى أَنْفُسِهِمْ هَذِهِ مِنْ فَضَائِلِ الجَمَاعَةِ، وَطَاعَةِ وَلِيِّ الأَمْرِ. أَمَّا الخُرُوجُ عَلَى وَلِيِّ الأَمْرِ وَشَقُّ عَصَا الطَّاعَةِ فَيَلْزَمُ مِنْهُ:

أَوَّلاً: تَفْرِيقُ جَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ.

ثَانِياً: سَفْكُ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقٍّ.

ثَالِثاً: تَسَلُّطُ العَدُوِّ؛ لأَنَّ العَدُوَّ يَفْرَحُ بِهَذَا، وَلِذَلِكَ تَجِدُونَ الكُفَّارَ يَفْرَحُونَ بِانْشِقَاقِ المُسْلِمِينَ، وَيُفَرِّقُونَ المُسْلِمِينَ، وَيُسَاعِدُونَ الفِئَاتِ الضَّالَّةِ وَيُمِدُّونَهَا بِالسِّلاحِ، وَيُمِدُّونَهَا بِالتَّخْطِيطِ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَخْرُجَ عَلَى جَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ، وَيَحْصُلَ التَّفَرُّقُ فِي المُسْلِمِينَ؛ فَيَغْتَنِمُونَ مِنْهُم غَنِيمَةً، كَمَا هُوَ الحَاصِلُ، فَهَذَا كُلُّهُ نَتِيجَةٌ لِتَفَرُّقِ الكَلِمَةِ، وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَالخُرُوجِ عَلَى وَلِيِّ أَمْرِ المُسْلِمِينَ.

الحَاصِلُ: أَنَّ مَنْ لَيْسَ لَهُ إِمَامٌ فَإِنَّهُ كَالَّذِي يَعِيشُ فِي الجَاهِلِيَّةِ وَإِذَا مَاتَ فَمِيتَتُهُ جَاهِلِيَّةٌ. وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَكْفُرُ، لَكِن مَعْنَاهُ: أَنَّهُ يَكُونُ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ خِصَالِ الجَاهِلِيَّةِ، حَيْثُ لا يَدْخُلُ تَحْتَ طَاعَةِ إِمَامٍ وَيَعِيشُ الفَوْضَى.

[٣٠] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَلاَ يَحِلُّ قِتَالُ السُّلْطَانِ، وَلاَ الْخُرُوجُ عَلَيْهِ وَإِنْ جَارَ، وَذَلِكَ لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لأبي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ: «اصْبِرْ، وَإِنْ كَانَ عَبْداً حَبَشِيًّا»، وَقَوْلِهِ لِلأَنْصَارِ: «اصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ»، وَلَيْسَ مِنَ السُّنَّةِ قِتَالُ السُّلْطَانِ؛ فَإِنَّ فِيهِ فَسَادَ الدُّنْيَا وَالدِّينِ.

الشَّرْحُ:

لا يَجُوزُ لأَحَدٍ أَنْ يُقَاتِلَ السُّلْطَانَ، بِأَنْ يَخْرُجَ عَلَيْهِ بِالسِّلاحِ، لأَنَّ هَذَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مَفَاسِدُ كَثِيرَةٌ.

قَوْلُهُ: **(وَلاَ يَحِلُّ قِتَالُ السُّلْطَانِ وَلاَ الْخُرُوجُ عَلَيْهِ وَإِنْ جَارَ)** أَيْ: يَحْرُمُ قِتَالُ السُّلْطَانِ يَعْنِي مُقَاتَلَةَ السُّلْطَانِ كَمَا تَفْعَلُ الْخَوَارِجُ.

(وَإِنْ جَارَ) أَيْ: حَصَلَ مِنْهُ جَوْرٌ أَوْ ظُلْمٌ فَإِنَّهُ يُصْبَرُ عَلَى ذَلِكَ؛ لأَنَّ الصَّبْرَ عَلَى ذَلِكَ مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الضَّرَرِ أَخَفُّ مِنَ الضَّرَرِ الَّذِي يَحْصُلُ بِالْخُرُوجِ عَلَيْهِ، فَالضَّرَرُ الَّذِي يَحْصُلُ مَعَ الصَّبْرِ عَلَى طَاعَةِ السُّلْطَانِ الْجَائِرِ أَخَفُّ مِنَ الضَّرَرِ الَّذِي يَحْصُلُ بِالْخُرُوجِ عَلَيْهِ. وَلا شَكَّ أَنَّ مِنَ الْقَوَاعِدِ الْمُقَرَّرَةِ فِي الإِسْلامِ: ارْتِكَابُ أَخَفِّ الضَّرَرَيْنِ لِدَفْعِ أَعْلاهُمَا.

وَالنَّبِيُّ ﷺ قَالَ لِلأَنْصَارِ: **«إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ»**[1] أَوْصَاهُمْ بِالصَّبْرِ مَعَ أَنَّهُمْ يَلْقَوْنَ أَثَرَةً وَهِيَ:

---

(١) رواه البخاريُّ في صحيحه(٢/٨٣٧رقم٢٢٤٧)، ومسلمٌ في صحيحه(٣/١٤٧٤رقم١٨٥٤) عن أسيد بن حضير.

اسْتِئْثَارٌ بِالأَمْوَالِ دُونَهُمْ. فَأَوْصَاهُمْ بِالصَّبْرِ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ دَرْءِ أَعْظَمِ الْمَفْسَدَتَيْنِ.

قَوْلُهُ: **(وَذَلِكَ لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لأَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ: «اصْبِرْ وَإِنْ كَانَ عَبْداً حَبَشِيّاً»)** يَعْنِي لا يَحْتَقِرْ وَلِيَّ الأَمْرِ، وَإِنْ كَانَ مَظْهَرُهُ غَيْرَ جَمِيلٍ، وَإِنْ كَانَ أَسْوَدَ اللَّوْنِ، أَوْ لَيْسَ لَهُ نَسَبٌ عَرَبِيٌّ؛ لأَنَّ الْعِبْرَةَ بِمَنْصِبِهِ -وَهُوَ الْخِلافَةُ وَالإِمَارَةُ- وَلَيْسَتِ الْعِبْرَةُ بِشَخْصِهِ، فَيُطَاعُ مَا دَامَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ، وَلا يَنْظُرْ إِلَى مَظْهَرِهِ مِمَّا لا يُعْجِبُ النَّاظِرَ لِدَمَامَتِهِ أَوْ لِرَثَاثَتِهِ، أَوْ لِعَيْبٍ فِي جِسْمِهِ، **«مُجَدَّعَ الأَطْرَافِ»**[1] كُلُّ هَذَا لا يُسَوِّغُ الْخُرُوجَ عَلَيْهِ، حَتَّى لَوْ كَانَ مَرِيضاً، أَوْ عِنْدَهُ ضَعْفٌ صِحِّيٌّ مَا دَامَ انْعَقَدَتْ بَيْعَتُهُ فَإِنَّهُ يُصْبَرُ عَلَيْهِ، وَيُسْمَعُ لَهُ، وَيُطَاعُ وَلَو كَانَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ.

قَوْلُهُ: **(وَلَيْسَ مِنَ السُّنَّةِ قِتَالُ السُّلْطَانِ)** لَيْسَ فِي السُّنَّةِ الثَّابِتَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قِتَالُ السُّلْطَانِ، وَلا فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ لا ضَعِيفٍ وَلا حَسَنٍ وَلا صَحِيحٍ، لَيْسَ فِي السُّنَّةِ حَدِيثٌ يَدُلُّ عَلَى قِتَالِ السُّلْطَانِ الْمُسْلِمِ، وَإِنْ كَانَ فَاسِقاً، وَإِنْ كَانَ ظَالِماً، وَإِنْ كَانَ جَائِراً، وَإِنْ كَانَ مُسْتَأْثِراً بِالأَمْوَالِ فَلا يَجُوزُ الْخُرُوجُ عَلَيْهِ، بَلِ الأَحَادِيثُ كُلُّهَا تَدُلُّ عَلَى الصَّبْرِ عَلَى ذَلِكَ، وَتَحْرِيمِ الْخُرُوجِ عَلَيْهِ.

وَلا يَعْنِي هَذَا أَنَّ السُّلْطَانَ لا يُنَاصَحُ، بَلْ يُنَاصَحُ سِرّاً بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاصِحِ، فَيَجِبُ عَلَى مَنْ عِنْدَهُ نَصِيحَةٌ أَنْ يُبَلِّغَهَا لِلسُّلْطَانِ، كَمَا قَالَ ﷺ:

---

(١) سَبَقَ تَخْرِيجُهُ (ص/١٧٥).

«الدِّينُ النَّصِيحَةُ، قُلْنَا لِمَنْ؟ قَالَ: للهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»(١) فليس معنى ذلك أنه لا يناصح وأنه يترك، بل لابد أن يبين له، وينصح، وهذا من حقه على العلماء، وعلى رعيته، وعلى أهل المشورة، وأهل الرأي أنهم يناصحونه.

(**وَلَيْسَ مِنَ السُّنَّةِ قِتَالُ السُّلْطَانِ**) يعني ليس فيها دليل، لا صحيح، ولا ضعيف على مشروعية قتال السلطان المسلم، بل فيها وفي القرآن الأمر بطاعته ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩] انظر إلى قوله: ﴿ مِنكُمْ ﴾ يعني ما دام مسلماً فإنه تجب طاعته.

قوله: (**فَإِنَّ فِيهِ فَسَادَ الدُّنْيَا وَالدِّينِ**) في قتال السلطان فساد الدنيا بأن يضيع الملك، وتشيع الفوضى، ويتسلط الأعداء، وضياع الدين، فإنه لا أحد يقيم الحدود، ولا أحد ينفذ القصاص، ولا أحد ينفذ الأحكام الشرعية ويرد الحقوق إلى مستحقيها، وينفذ الأحكام القضائية، وحينئذ يفسد الدين بهذا، فتكون فوضى وفساداً، لا تقطع يد السارق إذاً تضيع الأموال، لا يقطع قطاع الطرق إذاً تعطل السبل، من الذي يقوم بهذا؟ هو ولي الأمر، هذا من صلاحيات ولي الأمر، ولا أحد يستطيع لو اجتمع الناس كلهم ما استطاعوا القيام بهذه الأمور، بل تلزم الفوضى.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (١/٧٤ رقم ٥٥) من حديث تميم الداري ﷺ.

[٣١] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَيَحِلُّ قِتَالُ الخَوَارِجِ إِذَا عَرَضُوا لِلْمُسْلِمِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ، وَلَيْسَ لَهُ إِذَا فَارَقُوهُمْ أَنْ يَطْلُبَهُمْ، وَلا يُجْهِزُ عَلَى جَرِيحِهِمْ، وَلا يَأْخُذُ فَيْئَهُمْ، وَلا يَقْتُلُ أَسِيرَهُمْ، وَلا يَتْبَعُ مُدْبِرَهُمْ.

الشَّرْحُ:

عَرَفْنَا أَنَّ الخَوَارِجَ هُمُ الَّذِينَ يَرَوْنَ شَقَّ عَصَا الطَّاعَةِ، وَيَرَوْنَ أَنَّ وَلِيَّ الأَمْرِ لَيْسَ لَهُ بَيْعَةٌ أَوْ لَمْ يَبْقَ لَهُ بَيْعَةٌ عَلَى النَّاسِ إِذَا حَصَلَ مِنْهُ مَعْصِيَةٌ، وَيُكَفِّرُونَ المُسْلِمِينَ بِكَبَائِرِ الذُّنُوبِ، هَؤُلاءِ إِذَا اعْتَنَقُوا هَذَا المَذْهَبَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَوْكَةٌ وَلَمْ يُقَاتِلُوا فَإِنَّهُمْ يُتْرَكُونَ مَعَ مُنَاصَحَتِهِمْ وَالبَيَانِ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَتُوبُونَ.

أَمَّا إِذَا صَارَ لَهُمْ شَوْكَةٌ وَأَظْهَرُوا القُوَّةَ فَيَجِبُ عَلَى المُسْلِمِينَ قِتَالُهُمْ كَفًّا لِشَرِّهِمْ، وَلا يُقَاتَلُونَ عَلَى أَنَّهُم كُفَّارٌ، بَلْ يُقَاتَلُونَ عَلَى أَنَّهُم مُسْلِمُونَ جَارُوا عَلَى المُسْلِمِينَ وَاعْتَدَوْا عَلَيْهِم، وَلِهَذَا لَمَّا سُئِلَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ ﷺ عَنِ الخَوَارِجِ: أَكُفَّارٌ هُمْ؟ قَالَ: «لا، مِنَ الكُفْرِ فَرُّوا، وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ بَغَوْا عَلَيْنَا»(١) (٢)، فَلا يُقَاتَلُونَ عَلَى أَنَّهُم كُفَّارٌ، وَلِذَلِكَ لا تُسْبَى

(١) رَوَاهُ عبدالرزاق في المصنف(١٠/١٥٠)، والبيهقي في السنن الكبرى(٨/١٧٣).

(٢) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله- في(رسالة فضل أهل البيت وحقوقهم) (ص٢٩) : «وقد ثبت عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من وجوه أنه لما قاتل أهل الجمل لم»

يسبوهم وذراريهم، ولا تؤخذ أموالهم، ولا يُجهز على جريحهم؛ لأن قتالهم إنما هو لكف شرهم لا لكفرهم.

قوله: **(ويحلُّ قتالُ الخوارجِ إذا عرَضوا للمسلمين في أموالهم وأنفسهم وأهليهم)** لأنَّ النبيَّ أمرَ بقتالِهم، ولأنَّ عليًّا ﷺ قاتلَهم لمَّا تعرَّضوا لعبدِالله بنِ خبَّابِ بنِ الأرتِّ ﷺ وقتلوه، وشقُّوا بطنَ وليدتِه وكانت حاملاً. فعندئذٍ عزمَ أميرُ المؤمنين على قتالِهم؛ لأنَّهم حصلَت منهم بوادِر.

قوله: **(وليسَ لهُ إذا فارقوهُم أنْ يطلُبَهُم)** إذا كفُّوا عن القتالِ فليسَ لوليِّ الأمرِ أنْ يطلُبَهم ويغزُوهم، ما دامَ أنَّه لم يحصُلْ منهم اعتداءٌ فهم ضُلَّالٌ بلا شكٍّ وتجبُ مناصحتُهم لعلَّهم يرجِعون، ولكنْ لا يُقاتَلون.

---

* يسب لهم ذرية ولم يغنم لهم مالا ولا أجهز على جريح ولا اتبع مدبرا و لا قتل أسيرا و أنه صلى على قتلى الطائفتين بالجمل وصفين وقال: (إخواننا بغوا علينا) و أخبر أنهم ليسوا بكفار و لا منافقين و اتبع فيما قاله كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فإنه سماهم إخوة وجعلهم مؤمنين في الاقتتال و البغي كما ذكر في قوله: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾ [الحجرات: ٩].
وقال أيضا في (ص٣١): ولا يستوي القتلى الذين صلى عليهم و سماهم (إخواننا) و القتلى الذين لم يصل عليهم بل قيل له من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا؟ فقال هم أهل حروراء.
وقال - رحمه الله - : هو كذلك أهل صفين كان يصلي على قتلاهم ويقول إخواننا بغوا علينا [illegible] السيف و لو كانوا عنده كفارا لما صلى عليهم و لا جعلهم إخوانه و لا جعل السيف طهرا لهم. منهاج السنة لشيخ الإسلام (٤٠٦/٧).

قَوْلُهُ: (**وَلا يُجْهِزُ عَلَى جَرِيْحِهِمْ**) لأَنَّ الجَرِيحَ الكَفُّ شَرُّهُ.

قَوْلُهُ: (**وَلا يَأْخُذُ فَيْئَهُمْ**) يَعْنِي لا تُغْنَمُ أَمْوَالُهُمْ؛ لأَنَّهَا أَمْوَالُ مُسْلِمِينَ.

قَوْلُهُ: (**وَلا يَقْتُلُ أَسِيرَهُمْ**) لأَنَّهُم مُسْلِمُونَ، وَقَدْ حَصَلَ كَفُّ شَرِّهِمْ بِأَسْرِهِمْ وَبِجَرْحِهِمْ.

قَوْلُهُ: (**وَلا يَتْبَعُ مُدْبِرَهُمْ**) إِذَا انْهَزَمُوا يَتْرُكُهُمْ وَلِيُّ الأَمْرِ، وَلا يَلْحَقُهُمْ، لأَنَّهُم كَفُّوا شَرَّهُمْ.

❀ ❀ ❀

[٣٢] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ أَنَّهُ لا طَاعَةَ لِبَشَرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلامِ، وَلا يُشْهَدُ عَلَى أَحَدٍ، وَلا يُشْهَدُ لَهُ بِعَمَلِ خَيْرٍ وَلا شَرٍّ، فَإِنَّكَ لا تَدْرِي بِمَ يُخْتَمُ لَهُ عِنْدَ المَوْتِ، تَرْجُو لَهُ رَحْمَةَ اللهِ وَتَخَافُ عَلَيْهِ، وَلا تَدْرِي مَا يَسْبِقُ لَهُ عِنْدَ المَوْتِ إِلَى اللهِ مِنَ النَّدَمِ، وَمَا أَحْدَثَ اللهُ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ إِذَا مَاتَ عَلَى الإِسْلامِ، تَرْجُو لَهُ الرَّحْمَةَ، وَتَخَافُ عَلَيْهِ ذُنُوبَهُ، وَمَا مِنْ ذَنْبٍ إِلاَّ وَلِلْعَبْدِ مِنْهُ تَوْبَةٌ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: **(وَاعْلَمْ أَنَّهُ لا طَاعَةَ لِبَشَرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ)** هَذَا اسْتِثْنَاءٌ لِمَا سَبَقَ، لَمَّا ذَكَرَ أَنَّهُ تَجِبُ طَاعَةُ وُلاةِ الأُمُورِ أَنَّهَا لا تَجِبُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَإِنَّمَا يُطَاعُونَ فِيمَا لَيْسَ بِمَعْصِيَةٍ، أَمَّا إِذَا أَمَرُوا بِمَعْصِيَةٍ فَلا يُطَاعُونَ فِي المَعْصِيَةِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيثِ: أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَمَّرَ عَلَى سَرِيَّةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ أَمِيراً، فَلَمَّا سَارُوا فِي الطَّرِيقِ قَالَ لَهُم: اجْمَعُوا حَطَباً، فَلَمَّا جَمَعُوهُ قَالَ: أَوْقِدُوهُ، فَلَمَّا أَوْقَدُوهُ قَالَ: ادْخُلُوا فِي النَّارِ، أَلَيْسَ الرَّسُولُ ﷺ يَقُولُ: **«اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا»**، فَقَالَ بَعْضُهُم: نَحْنُ مَا أَطَعْنَا الرَّسُولَ إِلاَّ فِرَاراً مِنَ النَّارِ فَكَيْفَ نَدْخُلُ فِيهَا؟!! فَامْتَنَعُوا مِنَ الدُّخُولِ فِيهَا. فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **«أَمَا إِنَّهُمْ لَوْ دَخَلُوهَا لَمْ يَخْرُجُوا مِنْهَا، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ»**[1]، وَقَالَ ﷺ: **«لا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ**

---

(١) سبق تخريجه (ص/١٧٦).

الخَالِقِ»[1]. وقَالَ تَعَالى فِي الوالِدَيْنِ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ يعْنِي الوالِدَيْنِ ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥]، ولَكِنْ لَيْسَ مَعْنَى ذلِكَ أَنَّهَا تَنْخَلِعُ طَاعَةُ ولِيِّ الأَمْرِ إِذَا أَمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، لَكِن لا يُطَاعُ فِي هَذِهِ المَعْصِيَةِ، وتَبْقَى طَاعَتُهُ فِيمَا لَيْسَ بِمَعْصِيَةٍ. هَذَا مَعْنَى أَنَّهُ لا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ، فَلا يُقَالُ: إِنَّ اللهَ أَمَرَ بِطَاعَةِ وُلاةِ الأُمُورِ، وأَمَرَ بِبِرِّ الوالِدَيْنِ فِي كلِّ شَيْءٍ، نَقُولُ: نَعَمْ. اللهُ أَمَرَ بِطَاعَةِ وُلاةِ الأُمُورِ بِالمَعْرُوفِ، وأَمَرَ بِبِرِّ الوالِدَيْنِ لَكِنْ بِالمَعْرُوفِ، لا فِي مَعْصِيَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى.

قَوْلُهُ: **(وَلا يُشْهَدُ عَلَى أَحَدٍ وَلا يُشْهَدُ لَهُ بِعَمَلِ خَيْرٍ وَلا شَرٍّ)** هَذِهِ مَسْأَلَةُ الشَّهَادَةِ بِالجَنَّةِ أَوِ النَّارِ لِلْمُعَيَّنِ؛ فَلا يُشْهَدُ لِمُعَيَّنٍ بِجَنَّةٍ، وَلا يُشْهَدُ لَهُ بِنَارٍ إِلاَّ بِدَلِيلٍ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. أَمَّا مَنْ لَمْ يَدُلَّ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى وَلَوْ كَانَ صَالِحاً مُؤْمِناً، لأَنَّنَا لا نَدْرِي مَا يُخْتَمُ لَهُ، وَكَذَلِكَ العَاصِي أَوِ الكَافِرُ لا نَجْزِمُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، لأَنَّهُ قَدْ يَتُوبُ وَنَحْنُ لا نَدْرِي، قَالَ ﷺ: **«إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَلا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ**

(١) سبق تخريجه (ص/١٧٦).

ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا»[1]. الأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ، وَالْخَوَاتِيمُ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ اللهُ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لَكِنَّنَا نَخَافُ عَلَى أَهْلِ الْمَعَاصِي وَنَرْجُو لأَهْلِ الطَّاعَاتِ وَلا نَجْزِمُ، بَلْ نَرْجُو لِلْمُطِيعِينَ وَلا نَجْزِمُ، وَنَخَافُ عَلَى الْعُصَاةِ وَلا نَجْزِمُ، هَذَا بِالنِّسْبَةِ لِلْمُعَيَّنِينَ. أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلْعُمُومِ: فَنَجْزِمُ أَنَّ أَهْلَ الإِيمَانِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَنَجْزِمُ أَنَّ الْكُفَّارَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي النَّارِ: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾[آل عمران: ١٣١]، وَقَالَ فِي الْجَنَّةِ: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[آل عمران: ١٣٣] هَذَا مِنْ حَيْثُ الْعُمُومُ، أَمَّا مِنْ حَيْثُ الأَفْرَادُ وَالْمُعَيَّنُونَ فَهَذَا يُوكَلُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لَكِنَّنَا نَتَعَامَلُ مَعَهُم فِيمَا يَظْهَرُ، نَتَعَامَلُ مَعَ أَهْلِ الطَّاعَةِ فِيمَا يَظْهَرُ، وَنَتَعَامَلُ مَعَ أَهْلِ الْمَعَاصِي فِيمَا يَظْهَرُ لَنَا، نَحْكُمُ عَلَى الظَّاهِرِ فَقَطْ، لا عَلَى الْمَصِيرِ وَالْعَاقِبَةِ فَهَذِهِ بِيَدِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

❀❀❀

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(٣/١١٧٤رقم٣٠٣٦)، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(٤/٢٠٣٦رقم٢٦٤٣) من حديث عَبْدِاللهِ بن مسعود.

(٣٣) قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالرَّجْمُ حَقٌّ.

الشَّرْحُ:

اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَرَّمَ أَشْيَاءَ، فِي الأَعْرَاضِ، وَفِي المُعَامَلَاتِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَهَذِهِ المُحَرَّمَاتُ تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ:

- مُحَرَّمَاتٌ كَبَائِرُ.
- وَمُحَرَّمَاتٌ صَغَائِرُ.

ثُمَّ هِيَ مِنْ حَيْثُ العُقُوبَةُ عَلَى مَنِ ارْتَكَبَهَا تَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

- **القِسْمُ الأَوَّلُ:** مُحَرَّمَاتٌ وَضَعَ اللهُ لَهَا عُقُوبَاتٍ مُحَدَّدَةً، وَهِيَ مَا تُسَمَّى بِالحُدُودِ، سُمِّيَتْ حُدُوداً مِنَ الحَدِّ وَهُوَ المَنْعُ؛ لِأَنَّ هَذِهِ العُقُوبَاتِ تَمْنَعُ مِنَ الوُقُوعِ فِي هَذِهِ المَعَاصِي.
- **وَالقِسْمُ الثَّانِي:** مُحَرَّمَاتٌ لَمْ يَضَعِ اللهُ لَهَا حُدُوداً، وَلَكِنْ فِيهَا تَعْزِيرٌ، وَهُوَ مَوْكُولٌ إِلَى اجْتِهَادِ وَلِيِّ الأَمْرِ بِمَا يَرَاهُ رَادِعاً عَنْهَا، وَهُوَ مَا يُسَمَّى بِالتَّعْزِيرِ، وَهُوَ التَّأْدِيبُ.
- **وَالقِسْمُ الثَّالِثُ:** مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ حَدٌّ وَلَا تَعْزِيرٌ مِنَ المُحَرَّمَاتِ، وَإِنَّمَا فِيهِ وَعِيدٌ وَغَضَبٌ وَلَعْنَةٌ وَنَارٌ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الوَعِيدِ. كَأَكْلِ الرِّبَا وَالقِمَارِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، هَذَا فِيهِ وَعِيدٌ شَدِيدٌ، يَرْدَعُ مَنْ فِي قَلْبِهِ إِيمَانٌ، وَمَنْ كَانَ لَيْسَ فِي قَلْبِهِ إِيمَانٌ أَوْ كَانَ ضَعِيفَ الإِيمَانِ فَإِنَّ أَمَامَهُ حِسَاباً وَعِقَاباً فِي

الآخِرَةِ، فَاللهُ جَلَّ وَعَلا حَرَّمَ هَذِهِ المُحَرَّمَاتِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلا تُضَيِّعُوهَا وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلا تَسْأَلُوا عَنْهَا»**[1].

وَمِنْ هَذِهِ الحُدُودِ حَدُّ الزِّنَا، وَالزِّنَا: هُوَ فِعْلُ الفَاحِشَةِ فِي فَرْجٍ لا يَحِلُّ لَهُ، هَذَا هُوَ الزِّنَا، فِعْلُ الفَاحِشَةِ فِي الفُرُوجِ الَّتِي حَرَّمَهَا اللهُ إِلاَّ بِالعَقْدِ الشَّرْعِيِّ الصَّحِيحِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المعارج: ٢٩-٣١] أي: المُتَجَاوِزُونَ مِنَ الحَلالِ إِلَى الحَرَامِ، فَمَنْ وَقَعَ فِي الزِّنَا فَهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ:

إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِكْرًا لَمْ يَسْبِقْ لَهُ أَنْ وَطِئَ امْرَأَتَهُ فِي نِكَاحٍ صَحِيحٍ يُعِفُّهُ. فَهَذَا هُوَ البِكْرُ، وَهَذَا عُقُوبَتُهُ أَنْ يُجْلَدَ مِائَةَ جَلْدَةٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٢]، وَجَاءَ فِي السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ أَنَّهُ يُغَرَّبُ، يَعْنِي يُبْعَدُ عَنِ البَلَدِ الَّذِي مَارَسَ الفَاحِشَةَ فِيهِ

(١) رَوَاهُ الطبراني في المعجم الكبير(٢٢/٢٢٢)، وابن جرير في تفسيره(٨٥/٧)، والدارقطني في سننه(١٠٤/٤)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين(١٢٩/٤)، والبيهقي في السنن الكبرى(١٢/١٠) وغيرهم، وحسنه النووي في رياض الصالحين(ص/٣٣٦).

إِلَى بَلَدٍ آخَرَ، لِمُدَّةِ عَامٍ. قَالَ ﷺ: **«الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ»**(1) فَثَبَتَ التَّغْرِيبُ بِالسُّنَّةِ، وَأَمَّا الْجَلْدُ فَهُوَ ثَابِتٌ بِالْقُرْآنِ، وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى الْجَلْدِ، وَجُمْهُورُهُمْ أَيْضاً عَلَى التَّغْرِيبِ، هَذَا فِي حَدِّ الْبِكْرِ.

أَمَّا الثَّيِّبُ: وَهُوَ الَّذِي سَبَقَ أَنْ وَطِئَ امْرَأَتَهُ فِي نِكَاحٍ صَحِيحٍ، وَعَرَفَ قَدْرَ الْأَعْرَاضِ وَحُرْمَةَ الْأَعْرَاضِ فَهَذَا يُرْجَمُ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى يَمُوتَ، وَهَذَا ثَابِتٌ بِالْقُرْآنِ الَّذِي نُسِخَ لَفْظُهُ وَبَقِيَ حُكْمُهُ، كَمَا قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه عَلَى مِنْبَرِ الرَّسُولِ ﷺ قَالَ: **«نَزَلَتْ آيَةُ الرَّجْمِ فَوَعَيْنَاهَا وَحَفِظْنَاهَا، وَرَجَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَخْشَى إِنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولُوا: مَا نَجِدُ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ اللهِ؛ أَلَا إِنَّهُ فِي كِتَابِ اللهِ»**(2). يُشِيرُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: **{وَالشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ نَكَالاً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}**(3) هَذَا قُرْآنٌ نُسِخَ لَفْظُهُ وَبَقِيَ حُكْمُهُ، وَرَجَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَمَرَ بِالرَّجْمِ، وَأَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى ذَلِكَ وَلَمْ يُخَالِفْ فِيهِ إِلَّا أَهْلُ الْبِدَعِ الَّذِينَ لَا يُعْتَدُّ بِخِلَافِهِمْ كَالْخَوَارِجِ.

فَالرَّجْمُ ثَابِتٌ بِالْكِتَابِ وَبِالسُّنَّةِ الْقَوْلِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ، وَبِالْإِجْمَاعِ؛ فَمَنْ أَنْكَرَهُ فَهُوَ كَافِرٌ؛ لِأَنَّهُ مُكَذِّبٌ للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ، فَالرَّجْمُ

(1) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(1316/3رقم1690) عن عبادة بن الصامت.
(2) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(2503/6رقم6442)، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(1317/3رقم1691) عن عمر.
(3) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(1317/3رقم1691).

ثَابِتٌ لا مَجَالَ للكَلامِ فِيهِ، وَلِهَذَا نَصَّ عَلَيْهِ هُنَا فَقَالَ: **(الرَّجْمُ حَقٌّ)** هَذَا مِنْ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ رَدًّا عَلَى المُبْتَدِعَةِ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ الرَّجْمَ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ، وَمِنْ غَيْرِ بَصِيرَةٍ لِجَهْلِهِمْ، وَتَطَفُّلِهِمْ عَلَى العِلْمِ، وَاعْتِمَادِهِمْ عَلَى عُقُولِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ، هَؤُلاءِ لا يُعْتَدُّ بِهِم، وَلا يُنْظَرُ إِلَى أَقْوَالِهِمْ. رُبَّمَا يَأْتِي جَاهِلٌ يَدَّعِي المَعْرِفَةَ وَالبَحْثَ وَيَقُولُ: هَذِهِ فِيهَا خِلافٌ، فَيُقَالُ لَهُ: وَهَلْ كُلُّ خِلافٍ يُعْتَدُّ بِهِ؟! هُنَاكَ خِلافَاتٌ مُلْغَاةٌ لا يُعْتَدُّ بِهَا؛ مِنْهَا ذَلِكَ الخِلافُ، وَلِذَلِكَ يَقُولُ النَّاظِمُ:

وَلَيْسَ كُلُّ خِلافٍ جَاءَ مُعْتَبَرًا ... إِلاَّ خِلافٌ لَهُ حَظٌّ مِنَ النَّظَرِ

لَيْسَتِ المَسْأَلَةُ ادِّعَاءَ الخِلافِ، المَسْأَلَةُ: مَسْأَلَةُ تَحْقِيقٍ وَرَبْطٍ بِالدَّلِيلِ؛ فَمَنْ خَالَفَ الدَّلِيلَ فَهُوَ مَخْصُومٌ وَلا عِبْرَةَ بِخِلافِهِ، وَلا يُعْتَدُّ بِهِ، وَاللهُ جَلَّ وَعَلا يَقُولُ: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩] لا نَبْقَى عَلَى الخِلافِ، بَلْ نَرْجِعُ إِلَى الدَّلِيلِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾، فَلِهَذَا نَصَّ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ عَلَى مَسْأَلَةِ الرَّجْمِ مَعَ أَنَّ الكِتَابَ كِتَابُ عَقَائِدَ، لأَنَّهُ يَجِبُ اعْتِقَادُ وُجُوبِ الرَّجْمِ، فَمَنْ أَنْكَرَهُ كَفَرَ، فَهُوَ نَصٌّ عَلَى هَذَا رَدًّا عَلَى المُبْتَدِعَةِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا الرَّجْمَ.

[٣٤] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالمَسْحُ عَلَى الخُفَّيْنِ سُنَّةٌ.

الشَّرْحُ:

(وَالمَسْحُ عَلَى الخُفَّيْنِ سُنَّةٌ) نَصَّ عَلَى هذه المَسْأَلَةِ، مَعَ أَنَّهَا مِنْ مَسَائِلِ الفِقْهِ؛ لأَنَّ لَهَا تَعَلُّقاً بالعَقِيدَةِ؛ فَمَنْ أَنْكَرَ المَسْحَ عَلَى الخُفَّيْنِ فَإِنَّهُ يَكُونُ خَارِجاً عَنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ مُخَالِفاً لِلْعَقِيْدَةِ الصَّحِيحَةِ؛ لأَنَّ المَسْحَ عَلَى الخُفَّيْنِ ثَابِتٌ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ في أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ بَلَغَتْ حَدَّ التَّوَاتُرِ.

(المَسْحُ عَلَى الخُفَّيْنِ) رُخْصَةٌ، والعَمَلُ بالرُّخْصَةِ سُنَّةٌ، لِقَوْلِهِ ﷺ: **«إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ»**(1) فَالمَسْحُ عَلَى الخُفَّيْنِ وَالمَسْحُ عَلَى مَا يَقُومُ مَقَامَ الخُفَّيْنِ مِنَ الجَوَارِبِ ثَابِتٌ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، وَلَمْ يُخَالِفْ فِيهِ إِلاَّ الرَّافِضَةُ؛ بَيْنَمَا أَثْبَتُوا المَسْحَ عَلَى الرِّجْلَيْنِ، فَالرِّجْلانِ لا تُغْسَلانِ عِنْدَ الرَّافِضَةِ وَإِنَّمَا يُمْسَحُ عَلَيْهِمَا، احْتِجَاجاً بالآيَةِ فِي قِرَاءَةِ: ﴿وَٱمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾ [المائدة: ٦] بالكَسْرِ ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦] وَلَيْسَ الكَعْبَانِ عِنْدَهُم هُمَا الكَعْبَانِ المَعْرُوفَانِ فِي أَسْفَلِ السَّاقِ وَإِنَّمَا الكَعْبَانِ عِنْدَهُمْ مَا تَحْتَ مَعْقِدِ الشِّرَاكِ، وَهُوَ مَجْمَعُ

---

(1) رواهُ أحمدُ في المسند(٢/١٠٨)، والطبرانيُّ في الصغير(٥/٢٧٥رقم٥٣٠٢)، وابنُ خزيمةَ في صَحِيحِه(٣/٢٢٥٩رقم٢٠٢٧)، وابن حبان في صَحِيحِه(٦/٤٥١رقم٢٧٤٢) عن عبدالله بن عمر، وصحح المنذري في الترغيب والترهيب(٢/٨٧) إسنادَ أحمدَ.

الْقَدَمِ مَعَ الْعَقِبِ مِمَّا يُسَمَّى بِعَرْشِ الرِّجْلِ، هَذَا الْكَعْبُ عِنْدَ الرَّافِضَةِ، وَهُوَ غَيْرُ الْكَعْبِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

وَلا حُجَّةَ لَهُم بِقِرَاءَةِ الْكَسْرِ فِي الآيَةِ، لأَنَّ الْقِرَاءَةَ الْمَشْهُورَةَ بِنَصْبِ: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ عَطْفاً عَلَى ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾، وَقِرَاءَةُ الْكَسْرِ لأَجْلِ الْمُجَاوَرَةِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ بِدَلِيلِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَغْسِلُ رِجْلَيْهِ وَلَم يَكُنْ يَمْسَحُ إِلاَّ عَلَى الْخُفَّيْنِ.

❀ ❀ ❀

[٣٥] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَتَقْصِيرُ الصَّلَاةِ فِي السَّفَرِ سُنَّةٌ.

الشَّرْحُ:

مِنَ الرُّخَصِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الشَّرْعُ تَسْهِيلاً عَلَى العِبَادِ وَرَفْعاً لِلْحَرَجِ: القَصْرُ فِي السَّفَرِ، وَهُوَ قَصْرُ الصَّلَاةِ الرُّبَاعِيَّةِ، وَهَذَا بِنَصِّ القُرْآنِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ يَعْنِي سَافَرْتُمْ ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ [النساء: ١٠١] ظَاهِرُ الآيَةِ أَنَّهُ لا يَجُوزُ القَصْرُ إِلاَّ فِي حَالَةِ الخَوْفِ، وَقَدْ زَالَ هَذَا الإِشْكَالُ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ: مَا بَالُنَا نَقْصُرُ وَقَدْ أَمِنَّا؟ قَالَ ﷺ: **«تِلْكَ صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بِهَا عَلَيْكُمْ، فَاقْبَلُوا مِنَ اللهِ صَدَقَتَهُ»**[1] وَكَانَ ﷺ يَقْصُرُ فِي جَمِيعِ أَسْفَارِهِ، يَقْصُرُ الرُّبَاعِيَّةَ إِلَى رَكْعَتَيْنِ، هَذَا هُوَ السُّنَّةُ، وَمَنْ أَتَمَّ فَالإِتْمَامُ جَائِزٌ، لَكِنَّهُ خِلافُ الأَفْضَلِ.

فَالقَصْرُ رُخْصَةٌ مَنْ شَاءَ فَعَلَهُ وَهُوَ أَفْضَلُ، وَمَنْ شَاءَ تَرَكَهُ وَأَتَمَّ فَلا حَرَجَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ؛ لأَنَّ الإِتْمَامَ هُوَ الأَصْلُ، والمصنف ذَكَرَ ذَلِكَ لأَنَّ تَقَبُّلَ الرُّخَصِ الشَّرْعِيَّةِ مِنْ مَسَائِلِ العَقِيدَةِ، وَفِي ذَلِكَ رَدٌّ عَلَى المُتَشَدِّدِينَ الَّذِينَ لا يَقْبَلُونَ الرُّخَصَ الشَّرْعِيَّةَ.

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (١/ ٤٧٠ رقم ٦٨٦) عن عمر بن الخطاب.

[٣٦] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالصَّوْمُ فِي السَّفَرِ؛ مَنْ شَاءَ صَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَفْطَرَ.

الشَّرْحُ:

مِنَ الرُّخَصِ الَّتِي رَخَّصَ اللهُ بِهَا لِعِبَادِهِ: الإِفْطَارُ فِي رَمَضَانَ فِي السَّفَرِ فَهُوَ رُخْصَةٌ، مَنْ شَاءَ أَفْطَرَ، وَمَنْ شَاءَ صَامَ، وَإِذَا صَامَ فَصِيَامُهُ صَحِيحٌ؛ لأَنَّ صَحَابِيًّا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ بِأَنَّ عِنْدَهُ قُوَّةً وَيَقْدِرُ عَلَى الصِّيَامِ فِي السَّفَرِ؟ فَالنَّبِيُّ ﷺ أَذِنَ لَهُ بِالصِّيَامِ فِي السَّفَرِ[١]، فَهُوَ رُخْصَةٌ وَالرُّخْصَةُ لا يَجِبُ فِعْلُهَا، وَإِنَّمَا الأَفْضَلُ فِعْلُهَا كَسَائِرِ الرُّخَصِ، وَإِنْ رَجَعَ إِلَى الأَصْلِ وَصَامَ فَلا بَأْسَ بِذَلِكَ، وَاللهُ جَلَّ وَعَلا يَقُولُ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وَكَانَ ﷺ يُفْطِرُ فِي أَسْفَارِهِ[٢].

❀ ❀ ❀

---

(١) روى مُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ(٢/٧٩٠رقم١١٢١) عَنْ حَمْزَةَ بن عَمْرٍو الأَسْلَمِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: يا رَسُولَ اللهِ، أَجِدُ بِي قُوَّةً عَلَى الصِّيَامِ في السَّفَرِ فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«هِيَ رُخْصَةٌ مِنَ اللهِ فَمَنْ أَخَذَ بِهَا فَحَسَنٌ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَصُومَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ»**.

(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ في صَحِيحِهِ(٢/٦٨٦رقم١٨٤٢)، وَمُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ(٢/٧٨٤رقم١١١٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ إلى مَكَّةَ في رَمَضَانَ فَصَامَ حتى بَلَغَ الْكَدِيدَ أَفْطَرَ، فَأَفْطَرَ النَّاسُ.

[٣٧] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَلاَ بَأْسَ بِالصَّلاةِ فِي السَّرَاوِيلِ.

الشَّرْحُ:

السَّرَاوِيلُ مُفْرَدٌ، وَهُوَ مَعْرُوفٌ: مَا يُلْبَسُ عَلَى العَوْرَةِ، فَهُوَ مَخِيطٌ عَلَى قَدْرِ أَسْفَلِ الجِسْمِ، لَهُ أَكْمَامٌ.

قَالَ: تَصِحُّ الصَّلاةُ فِي السَّرَاوِيلِ هَذَا بِالنِّسْبَةِ لِلرَّجُلِ؛ لأَنَّ عَوْرَةَ الرَّجُلِ مَا بَيْنَ السُّرَّةِ إِلَى الرُّكْبَةِ، وَالسَّرَاوِيلُ يَسْتُرُ ذَلِكَ، فَإِذَا صَلَّى فِي سَرَاوِيلٍ سَاتِراً مَا بَيْنَ سُرَّتِهِ إِلَى رُكْبَتِهِ فَصَلاتُهُ صَحِيحَةٌ.

أَمَّا المَرْأَةُ فَكُلُّهَا عَوْرَةٌ فِي الصَّلاةِ إِلاَّ وَجْهَهَا إِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهَا رِجَالٌ غَيْرُ مَحَارِمٍ. وَإِذَا صَلَّى فِي إِزَارٍ فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ السَّرَاوِيلِ، أَوْ صَلَّى فِي قَمِيصٍ، فَإِنَّهُ أَفْضَلُ؛ لأَنَّهُ أَجْمَلُ لِلْهَيْئَةِ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[الأعراف: ٣١] أَيْ: عِنْدَ كُلِّ صَلاةٍ، وَالزِّينَةُ كَمَا يَقُولُ شَيْخُ الإِسْلامِ أَعَمُّ مِنْ أَنْ تَكُونَ سَتْراً لِلْعَوْرَةِ فَقَط[1].

(١) وفي هَذَا الكلام من الإمام البَرْبَهَارِيِّ رَحِمَهُ اللهُ رَدٌّ عَلَى بعض أصنافِ الشِّيعَةِ الَّذِينَ يَرَوْنَ تحريمَ الصَّلاةِ بِالسَّرَاوِيلِ لأَنَّهَا تُصِيبُهَا الرِّيحُ الخَارِجَةُ مِنَ الدُّبُرِ، فيوجبون خلع السراويل عِنْدَ أداء الصَّلاةِ.

(٣٨) قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالنِّفَاقُ أَنْ يُظْهِرَ الإِسْلامَ بِاللِّسَانِ وَيُخْفِيَ الكُفْرَ بِالضَّمِيرِ.

الشَّرْحُ:

النِّفَاقُ هُوَ إِظْهَارُ الخَيْرِ وَإِبْطَانُ الشَّرِّ. وَهُوَ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ:

- نِفَاقٌ اعْتِقَادِيٌّ.

وَهَذَا كُفْرٌ أَكْبَرُ، وَالْمُنَافِقُ شَرٌّ مِنَ الكَافِرِ الأَصْلِيِّ؛ لأَنَّ الكَافِرَ الأَصْلِيَّ مَعْرُوفٌ أَنَّهُ كَافِرٌ، وَأَنَّهُ عَدُوٌّ، لَكِنَّ الْمُنَافِقَ يَخْدَعُ الْمُسْلِمِينَ، وَيُظْهِرُ أَنَّهُ مِنْهُمْ وَهُوَ عَدُوٌّ لَهُم، يُظْهِرُ أَنَّهُ مُسْلِمٌ وَهُوَ كَافِرٌ، ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ٩] وَلِهَذَا جَعَلَهُمُ اللهُ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، تَحْتَ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ وَالكُفَّارِ، لأَنَّهُمْ شَرٌّ مِنَ الكُفَّارِ، وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ وَعَلا فِيهِمْ ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المنافقون: ٤] وَالنِّفَاقُ الاعْتِقَادِيُّ هُوَ الَّذِي لا يَجْتَمِعُ مَعَهُ إِيمَانٌ أَبَداً.

- النَّوْعُ الثَّانِي: النِّفَاقُ العَمَلِيُّ.

وَالنِّفَاقُ العَمَلِيُّ هُوَ أَنْ يَكُونَ الإِنْسَانُ مُؤْمِناً ظَاهِراً وَبَاطِناً، لَكِنْ يَصْدُرُ مِنْهُ صِفَاتٌ مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ. تَنْقُصُ إِيمَانَهُ وَعَلَيْهِ وَعِيدٌ شَدِيدٌ، لَكِنَّهُ لا يَخْرُجُ مِنَ الْمِلَّةِ. يُسَمَّى النِّفَاقُ العَمَلِيُّ وَيُسَمَّى النِّفَاقُ الأَصْغَرُ. وَمِثْلُ هَذَا مَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ ﷺ: **«أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقاً خَالِصاً، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهَا كَانَ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ**

كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»[1] فهذا المؤمن قد يصدر منه النفاق العملي، وهو نقص في إيمانه ومستحق للوعيد لكنه لا يخرج بذلك من الدين.

وهذا النفاق هو الرياء الذي خافه رسول الله ﷺ على أصحابه، وسماه الشرك الأصغر قال: **«إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ» قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ، يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الرِّيَاءُ. يَقُولُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِذَا جَزَى النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاؤُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً»**[2].

وقال ﷺ: **«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ المَسِيحِ الدَّجَّالِ؟»** قالوا: بلى. **قال: «الشِّرْكُ الخَفِيُّ، يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إِلَيْهِ»**[3] إذا صلى عند الناس يزين صلاته، وإن صلى في بيته أو محل خفي فإنه ينقر الصلاة، فهذا هو الذي خافه الصحابة على أنفسهم خوفاً شديداً، ولا أحد يبرئ نفسه منه فيخاف

---

(١) رواه البخاري(١/٢١رقم٣٤)، ومسلم(١/٧٨رقم٥٨) من حديث عبدالله بن عمرو.
(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده(٥/٤٢٨)، والبيهقي في شعب الإيمان(٥/٣٣٣)، والبغوي في شرح السنة(١٤/ ٣٢٣- ٣٢٤) عن محمود بن لبيد ﷺ. قال المنذري في الترغيب والترهيب(١/٦٩): «إسناده جيد».
(٣) رواه الإمام أحمد في المسند(٣/٣٠)، وابن ماجه في سننه(رقم٤٢٠٤)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار(رقم١٧٨١)، وابن عدي في الكامل(٣/١٧٤)، ورواه مختصراً: البزار في مسنده(رقم٢٤٤٧- كشف الأستار)، والطبري في تهذيب الآثار(٢/٧٩٤- مسند علي)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين(٤/٣٢٩)، وغيرهم عن أبي سعيد الخدري ﷺ. وصححه الطحاوي، والحاكم، ووافقه الذهبي، وحسنه البوصيري في مصباح الزجاجة(٤/٢٣٧).

الإِنْسَانُ مِنْهُ، وَلِهَذَا قَالُوا: «لا يَخَافُهُ إلاَّ مُؤْمِنٌ، وَلا يَأْمَنُهُ إلاَّ مُنَافِقٌ» فَالْمُسْلِمُ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ هَذَا النِّفَاقِ وَهُوَ النِّفَاقُ الأَصْغَرُ.

قَوْلُهُ: **(وَالنِّفَاقُ أَنْ يُظْهِرَ الإِسْلامَ بِاللِّسَانِ وَيُخْفِي الكُفْرَ بِالضَّمِيرِ)** هَذَا تَعْرِيفُ النِّفَاقِ الاعْتِقَادِيِّ وَهُوَ النِّفَاقُ الأَكْبَرُ، وَهَذَا لا يَجْتَمِعُ مَعَهُ الإِيمَانُ وَلا يَصْدُرُ مِنْ مُؤْمِنٍ أَبَداً. وَاللهُ جَلَّ وَعَلا فِي أَوَّلِ سُورَةِ البَقَرَةِ قَسَّمَ النَّاسَ إِلَى مُؤْمِنِينَ ظَاهِراً وَبَاطِناً وَإِلَى كُفَّارٍ ظَاهِراً وَبَاطِناً، وَإِلَى مُنَافِقِينَ يُظْهِرُونَ الإِسْلامَ فِي الظَّاهِرِ وَيُبْطِنُونَ الكُفْرَ حَيْثُ قَالَ سُبْحَانَهُ عَن القُرْآنِ: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة:١-٥] هَذِهِ الآيَاتُ فِي الْمُؤْمِنِينَ ظَاهِراً وَبَاطِناً، وَأَمَّا الكُفَّارُ ظَاهِراً وَبَاطِناً، فَقَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ثُمَّ قَالَ -فِي الصِّنْفِ الثَّالِثِ-: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة:٢-١٨] هَذِهِ كُلُّهَا فِي الْمُنَافِقِينَ، وَهِيَ بِضْعَ عَشْرَةَ آيَةً.

قَوْلُهُ: **(وَيُخْفِي الكُفْرَ بِالضَّمِيرِ)** الضَّمِيرُ مَعْنَاهُ مَا يُضْمِرُهُ فِي القَلْبِ.

❀ ❀ ❀

[٣٩] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعلَمْ بِأَنَّ الدُّنْيَا دَارُ إِيمَانٍ وَإِسْلَامٍ، وَأُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ فِيهَا مُؤْمِنُونَ مُسْلِمُونَ فِي أَحْكَامِهِمْ وَمَوَارِيثِهِمْ وَذَبَائِحِهِمْ وَالصَّلَاةِ عَلَيْهِمْ، وَلَا نَشْهَدُ لِأَحَدٍ بِحَقِيقَةِ الإِيمَانِ حَتَّى يَأْتِيَ بِجَمِيعِ شَرَائِعِ الإِسْلَامِ، فَإِنْ قَصَّرَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ كَانَ نَاقِصَ الإِيمَانِ حَتَّى يَتُوبَ، وَاعْلَمْ أَنَّ إِيمَانَهُ إِلَى اللهِ تَعَالَى: تَامُّ الإِيمَانِ أَوْ نَاقِصُ الإِيمَانِ، إِلَّا مَا أَظْهَرَ لَكَ مِنْ تَضْيِيعِ شَرَائِعِ الإِسْلَامِ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: **(وَاعْلَمْ بِأَنَّ الدُّنْيَا دَارُ إِيمَانٍ وَإِسْلَامٍ)** يَعْنِي أَنَّ الإِسْلَامَ وَالإِيمَانَ فِي الدُّنْيَا الَّتِي هِيَ دَارُ العَمَلِ، أَمَّا الآخِرَةُ فَإِنَّهَا دَارُ الجَزَاءِ، فَالإِسْلَامُ وَالإِيمَانُ إِنَّمَا يَكُونَانِ فِي الدُّنْيَا، أَمَّا مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ الإِسْلَامِ وَالإِيمَانِ فَإِنَّهُ كَافِرٌ وَلَا يَنْفَعُهُ أَنَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِذَا شَاهَدَ مَا كَفَرَ بِهِ يُؤْمِنُ أَوْ يَتَمَنَّى الرُّجُوعَ وَيَطْلُبُ مِنْ رَبِّهِ أَنَّهُ يَرْجِعُ لِأَجْلِ أَنْ يُؤْمِنَ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

وَالإِسْلَامُ وَالإِيمَانُ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ لِأَنَّ الدِّينَ ثَلَاثُ مَرَاتِبَ:

أَوَّلاً: الإِسْلَامُ.

ثَانِياً: الإِيمَانُ.

ثَالِثاً: الإِحْسَانُ.

كَمَا فِي حَدِيثِ جِبْرِيلَ، وَأَوْسَعُهَا الإِسْلامُ؛ لأَنَّ الإِسْلامَ هُوَ الاسْتِسْلامُ فِي الظَّاهِرِ، وَقَدْ يَكُونُ مُؤْمِناً فِي البَاطِنِ وَقَدْ يَكُونُ مُنَافِقاً مُسْتَسْلِماً فِي الظَّاهِرِ، كَافِراً فِي البَاطِنِ.

أَمَّا الإِيْمَانُ فَإِنَّهُ لا يُطْلَقُ عَلَى المُنَافِقِ، فَإِنَّهُ يَدْخُلُ فِيهِ المُؤْمِنُ كَامِلُ الإِيْمَانِ، وَيَدْخُلُ فِيهِ المُؤْمِنُ نَاقِصُ الإِيْمَانِ، فَإِذَا ذُكِرَ الإِسْلامُ وَالإِيْمَانُ جَمِيعاً؛ فَإِنَّهُ يُرَادُ بِالإِسْلامِ: الأَحْكَامُ الظَّاهِرَةُ، وَيُرَادُ بِالإِيْمَانِ: الأَحْكَامُ البَاطِنَةُ، كَمَا فِي حَدِيثِ جِبْرِيلَ: **«الإِسْلامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيْتَ»** هَذِهِ أَعْمَالٌ ظَاهِرَةٌ، **قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِيْمَانِ؟ قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَأَنْ تُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»**[1] هَذِهِ أَعْمَالٌ بَاطِنَةٌ.

وَلابُدَّ مِنِ اجْتِمَاعِ الإِسْلامِ وَالإِيْمَانِ، فَإِذَا ذُكِرَ وَاحِدٌ فَقَطْ؛ دَخَلَ فِيهِ الآخَرُ، إِذَا ذُكِرَ الإِيْمَانُ وَحْدَهُ دَخَلَ فِيهِ الإِسْلامُ، وَإِذَا ذُكِرَ الإِسْلامُ وَحْدَهُ دَخَلَ فِيهِ الإِيْمَانُ، وَلِهَذَا يَقُولُونَ: «الإِسْلامُ وَالإِيْمَانُ إِذَا اجْتَمَعَا؛ افْتَرَقَا» يَعْنِي فِي المَعْنَى «وَإِذَا افْتَرَقَا اجْتَمَعَا» يَعْنِي فِي المَعْنَى، مِثْلُ الفَقِيرِ وَالمِسْكِينِ إِذَا ذُكِرَا جَمِيعاً صَارَ الفَقِيرُ لَهُ مَعْنَى وَالمِسْكِينُ لَهُ مَعْنَى، وَإِذَا ذُكِرَ أَحَدُهُمَا دَخَلَ فِيهِ الآخَرُ[2].

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (رقم١) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.
(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٧/٥٥١)

قَوْلُهُ: **(وَأُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ فِيهَا مُؤْمِنُونَ مُسْلِمُونَ فِي أَحْكَامِهِمْ وَمَوَارِيثِهِمْ وَذَبَائِحِهِمْ وَالصَّلَاةِ عَلَيْهِمْ)** أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ، مُسْلِمُونَ مُؤْمِنُونَ؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ مُؤْمِناً فَهُوَ مُسْلِمٌ، وَمَنْ كَانَ مُسْلِماً فَقَدْ يَكُونُ مُؤْمِناً وَقَدْ يَكُونُ مُنَافِقاً، لَكِنَّ الإِسْلَامَ الصَّحِيحَ لَابُدَّ مَعَهُ مِنْ إِيمَانٍ وَلَوْ قَلِيلاً ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤].

قَوْلُهُ: **(فِي أَحْكَامِهِمْ وَمَوَارِيثِهِمْ)** الْمُسْلِمُ وَلَوْ ظَاهِراً لَهُ حُكْمُ الْمُسْلِمِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ، وَإِذَا مَاتَ يُغَسِّلُونَهُ وَيُكَفِّنُونَهُ وَيُصَلُّونَ عَلَيْهِ، وَيَدْفِنُونَهُ فِي مَقَابِرِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ يُحِبُّونَهُ وَيَتَوَلَّوْنَهُ، وَيَتَرَاحَمُونَ بَيْنَهُمْ، وَيَتَآخَوْنَ بَيْنَهُمْ. هَذِهِ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ قَالَ ﷺ: **«مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»**(1) وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **«الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ»**(2)، فَهُمْ إِخْوَةٌ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] إِخْوَةٌ فِي الإِيمَانِ لَا فِي النَّسَبِ.

قَوْلُهُ: **(وَذَبَائِحِهِمْ)** ذَبِيحَةُ الْمُسْلِمِ حَلَالٌ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ فَاسِقاً، مَا دَامَ أَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ مِنَ الإِسْلَامِ فَذَبِيحَتُهُ حَلَالٌ، وَالْمُنَافِقُ أَيْضاً إِذَا ذَبَحَ ذَبِيحَةً

(1) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(٥/٢٢٣٨رقم٥٦٦٥)، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(٤/١٩٩٩رقم٢٥٨٦) عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(2) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(١/١٨٢رقم٤٦٧)، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(٤/١٩٩٩رقم٢٥٨٥) عن أبي موسى.

نَأْكُلُهَا بِحُكْمِ أَنَّهُ مُسْلِمٌ، مَا لَمْ يَتَبَيَّنْ لَنَا أَنَّهُ مُنَافِقٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾[المائدة: ٣] هَذَا خِطَابٌ لِلْمُسْلِمِينَ، وَأَبَاحَ لَنَا ذَبَائِحَ أَهْلِ الكِتَابِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾[المائدة: ٥] يَعْنِي ذَبَائِحَهُمْ؛ لأَنَّهُم يَذْبَحُونَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الشَّرْعِيَّةِ بِمُوجِبِ مَا عِنْدَهُم مِنَ الكِتَابِ.

أَمَّا ذَبَائِحُ الوَثَنِيِّينَ وَالكُفَّارِ وَالدَّهْرِيِّينَ وَالمُرْتَدِّينَ فَنَحْنُ لا نَأْكُلُهَا؛ لأَنَّهَا ذَبِيحَةُ كَافِرٍ وَهِيَ نَجِسَةٌ، لأَنَّ ذَبِيحَةَ الكَافِرِ مَيْتَةٌ فَهِيَ نَجِسَةٌ بِالكُفْرِ؛ لأَنَّهَا تَتَأَثَّرُ بِالذَّابِحِ فَتَكُونُ خَبِيثَةً لأَنَّ ذَابِحَهَا خَبِيثٌ فَتَتَأَثَّرُ بِهِ، وَكَوْنُ اللهِ جَلَّ وَعَلا أَبَاحَ لَنَا ذَبَائِحَ أَهْلِ الكِتَابِ خَاصَّةً دَلِيلٌ عَلَى تَحْرِيمِ ذَبَائِحِ غَيْرِهِم.

قَوْلُهُ: **(وَالصَّلاةُ عَلَيْهِم)** يُصَلَّى عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، حَتَّى وَلَو كَانَ فَاسِقاً وَعَاصِياً أو منافقاً لَمْ يَظْهَرْ نِفَاقُهُ مَا دَامَ أَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ مِنَ الإِسْلامِ، فَإِنَّهُ يُصَلَّى عَلَيْهِ، وَيُدْعَى لَهُ، وَيُسْتَغْفَرُ لَهُ، وَيَرِثُ قَرِيبَهُ المُسْلِمَ، وَيَرِثُهُ قَرِيبُهُ المُسْلِمُ.

قَوْلُهُ: **(وَلاَ نَشْهَدُ لأَحَدٍ بِحَقِيقَةِ الإِيمَانِ حَتَّى يَأْتِيَ بِجَمِيعِ شَرَائِعِ الإِسْلامِ)** أَيْ: لا نُزَكِّي أَحَداً بِأَنْ نَقُولَ: فُلانٌ مُؤْمِنٌ؛ لأَنَّ الشَّهَادَةَ لَهُ بِأَنَّهُ مُؤْمِنٌ شَهَادَةٌ قَدْ لا يَسْتَحِقُّهَا، وَلِهَذَا لَمَّا قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَعْطِ فُلاناً فَإِنَّهُ مُؤْمِنٌ قَالَ ﷺ: **«أَوْ مُسْلِمٌ»** ثُمَّ قَالَ: أَعْطِ فُلاناً فَإِنَّهُ مُؤْمِنٌ، قَالَ ﷺ: **«أَوْ مُسْلِمٌ»**[1]، فَالنَّبِيُّ ﷺ يُرِيدُ بِهَذَا أَنَّ الإِنْسَانَ لا يُزَكِّي أَحَداً، إِنَّمَا يُعْطِيهِ

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(١/١٨رقم٢٧)، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(١/١٣٢رقم١٥٠) عن سعد بن أبي وقاص.

الاسْمَ العَامَّ، فيقولُ: هُوَ «مُسْلِمٌ»، قَدْ يَكُونُ مُسْلِماً مُتَمَكِّناً مِن الإسْلامِ، وقَدْ يَكُونُ مُسْلِماً عِنْدَهُ فِسْقٌ، وَعِنْدَهُ مَعَاصٍ وَنَقْصٌ، وقَدْ يَكُونُ مُنَافِقاً، فَأَنْتَ لا تَشْهَدُ لَهُ بِالكَمَالِ.

قَوْلُهُ: **(فَإِنْ قَصَّرَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ كَانَ نَاقِصَ الإِيمانِ حَتَّى يَتُوب)** عَقِيدَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ أَنَّ المَعَاصِيَ وَإِنْ كَانَتْ مَعَاصِيهِ كَبَائِرَ مَا دَامَتْ دُونَ الشِّرْكِ فَإِنَّهَا لا تُخْرِجُ المُسْلِمَ مِنَ الإِسْلامِ، أَوْ لا تُخْرِجُهُ مِنْ دَائِرَةِ الإِيمَانِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ مُؤْمِناً بِإِيمَانِهِ فَاسِقاً بِكَبِيرَتِهِ، أَوْ تَقُولُ: هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الإِيمَانِ.

قَوْلُهُ: **(وَاعْلَمْ أَنَّ إِيمَانَهُ إِلَى اللهِ تَعالَى: تَامُّ الإِيمَانِ أَوْ نَاقِصَ الإِيمَانِ)** يَعْنِي نَقْبَلُ مِنْهُ الظَّاهِرَ وَنَكِلُ سَرِيرَتَهُ إِلَى اللهِ.

قَوْلُهُ: **(إِلاَّ مَا أَظْهَرَ لَكَ مِنْ تَضْيِيعِ شَرَائِعِ الإِسْلام)** أَيْ: إِلاَّ إِذَا ارْتَكَبَ نَاقِضاً مِنْ نَوَاقِضِ الإِسْلامِ، ومنها تَرْكُ شَرَائِعِ الإِسْلام فَأَنْتَ تَحْكُمُ عَلَيْهِ بِالرِّدَّةِ، كَمَا إِذَا تَرَكَ الصَّلاةَ مُتَعَمِّداً، أَوْ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلامِ كُفْرٍ كَسَبِّ اللهِ أَوْ سَبِّ الرَّسُولِ ﷺ، أَوْ سَبِّ دِينِ الإِسْلامِ، فَأَنْتَ تَحْكُمُ عَلَيْهِ بِالرِّدَّةِ بِمَا ظَهَرَ مِنْهُ، فَمَنْ أَظْهَرَ نَاقِضاً مِنْ نَوَاقِضِ الإِسْلامِ مع زَوَالِ العُذْرِ وَزَوَالِ المَوَانِعِ، وَهَلْ هُوَ مُتَأَوِّلٌ، أَوْ هَلْ هُوَ مُقَلِّدٌ هَلْ هُوَ جَاهِلٌ، هَلْ هُوَ غَضْبَانُ، فَلا يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِالرِّدَّةِ مَعَ هَذِهِ المَوَانِعِ.

[٤٠] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالصَّلاةُ عَلَى مَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ سُنَّةٌ: وَالْمَرْجُومُ، وَالزَّانِي، وَالزَّانِيَةُ، وَالَّذِي يَقْتُلُ نَفْسَهُ، وَغَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، وَالسَّكْرَانُ وَغَيْرُهُمْ، الصَّلاةُ عَلَيْهِمْ سُنَّةٌ.

الشَّرْحُ:

هَذَا كَمَا سَبَقَ، أَنَّ مَنْ أَظْهَرَ الإِيمَانَ وَالإِسْلامَ نُصَلِّي عَلَيْهِ، وَيَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ وَهُمُ الَّذِينَ يُصَلُّونَ إِلَى الكَعْبَةِ قِبْلَةِ الْمُسْلِمِينَ، هَؤُلاءِ نُعَامِلُهُمْ بِالظَّاهِرِ، فَنَحْكُمُ بِأَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ، وَنُعَامِلُهُمْ مُعَامَلَةَ الْمُسْلِمِينَ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً.

قَوْلُهُ: **(وَالْمَرْجُومُ، وَالزَّانِي، وَالزَّانِيَةُ، وَالَّذِي يَقْتُلُ نَفْسَهُ، وَغَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ)** الْمُؤْمِنُ الْفَاسِقُ الَّذِي لَمْ يَخْرُجْ بِكَبِيرَتِهِ عَنِ الإِسْلامِ يُعَامَلُ مُعَامَلَةَ الْمُسْلِمِينَ، وَيُدْعَى لَهُ، كَقَاتِلِ نَفْسِهِ، وَكَالْمَرْجُومِ فِي الزِّنَا، وَقَدْ صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمَرْجُومِينَ؛ صَلَّى عَلَى مَاعِزٍ رضي الله عنه[1]، وَعَلَى الغَامِدِيَّةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا[2]، وَقَدْ يَمْتَنِعُ ﷺ مِنَ الصَّلاةِ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ مِثْلِ قَاتِلِ نَفْسِهِ، وَالغَالِّ فِي سَبِيلِ اللهِ، مِنْ بَابِ التَّأْدِيبِ لِلنَّاسِ، لا مِنْ بَابِ أَنَّهُ كَافِرٌ، وَلِهَذَا أَذِنَ لِلصَّحَابَةِ أَنْ يُصَلُّوا عَلَيْهِ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ مِنَ الصَّلاةِ عَلَيْهِ، لأَنَّهُ مُسْلِمٌ.

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(٦/٢٥٠٠رقم٦٤٣٤) عن جابر.
(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(٣/١٣٢٣رقم١٦٩٥) عن بريدة.

قَوْلُهُ: **(والسَّكْرَانُ وَغَيْرُهُمْ، الصَّلاةُ عَلَيْهِمْ سُنَّةٌ)** السَّكْرَانُ الَّذِي يَشْرَبُ الخَمْرَ فَاسِقٌ يُقَامُ عَلَيْهِ الحَدُّ، لَكِنَّهُ لا يَخْرُجُ مِنَ الإِسْلامِ، فَإِذَا مَاتَ يُصَلَّى عَلَيْهِ وَلَو كَانَ يَشْرَبُ الخَمْرَ؛ لأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ.

وَقَوْلُهُ: **(سُنَّةٌ)** أَيْ: مِنْ سُنَّةِ الرَّسُولِ ﷺ الوَاجِبِ اتِّبَاعُهَا.

[٤١] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَلاَ يَخْرُجُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ مِنَ الإِسْلاَمِ حَتَّى يَرُدَّ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَوْ يَرُدَّ شَيْئاً مِنْ آثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَوْ يُصَلِّيَ لِغَيْرِ اللهِ، أَوْ يَذْبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، وَإِذَا فَعَلَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ وَجَبَ عَلَيْكَ أَنْ تُخْرِجَهُ مِنَ الإِسْلاَمِ، فَإِذَا لَمْ يَفْعَلْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمُسْلِمٌ بِالاسْمِ لاَ بِالحَقِيقَةِ.

الشَّرْحُ:

لا يَخْرُجُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ مِنَ الإِسْلامِ إِلاَّ بِارْتِكَابِ نَاقِضٍ مِنْ نَوَاقِضِ الإِسْلامِ المَعْرُوفَةِ، وَيَزُولُ عُذْرُهُ.

قَوْلُهُ: **(أَوْ يَرُدَّ شَيْئاً مِنْ آثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ)** إِذَا جَحَدَ القُرْآنَ أَوْ بَعْضَهُ، أَوِ السُّنَّةَ الصَّحِيحَةَ أَوْ بَعْضَهَا، أَوْ أَنْكَرَ شَيْئاً فِي القُرْآنِ، أَوْ أَنْكَرَ شَيْئاً فِي السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ: فَهَذَا يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِالرِّدَّةِ؛ لأَنَّهُ مُكَذِّبٌ للهِ وَلِرَسُولِهِ، مَا لَمْ يَكُنْ جَاهِلاً أَوْ مُقَلِّداً أَوْ مُتَأَوِّلاً فَهَذَا يُبَيَّنُ لَهُ، فَإِذَا بُيِّنَ لَهُ وَأَصَرَّ فَإِنَّهُ يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِالرِّدَّةِ.

وَالمُرَادُ بِآثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: الأَحَادِيثُ.

وَقَوْلُهُ: **(أَوْ يَرُدَّ شَيْئاً مِنْ آثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ)** أَيْ: فَإِنَّهُ يَكْفُرُ، وَهَذِهِ قَاعِدَةٌ عَظِيمَةٌ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، يُخَالِفُونَ بِهَا فِئَتَيْنِ:

- **الفِئَةُ الأُولَى:** الخَوَارِجُ، وَالغُلاةُ، الَّذِينَ يُكَفِّرُونَ بِالكَبَائِرِ الَّتِي دُونَ الشِّرْكِ.

• **الفِئَةُ الثَّانِيَةُ**: فِئَةُ المُرجِئَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: لا يَضُرُّ مَعَ الإِيمَانِ مَعْصِيَةٌ، مَا دَامَ الإِنْسَانُ مُؤْمِناً بِقَلْبِهِ، فَإِنَّهُ لا يَضُرُّهُ شيءٌ مِن المَعَاصِي، وَلَو تَرَكَ الأَعْمَالَ كُلَّهَا وَلَمْ يَعْمَلْ شَيْئاً، فَإِنَّهُ مُؤْمِنٌ كَامِلُ الإِيمَانِ.

أَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ فَكَمَا ذَكَرَ المُؤَلِّفُ: أَنَّهُم وَسَطٌ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ؛ فَيَقُولُونَ: الكَبَائِرُ تَخْتَلِفُ: إِنْ كَانَتْ مِنَ الشِّرْكِ أَوِ الكُفْرِ الأَكْبَرَيْنِ فَإِنَّهَا تُخْرِجُ مِنَ المِلَّةِ بِالإِجْمَاعِ، وَأَمَّا إِذَا كَانَتْ لَيْسَتْ كُفْراً وَلا شِرْكاً، وَلَيْسَتْ تَكْذِيباً لِكِتَابِ اللهِ وَلا لِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ، وَلا تَرْكاً لِلصَّلاةِ، وَلا دُعَاءً لِغَيْرِ اللهِ، أَوْ ذَبْحاً لِغَيْرِ اللهِ، وَإِنَّمَا هِيَ كَبِيرَةٌ دُونَ ذَلِكَ فَهَذِهِ لا يَخْرُجُ بِهَا العَبْدُ مِنَ الإِسْلامِ خِلافاً لِلْخَوَارِجِ وَالمُعْتَزِلَةِ، وَلَكِنَّهَا تَضُرُّ المُؤْمِنَ، وَتُنْقِصُ إِيمَانَهُ، وَتُضْعِفُهُ، خِلافاً لِلْمُرجِئَةِ؛ الَّذِينَ يَقُولُونَ: لا يَضُرُّ مَعَ الإِيمَانِ مَعْصِيَةٌ. فَهَذَا هُوَ المَذْهَبُ الوَسَطُ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ الجَمْعُ بَيْنَ نُصُوصِ الوَعِيدِ وَنُصُوصِ الوَعْدِ.

الخَوَارِجُ وَالمُعْتَزِلَةُ أَخَذُوا بِنُصُوصِ الوَعِيدِ، وَتَرَكُوا نُصُوصَ الوَعْدِ.

المُرجِئَةُ عَلَى العَكْسِ: أَخَذُوا بِنُصُوصِ الوَعْدِ، وَتَرَكُوا نُصُوصَ الوَعِيدِ. فَكِلا الطَّائِفَتَيْنِ ضَالٌّ.

وَقَوْلُهُ: **(أَوْ يُصَلِّي لِغَيْرِ اللهِ، أَوْ يَذْبَحُ لِغَيْرِ اللهِ)** يُصَلِّي لِغَيْرِ يَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ، أَوْ يَسْجُدُ لِصَنَمٍ، أَوْ يَذْبَحُ لِغَيْرِ اللهِ وَيَعْمَلُ شَيْئاً مِنَ العِبَادَاتِ لِغَيْرِ

اللهِ، فهذا مُشركٌ كافرٌ، خارجٌ مِنَ المِلَّةِ. وما دُونَ ذلكَ فأهلُ السُّنَّةِ وَسَطٌ فيهِ بَيْنَ المُرْجِئَةِ وبَيْنَ الخوارِجِ

قَوْلُهُ: **(وإذا فَعَلَ شَيْئاً مِنْ ذلكَ فَقَدْ وَجَبَ عَلَيْكَ أَنْ تُخْرِجَهُ مِنَ الإسْلامِ)** إذا فَعَلَ شَيْئاً مِنْ ذلكَ، يَعْني صَلَّى لِغَيْرِ اللهِ، أَوْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، أَوْ عَمِلَ عِبادَةً لِغَيْرِ اللهِ؛ وَجَبَ عَلَيْكَ أَنْ تُخْرِجَهُ مِنَ المِلَّةِ، وَوَجَبَ عَلَيْكَ أَنْ تَعْتَقِدَ أَنَّهُ كافِرٌ، وَلا تَقُلْ: لا يُهِمُّني هذا، أَوْ لا أَدْرِي عَنْهُ، بَلْ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تُكَفِّرَ الكافِرَ وَالمُشْرِكَ، وَأَنْ تُفَسِّقَ العاصِيَ مُرْتَكِبَ الكَبِيرَةِ الَّتِي دُونَ الشِّرْكِ، لابُدَّ مِنْ بَيانِ الحَقِّ في هذا الأَمْرِ.

قَوْلُهُ: **(فإذا لَمْ يَفْعَلْ شَيْئاً مِنْ ذلكَ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمُسْلِمٌ بالاسْمِ لا بالحَقِيقَةِ)** أَيْ: في الظّاهِرِ لَنا، وَسَرِيرَتُهُ إلى اللهِ.

[٤٢] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَكُلُّ مَا سَمِعْتَ مِنَ الآثَارِ شَيْئاً مِمَّا لَمْ يَبْلُغْهُ عَقْلُكَ، نَحْوَ قَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «قُلُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ»، وَقَوْلِهِ «إِنَّ اللهَ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا»، وَيَنْزِلُ يَوْمَ عَرَفَةَ، وَيَنْزِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لاَ يَزَالُ يُطْرَحُ فِيهَا حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهَا قَدَمَهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى لِلْعَبْدِ: «إِنْ مَشَيْتَ إِلَيَّ هَرْوَلْتُ إِلَيْكَ»، وَقَوْلِهِ: «خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»، وَقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «رَأَيْتُ رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ».

وَأَشْبَاهِ هَذِهِ الأَحَادِيثِ، فَعَلَيْكَ بِالتَّسْلِيمِ وَالتَّصْدِيقِ وَالتَّفْوِيضِ وَالرِّضَى، وَلاَ تُفَسِّرْ شَيْئاً مِنْ هَذِهِ بِهَوَاكَ فَإِنَّ الإِيمَانَ بِهَذَا وَاجِبٌ، فَمَنْ فَسَّرَ شَيْئاً مِنْ هَذَا بِهَوَاهُ، وَرَدَّهُ فَهُوَ جَهْمِيٌّ.

الشَّرْحُ:

نُصُوصُ الصِّفَاتِ الثَّابِتَةُ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تُثْبِتَهَا كَمَا جَاءَتْ، عَلَى حَقِيقَتِهَا، دُونَ أَنْ تَتَدَخَّلَ بِعَقْلِكَ فَتَقُولَ: هَذَا لا يَلِيقُ بِاللهِ، اللهُ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ، وَهَذَا تَشْبِيهٌ، كَمَا يَقُولُهُ الْمُعَطِّلَةُ.

أَوْ تَعْتَقِدَ أَنَّ اللهَ يُشْبِهُ خَلْقَهُ كَمَا تَقُولُهُ الْمُمَثِّلَةُ. فَكِلا الطَّائِفَتَيْنِ عَلَى ضَلالٍ.

الْمُعَطِّلَةُ: غَلَوْا فِي التَّنْزِيهِ، حَتَّى نَفَوا الأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ فِرَاراً مِنَ التَّشْبِيهِ بِزَعْمِهِمْ.

وَالْمُمَثِّلَةُ: غَلَوْ فِي الإِثْبَاتِ، حَتَّى شَبَّهُوا اللهَ بِخَلْقِهِ. وَكِلا الْمَذْهَبَيْنِ بَاطِلٌ.

وَمَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ: الوَسَطُ، يُثْبِتُونَ للهِ الأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ إِثْبَاتاً بِلا تَشْبِيهٍ، وَيَنْفُونَ عَنْهُ مُشَابَهَةَ الْمَخْلُوقِينَ تَنْزِيهاً بِلا تَعْطِيلٍ، هَذَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ هَذَا رَدٌّ عَلَى الْمُمَثِّلَةِ ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١] هَذَا رَدٌّ عَلَى الْمُعَطِّلَةِ، وَدَلَّتِ الآيَةُ عَلَى أَنَّ إِثْبَاتَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ لا يَقْتَضِي التَّشْبِيهَ وَالتَّمْثِيلَ. هَذَا هُوَ الْمَنْهَجُ الصَّحِيحُ فِي مَسْأَلَةِ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

مِثْلُ: **«قُلُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ»** نُثْبِتُ الأَصَابِعَ لِلرَّحْمَنِ كَمَا جَاءَتْ فِي الْحَدِيثِ، وَلا تَقُلْ: إِنَّهَا مِثْلُ أَصَابِعِ الْمَخْلُوقِ، فَهَذَا تَشْبِيهٌ، تَنَزَّهَ اللهُ عَنْهُ، بَلْ نُثْبِتُهَا عَلَى مَا يَلِيقُ بِجَلالِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لَيْسَتْ كَأَصَابِعِ الْمَخْلُوقِينَ.

وَنُثْبِتُ الْحَدِيثَ الْقُدْسِيَّ الَّذِي يَقُولُ اللهُ جَلَّ وَعَلا فِيهِ: **«مَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»**[(1)] بِمَعْنَى: مَنْ أَسْرَعَ إِلَى رِضَائِي وَطَاعَتِي؛ أَسْرَعْتُ فِي مَغْفِرَةِ ذُنُوبِهِ وَقَضَاءِ حَوَائِجِهِ، فَلَيْسَ مَعْنَاهُ الْهَرْوَلَةَ الْمَعْرُوفَةَ عِنْدَنَا، وَإِنَّمَا فَسَّرَهُ آخِرُ الْحَدِيثِ بِقَوْلِهِ: **«لَئِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَإِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ»** فَمَعْنَى الْهَرْوَلَةِ هُنَا: الْمُبَادَرَةُ بِقَضَاءِ حَوَائِجِ عَبْدِهِ، كَمَا أَنَّ الْعَبْدَ

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(٦/٢٦٩٤رقم٦٩٧٠)، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(٤/٢٠٦١رقم٢٦٧٥) عن أبي هريرة.

يُبادِرُ إلى طاعة اللهِ فهَلْ العَبْدُ يُهَرْوِلُ حقيقة أوْ معنًى؟ فَفي هَذا رَدٌّ عَلَى بَعْضِ الْمُتَسَرِّعِينَ الَّذِينَ يُثْبِتُونَ للهِ الهَرْوَلَةَ، وَهَذا مِنْ بَابِ أفْعَالِ المُقَابَلَةِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾[التوبة: ٧٩]، ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾[البقرة: ١٤-١٥]، ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ﴾[آل عمران: ٥٤].

فَيَجِبُ مَعْرِفَةُ هَذِهِ القَوَاعِدِ العَظِيمَةِ، لِيَكُونَ الإِنْسَانُ عَلَى بَصِيرَةٍ وَيَعْرِفَ مَذْهَبَ السَّلَفِ فِيهَا، الَّذِينَ هُمْ أَثْبَتُ مِنْهُ وَأَعْلَمُ مِنْهُ، وَلا يَسْتَقِلُّ بِفَهْمِهِ وَعَقْلِهِ وَيُثْبِتَ للهِ أشْيَاءَ لا يَدْرِي عَنْهَا بِنَاءً عَلَى ظَوَاهِرَ أَوْ مُتَشَابِهَاتٍ، وَهُنَاكَ أَدِلَّةٌ مُحْكَمَةٌ تُبَيِّنُهَا وَتُوَضِّحُهَا، فَيَجِبُ أَنْ يَرُدَّ الْمُتَشَابِهَ إِلَى الْمُحْكَمِ، وَهَذَا لا يَهْتَدِي إِلَيْهِ إِلاَّ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ.

فَيَجِبُ عَلَى طَالِبِ العِلْمِ والمُبْتَدِئِ ألا يَتَسَرَّعَ فِي هَذِهِ الأُمُورِ، بَلْ يَتَوَقَّفَ عَنْهَا، وَأَنْ يَتَعَلَّمَ كَيْفَ يَفْهَمُهَا عَلَى مَنْهَجِ السَّلَفِ، والجَادَّةُ وَاضِحَةٌ، وَالسَّلَفُ مَا قَصَّرُوا فِي بَيَانِ الحَقِّ، وَوَضْعِ القَوَاعِدِ وَالضَّوَابِطِ، لَكِنَّ هَذَا يَحْتَاجُ إِلَى تَعَلُّمٍ، وَيَحْتَاجُ إِلَى فَهْمٍ ، وَمِثْلُ هَذَا أَيْضاً قَوْلُهُ ﷺ: **«يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا»**[1]، **«وَيَنْزِلُ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ»**[2]، **«يَأْتِي يَوْمَ**

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(١/٣٨٤رقم١٠٩٤)، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(١/٥٢١رقم٧٥٨) عن أبي هريرة.

(٢) رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(٢/٩٨٢رقم١٣٤٨) عن عَائِشَةَ أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **«ما من يَوْمٍ أَكْثَرَ من أَنْ يُعْتِقَ الله فيه عَبْدًا من النَّارِ من يَوْمِ عَرَفَةَ وَإِنَّهُ لَيَدْنُو ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمْ الْمَلَائِكَةَ فيقول ما أَرَادَ هَؤُلَاءِ»**

القِيَامَةِ»[1]، **«يَجِيءُ يَوْمَ القِيَامَةِ لِفَصْلِ القَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ»**[2]، نُثْبِتُ هذِهِ الأَشْيَاءَ للهِ عَلَى حَقِيقَتِهَا، دُونَ تَدَخُّلٍ فِي تَحْدِيدِ الكَيْفِيَّةِ فَلا نَتَكَلَّفُ مَعْرِفَةَ كَيْفَ يَنْزِلُ، كَيْفَ يَأْتِي، كَيْفَ يَجِيءُ، فَالكَيْفِيَّةُ لا نَتَدَخَّلُ فِيهَا، أَمَّا المَعْنَى فَهُوَ مَعْقُولٌ، وَلِهَذَا لَمَّا سُئِلَ الإِمَامُ مَالِكٌ عَنْ كَيْفِيَّةِ الاسْتِوَاءِ، قَالَ السَّائِلُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ (طه: ٥) كَيْفَ اسْتَوَى؟ يَسْأَلُ عَنِ الكَيْفِيَّةِ، قَالَ لَهُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللهُ: **«الاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ»** يَعْنِي مَعْلُومٌ مَعْنَاهُ، **«وَالكَيْفُ مَجْهُولٌ، والإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، والسُّؤَالُ عَنْهُ» أَيْ**: عَنِ الكَيْفِيَّةِ **«بِدْعَةٌ»**، هَذَا هُوَ المَنْهَجُ السَّلِيمُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الأُمُورِ.

كَذَلِكَ: إِثْبَاتُ الصُّورَةِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي قَوْلِهِ ﷺ: **«خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»**[3].

وفِي رِوَايَةٍ: **«عَلَى صُورَةِ الرَّحْمَنِ»**[4] نُثْبِتُ الصُّورَةَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا أَثْبَتَهَا لَهُ رَسُولُهُ فِي قَوْلِهِ: **«رَأَيْتُ رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ»**[5] هَذَا فِي الدُّنْيَا

---

(١) قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ (البقرة: ٢١٠)

(٢) قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ الفجر: ٢٢

(٣) رَوَاهُ البُخَارِيُّ في صَحِيحِهِ(٥/٢٢٩٩رقم٥٨٧٣)، وَمُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ(٤/٢١٨٣رقم٢٨٤١) عن أبي هريرة.

(٤) رَوَاهُ الطبراني في المعجم الكبير(١٢/٤٣٠)، والحارث بن أبي أسامة في مسنده(٢/٨٣١)، وابن خزيمة في كتاب التوحيد(رقم٤١) عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما. وَصَحَّحَهُ الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه كما في الميزان للذهبي(٤/٩٦).

(٥) رَوَاهُ الإمام أحمد في المسند(٥/٢٣٤)، والترمذي في سننه(٥/٣٦٨) عن معاذ رضي الله عنه، وَصَحَّحَهُ الترمذي وحكى تصحيحه عن البُخَارِيّ.

رُؤْيَا مَنَامٍ. **«في أحْسَنِ صُورَةٍ»** فيهِ إثْبَاتُ الصُّورَةِ للهِ جَلَّ وَعَلا، كَمَا يَلِيقُ بِجَلالِهِ لَيْسَتْ كَصُوَرِ المَخْلُوقِينَ، وَإِنَّمَا هِيَ صُورَةُ الرَّحْمَنِ جَلَّ وَعَلا، فَهَذِهِ الأُمُورُ نُثْبِتُهَا وَلا نَتَدَخَّلُ أَوْ نُشَكِّكُ فِيهَا، أَوْ نَخُوضُ فِيهَا.

و**(التَّفْوِيضِ)** الصَّحِيحُ هُوَ تَفْوِيضُ الكَيْفِيَّةِ، لا تَفْوِيضَ المَعْنَى.

قَوْلُهُ: **(لا تُفَسِّرْ شَيْئاً من هَذِهِ بِهَوَاكَ)** وَإِنَّمَا تُفَسِّرُهَا بِالمَعْنَى الصَّحِيحِ اللائِقِ بِاللهِ جَلَّ وَعَلا، لا يُقَالُ إِنَّهَا لا تُفَسَّرُ، بَلْ تُفَسَّرُ وَيُبَيَّنُ مَعْنَاهَا، وَإِنَّمَا التَّفْوِيضُ لِلْكَيْفِيَّةِ فَقَطْ، نُثْبِتُ النُّزُولَ، وَنَنْفِي الكَيْفِيَّةَ، اللهُ جَلَّ وَعَلا يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ لِفَصْلِ القَضَاءِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ [الفجر: ٢٢]، ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ [البقرة: ٢١٠] يَأْتِي سُبْحَانَهُ وَيَجِيءُ لِفَصْلِ القَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ كَمَجِيءِ المَخْلُوقِ وَإِتْيَانِ المَخْلُوقِ، وَإِنَّمَا هُوَ إِتْيَانٌ وَمَجِيءٌ يَلِيقُ بِجَلالِهِ كَيْفَ يَشَاءُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(بِهَوَاكَ) أَيْ: لا تُفَسِّرُهَا بِدُونِ عِلْمٍ، أَمَّا إِنَّكَ تُفَسِّرُهَا بِمُوجِبِ الأَدِلَّةِ، وَرَدِّ المُتَشَابِهِ إِلَى المُحْكَمِ فَهَذَا لا بَأْسَ بِهِ، أَمَّا الإِنْسَانُ المُبْتَدِئُ أَوْ الجَاهِلُ فَلا يَتَدَخَّلْ فِي هَذِهِ الأُمُورِ العَظِيمَةِ وَالمَسَائِلِ العَظِيمَةِ، لأَنَّ هَذَا غَلَطٌ وَخَطَرٌ كَبِيرٌ.

وَأَنَا أَرَى كَثِيراً مِنَ الشَّبَابِ المُتَعَالِمِينَ تَجَرَّؤُوا عَلَى مَسَائِلِ العَقِيدَةِ، وَصَارُوا يَجْتَرُّونَ مِنْهَا أَشْيَاءَ وَيَتَكَلَّمُونَ فِيهَا، وَيَتَعَادَوْنَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَيَتَقَاطَعُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ إِذَا اخْتَلَفُوا.

يَا إِخْوَانُ مَا كَلَّفَكُمُ اللهُ بِهَذِهِ الأُمُورِ، عَلَيْكُمْ أَنْ تَسِيرُوا عَلَى مَنْهَجِ السَّلَفِ، وَتَقُولُوا بِقَوْلِهِمْ، كُتُبُ العَقَائِدِ مُحَرَّرَةٌ وَللهِ الحَمْدُ وَمَطْبُوعَةٌ وَمُصَحَّحَةٌ وَمَدْرُوسَةٌ وَمُنْضَبِطَةٌ، فَلا تُحْدِثُوا أَشْيَاءَ مِنْ عِنْدِكُمْ وَأَفْهَامًا مِنْ عِنْدِكُمْ، كُفِيتُمْ هَذَا الأَمْرَ.

قَوْلُهُ: **(فَإِنَّ الإِيمَانَ بِهَذَا وَاجِبٌ)** الإِيمَانُ بِأَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَاجِبٌ مُفْتَرَضٌ عَلَى العَبْدِ.

وَمِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ: الإِيمَانُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ عَلَى مَا يَلِيقُ بِجَلالِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَالَّذِي يَتَدَخَّلُ فِي أُمُورِ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ إِمَّا بِتَعْطِيلٍ، وَإِمَّا بِتَمْثِيلٍ، وَإِمَّا بِتَفْوِيضٍ، وَإِمَّا بِتَفْسِيرٍ مِنْ عِنْدِهِ؛ فَهَذَا لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ الإِيمَانَ الحَقِيقِيَّ، وَإِنَّمَا إِيمَانُهُ نَاقِصٌ.

قَوْلُهُ: **(فَمَنْ فَسَّرَ شَيْئًا مِنْ هَذَا بِهَوَاهُ وَرَدَّهُ فَهُوَ جَهْمِيٌّ)** الجَهْمِيَّةُ نَفَوا الأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ؛ لأَنَّهُم فَسَّرُوهَا بِمَا يَلِيقُ بِالمَخْلُوقِ، وَلا شَكَّ أَنَّ اللهَ يُنَزَّهُ عَمَّا يَلِيقُ بِالمَخْلُوقِ، فَهُمْ مَثَّلُوا أَوَّلاً، ثُمَّ عَطَّلُوا ثَانِيًا، بِنَاءً عَلَى تَمْثِيلِهِمْ، حَيْثُ لَمْ يَظْهَرْ لَهُمْ مِنْ هَذِهِ النُّصُوصِ إِلاَّ مَا يُشْبِهُ مَا فِي المَخْلُوقِينَ فَنَفَوْهَا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ.

أَمَّا لَوْ قَالُوا: هَذِهِ النُّصُوصُ فِيهَا صِفَاتٌ وَأَسْمَاءٌ للهِ حَقِيقَةً، لَكِنَّهَا تَلِيقُ بِهِ، فَلَيْسَتْ كَأَسْمَاءِ المَخْلُوقِينَ وَلا كَصِفَاتِ المَخْلُوقِينَ، لَوْ سَلَكُوا هَذَا المَنْهَجَ لَسَلِمُوا، وَإِنَّمَا أُتُوا مِنْ فَهْمِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ. وَالجَهْمِيَّةُ: نِسْبَةٌ إِلَى الجَهْمِ بنِ صَفْوَانَ التِّرْمِذِيِّ أَوِ السَّمَرْقَنْدِيِّ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ أَظْهَرَ القَوْلَ بِأَنَّ

القُرْآنَ مَخْلُوقٌ، وَقَالَ بِنَفْيِ الأَسْمَاءِ والصِّفَاتِ، وَقَالَ: إِنَّ الإِيمَانَ هُوَ مُجَرَّدُ المَعْرِفَةِ بِالقَلْبِ.. إِلَى آخِرِ أَقْوَالِهِ الضَّالَّةِ الكُفْرِيَّةِ. فَمَنْ يَعْتَقِدُ هَذَا الاعْتِقَادَ فَإِنَّهُ يُنْسَبُ إِلَيْهِ، فَيُقَالُ: هَذَا جَهْمِيٌّ نِسْبَةً إِلَى الجَهْمِ.

[٤٣] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَرَى رَبَّهُ فِي دَارِ الدُّنْيَا فَهُوَ كَافِرٌ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

الشَّرْحُ:

مَنْ زَعَمَ أَنَّ أَحَداً يَرَى اللهَ فِي الدُّنْيَا رُؤْيَةَ عَيْنٍ لا رُؤْيَا فِي المَنَامِ فَهُوَ كَافِرٌ؛ لأَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلا لا يُرَى فِي الدُّنْيَا، وَلِهَذَا لَمَّا سَأَلَ كَلِيمُ اللهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ قَالَ: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِيۚ﴾[الأعراف: ١٤٣] فَلا أَحَدَ يَرَى اللهَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، هَذَا مَحَلُّ إِجْمَاعٍ بَيْنَ العُلَمَاءِ، إِنَّمَا رُؤْيَةُ اللهِ فِي الآخِرَةِ، لأَنَّ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا ضِعَافٌ لا يَقْدِرُونَ عَلَى رُؤْيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِمَا فِيهِم مِنَ الضَّعْفِ، وَلِهَذَا لَمَّا تَجَلَّى اللهُ لِلجَبَلِ تَدَكْدَكَ وَصَارَ تُرَاباً فَكَيْفَ بِابْنِ آدَمَ؟! الَّذِي هُوَ مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ، أَمَّا فِي الآخِرَةِ فَإِنَّ اللهَ يُعْطِي المُؤْمِنِينَ قُوَّةً يَقْدِرُونَ بِهَا عَلَى رُؤْيَةِ اللهِ وَالتَّلَذُّذِ بِرُؤْيَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فَرُؤْيَةُ اللهِ فِي الآخِرَةِ ثَابِتَةٌ وَمُتَوَاتِرَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَلا أَحَدَ يَرَى اللهَ رُؤْيَةَ عِيَانٍ.

وَاخْتَلَفُوا: هَلْ رَآهُ النَّبِيُّ ﷺ لَيْلَةَ المِعْرَاجِ أَوْ لَمْ يَرَهُ؟ الصَّحِيحُ وَالَّذِي عَلَيْهِ الجَمَاهِيرُ: أَنَّ الرَّسُولَ لَمْ يَرَهُ بِعَيْنِهِ وَإِنَّمَا رَآهُ بِقَلْبِهِ وَبَصِيرَتِهِ؛ لأَنَّ أَحَداً لا يَرَى اللهَ فِي هذه الدُّنْيَا؛ لأَنَّ اللهَ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَرَاهُ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا، وَلِهَذَا سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ لَيْلَةَ المِعْرَاجِ؟ قَالَ: **«نُورٌ أَنَّى**

أَرَاهُ»[1] وَقَالَ: «حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[2].

❁ ❁ ❁

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(١/ ١٦١رقم١٧٨) عن أبي ذر ﷺ.
(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(١/ ١٦١رقم١٧٩) عن أبي موسى ﷺ.

[٤٤] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالفِكْرَةُ فِي اللهِ بِدْعَةٌ؛ لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «تَفَكَّرُوا فِي الخَلْقِ ولاَ تَفَكَّرُوا فِي اللهِ». فَإِنَّ الفِكْرَةَ فِي الرَّبِّ تَقْدَحُ الشَّكَّ فِي القَلْبِ.

الشَّرْحُ:

يَجِبُ عَلَى المُسْلِمِ أَنْ يَتَجَنَّبَ التَّفَكُّرَ فِي ذَاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالتَّفَكُّرَ فِي كَيْفِيَّةِ أَسْمَائِهِ وصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ؛ لأَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلا يَقُولُ: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠] عَلَيْكَ الإِيْمَانُ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَعْظِيمَ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى دُونَ أَنْ تُفَكِّرَ فِي ذَاتِهِ وكَيْفِيَّةِ أَسْمَائِهِ وصِفَاتِهِ.

قَوْلُهُ: **(لِقَوْلِ رسُولِ اللهِ ﷺ: «تَفَكَّرُوا فِي الخَلْقِ ولاَ تَفَكَّرُوا فِي اللهِ»**[1]) أَيْ: تَفَكَّرُوا فِي مَخْلُوقَاتِ اللهِ وَآيَاتِ اللهِ الكَوْنِيَّةِ تَدُلُّكُمْ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ:

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الإِلَهُ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

---

(١) رواه الطبراني في "الأوسط (٦/٢٥٠)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (رقم٩٢٧)عن عبدالله بن عمر

فأنتَ فكّرْ في الآياتِ الكونيّةِ مِنَ السّماءِ والأرضِ، والجبالِ والأحجارِ، والأشجارِ، والبحارِ، والمخلوقاتِ، لِتستدلَّ بها على عظمةِ الخالقِ سبحانَهُ وتعالى، وتفكّرْ في آياتِ اللهِ القرآنيّةِ. أمّا أنّكَ تتفكّرُ في ذاتِ اللهِ وكيفيّةِ أسمائِهِ وصفاتِهِ فأنتَ لنْ تُدرِكَ هذا ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾.

[٤٥] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ أَنَّ الهَوَامَّ وَالسِّبَاعَ وَالدَّوَابَّ نَحْوَ الذَّرِّ وَالذُّبَابِ وَالنَّمْلِ كُلُّهَا مَأْمُورَةٌ، وَلاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى.

الشَّرْحُ:

الكَوْنُ كُلُّهُ مُدَبَّرٌ وَمَأْمُورٌ أَمْراً كَوْنِيًّا، الشَّمْسُ تَسِيرُ، وَالقَمَرُ يَسِيرُ، وَالنُّجُومُ، وَالأَفْلاَكُ تَدُورُ، وَالدَّوَابُّ، وَالطُّيُورُ، كُلُّ شَيْءٍ يَمْشِي عَلَى نِظَامِهِ الَّذِي قَدَّرَهُ اللهُ لَهُ، ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] نُظُمُ الدُّنْيَا كُلُّهَا، وَمَا فِيهَا مِنْ كَائِنَاتٍ وَمَخْلُوقَاتٍ وَأَفْلاَكٍ وَسَمَوَاتٍ وَأَرْضٍ، كُلُّهَا تَجْرِي بِتَقْدِيرِ الخَالِقِ وَتَدْبِيرِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهِيَ تَأْتَمِرُ بِأَمْرِهِ الكَوْنِيِّ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] فَهِيَ تَسِيرُ وَتَمْضِي بِأَمْرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَتَدْبِيرِهِ، وَخَلْقِهِ وَإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ، خَاضِعَةٌ لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢].

قَوْلُهُ: **(وَلاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى)** أَيْ: بِإِذْنِ اللهِ الكَوْنِيِّ، وَهُوَ الأَمْرُ الكَوْنِيُّ، وَالمَشِيئَةُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَلاَ تَسِيرُ مِنْ هَوَاهَا أَوْ مِنْ تَدْبِيرِ أَحَدٍ غَيْرِ اللهِ جَلَّ وَعَلاَ، وَلِهَذَا لَمَّا قَالَ الجَبَّارُ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ قَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فَأَفْعَالُ اللهِ جَلَّ

وَعَلا لا أحَدَ يَسْتَطِيعُ أنْ يَعْمَلَهَا وَأنْ يُحَاكِيَهَا ؛ فَهُوَ الَّذِي يُدَبِّرُ الكَوْنَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى، وَيُنَظِّمُهُ عَلَى أَحْسَنِ نِظَامٍ وَأدَقِّ نِظَامٍ، لا يَتَغَيَّرُ وَلا يَتَبَدَّلُ، ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۢ ﴾ [الملك: ٣] فالشَّمْسُ وَالقَمَرُ وَالنُّجُومُ، وَالسَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ مُنْذُ خَلَقَهَا اللهُ إِلَى أن يَشَاءَ اللهُ نِهَايَةَ الدُّنْيَا، وَهِيَ تَسِيرُ حَسَبَ نِظَامٍ إلَهِيٍّ مُقَدَّرٍ لا يَتَغَيَّرُ وَلا يَتَبَدَّلُ.

[٤٦] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ عَلِمَ مَا كَانَ مِنْ أَوَّلِ الدَّهْرِ، وَمَا لَمْ يَكُنْ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ، أَحْصَاهُ وَعَدَّهُ عَداً، وَمَنْ قَالَ إِنَّهُ لاَ يَعْلَمُ إِلاَّ مَا كَانَ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِاللهِ الْعَظِيمِ.

الشَّرْحُ:

يَجِبُ إِثْبَاتُ العِلْمِ للهِ جَلَّ وَعَلا، وَإِحَاطَتُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَعِلْمُهُ لا بِدَايَةَ لَهُ وَلا نِهَايَةَ لَهُ، عِلْمُهُ كَسَائِرِ الصِّفَاتِ، ثَابِتٌ لَهُ فِي الأَزَلِ؛ فَكَمَا أَنَّ اللهَ لا بِدَايَةَ لَهُ فَكَذَلِكَ لا بِدَايَةَ لأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَكَمَا أَنَّ اللهَ لا نِهَايَةَ لَهُ فَكَذَلِكَ لا نِهَايَةَ لأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ جَلَّ وَعَلا؛ فَهُوَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ الأَوَّلُ بِلا بِدَايَةٍ، وَهُوَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ الآخِرُ بِلا نِهَايَةٍ، كَمَا قَالَ ﷺ: **«أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»**[1].

قَوْلُهُ: **(وَالإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ عَلِمَ مَا كَانَ مِنْ أَوَّلِ الدَّهْرِ، وَمَا لَمْ يَكُنْ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ، أَحْصَاهُ وَعَدَّهُ عَدًّا)** اللهُ عَلِمَ مَا كَانَ وَمَضَى فِي الزَّمَانِ السَّابِقِ، وَيَعْلَمُ مَا يَكُونُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَيَعْلَمُ مَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ، فَاللهُ مُحِيطٌ عِلْمُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(٤/ ٢٠٨٤رقم٢٧١٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

نُهُوا عَنْهُ ﴾ [الأنعام: ٢٨] عَلِمَ اللهُ أَنَّهُمْ لَوْ رُدُّوا إِلَى الدُّنْيَا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ، أَيْ: لَوْ رُدُّوا إِلَى الدُّنْيَا فَإِنَّهُمْ سَيَعُودُونَ لِلْكُفْرِ، مَعَ أَنَّ عَوْدَهُمْ إِلَى الدُّنْيَا لَنْ يَكُونَ أَبَداً.

قَوْلُهُ: **(وَمَنْ قَالَ إِنَّهُ لاَ يَعْلَمُ إِلاَّ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِاللهِ الْعَظِيمِ)** مَنْ قَصَرَ عِلْمَ اللهِ عَلَى الحَوَادِثِ الَّتِي تَقَعُ فَقَطْ ولا يَعْلَمُ مَا هُوَ كَائِنٌ قَبْلَ وُقُوعِهِ فَقَدْ كَفَرَ بِاللهِ؛ لأَنَّهُ جَحَدَ عِلْمَ اللهِ جَلَّ وَعَلا، وَجَحَدَ إِحَاطَةَ عِلْمِ اللهِ جَلَّ وَعَلا، وَأَثْبَتَ للهِ عِلْماً نَاقِصاً، فَهُوَ يَكْفُرُ بِهَذَا، فَعِلْمُ اللهِ لا يُحَدُّ، أَمَّا عِلْمُ المَخْلُوقِ فَإِنَّهُ مَحْدُودٌ مَهْمَا بَلَغَ ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦] وَأَمَرَ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ: ﴿ رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]، فَالَّذِي يَحُدُّ عِلْمَ اللهِ، وَيَقُولُ: يَعْلَمُ كَذَا، وَلا يَعْلَمُ كَذَا؛ هَذَا كَافِرٌ بِاللهِ لأَنَّهُ تَنَقَّصَهُ وَجَحَدَ عُمُومَ عِلْمِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ.

[٤٧] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: «ولاَ نِكَاحَ إِلاَّ بِوَلِيٍّ وَشَاهِدَيْ عَدْلٍ» وَصَدَاقٍ قَلَّ أَوْ كَثُرَ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلِيٌّ فَالسُّلْطَانُ وَلِيُّ مَنْ لاَ وَلِيَّ لَهُ.

الشَّرْحُ:

هَذِهِ مَسْأَلَةٌ فِقْهِيَّةٌ، وَهِيَ: بَيَانُ شُرُوطِ صِحَّةِ النِّكَاحِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ: وَمِنْهَا أَنْ يَكُونَ بِوَلِيٍّ، وَأَنَّ الْمَرْأَةَ لا تَعْقِدُ لِنَفْسِهَا، وَمِنْ شُرُوطِهِ: الإِشْهَادُ عَلَى الْعَقْدِ؛ فَلا يَعْقِدُ عَقْداً سِرِّيًّا لَيْسَ عَلَيْهِ شُهُودٌ.

فَمِنْ مَذْهَبِ الْمُسْلِمِينَ إِعْلانُ النِّكَاحِ. وَمَسْأَلَةُ الْوَلِيِّ مَحَلُّ خِلافٍ، الْجُمْهُورُ: عَلَى أَنَّهُ لابُدَّ مِنْ وَلِيٍّ، وَعِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ: أَنَّهُ لا بَأْسَ أَنْ تُزَوِّجَ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا بِدُونِ وَلِيٍّ، لَكِنَّهُ مَذْهَبٌ مَرْجُوحٌ، يُخَالِفُ الدَّلِيلَ، لِقَوْلِهِ ﷺ: **«لاَ نِكَاحَ إِلاَّ بِوَلِيٍّ وَشَاهِدَيْ عَدْلٍ»**[(١)]، وَقَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ الآخَرِ: **«لا تُزَوِّجُ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ، وَلا تُزَوِّجُ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا، فَإِنَّ الزَّانِيَةَ هِيَ الَّتِي تُزَوِّجُ نَفْسَهَا»**[(٢)]، وَ**«أَيُّمَا امْرَأَةٍ نَكَحَتْ بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهَا؛ فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ بَاطِلٌ بَاطِلٌ»**[(٣)]، حَتَّى وَلَو قَالَ بِصِحَّتِهِ مَنْ قَالَ مِنَ الْفُقَهَاءِ عَنِ اجْتِهَادٍ، فَإِنَّ الْعِبْرَةَ بِالدَّلِيلِ، وَلِهَذَا نَصَّ الْمُؤَلِّفُ عَلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مَعَ أَنَّهَا فِقْهِيَّةٌ؛

---

(١) رَوَاهُ الإمام أحمد في المسند(٤ / ٣٩٤ ، ٤١٣)، وأبو داود (رقم٢٠٨٥)، والترمذي (١ / ٢٠٣ - ٢٠٤)، والدارمي (٢ / ١٣٧) والطحاوي في شرح معاني الآثار(٢ / ٥) عن أبي موسى الأشعري.

(٢) رَوَاهُ ابن ماجه(١ / ٦٠٦رقم١٨٨٢)، وَالدَّارَقُطْنِيّ في سننه(٣/٢٢٧)، والبيهقي في السنن الكبرى(٧/١١٠) عن أبي هريرة ﷺ وَصَحَّحَهُ ابنُ الملقن في البَدر المنير(٧/٥٦٣) عَلَى شرط مُسْلِم.

(٣)رَوَاهُ الإمام أحمد في المسند(٦/٤٧)، وأبو داود (رقم٢٠٨٣)، والترمذي(١ / ٢٠٤)، والدارمي(٢ / ١٣٧) والطحاوي في شرح معاني الآثار(٢ / ٤) عن عائشة.

لِيُبَيِّنَ أَنَّ هَذَا هُوَ المَذْهَبُ الصَّحِيحُ، وَهُوَ المَذْهَبُ الَّذِي عَلَيْهِ جُمْهُورُ أَهْلِ العِلْمِ الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ، وَلِأَجْلِ أَنْ تَنْضَبِطَ أَنْكِحَةُ المُسْلِمِينَ، وَلَا تَدْخُلُهَا السِّرِّيَّةُ وَالاحْتِيَالَاتُ، بَلْ تَكُونُ وَاضِحَةً عَلَانِيَةً، فَإِنَّ الأَنْكِحَةَ مِنْ أَهَمِّ الأُمُورِ؛ لِأَنَّهَا يَنْبَنِي عَلَيْهَا أُسَرٌ، وَيَنْبَنِي عَلَيْهَا ذَرَارِي، وَيَنْبَنِي عَلَيْهَا نَسَبٌ، وَيَنْبَنِي عَلَيْهَا أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ اسْتِبَاحَةُ الفُرُوجِ؛ فَلَابُدَّ مِنَ الضَّوَابِطِ الشَّرْعِيَّةِ لِعَقْدِ النِّكَاحِ الوَارِدَةِ فِي الأَحَادِيثِ وَفِي الآيَاتِ.

قَوْلُهُ: **(وَصَدَاقٍ قَلَّ أَوْ كَثُرَ)** أَمَّا الصَّدَاقُ فَلَيْسَ شَرْطًا لَكِنَّهُ وَاجِبٌ، وَلِهَذَا لَوْ عَقَدَ بِدُونِ صَدَاقٍ صَحَّ العَقْدُ، وَلَكِنْ يُفْرَضُ لَهَا صَدَاقُ مِثْلِهَا، لِأَنَّ هَذَا حَقٌّ لَهَا.

قَوْلُهُ: **(وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلِيٌّ فَالسُّلْطَانُ وَلِيُّ مَنْ لَا وَلِيَّ لَهُ)** لَابُدَّ مِنَ الوَلِيِّ، وَالوَلِيُّ: هُوَ عَصَبَةُ الزَّوْجَةِ الأَقْرَبُ فَالأَقْرَبُ مِنْهُم أَبُوهَا ثُمَّ جَدُّهَا وَإِنْ عَلَا، ثُمَّ ابْنُهَا وَابْنُ ابْنِهَا وَإِنْ نَزَلَ، ثُمَّ أَخُوهَا الشَّقِيقُ، ثُمَّ أَخُوهَا لِلأَبِ، ثُمَّ عَمُّهَا الشَّقِيقُ، ثُمَّ عَمُّهَا لِأَبٍ، ثُمَّ ابْنُ عَمِّهَا الشَّقِيقُ، ثُمَّ ابْنُ عَمِّهَا لِأَبٍ. هَذَا هُوَ وَلِيُّ المَرْأَةِ، فَإِذَا قُدِّرَ أَنَّ امْرَأَةً لَيْسَ لَهَا وَلِيٌّ مِنْ عَصَبَتِهَا فَهَذِهِ يَتَوَلَّاهَا السُّلْطَانُ، أَوْ مَنْ يَنُوبُ عَنِ السُّلْطَانِ وَهُوَ القَاضِي فِي المَحْكَمَةِ، فَلَابُدَّ أَنْ يَكُونَ لِلنِّكَاحِ ضَوَابِطُ وَلَا يَكُونُ فَوْضَى بِحَسَبِ أَهْوَاءِ النَّاسِ وَشَهَوَاتِهِمْ.

[٤٨] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَإِذَا طَلَّقَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ ثَلاثاً فَقَدْ حَرُمَتْ عَلَيْهِ، لاَ تَحِلُّ لَهُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: (**وَإِذَا طَلَّقَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ ثَلاثاً فَقَدْ حَرُمَتْ عَلَيْهِ**) إِذَا طَلَّقَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ طَلاقاً ثَلاثاً إِنْ كَانَتْ مُتَفَرِّقَةً فَهِيَ تَحْرُمُ عَلَيْهِ بِالإِجْمَاعِ، كَمَا لَوْ قَالَ: أَنْتِ طَالِقٌ، ثُمَّ بَعْدَهَا قَالَ: أَنْتِ طَالِقٌ، ثم قَالَ: أَنْتِ طَالِقٌ، أَوْ قَالَ: أَنْتَ طَالِقٌ، ثُمَّ طَالِقٌ، أَوْ فطَالِقٌ - بِالفَاءِ- ، لأَنَّ هَذَا تَرْتِيبٌ فَإِنَّهَا تُطَلَّقُ وَتَبِينُ مِنْهُ، إِذَا بَلَغَتِ الطَّلْقَاتُ ثَلاثاً، وَتَحْرُمُ عَلَيْهِ، حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ **ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍ** ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ **فَإِن طَلَّقَهَا** ﴾ يَعْنِي الثَّالِثَةَ ﴿ **فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا** ﴾ يَعْنِي الزَّوْجَ الثَّانِي ﴿ **فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ** ﴾ [البقرة: ٢٢٩-٢٣٠] هَذَا إِذَا كَانَتِ الطَّلْقَاتُ مُتَفَرِّقَةً وَلَو فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ، أَمَّا لَوْ قَالَ: أَنْتِ طَالِقٌ، أَنْتَ طَالِقٌ، أَنْتَ طَالِقٌ، بِدُونِ حَرْفِ العَطْفِ؛ نَظَرْنَا: فَإِنْ كَانَ يُرِيدُ التَّأْكِيدَ بِالتَّكْرَارِ فَإِنَّهَا طَلْقَةٌ وَاحِدَةٌ، أَمَّا إِنْ كَانَ يُرِيدُ التَّأْسِيسَ فَإِنَّهَا تَبِينُ مِنْهُ إِذَا بَلَغَتِ الثَّلاثَ الطَّلْقَاتِ.

أَمَّا إِذَا كَانَتْ الطَّلْقَاتُ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ كَأَنْ قَالَ: أَنْتِ طَالِقٌ بِالثَّلاثِ، أَوْ أَنْتِ طَالِقٌ ثَلاثاً ، فَالجُمْهُورُ: عَلَى أَنَّهُ يَقَعُ ثَلاثاً وَتَبِينُ بِهِ، وَتَحْرُمُ عَلَيْهِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ. وَهُوَ مَذْهَبُ الأَئِمَّةِ الأَرْبَعَةِ.

وَفِي قَوْلٍ لِبَعْضِ المُحَقِّقِينَ أَنَّ الثَّلاثَ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ تَكُونُ طَلْقَةً وَاحِدَةً.
وَالمَسْأَلَةُ فِيهَا خِلافٌ طَوِيلٌ، وَلَكِنْ حَسْبُنَا أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ الطَّلاقَ الثَّلاثَ يُحَرِّمُهَا، لا عَلَى التَّأْبِيدِ، وَإِنَّمَا يُحَرِّمُهَا إِلَى أَنْ تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ، ثُمَّ يُطَلِّقَهَا، أَمَّا الدُّخُولُ فِي الخِلافِيَّاتِ فَهَذَا لا يَعْنِينَا الآنَ.

وَغَرَضُ المُؤَلِّفِ مِنْ إِدْخَالِ هَذِهِ المَسَائِلِ فِي العَقِيدَةِ وَاللهُ أَعْلَمُ: أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ أَمْرَ النِّكَاحِ أَمْرٌ مُهِمٌّ يَجِبُ العِنَايَةُ بِهِ، حَسَبَ الضَّوَابِطِ الشَّرْعِيَّةِ لَهُ، فَلا يُتَسَاهَلُ فِيهِ وَفِي إِجْرَاءَاتِهِ، ولأن الكتابَ اسمهُ "شَرْحُ السُّنَّةِ" أَيْ: بيانُ السُّنَّةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ومِنْ ذَلِكَ مَسَائِلُ النِّكَاحِ.

(٣٨) قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَلاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَيَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاثٍ: زِناً بَعْدَ إِحْصَانٍ، أَوْ مُرْتَدٌّ بَعْدَ إِيمَانٍ، أَوْ قَتَلَ نَفْساً مُؤْمِنَةً بِغَيْرِ حَقٍّ فَيُقْتَلُ بِهِ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَدَمُ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ أَبَداً حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ.

الشَّرْحُ:

جَاءَ بِمَسْأَلَةِ قَتْلِ الْمُسْلِمِ بَعْدَ مَسْأَلَةِ النِّكَاحِ؛ لأَنَّ الإِسْلامَ جَاءَ بِحِفْظِ الأَعْرَاضِ وَبِحِفْظِ الدِّمَاءِ، وَبِحِفْظِ الأَمْوَالِ، قَالَ ﷺ: **«إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ»**[1]، وقال ﷺ: **«كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ»**[2]. فَلَمَّا تَكَلَّمَ عَنِ الأَعْرَاضِ فِي الْجُمَلِ السَّابِقَةِ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِالنِّكَاحِ وَالطَّلاقِ؛ انْتَقَلَ إِلَى مَسْأَلَةِ الدِّمَاءِ.

فَالْمُسْلِمُ إِذَا شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ حَرُمَ دَمُهُ وَمَالُهُ، وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: **«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّ الإِسْلامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ تَعَالَى»**[3] فَمَنْ أَعْلَنَ الإِسْلامَ وَنَطَقَ بِالشَّهَادَتَيْنِ فَإِنَّنَا نَقْبَلُ مِنْهُ

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(٣٠/١رقم٦٧)، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(١٣٠٥/٣رقم ١٦٧٩) من حَدِيثِ أَبِي بَكْرَةَ ﷺ.

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(١٩٨٦/٤رقم٢٥٦٤) عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ.

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(١٧/١رقم٢٥)، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(٥٣/١رقم٢٢) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِاللهِ بنِ عُمَرَ ﷺ.

ذلِكَ، وتَعتَبِرُهُ مُسلِماً، وتُجرِي علَيهِ أحكامَ المُسلِمِينَ، فإنْ كانَ في قلبِهِ نِفاقٌ فإنَّما هذا بَينَهُ وبَينَ اللهِ، اللهُ يُحاسِبُهُ، والنَّبيُّ ﷺ قَبِلَ إسلامَ المُنافِقِينَ، وأجرَى علَيهِم الأحكامَ الظَّاهِرَةَ.

ولَكِنِ مَنِ ارْتكَبَ ناقِضاً مِنْ نَواقِضِ الإسلامِ فحِينَئذٍ يُحكَمُ علَيهِ بالرِّدَّةِ، فإنْ تابَ وإلا قُتِلَ، حِمايَةً لِلدِّينِ- **هَذَا أَوَّلُ مُبِيحَاتِ دَمِ المُسْلِمِ.**

وَالثَّانِي مِنْ مُبِيحَاتِ دَمِ المُسْلِمِ: القِصاصُ النَّفْسُ بالنَّفْسِ قالَ تَعالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [البقرة:١٧٨-١٧٩] القِصاصُ يُسَبِّبُ الحَياةَ-مَعَ أنَّهُ قَتلٌ-؛ لأنَّ القاتِلَ إذا عَرَفَ أنَّهُ سيُقتَلُ أمسَكَ عَنِ القَتلِ، والنَّاسُ إذا رأَوا القاتِلَ يُقتَلُ أمسَكُوا عَنِ القَتلِ فتَحقَنُ بذلِكَ الدِّماءُ.

فالقِصاصُ سَبَبٌ لِبَقاءِ الحَياةِ، وإنْ كانَ يُقتَلُ فيهِ المُقتَصُّ مِنهُ، فهُوَ قَتلٌ يُؤدِّي إلَى حَياةِ البَقِيَّةِ مِنَ المُجتَمَعِ، ويَقِلُّ التَّعدِّي علَى الدِّماءِ، أمَّا أنْ يُترَكَ القاتِلُ ويُقالُ: هذا يَتنافَى مَعَ حُقُوقِ الإنسانِ، ويُترَكُ ولا يُقتَلُ؛ فهَذا يُسَبِّبُ سَفكَ الدِّماءِ، واختِلالَ الأمنِ، وترويعَ الآمِنِينَ، يُسَبِّبُ مَفاسِدَ كَثِيرَةً، ويَكثُرُ القَتلُ وتُستَشاطُ الدِّماءُ، حتَّى في الجاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ:

القَتْلُ أَنفَى لِلقَتْلِ. قَتْلُ المُجْرِمِ أَنفَى لِلقَتْلِ فِي المُسْتَقْبَلِ، وَفِي هَذَا الآيَة: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾.

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ: القِصَاصُ يَتَنَافَى مَعَ حُقُوقِ الإِنْسَانِ. نَقُولُ لَهُم: وَالمَجْنِيُّ عَلَيْهِ أَلَيْسَ إِنْسَانًا؟ فَفِي الاقْتِصَاصِ لَهُ حِمَايَةٌ لِحَقِّهِ.

وَالثَّالِثُ مِنَ الَّذِينَ يُبَاحُ دَمُهُمْ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، والثَّيِّبُ: هُوَ الَّذِي وَطِئَ امْرَأَتَهُ فِي نِكَاحٍ صَحِيحٍ، . فَإِذَا زَنَا فَإِنَّهُ يُرْجَمُ بِالحِجَارَةِ حَتَّى يَمُوتَ، وَيَحِلُّ دَمُهُ بِذَلِكَ.

فَهَذِهِ هِيَ الأُمُورُ الَّتِي يُسْتَبَاحُ بِهَا دَمُ المُسْلِمِ: إِمَّا القِصَاصُ، النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَإِمَّا زَانٍ بَعْدَ الإِحْصَانِ، وَإِمَّا المُرْتَدُّ، الَّذِي يَرْتَكِبُ نَاقِضاً مِنْ نَوَاقِضِ الإِسْلَامِ، قَالَ ﷺ: **«مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»**[(1)]، وَفِي هَذَا الحَدِيثِ: **«وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ المُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»**[(2)].

وَفِي هَذَا رد عَلَى الَّذِينَ ينكرون حَدَّ الردة مستدلين بقوله تَعَالَى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة:٢٥٦] وَهَذَا الاسْتِدْلَالُ خَطَأٌ لأَنَّ قَتْلَ المُرْتَدِّ لَيْسَ الغَرَضُ مِنْهُ الإِكْرَاهَ عَلَى الدِّينِ، وَإِنَّمَا الغَرَضُ مِنْهُ حِمَايَةُ الدِّينِ مِنَ التَّلَاعُبِ مِمَّنْ دَخَلَ فِيهِ بِاخْتِيَارِهِ، ثُمَّ تَرَكَهُ بَعْدَمَا شَهِدَ أَنَّ الدِّينَ حَقٌّ.

---

(١) رَوَى البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(١٠٩٨/٣رقم٢٨٥٤، ٢٥٣٧/٦رقم٦٥٢٤) عن عِكْرِمَةَ قَالَ: أُتِيَ عَلِيٌّ ﷺ بِزَنَادِقَةٍ، فَأَحْرَقَهُمْ. فَبَلَغَ ذَلِكَ ابنَ عَبَّاسٍ فقال: «لو كُنْتُ أَنَا لَمْ أُحْرِقْهُمْ لِنَهْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: **«لا تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللَّهِ»**، وَلَقَتَلْتُهُمْ؛ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: **«مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»**

(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ في صَحِيحِهِ(٢٥٢١/٦رقم٦٤٨٤)، وَمُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ(١٣٠٢/٣رقم١٦٧٦) عن عبدالله بن مسعود ﷺ.

قَوْلُهُ: **(وَلا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ)** المُسْلِمُ: هُوَ الَّذِي يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ. لَكِنْ لابُدَّ مَعَ الشَّهَادَتَيْنِ مِنَ العَمَلِ: بِأَنْ يُقِيمَ الصَّلاةَ، وَيُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَيَصُومَ رَمَضَانَ، وَيَحُجَّ البَيْتَ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً، لابُدَّ مِنَ العَمَلِ.

قَوْلُهُ: **(وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَدَمُ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ أَبَداً حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ)** دَمُ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ، وَلا يَأْتِي وَقْتٌ يُبَاحُ فِيهِ دَمُ المُسْلِمِ أَبَداً، اللَّهُمَّ إلا إِذَا اعْتَدَى أَوْ صَالَ عَلَى النَّاسِ فِي بُيُوتِهِمْ أَوْ قَطَعَ الطَّرِيقَ أَوْ بَغَى عَلَى وَلِيِّ الأَمْرِ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ فَهَذَا يُقْتَلُ دَفْعاً لِشَرِّهِ، إِذَا لَمْ يَنْدَفِعْ شَرُّهُ إِلاَّ بِالقَتْلِ.

[٥٠] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَكُلُّ شَيءٍ مِمَّا أَوْجَبَ اللهُ عَلَيهِ الفَنَاءَ يَفْنَى، إِلاَّ الجَنَّةَ والنَّارَ وَالعَرْشَ وَالكُرْسِيَّ وَالصُّورَ وَالقَلَمَ واللَّوْحَ، لَيْسَ يَفْنَى شَيءٌ مِنْ هَذَا أَبداً، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ الخَلْقَ عَلَى مَا أَمَاتَهُم عَلَيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَيُحَاسِبُهمْ بِمَا شَاءَ، فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ، وَيَقُولُ لِسَائِرِ الخَلْقِ مِمَّنْ لَمْ يُخْلَقْ لِلبَقَاءِ: كُونُوا تُرَاباً.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: **(وَكُلُّ شَيءٍ مِمَّا أَوْجَبَ اللهُ عَلَيهِ الفَنَاءَ يَفْنَى)** قَالَ جَلَّ وَعَلا: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرَّحمَن: ٢٦- ٢٧]، كُلُّ الخَلْقِ يَفْنَوْنَ وَلا يَبْقَى إِلاَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى، وَفِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾ [الزمر: ٦٨] مَعْنَى ﴿ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾ قَالُوا: مَعْنَاهُ: المَلائِكَةُ أَوِ الحُورُ فِي الجَنَّةِ[١]، واللهُ أَعْلَمُ.

فَكُلُّ الخَلْقِ يَمُوتُونَ ثُمَّ يُبْعَثُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٥- ١٦] فَيَتَذَكَّرُ المُسْلِمُ المَوْتَ وَيَسْتَعِدُّ لَهُ بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَيَسْأَلُ اللهَ حُسْنَ الخَاتِمَةِ،

---

(١) ذَكَرَهُ البغوي في تفسيره(٣/٤٣٢) عن الضحاك رَحِمَهُ اللهُ.

وَيَتُوبُ مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَهَذِهِ فَائِدَةُ تَذَكُّرِ المَوْتِ، إِذَا تَذَكَّرَ المَوْتَ فَإِنَّهُ يَسْتَعِدُّ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: **«تَذَكَّرُوا هَادِمَ اللَّذَّاتِ: المَوْتَ؛ فَإِنَّكُم لا تَذْكُرُونَهُ فِي كَثِيرٍ إِلاَّ قَلَّلَهُ، وَلا فِي قَلِيلٍ إِلاَّ كَثَّرَهُ»**[1] فَلا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَغْفُلَ عَنِ المَوْتِ، بَلْ يَتَذَكَّرُ المَوْتَ دَائِماً وَأَبَداً، وَيَسْتَعِدُّ لَهُ.

وَيُؤْمِنُ بِالبَعْثِ، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ العَالَمِينَ ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨]، تَعُودُ إِلَيْهِمُ الأَرْوَاحُ، بَعْدَ إِعَادَةِ أَجْسَادِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ، ثُمَّ يُسَاقُونَ إِلَى المَحْشَرِ، إِلَى آخِرِ مَا يُلاقُونَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الأَخْطَارِ الَّتِي يَمُرُّونَ بِهَا، إِلَى أَنْ يَسْتَقِرُّوا بَعْدَ ذَلِكَ إِمَّا فِي الجَنَّةِ، وَإِمَّا فِي النَّارِ، فَإِنَّ الجَنَّةَ وَالنَّارَ هُمَا دَارُ القَرَارِ.

قَوْلُهُ: **(إِلاَّ الجَنَّةَ وَالنَّارَ وَالعَرْشَ وَالكُرْسِيَّ)** فَإِنَّهُمَا لا تَفْنَيَانِ وَلا تَبِيدَانِ، خَلَقَهُمَا اللهُ لِلْبَقَاءِ. وَأَمَّا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ فَإِنَّهَا تُبَدَّلُ، تَتَفَطَّرُ السَّمَوَاتُ، وَتَتَشَقَّقُ الأَرْضُ، وَيَتَغَيَّرُ هَذَا العَالَمُ: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، أَمَّا العَرْشُ فَإِنَّهُ لا يَتَغَيَّرُ، وَالجَنَّةُ وَالنَّارُ لا تَفْنَيَانِ وَلا يَتَغَيَّرَانِ.

(وَالكُرْسِيُّ) وَهُوَ دُونَ العَرْشِ، وَالعَرْشُ أَكْبَرُ مِنْهُ، وَالكُرْسِيُّ وَسِعَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، وَالعَرْشُ أَوْسَعُ مِنَ الكُرْسِيِّ.

---

(١) رواه الإمام أحمد(٢٩٢/٢)، والترمذي(٥٥٣/٤)، وابن ماجه(١٤٢٢/٢)، والنسائي(٤/٤) وابن حبان في صحيحه(٢٥٩/٧) عن أبي هريرة.

قَوْلُهُ: **(وَالصُّورُ)** الصُّورُ الَّذِي هُوَ القَرْنُ الَّذِي مَعَ المَلَكِ إِسْرَافِيلَ، يَنْفُخُ فِيهِ بِالأَرْوَاحِ، فَتَطِيرُ الأَرْوَاحُ إِلَى أَجْسَادِهَا فَتَحْيَى بِإِذْنِ اللهِ ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[الزمر: ٦٨].

قَوْلُهُ: **(وَالقَلَمَ وَاللَّوْحَ)** اللَّوْحُ المَحْفُوظُ وَالقَلَمُ الَّذِي كَتَبَ اللهُ بِهِ المَقَادِيرَ.

قَوْلُهُ: **(لَيْسَ يَفْنَى شَيْءٌ مِنْ هَذَا أَبَداً)** هَذِهِ الأَشْيَاءُ الَّتِي خَلَقَهَا اللهُ لِلْبَقَاءِ، العَرْشُ، وَالكُرْسِيُّ[1]، وَاللَّوْحُ، وَالقَلَمُ، وَالجَنَّةُ، وَالنَّارُ، وَالأَرْوَاحُ إِذَا خُلِقَتْ فَإِنَّهَا لا تَفْنَى.

قَوْلُهُ: **(ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ الخَلْقَ عَلَى مَا أَمَاتَهُمْ عَلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ)** أَيْ: عَلَى مَا أَمَاتَهُمْ عَلَيْهِ مِنْ كُفْرٍ أَوْ إِيمَانٍ، كلٌّ يُبْعَثُ عَلَى عَمَلِهِ.

وَالإِيمَانُ بِالبَعْثِ هُوَ أَحَدُ أَرْكَانِ الإِيمَانِ السِّتَّةِ، وَقَدْ جَاءَ الإِيمَانُ بِاليَوْمِ الآخِرِ مَقْرُوناً بِالإِيمَانِ بِاللهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الآيَاتِ.

وَالبَعْثُ هُوَ: إِعَادَةُ النَّاسِ أَحْيَاءً بَعْدَ مَوْتِهِمْ، فِي عَالَمِ الآخِرَةِ. يَحْيَوْنَ فِي الدُّنْيَا لأَجْلِ العَمَلِ، ثُمَّ يَمُوتُونَ وَيُدْفَنُونَ فِي الأَرْضِ وَيَبْقَوْنَ فِيهَا إِلَى مَا شَاءَ اللهُ فِي مَحَطَّةِ انْتِظَارٍ وَهِيَ دَارُ البَرْزَخِ، الفَاصِلَةُ بَيْنَ الدُّنْيَا

(١) روى ابن أبي حاتم في تفسيره(٩/٣٠٢٨) عن مقاتل في تفسير قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[القصص: ٨٨] «يعني الحيوان خاصة من أهل السموات والملائكة ومن في الارض وجميع الحيوان، ثم تهلك السماء والارض بعد ذلك، لا تُهْلَكُ الجَنَّةُ والنَّارُ وَمَا فِيهَا وَلا العَرْشُ وَلا الكُرْسِيُّ».

والآخرة، ثُمَّ يُبْعثُون مِن هَذِهِ القُبُورِ، ويَقُومُونَ مِنْهَا أحياءً كما كانُوا، لا يَضيعُ مِنْ خَلْقِهِمْ شيءٌ، ثُمَّ تُعادُ الأرْواحُ في أجْسادِهِمْ، ثُمَّ يُساقُونَ إلى المَحْشَرِ، لِلْجزاءِ على أعْمَالِهِمْ الَّتِي عَمِلُوهَا في الدُّنْيا مِنْ خَيْرٍ أوْ شَرٍّ، ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤]، فَلا أحَدَ يُجْزَى خيراً بِعَمَلِ غَيْرِهِ، أوْ يُعاقَبُ بِعَمَلِ غَيْرِهِ، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، كلٌّ يُجازَى بِعَمَلِهِ خَيْرٍ أوْ شَرٍّ، وَهَذا عَدْلٌ مِنَ اللهِ سُبْحانَهُ وتَعالَى، لا يَتْرُكُهُمْ بِدُونِ جَزاءٍ، وَقَدْ أتْعَبُوا أنْفُسَهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيا بِالأعْمَالِ وَالعِبادَةِ إِنْ كَانُوا مِنَ الصَّالِحِينَ، أَوْ أتْعَبُوا أنْفُسَهُمْ - والعِياذُ بِاللهِ- بِالكُفْرِ وَالشِّرْكِ وَالفِسْقِ وَالإفْسادِ فِي الأرْضِ إِنْ كَانُوا مِنَ الكَافِرِينَ، لا يَتْرُكُهُمْ بِدُونِ جَزاءٍ، هَذا عَدْلُ الله جَلَّ وَعَلا. فَهَذا مَعْنَى قَوْلِهِ هُنَا: أَنَّ كُلَّ أحَدٍ يُجْزَى بِعَمَلِهِ، وَإِذا كَانَ كَذلِكَ فَيَجِبُ عَلَى العَبْدِ أنْ يَنْظُرَ فِي عَمَلِهِ، مَا دَامَ عَلَى قَيْدِ الحَيَاةِ: فَمَا كَانَ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّهُ يَتَزَوَّدُ مِنْهُ، وَمَا كَانَ شَرًّا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ وَيَتَخَلَّصُ مِنْهُ؛ مَا دَامَ ذَلِكَ مُمْكِناً، قَالَ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨] حَاسِبْ نَفْسَكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيا قَبْلَ الحِسابِ، حَاسِبْ نَفْسَكَ عَلَى أعْمَالِكَ وَانْظُرْ فِيهَا فَأَصْلِحْ مَا فَسَدَ مِنْهَا، وَزِدْ عَلَى مَا كَانَ فِيهَا مِنْ خَيْرٍ، وَتَنَبَّهْ مِنَ الغَفْلَةِ، هَذا هُوَ المَطْلُوبُ مِنَ العَاقِلِ.

وَلِهَذا قَالَ ﷺ: **«الكَيِّسُ»** يَعْنِي العَاقِلَ **«مَنْ دَانَ نَفْسَهُ»** يَعْنِي حَاسَبَهَا، **«وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ»** هَذا هُوَ العَاقِلُ **«وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا»** فِي

هَذِهِ الدُّنْيَا، «**وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الأَمَانِيَّ**»[1] يُرِيدُ الجَنَّةَ وَيُرِيدُ النَّجَاةَ وَهُوَ لَمْ يَعْمَلْ شَيْئاً، فَهَذَا عَاجِزٌ -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- العَجْزَ المَذْمُومَ، وَلَيْسَ عَاجِزاً العَجْزَ الحِسِّيَّ الَّذِي لا يَقْدِرُ أَوْ لا يَسْتَطِيعُ معهُ العَمَلَ، هَذَا لا يُؤَاخَذُ ﴿ **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** ﴾[البقرة: ٢٨٦]، لَكِنْ هَذَا قَادِرٌ مُسْتَطِيعٌ، لَكِنَّهُ عَجِزَ عَجْزَ الكَسَلِ، وَعَدَمَ المُبَالاةِ. هَذَا هُوَ العَاجِزُ، وَمَعَ هَذَا يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ فِي الآخِرَةِ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ بِدُونِ عَمَلٍ، لا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ بِدُونِ عَمَلٍ.

قَوْلُهُ: (**وَيُحَاسِبُهُمْ بِمَا شَاءَ، فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ**) يُحَاسِبُهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَالحِسَابُ: هُوَ المُنَاقَشَةُ عَلَى الأَعْمَالِ.

فَالنَّاسُ عَلَى أَقْسَامٍ:

- مِنَ المُؤْمِنِينَ مَنْ لا يُحَاسَبُ فَيَدْخُلُ الجَنَّةَ بِلا حِسَابٍ وَلا عَذَابٍ.
- وَمِنْهُمْ: مَنْ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً، وَهُوَ العَرْضُ.
- وَمِنْهُمْ مَنْ يُنَاقَشُ الحِسَابَ. و«**مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ**»[2] وَالعِيَاذُ بِاللهِ.
- والكَافِرُ لا يُحَاسَبُ حِسَابَ مُوَازَنَةٍ، وَإِنَّمَا يُحَاسَبُ حِسَابَ تَقْرِيرٍ، بِأَنْ يُطْلَعَ عَلَى أَعْمَالِهِ وَكُفْرِهِ وَشِرْكِهِ لِيُقِرَّ بِذَلِكَ وَلا يَسَعَهُ الإِنْكَارُ أَبداً، ثُمَّ يُدْفَعُ بِهِ إِلَى النَّارِ.

---

(١) رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي المُسْنَدِ(١٢٤/٤)، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ(رقم٢٤٥٩)، وابن مَاجَة في سننه(رقم٤٢٦٠)، وَالحَاكِم في المُسْتَدْرَكِ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ(١٢٥/١، ٢٨٠/٤)، والبغوي في شرح السنة(رقم٤١١٦، ٤١١٧)، وَغَيْرُهُمْ من حديث شَدَّادِ بن أوسٍ ﷺ، والحديث صَحَّحَهُ الحَاكِم، وحسنه التِّرْمِذِيّ والبغوي.

(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(رقم١٠٣)، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(٢٨٧٦) عن عائشة.

(فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ) وَهَذَا مَأْخُوذٌ مِنَ الآيَةِ: ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧]، ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ ﴾ وَهُمْ أَهْلُ الإِيمَانِ، ﴿ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ وَهُمْ أَهْلُ الكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ.

قَوْلُهُ: **(وَيَقُولُ لِسَائِرِ الخَلْقِ مِمَّنْ لَمْ يُخْلَقْ لِلبَقَاءِ: كُونُوا تُرَابًا)** يَبْعَثُ اللهُ الخَلَائِقَ يَوْمَ القِيَامَةِ الآدَمِيِّينَ وَالبَهَائِمَ وَالطُّيُورَ ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ [التكوير: ٥] تُحْشَرُ الخَلَائِقُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ أَجْلِ إِقَامَةِ العَدْلِ بَيْنَهَا، حَتَّى يُقْتَصَّ لِبَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ، البَهَائِمُ يُقْتَصُّ لِبَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ يُقَادُ لِلشَّاةِ الجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ القَرْنَاءِ كَمَا فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ[1]، ثُمَّ إِذَا اقْتُصَّ لِبَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ يَقُولُ اللهُ جَلَّ وَعَلَا لَهَا: كُونِي تُرَابًا؛ لِأَنَّهَا لَمْ تُبْعَثْ لِلْبَقَاءِ فِي الآخِرَةِ، وَإِنَّمَا بُعِثَتْ لِلْجَزَاءِ فَقَطْ، وَهَذَا مِنْ عَدْلِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا. عِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ الكَافِرُ: ﴿ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا ﴾ [النبأ: ٤٠]، إِذَا قِيلَ لِلْحَيَوَانَاتِ: كُونِي تُرَابًا يَتَمَنَّى الكَافِرُ أَنْ يَكُونَ مِثْلَهَا.

❀ ❀ ❀

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (رقم ٢٥٨٢) عن أبي هريرة.

[٥١] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيمَانُ بِالقِصَاصِ يَوْمَ القِيَامَةِ بَيْنَ الخَلْقِ كُلِّهِمْ، بَنِي آدَمَ وَالسِّبَاعِ وَالهَوَامِّ، حَتَّى لِلذَّرَّةِ مِنَ الذَّرَّةِ، حَتَّى يَأْخُذَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ؛ لأَهلِ الجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، ولأَهْلِ النَّارِ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ؛ ولأَهْلِ الجَنَّةِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، ولأَهْلِ النَّارِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ.

الشَّرْحُ:

سَبَقَ أَنَّ اللهَ يَبْعَثُ الخَلْقَ يَوْمَ القِيَامَةِ للجَزَاءِ عَلَى الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ بِالنِّسْبَةِ لِبَنِي آدَمَ، ولِلْقِصَاصِ بِالنِّسْبَةِ أَيْضاً لِبَنِي آدَمَ وللبَهَائِمِ، البَهَائِمُ تُبْعَثُ لِلْقِصَاصِ فَقَطْ، بَنُو آدَمَ يُبْعَثُونَ للجَزَاءِ ولِلْقِصَاصِ فِيمَا بَيْنَهُمْ.

قَوْلُهُ: **(وَالإِيمَانُ بِالقِصَاصِ يَوْمَ القِيَامَةِ بَيْنَ الخَلْقِ كُلِّهِمْ، بَنِي آدَمَ وَالسِّبَاعِ وللبَهَائِمِ)** كُلُّهَا تُبْعَثُ لِلْقِصَاصِ، أَمَّا البَهَائِمُ فَإِنَّهَا إِذَا اقْتُصَّ لِبَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ يَنْتَهِي أَمْرُهَا فَتَكُونُ تُرَاباً، وَأَمَّا بَنُو آدَمَ فَعَلَى فَرِيقَيْنِ: فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ، وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ، وَلا يَمُوتُونَ بَعْدَ ذَلِكَ أَبَداً، خَالِدُونَ مُخَلَّدُونَ إِمَّا فِي جَنَّةٍ، وَإِمَّا فِي نَارٍ.

قَوْلُهُ: **(حَتَّى لِلذَّرَّةِ مِنَ الذَّرَّةِ)** حَتَّى للذَّرَّةِ وَهِيَ النَّمْلَةُ الصَّغِيرَةُ مِنَ الذَّرَّةِ يُقْتَصُّ لِبَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ، لأَنَّ اللهَ لا يُقِرُّ الظُّلْمَ أَبَداً، لأَنَّهُ أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ، وَهُوَ الحَكَمُ العَدْلُ، فَلا يُقِرُّ الظُّلْمَ؛ حَتَّى بَيْنَ البَهَائِمِ وَالذَّرِّ يَوْمَ القِيَامَةِ يَبْعَثُهَا ثُمَّ يُقْتَصُّ لِبَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ.

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَأَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ مِنْ حُقُوقِ النَّاسِ، وَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ بَعْدَمَا يَتَجَاوَزُونَ الصِّرَاطَ وَقَبْلَ أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ، يُوقَفُونَ وَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ؛ فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ وَعَلَيْهِ مَظْلَمَةٌ أَبَدًا، لِأَنَّ الْجَنَّةَ دَارُ الطَّيِّبِينَ، وَلَا يَدْخُلُهَا إِلَّا الطَّيِّبُونَ الَّذِينَ لَيْسَ عَلَيْهِمْ حِسَابٌ وَلَا تَبِعَاتٌ لِأَحَدٍ، وَلَا ذُنُوبٌ، حَتَّى الْمُؤْمِنَ الْعَاصِي يُعَذَّبُ فِي النَّارِ بِقَدْرِ مَعْصِيَتِهِ أَوْ أَنَّ اللهَ يَعْفُو عَنْهُ بِمَشِيئَتِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِ حَتَّى يُمَحِّصَهُ وَيُخَلِّصَهُ مِنَ الذُّنُوبِ، ثُمَّ يُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ؛ فَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا أَحَدٌ نَقِيٌّ؛ إِمَّا بِالْقِصَاصِ وَإِمَّا بِالتَّعْذِيبِ.

قَوْلُهُ: **(حَتَّى يَأْخُذَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ؛ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلِأَهْلِ النَّارِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ)** حَتَّى الْمُؤْمِنَ إِذَا ظَلَمَ الْكَافِرَ فَإِنَّهُ يُقْتَصُّ لِلْكَافِرِ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالْعَكْسُ: الْكَافِرُ إِذَا ظَلَمَ الْمُؤْمِنَ يُقْتَصُّ لِلْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. فَلَا أَحَدَ يُتْرَكُ وَعَلَيْهِ مَظْلَمَةٌ، وَحَتَّى الْمُؤْمِنَ يُقْتَصُّ مِنْهُ لِلْمُؤْمِنِ.

[٥٢] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَإِخْلَاصُ العَمَلِ للهِ.

الشَّرْحُ:

إِخْلَاصُ العَمَلِ للهِ أَنْ لا يَكُونَ فِيهِ شِرْكٌ. فَاللهُ لا يَقْبَلُ مِنَ العَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصاً لِوَجْهِهِ لَيْسَ فِيهِ شِرْكٌ، وَهَذَا أَحَدُ شَرْطَي قَبُولِ العَمَلِ.

الشَّرْطُ الثَّانِي: المُتَابَعَةُ، والعَمَلُ بِالسُّنَّةِ؛ بِأَنْ يَكُونَ العَمَلُ مُوَافِقاً لِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَلا يَكُونُ فِيهِ بِدْعَةٌ؛ لأَنَّ اللهَ لا يَقْبَلُ البِدَعَ، بَلْ يُعَاقِبُ عَلَيْهَا، وَلَو أَتْعَبَ الإِنْسَانُ نَفْسَهُ بِعَمَلٍ لَمْ يُخْلِصْ فِيهِ للهِ فَإِنَّهُ هَبَاءٌ مَنْثُورٌ، وَلَو أَتْعَبَ نَفْسَهُ فِي عَمَلٍ عَلَى غَيْرِ مُوَافَقَةِ السُّنَّةِ فَإِنَّهُ مَرْدُودٌ، وَلا يُقْبَلُ إِلَّا بِهَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ: الإِخْلَاصُ للهِ، وَالمُتَابَعَةُ لِلرَّسُولِ ﷺ.

﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ ﴾ بَلَى نَقْضٌ لِنَفْيِهِمْ، يَعْنِي: يَدْخُلُهَا ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١١-١١٢]

﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ أَيْ: أَخْلَصَ عَمَلَهُ للهِ، ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أَيْ: مُتَّبِعٌ لِلرَّسُولِ ﷺ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، مِنَ اليَهُودِ، مِنَ النَّصَارَى، مِنْ سَائِرِ العَالَمِ، بِهَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ: الإِخْلَاصُ وَالمُتَابَعَةُ.

[٥٣] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالرِّضَى بِقَضَاءِ اللهِ.

الشَّرْحُ:

(الرِّضَى بِقَضَاءِ اللهِ) الإِيمَانُ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الإِيمَانِ السِّتَّةِ، **«أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»**[(١)].

وَهُوَ: أَنْ تَعْتَقِدَ بِأَنَّ اللهَ قَدَّرَ الأَشْيَاءَ، وَقَضَاهَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الأَزَلِ وَكَتَبَهَا فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ، وَخَلَقَهَا وَأَوْجَدَهَا بِمَشِيئَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فَالإِيمَانُ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ يَتَضَمَّنُ أَرْبَعَ مَرَاتِبَ:

- **المَرْتَبَةُ الأُولَى:** مَرْتَبَةُ العِلْمِ. وَهُوَ أَنَّ اللهَ عَلِمَ بِعِلْمِهِ الأَزَلِيِّ الأَشْيَاءَ قَبْلَ وُجُودِهَا.
- **المَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ:** الإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ كَتَبَ الأَشْيَاءَ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ قَبْلَ وُجُودِهَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد: ٢٢].
- **المَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ:** الإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ أَرَادَ وَشَاءَ هَذِهِ الحَوَادِثَ: الكُفْرَ، وَالإِيمَانَ، وَالطَّاعَةَ وَالمَعْصِيَةَ، وَالبِرَّ وَالفُجُورَ، وَالخَيْرَ وَالشَّرَّ، كُلُّ

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (١/٣٦ رقم ٨) عن عمر بن الخطاب ﷺ.

ذَلِكَ شَاءَهُ اللهُ وَأَرَادَهُ بِإِرَادَتِهِ الكَوْنِيَّةِ، فَلا يَقَعُ فِي مُلْكِهِ مَا لا يُرِيدُ، لَكِنْ أَرَادَ الخَيْرَ، وَأَرَادَ الإِيمَانَ، وَأَرَادَ الشَّرَّ لِحِكْمَةٍ، وَلِلابْتِلاءِ وَلِلامْتِحَانِ؛ فَاللهُ أَرَادَ الخَيْرَ وَهُوَ يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَأَرَادَ الشَّرَّ وَهُوَ لا يُحِبُّهُ وَلا يَرْضَاهُ؛ لَكِنْ أَرَادَهُ لِحِكْمَةٍ وَابْتِلاءٍ وَامْتِحَانٍ، لَوْ لَمْ يَكُنْ إِلاَّ خَيْرٌ لَمَا صَارَ لأَحَدٍ مِيزَةٌ، وَلا صَارَ هُنَاكَ ابْتِلاءٌ وَامْتِحَانٌ، صَارَ النَّاسُ كُلُّهُمْ أَخْيَاراً، وَلَو لَمْ يَكُنْ إِلاَّ شَرٌّ مَا صَارَ لأَحَدٍ مِيزَةٌ بِالعَمَلِ الصَّالِحِ، فَهَذَا يُعْطِي أَنَّ اللهَ يَبْتَلِي عِبَادَهُ لِيَتَبَيَّنَ الطَّيِّبُ مِنَ الخَبِيثِ، وَالمُؤْمِنُ مِنَ الكَافِرِ، وَهُوَ ابْتِلاءٌ وَامْتِحَانٌ يُجْرِيهِ عَلَيْهِم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لَمْ يَخْلُقْ هَذِهِ الأَشْيَاءَ عَبَثاً.

• **المَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ**: الخَلْقُ وَالإِيجَادُ. وَكُلُّ شَيْءٍ يَحْدُثُ فَاللهُ خَالِقُهُ، وَأَفْعَالُ العِبَادِ مَخْلُوقَةٌ للهِ وَهِيَ فِعْلُ العَبْدِ، هِيَ مَخْلُوقَةٌ للهِ جَلَّ وَعَلا، اللهُ جَلَّ وَعَلا يَقُولُ: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر: ٦٢]، وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٨١]، ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦]، فَهِيَ خَلْقُ اللهِ جَلَّ وَعَلا، وَهِيَ فِعْلُ العِبَادِ وَكَسْبُ العِبَادِ بِاخْتِيَارِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ.

فَيُؤْمِنُ المُؤْمِنُ بِهَذِهِ المَرَاتِبِ الأَرْبَعِ: العِلْمُ، الكِتَابَةُ، المَشِيئَةُ وَالإِرَادَةُ، الخَلْقُ وَالإِيجَادُ.

ثُمَّ الْمُؤْمِنُ يَرْضَى بِالقَضَاءِ والقَدَرِ عِنْدَ المَصَائِبِ، فلا يَجْزَعُ وَلا يَسْخَطُ، يَكُفُّ نَفْسَهُ عَنِ الجَزَعِ، ويَكُفُّ لِسَانَهُ عَنِ التَّشَكِّي لِغَيْرِ اللهِ، وَيَكُفُّ يَدَهُ عَنْ لَطْمِ الخُدُودِ وَشَقِّ الجُيُوبِ. فَهَذَا هُوَ الرِّضَى بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ، تَعْلَمُ: **«أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ»**[1] كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، وَلا يَتِمُّ الإِيمَانُ إِلاَّ بِهَذَا.

(١) رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «المُسْنَد» (٥/ ١٨٥-١٨٩) وأَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ(رقم٤٦٩٩) وَابْنُ مَاجَهْ فِي سُنَنِهِ(رقم٧٧)، مِنْ حَدِيثِ عُبَادَةَ بنِ الصامت ﷺ، وَصَحَّحَهُ ابنُ حِبَّانَ وَشَيْخُ الإِسْلامِ مُحَمَّدُ بنُ عبدالوهاب في كِتَابِ التَّوحِيدِ(باب رقم٥٩).

[٥٤] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالصَّبْرُ عَلَى حُكْمِ اللهِ.

[٥٥] وَالإِيمَانُ بِأَقْدَارِ اللهِ كُلِّهَا خَيْرِهَا وَشَرِّهَا حُلْوِهَا وَمُرِّهَا.

[٥٦] وَالإِيمَانُ بِمَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، قَدْ عَلِمَ اللهُ مَا العِبَادُ عَامِلُونَ، وَإِلَى مَا هُمْ صَائِرُونَ، لاَ يَخْرُجُونَ مِنْ عِلْمِ اللهِ، وَلاَ يَكُونُ فِي الأَرْضِينَ وَالسَّمَوَاتِ إِلاَّ مَا عَلِمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

الشَّرْحُ:

هَذَا سَبَقَ ذِكْرُهُ فِي أَوَّلِ دَرَجَاتِ الإِيمَانِ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ.

وَالاحْتِجَاجُ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ إِذَا كَانَ عَلَى المَصَائِبِ الَّتِي لَيْسَ لِلإِنْسَانِ فِيهَا اخْتِيَارٌ مَحْمُودٌ لأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى الرِّضَى وَالتَّسْلِيمِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، أَمَّا الاحْتِجَاجُ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ عَلَى الأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ الَّتِي هِيَ بِاخْتِيَارِهِمْ وَفِعْلِهِمْ؛ فَإِنَّهُم لا حُجَّةَ لَهُم بِالقَدَرِ عَلَيْهَا، بَلْ يُعَاقَبُونَ أَعْمَالِهِمْ هُمْ وَتَفْرِيطِهِم، وَبَابُ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ، بَدَلَ أَنْ تُخَاصِمَ اللهَ، تَقُولَ: لِمَاذَا قَدَّرْتَ عَلَيَّ؟ وَتَتْرُكَ التَّوبَةَ- وَهَذَا مِنَ العَجْزِ المَذْمُومِ- بَادِرْ بِالتَّوْبَةِ وَالاسْتِغْفَارِ، وَلُمْ نَفْسَكَ. فَهَذَا هُوَ المَطْلُوبُ مِنَ العَبْدِ، أَنْ يَنْظُرَ فِي أَعْمَالِهِ ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]، انْظُرْ فِي أَعْمَالِكَ، وَبِإِمْكَانِكَ تَغْيِيرُهَا وَالتَّوْبَةُ مِنْهَا، وَالاسْتِغْفَارُ. أَمَّا القَضَاءُ وَالقَدَرُ فَهُوَ مِنْ شَأْنِ اللهِ جَلَّ وَعَلا، وَلَيْسَ مِنْ شَأْنِكَ.

قَوْلُهُ: **(لاَ يَخْرُجُونَ مِنْ عِلْمِ اللهِ)** كُلُّ شَيْءٍ فَاللهُ بِهِ عَلِيمٌ، وَبِهِ مُحِيطٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. هُوَ يَعْلَمُ كُفْرَ الكَافِرِ، وَفِسْقَ الفَاسِقِ، وَظُلْمَ الظَّالِمِ، لا يَخْفَى عَلَيْهِ. يَعْلَمُ طَاعَةَ المُطِيعِ، وَعَمَلَ المُطِيعِ. يَعْلَمُ هَذَا وَهَذَا، وَلَكِنَّهُ يُؤَخِّرُهُمْ لَعَلَّهُمْ يَتُوبُونَ، لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ، فَإِنْ تَابُوا وإِلاَّ أَمَامَهُمُ الحِسَابُ، فَاللهُ لا يُهْمِلُهُمْ أَبَداً.

قَوْلُهُ: **(وَلاَ يَكُونُ فِي الأَرْضِينَ وَالسَّمَوَاتِ إِلاَّ مَا عَلِمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ)** هَذَا كَمَا سَبَقَ، كُلُّ شَيْءٍ قَدْ عَلِمَهُ اللهُ، مَا كَانَ فِي المَاضِي وَمَا يَكُونُ فِي المُسْتَقْبَلِ، كُلُّهُ أَحَاطَ اللهُ بِهِ عِلْماً، لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. عَلِمَهُ وَقَدَّرَهُ وَكَتَبَهُ، وَشَاءَهُ وَأَرَادَهُ، وَخَلَقَهُ.

❀ ❀ ❀

[٥٧] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَتَعْلَمُ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ.

[٥٨] وَلاَ خَالِقَ مَعَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

الشرح:

هَذَا نص الحَدِيث كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لابن عَبَّاسٍ «**وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ**»[1].

(**مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ**): لَوْ حَرِصْتَ عَلَيْهِ وَتُرِيدُهُ؛ لَكِنْ أَخْطَأَكَ، فَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَم يُقَدِّرْهُ لَكَ، (**وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ**)، فَلا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا مَا أَصَابَنِي.

قَوْلُهُ: (**وَلاَ خَالِقَ مَعَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**) هَذَا تَابِعٌ لِمَرَاتِبِ القَضَاءِ وَالقَدَرِ، فِيهِ الرَّدُّ عَلَى مَنْ يَقُولُ أَنَّ العَبْدَ يَخْلُقُ فِعْلَ نَفْسِهِ؛ فَاللهُ هُوَ المُتَفَرِّدُ بِالخَلْقِ جَلَّ وَعَلا، لا أَحَدَ يَخْلُقُ مَعَهُ، فَهُوَ مِنْ خَلْقِ اللهِ وَحْدَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلِهَذَا يَقُولُ جَلَّ وَعَلا: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [الأحقاف: ٤]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ﴾ [الحج: ٧٣]، ﴿ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟

(١) رواهُ الفِرْيَابِيُّ في كتاب القدر(رقم١٥٧)، والآجُرِّيُّ في الشريعة(رقم٤١٢-الدميجي).

كَخَلْقِهِ، فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [الرعد: ١٦]، وَلِهَذَا وَصَفَ اللهُ جَلَّ وَعَلا الْمُصَوِّرِينَ بِقَوْلِهِ: **«فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي»** بِمَعْنَى: أَنَّهُ يُحَاوِلُ أَنْ يُوجِدَ شَكْلَ مَا خَلَقَهُ اللهُ، **«فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً»** وَفِي رِوَايَةٍ: **«أَوْ لِيَخْلُقُوا ذَرَّةً»**[1] لا أَحَدَ يَسْتَطِيعُ هَذَا، وَلَوِ اسْتَطَاعَ صِنَاعَةَ الصُّوَرِ لَمْ يَسْتَطِعْ إِيجَادَ الْحَيَاةِ فِيهَا.

فَالْحَيَاةُ هِيَ مِنْ خَلْقِ اللهِ جَلَّ وَعَلا، لا أَحَدَ يَسْتَطِيعُ، حَتَّى لَوْ صَوَّرَ الصُّورَةَ دَقِيقَةً وَالشَّكْلَ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَيُوجِدَ فِيهَا الْحَيَاةَ. هَذَا خَلْقُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وَلِهَذَا يُقَالُ لِلْمُصَوِّرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: **«أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»**[2] مِنْ بَابِ التَّعْجِيزِ، وَتَعْذِيباً لَهُم.

❀ ❀ ❀

(١) رواهُ البُخاريُّ في صَحيحِهِ(رقم٥٩٥٣)، ومُسْلِمٌ في صَحيحِهِ(رقم٢١١١) عن أبي هريرة.
(٢) رواهُ البُخاريُّ في صَحيحِهِ(٢١١٢- البغا)، ومُسْلِمٌ في صَحيحِهِ(رقم٢١١٠).

[٥٩] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالتَّكْبِيرُ عَلَى الجَنَائِزِ أَرْبَعٌ، وَهُوَ قَوْلُ مَالِكِ بنِ أَنَسٍ، وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، وَالحَسَنِ بنِ صَالِحٍ، وَأَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ، وَالفُقَهَاءِ، وَهَكَذَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

الشَّرْحُ:

هَذِهِ مَسْأَلَةٌ فَرْعِيَّةٌ، لَكِن ذَكَرَهَا هُنَا لِلْخِلافِ فِيهَا، وَلِيُبَيِّنَ السُّنَّةَ فِي ذَلِكَ، لأَنَّ الكِتَابَ اسْمُهُ «شَرْحُ السُّنَّةِ»، وَالمَشْهُورُ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ والأَئِمَّةِ: أَنَّ التَّكْبِيرَ عَلَى الجَنَازَةِ أَرْبَعُ تَكْبِيرَاتٍ. كَمَا فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: **«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى عَلَى النَّجَاشِيِّ صَلاةَ الغَائِبِ وَكَبَّرَ عَلَيْهِ أَرْبَعًا»**[1]. وَغَالِبُ الأَحَادِيثِ عَلَى أَرْبَعٍ، فِي بَعْضِهَا زِيَادَةُ خَمْسٍ أَوْ أَكْثَرَ، لَكِنَّ الَّذِي أَجْمَعَ عَلَيْهِ المُسْلِمُونَ: هُوَ الأَرْبَعُ، وَمَا زَادَ عَنْهَا فَمَحَلُّ خِلافٍ، وَالمُسْلِمُ لا يَذْهَبُ لِلخِلافِ وَيَتْرُكَ المُجْمَعَ عَلَيْهِ وَالمُتَّفَقَ عَلَيْهِ، وَيُشَوِّشُ عَلَى النَّاسِ. خُصُوصاً أَئِمَّةُ المَسَاجِدِ لا يُشَوِّشُونَ عَلَى النَّاسِ، لأَنَّ النَّاسَ مَا اعْتَادُوا الزِّيَادَةَ عَلَى أَرْبَعٍ، فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَفْعَلَهُ فَافْعَلْهُ لِنَفْسِكَ وَلا تُشَوِّشْ عَلَى النَّاسِ وَتَأْتِي لَهُمْ بِالأَقْوَالِ الشَّاذَّةِ وَالرِّوَايَاتِ المُخْتَلِفَةِ، فَهَذَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِ طَلَبَةِ العِلْمِ، طَلَبَةُ العِلْمِ يُؤَلِّفُونَ بَيْنَ النَّاسِ، وَلا يُشَوِّشُونَ عَلَيْهِم، وَيَعْمَلُونَ بِمَا أُجْمِعَ عَلَيْهِ، يَتَقَيَّدُونَ بِهَذَا، هَذَا هُوَ

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(رقم١١٨٨)، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(رقم٩٥١) عن أبي هريرة.

المطلوبُ، وهَذَا هُوَ غرَضُ المؤلِّفِ مِنْ إيرادِ الأربعِ لأنّها هِيَ المتّفقُ عليها، فَلا يُزادُ عَلَيْها ويُشَوِّشُ على النّاسِ في ذلكَ.

قَوْلُهُ: **(وَهُوَ قَوْلُ مَالِكِ بنِ أنسٍ، وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، وَالحَسَنِ بنِ صَالِحٍ، وَأَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ) مَالِكُ بنُ أنسٍ:** إمَامُ دَارِ الهِجْرَةِ، وأحَدُ الأئِمَّةِ الأربَعَةِ.

وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: سُفْيَانُ بنُ سَعِيدٍ الثَّوْرِيُّ الإمَامُ المَشْهُورُ مِنْ أئِمَّةِ الفِقْهِ.

وَالحَسَنُ بنُ صَالِحِ بنِ حَيٍّ: وَهَذَا مِنَ الأئِمَّةِ الكِبَارِ.

وأَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ: وَهُوَ أحَدُ الأئِمَّةِ الأربَعَةِ.

قَوْلُهُ: **(والفُقَهَاءِ، وهَكَذا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ)** أيْ: وَهُوَ قَوْلُ كَثِيرٍ مِنَ الفُقَهَاءِ تَبعاً لِسُنَّةِ الرَّسُولِ ﷺ، فَلا يَنْبَغِي لِطَالِبِ العِلْمِ أنْ يُشَوِّشَ عَلَى النَّاسِ بِحُجَّةِ أنَّهُ يَعْرِفُ أنَّ هُنَاكَ قَوْلاً أوْ حَدِيثاً في الزِّيَادَةِ. كَانَ العُلَمَاءُ يَعْرِفُونَ الخِلافَ في المَسَائِلِ، ولا يَأْتُونَ بِمَا يُشَوِّشُ عَلَى النَّاسِ، وَمَا يُخَالِفُ مَا جَرَى عَلَيْهِ العَمَلُ.

❀ ❀ ❀

[٦٠] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيمَانُ بِأَنَّ مَعَ كُلِّ قَطْرَةٍ مَلَكٌ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ حَتَّى يَضَعَهَا حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

الشَّرْحُ:

لا شَكَّ أَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلا يُنْزِلُ الْمَطَرَ مِنَ السَّمَاءِ بِقَدَرٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [المؤمنون: ١٨]، اللهُ جَلَّ وَعَلا قَدَّرَ نُزُولَ الأَمْطَارِ، وَقَدَّرَ مَقَادِيرَهَا وَكِمِّيَّاتِهَا، وَالأَرْضَ الَّتِي تَنْزِلُ عَلَيْهَا، يُصَرِّفُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَيْفَ يَشَاءُ، فَيَسُوقُهُ وَيَأْمُرُهُ فَيُمْطِرُ وَيَأْمُرُهُ فَيُمْسِكُ، وَمَعَهُ مَلائِكَةٌ، وَجَاءَ فِي وَصْفِ مِيكَائِيلَ بِأَنَّهُ مُوَكَّلٌ بِالْقَطْرِ وَالنَّبَاتِ؛ فَالْمَلائِكَةُ يَقُومُونَ بِأَعْمَالٍ وَكَلَهَا اللهُ إِلَيْهِمْ، وَمِنْ ذَلِكَ: الْقَطْرُ.

[٦١] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيْمَانُ بِأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حِينَ كَلَّمَ أَهْلَ الْقَلِيبِ يَوْمَ بَدْرٍ أَيِ: الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَسْمَعُونَ كَلَامَهُ.

الشَّرْحُ:

الرَّسُولُ ﷺ لَهُ مُعْجِزَاتٌ، وَالْمُعْجِزَةُ: هِيَ الأَمْرُ الخَارِقُ لِلْعَادَةِ، وَلَيْسَ لِلإِنْسَانِ فِيهَا عَمَلٌ؛ إِنَّمَا هِيَ مِنْ خَلْقِ اللهِ جَلَّ وَعَلا، ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [العنكبوت: ٥٠]، يَقْتَرِحُونَ عَلَى الرَّسُولِ أَنَّهُ يَأْتِي بِآيَاتٍ مِنْ عِنْدِهِ تَدُلُّ عَلَى رِسَالَتِهِ كَمَا يَقُولُونَ، والآيَاتُ عِنْدَ اللهِ، الرَّسُولُ مَا يَأْتِي بِآيَةٍ إِلاَّ مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَلا ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ فَهُوَ الَّذِي يُظْهِرُ الْمُعْجِزَاتِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى، وَيُجْرِيهَا عَلَى أَيْدِي رُسُلِهِ لِتَصْدِيقِهِمْ. وَمِنْ ذَلِكَ: الْمَيِّتُ لَوْ تُكَلِّمُهُ لا يَسْمَعُكَ وَلا يَدْرِي مَاذَا تَقُولُ، لَكِنَّ الرَّسُولَ ﷺ كَلَّمَ قَتْلَى بَدْرٍ مِنْ قُرَيْشٍ الَّذِينَ آذَوْهُ وآذَوا الْمُسْلِمِينَ فِي مَكَّةَ، وَتَكَبَّرُوا عَلَى الإِيْمَانِ وَعَصَوْا، وَتَجَبَّرُوا عَلَى الرَّسُولِ ﷺ وَأَخْرَجُوهُ، وَأَخْرَجُوا أَصْحَابَهُ وَآذَوْهُمْ، أَمْكَنَ اللهُ مِنْهُمْ فِي بَدْرٍ فَقُتِلُوا، وقُتِلَتْ صَنَادِيدُهُمْ وَأَكَابِرُهُمْ شَيْبَةُ بنُ رَبِيعَةَ، وَعُتْبَةُ بنُ رَبِيعَةَ، وَأَبُو جَهْلِ بنُ هِشَامٍ، وَعَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ أَكَابِرِ قُرَيْشٍ قُتِلُوا فِي بَدْرٍ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِمُ النَّبِيُّ ﷺ فَأُلْقُوا فِي قَلِيبٍ مِنْ آبَارِ بَدْرٍ، وَوَقَفَ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ وَخَاطَبَهُمْ: يَا فُلانُ بنُ فُلانٍ، يَا أَبَا جَهْلِ بنَ هِشَامٍ، يَا عُتْبَةُ، يَا

شَيْبَةُ، يَا أُمَيَّةُ، خَاطَبَهُمْ وَاحِداً وَاحِداً، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَ رَبِّي حَقًّا، قَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ تُكَلِّمُهُمْ، وَقَدْ جَيَّفُوا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ؟ قَالَ: **«مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ لَكِنَّهُمْ لا يَنْطِقُونَ أَوْ لا يَتَكَلَّمُونَ»** [1] هَذِهِ مُعْجِزَةٌ مِنْ مُعْجِزَاتِ الرَّسُولِ ﷺ أَجْرَاهَا اللهُ عَلَى يَدِهِ.

❀ ❀ ❀

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(٤/١٤٦١رقم٣٧٥٧)، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(٤/٢٢٠٢-٢٢٠٣رقم٢٨٧٣-٢٨٧٤) عن أنس ﷺ.

[٦٢] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: والإِيمَانُ بِأَنَّ الرَّجُلَ إِذَا مَرِضَ آجَرَهُ اللهُ عَلَى مَرَضِهِ.

[٦٣] وَالشَّهِيدُ يَأْجُرُهُ اللهُ عَلَى شَهَادَتِهِ.

الشَّرْحُ:

اللهُ لا يُضِيعُ أَجْرَ المُؤْمِنِينَ، وَيُجْرِي المَصَائِبَ عَلَى المُؤْمِنِينَ لِلتَّمْحِيصِ، أَوْ لِمُضَاعَفَةِ الأَجْرِ؛ فَقَدْ يُجْرِيهَا عَلَى المُؤْمِنِ تَكْفِيراً لِخَطَايَاهُ، وَتَمْحِيصاً لَهُ مِنَ الذُّنُوبِ، وَقَدْ لا يَكُونُ لَهُ خَطَايَا وَيُجْرِيهَا عَلَيْهِ لِرِفْعَةِ دَرَجَاتِهِ؛ لأَنَّ اللهَ كَتَبَ لَهُ دَرَجَةً فِي الجَنَّةِ لا يَصِلُ إِلَيْهَا بِعَمَلِهِ، فَيَبْتَلِيهِ اللهُ بِالمَصَائِبِ حَتَّى يُضَاعِفَ لَهُ الأَجْرَ فَيَبْلُغَ هَذِهِ المَنْزِلَةَ. فَالمُؤْمِنُ عَلَى خَيْرٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: **«عَجَباً لأَمْرِ المُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ فَشَكَرَ كَانَ ذَلِكَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ وَصَبَرَ كَانَ ذَلِكَ خَيْراً لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ»**[1] فَالمُؤْمِنُ تُصِيبُهُ المَصَائِبُ، وَهِيَ مِنْ صَالِحِهِ، إِمَّا أَنَّ اللهَ يُكَفِّرُ بِهَا خَطَايَاهُ، وَإِمَّا أَنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَا دَرَجَاتِهِ.

والشَّهِيدُ: هُوَ الَّذِي قُتِلَ فِي المَعْرَكَةِ فِي قِتَالِ الكُفَّارِ، يُقَاتِلُ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا. وَهَذَا يَغْفِرُ اللهُ لَهُ كُلَّ شَيْءٍ إِلاَّ الدَّيْنَ؛ لأَنَّ الدَّيْنَ حَقٌّ

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(٤/٢٢٩٥رقم٢٩٩٩) عن صُهَيْبٍ ﷺ.

لِلآدَمِيِّ، وَحَقُّ الآدَمِيِّ لا يَسْقُطُ إِلاَّ بِأَدَائِهِ لَهُ أَوْ سَمَاحِهِ عَنْهُ، أَمَّا الذُّنُوبُ الَّتِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ فَإِنَّ اللهَ يَغْفِرُهَا جَمِيعاً بِالشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَهُنَاكَ شُهَدَاءُ لَكِنْ لَيْسُوا شُهَدَاءَ مَعْرَكَةٍ، كَالمَيِّتِ بِالطَّاعُونِ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ أَوْ عِرْضِهِ أَوْ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَالمَيِّتُ الَّذِي يُصَابُ بِحَادِثٍ مُفَاجِئٍ كَالحَرْقِ وَالغَرِيقِ شَهِيدٌ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ[1]، يَعْنِي لَهُ أَجْرُ الشَّهِيدِ، وَلَيْسَ هُوَ مِثْلَ شَهِيدِ المَعْرَكَةِ فِي الأَحْكَامِ، بَلْ يُغَسَّلُ وَيُكَفَّنُ وَيُصَلَّى عَلَيْهِ، أَمَّا شَهِيدُ المَعْرَكَةِ فَإِنَّهُ لا يُغَسَّلُ وَلا يُكَفَّنُ بِغَيْرِ ثِيَابِهِ الَّتِي قُتِلَ فِيهَا، وَلا يُصَلَّى عَلَيْهِ، وَيُدْفَنُ بِدِمَائِهِ.

❀❀❀

(١) رَوَى البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(١/٢٣٣رقم٦٢٤)، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(٣/١٥٢١رقم١٩١٥) عن أبي هريرة ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ المَطْعُونُ وَالمَبْطُونُ وَالغَرِيقُ وَصَاحِبُ الهَدْمِ وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللهِ» واللفظ للبخاري، وَعَنْ جابر بن عَتِيك ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الشُّهَدَاءُ سَبْعَةٌ سِوَى القَتْلِ فِي سَبِيلِ اللهِ: المَطْعُونُ شَهِيدٌ، وَالغَرِقُ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ ذَاتِ الجَنْبِ شَهِيدٌ، وَالمَبْطُونُ شَهِيدٌ، وَالحَرِقُ شَهِيدٌ، وَالَّذِي يَمُوتُ تَحْتَ الهَدْمِ شَهِيدٌ، وَالمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجُمْعٍ شَهِيدَةٌ» رَوَاهُ الإِمَامُ مَالِكٌ فِي المُوَطَّأ(ص/٢٣٣رقم٥٥٤)، والإِمَامُ أَحْمَدُ فِي المُسْنَدِ(٥/٤٤٦)، وَأَبُو داود في سننه(٣/١٨٨رقم٣١١١)، وابن ماجه في سننه(٢/٩٣٧رقم٢٨٠٣)، وَالنسائي(٤/١٣رقم ١٨٤٦)، وابن حبان في صَحِيحِهِ(٧/٤٦١رقم٣١٨٩) وغيرهم.

[٦٤] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيمَانُ بِأَنَّ الأَطْفَالَ إِذَا أَصَابَهُمْ شَيْءٌ فِي دَارِ الدُّنْيَا يَأْلَمُونَ، وَذَلِكَ أَنَّ بَكْرَ ابنَ أُخْتِ عَبْدِالوَاحِدِ[1] قَالَ: لاَ يَأْلَمُونَ وَكَذَبَ.

الشَّرْحُ:

هَذِهِ مَسْأَلَةٌ ذَكَرَهَا بِسَبَبِ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الأَطْفَالَ لا يَأْلَمُونَ، وَهَذِهِ ذَكَرَهَا لِيَرُدَّ عَلَى هَذَا الرَّجُلِ، وَهَذَا الرَّجُلُ يُقَالُ إِنَّهُ مِنَ الخَوَارِجِ أَيْضاً، وَالخَوَارِجُ عِنْدَهُم أَعْجَبُ مِنْ هَذِهِ الأَقْوَالِ التَّافِهَةِ، بِسَبَبِ جَهْلِهِمْ، وَبِسَبَبِ تَعَالُمِهِمْ.

وَلِذَلِكَ فَالطِّفْلُ إِذَا أَصَابَهُ شَيْءٌ يَصِيحُ وَيَبْكِي وَيَسْتَنْجِدُ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَتَأَلَّمُ، هَذَا شَيْءٌ مُشَاهَدٌ وَمَحْسُوسٌ. لَكِنَّ هَذَا الرَّجُلَ عِنْدَهُ أَفْكَارٌ شَاذَّةٌ، وَمِنْهَا هَذِهِ المَسْأَلَةُ.

❀ ❀ ❀

---

(١) قَالَ الحافظ ابن حجر في لسان الميزان(٢/٦٠) : «بكر بن أخت عبد الواحد بن زيد البصري الزاهد: ذكره ابن حزم في الملل والنحل(٣/٦٨) في جملة الخوارج قَالَ: كَانَ يقول في كل ذنب ولو صغر حتى الكذبة الخفيفة على سبيل المزاح بفاعله كافر مشرك بالله من أهل النار إلا إن كَانَ من أهل بدر فهو كافر مشرك من أهل الجنَّة، وكان تلميذه عبد الله بن عيسى يقول إن المجانين والأطفال والبهائم لا يألمون البتة بشيء نزل بهم من العلل وغيرها لأن الله لا يظلم مثقال ذرة، ونقل ابن قتيبة مسألة الايلام عن بكر نفسه، ومن شنعه أن من سرق حبة خردل كَانَ مخلداً في النار مع الكفرة، وبالغ ابن قتيبة في الرد عليه في هذه المقالة.

[٦٥] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ يَدْخُلُ أَحَدٌ الجَنَّةَ إِلاَّ بِرَحْمَةِ اللهِ، وَلاَ يُعَذِّبُ اللهُ أَحَداً إِلاَّ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِ، وَلَوْ عَذَّبَ أَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَرَّهُمْ وَفَاجِرَهُمْ؛ عَذَّبَهُمْ غَيْرَ ظَالِمٍ لَهُمْ، لاَ يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّهُ ظَالِمٌ، وَإِنَّمَا يَظْلِمُ مَنْ يَأْخُذُ مَا لَيْسَ لَهُ، وَاللهُ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ، وَالخَلْقُ خَلْقُهُ، وَالدَّارُ دَارُهُ، لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، وَلاَ يُقَالُ: لِمَ وَكَيْفَ؟ وَلاَ يَدْخُلُ أَحَدٌ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: **(وَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ يَدْخُلُ أَحَدٌ الجَنَّةَ إِلاَّ بِرَحْمَةِ اللهِ)** الجَنَّةُ غَالِيَةٌ وَرَفِيعَةٌ وَلا تُدْرَكُ بِالعَمَلِ، مَهْمَا عَمِلَ الإِنْسَانُ وَلَو عَمِلَ كُلَّ الطَّاعَاتِ، فَإِنَّ عَمَلَهُ لا يُقَابِلُ النِّعَمَ الَّتِي عَلَيْهِ، فَلَوْ حُوسِبَ عَلَى النِّعَمِ لَمْ يَبْقَ عِنْدَهُ عَمَلٌ. هَذِهِ نَاحِيَةٌ.

النَّاحِيَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ الجَنَّةَ غَالِيَةٌ، وَلَيْسَ لَهَا قِيمَةٌ مُقَدَّرَةٌ مِنَ الأَعْمَالِ أَوِ المَالِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، لا يَعْلَمُ عِظَمَهَا إِلاَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لَكِنَّ اللهَ يُدْخِلُ المُؤْمِنِينَ الجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ، بِسَبَبِ أَعْمَالِهِمْ. فَالأَعْمَالُ إِنَّمَا هِيَ سَبَبٌ لِدُخُولِ الجَنَّةِ، وَلَيْسَتْ هِيَ المُوجِبَةُ لِدُخُولِ الجَنَّةِ، وَلا ثَمَناً لِلجَنَّةِ، وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: **«لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»** هَذَا مِنْ أَجْلِ أَنَّ الإِنْسَانَ لا يُعْجَبُ بِعَمَلِهِ، لا لأَجْلِ أَنْ يَتْرُكَ العَمَلَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٣٢] البَاءُ لَيْسَتْ بَاءَ العِوَضِ

وَالثَّمَنِ، وَإِنَّمَا هِيَ بَاءُ السَّبَبِيَّةِ، أَيْ: بِسَبَبِ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، بِدَلِيلِ هَذَا الحَدِيثِ: **«لن يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»** قَالُوا: وَلا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **«وَلا أَنَا، إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ»**[1] فَلا يُعْجَبُ الإِنْسَانُ بِعَمَلِهِ، وَلَكِنْ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلاَّ بِسَبَبِ العَمَلِ، فَلَوْ لَمْ يَعْمَلْ مَا دَخَلَ الجَنَّةَ؛ لأَنَّهُ مَا أَتَى بِالسَّبَبِ.

قَوْلُهُ: **(وَلاَ يُعَذِّبُ اللهُ أَحَداً إِلاَّ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِ)** الجَنَّةُ فَضْلٌ مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَلا، وَبِرَحْمَةِ اللهِ، وَالأَعْمَالُ سَبَبٌ لِدُخُولِهَا. وَأَهْلُ النَّارِ لا يُعَذَّبُونَ إِلاَّ بِذُنُوبِهِمْ، لا يُعَذَّبُونَ بِذُنُوبِ غَيْرِهِمْ، وَلا يُعَذَّبُونَ بِدُونِ ذُنُوبٍ، وَهَذَا مِنْ بَابِ العَدْلِ، فَالجَنَّةُ مِنْ بَابِ الفَضْلِ، وَالنَّارُ مِنْ بَابِ العَدْلِ.

قَوْلُهُ: **(وَلَوْ عَذَّبَ أَهْلَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ بَرَّهُمْ وَفَاجِرَهُمْ، عَذَّبَهُمْ غَيْرَ ظَالِمٍ لَهُمْ)** هَذَا كَمَا سَبَقَ، أَنَّ الإِنْسَانَ مَهْمَا عَمِلَ فَإِنَّ عَمَلَهُ لا يُقَابِلُ بَعْضَ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِ؛ فَلَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَهُ كَانَ ذَلِكَ عَدْلاً؛ لِتَقْصِيرِهِ فِي شُكْرِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِ، وَهَذَا الكَلامُ الَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ نَصُّ حَدِيثٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: **«لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ»**[2].

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(رقم٥٣٤٩)، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(رقم٢٨١٦) عن أبي هريرة.

(٢) رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي المُسْنَدِ(٥/ ١٨٥- ١٨٩) وَأَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ(رقم٤٦٩٩) وَابْنُ مَاجَهْ فِي سُنَنِهِ(رقم٧٧) وَالطَّبَرَانِيُّ فِي الكَبِيرِ(رقم٤٩٤٠) وَابنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ(رقم ١٨١٧) وَغَيْرُهُمْ عَنْ زَيْدِ بنِ ثَابِتٍ مَرْفُوعاً، صَحَّحَهُ ابن حبان، وشيخ الإِسْلامِ مُحَمَّد بن عبدالوهّاب في كتاب التوحيد(باب رقم٥٩)

لأنَّ الفاجِرَ عذَّبَهُ بفُجُورِهِ، والبَرَّ عذَّبَهُ لأنَّ عَمَلَهُ لا يُؤهِّلُهُ لِدُخولِ الجَنَّةِ لأنَّهُ لا يُقابِلُ نِعَمَ اللهِ عليْهِ.

قولُهُ: **(لاَ يَجُوزُ أنْ يُقَالَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ: إنَّهُ ظَالِمٌ)** اللهُ جَلَّ وَعَلا نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنِ الظُّلْمِ، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧]، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]، ﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨]، **«يا عِبادِي إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلا تَظالَمُوا»**[1] فاللهُ جَلَّ وَعَلا حَكَمٌ عَدْلٌ، لا يَلِيقُ بِهِ الظُّلْمُ.

قولُهُ: **(وإنَّما يَظْلِمُ مَنْ يَأْخُذُ ما لَيْسَ لَهُ، وَاللهُ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ)** الظُّلْمُ: هُوَ أَخْذُ حَقِّ النَّاسِ، وَهَلِ النَّاسُ لَهُمْ حَقٌّ عَلَى اللهِ؟ لَيْسَ لَهُمْ حَقٌّ عَلَى اللهِ، وَلا أَحَدَ يُوجِبُ عَلَى اللهِ شَيْئاً، وَإِنَّما حَقُّ العِبادِ عَلَى اللهِ أَنْ لا يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، هَذا حَقٌّ تَفَضَّلَ بِهِ سُبْحانَهُ.

والظُّلْمُ: هُوَ وَضْعُ الشَّيْءِ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ. فَاللهُ لا يَضَعُ العَذابَ فِيمَنْ يَسْتَحِقُّ النَّعِيمَ، وَلا يَضَعُ النَّعِيمَ فِيمَنْ يَسْتَحِقُّ العَذابَ، بَلْ يَضَعُ النَّعِيمَ فِيمَنْ يَسْتَحِقُّهُ، وَيَضَعُ العَذابَ فِيمَنْ يَسْتَحِقُّهُ. هَذا هُوَ العَدْلُ، أَمَّا العَكْسُ فَهُوَ الظُّلْمُ، لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ الإِيمانِ، وَأَكْرَمَ أَهْلَ الكُفْرِ؛ يَكُونُ

(١) رواهُ مُسلمٌ في صَحيحِهِ(٤/١٩٩٤رقم٢٥٧٧) عن أبي ذرٍّ ﷺ.

هَذَا هُوَ الظُّلْمُ، وَاللهُ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ، لا يُمْكِنُ أَنْ يُعَذِّبَ أَهْلَ الإِيمَانِ، وَأَنْ يُكْرِمَ أَهْلَ الكُفْرِ، وَأَنْ يُدْخِلَ الكُفَّارَ الجَنَّةَ، وَأَنْ يُدْخِلَ المُؤْمِنِينَ النَّارَ هَذَا لا يَلِيقُ بِاللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَوْلُهُ: **(وَاللهُ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ، وَالخَلْقُ خَلْقُهُ، وَالدَّارُ دَارُهُ)** قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾ وَهُوَ إِيجَادُ الأَشْيَاءِ مِنْ عَدَمٍ. فَكُلُّ المَخْلُوقَاتِ خَلَقَهَا اللهُ جَلَّ وَعَلَا، لا أَحَدَ يَخْلُقُ مَعَ اللهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦]، ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ بِحَيْثُ أَنَّ خَلْقَ العَبْدِ يَشْتَبِهُ بِخَلْقِ اللهِ، هَذَا لا يُمْكِنُ، وَهُوَ مُسْتَحِيلٌ ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأحقاف: ٤].

(وَالأَمْرُ) لَهُ سُبْحَانَهُ، وَالأَمْرُ: هُوَ التَّشْرِيعُ وَالوَحْيُ المُنَزَّلُ؛ فَالخَالِقُ هُوَ الَّذِي يَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيَشْرَعُ لِعِبَادِهِ مَا يُصْلِحُهُمْ، وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا يَضُرُّهُمْ، وَلَيْسَ لأَحَدٍ أَنْ يَأْمُرَ أَوْ يَنْهَى أَوْ يُوجِبَ عِبَادَةً أَوْ يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، فَالأَمْرُ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الأَمْرُ الكَوْنِيُّ القَدَرِيُّ، وَالأَمْرُ الشَّرْعِيُّ، يَأْمُرُ وَيَنْهَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]

وَفَرَّقَ بَيْنَ الخَلْقِ وَالأَمْرِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الأَمْرَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَفِي هَذَا رَدٌّ عَلَى الجَهْمِيَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ القُرْآنَ مَخْلُوق، وَإِنَّ كَلامَ اللهِ مَخْلُوقٌ. اللهُ فَرَّقَ بَيْنَ الخَلْقِ وَالأَمْرِ، الأَمْرُ هُوَ مِنَ الكَلامِ، والتَّشْرِيع، وَاللهُ فَرَّقَ بَيْنَ الخَلْقِ وَالأَمْرِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ كَلامَ اللهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ.

(والدَّارُ دَارُهُ) جَلَّ وَعَلا، وَالدُّورُ ثَلاثٌ:

- دَارُ الدُّنْيَا.
- وَدَارُ البَرْزَخِ.
- وَدَارُ القَرَارِ، وَهِيَ الآخِرَةُ.

كُلُّهَا للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَوْلُهُ: **(لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)** لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن أَفْعَالَهُ لَيْسَ فِيهَا نَقْصٌ، وَلَيْسَ فِيهَا خَلَلٌ، فَهِيَ مُتْقَنَةٌ وَمُحْكَمَةٌ، وَلا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهَا نَقْصٌ أَوْ خَلَلٌ أَبداً، وَالسُّؤَال إِنَّمَا يَكُونُ لِمَنْ عِنْدَهُ نَقْصٌ أَوْ خَلَلٌ فِي عَمَلِهِ، فَاللهُ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ؛ لأَنَّ أَفْعَالَهُ عَلَى التَّمَامِ وَالكَمَالِ، لا لِمُجَرَّدِ قَهْرِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ، كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يَقُولُهُ، هُوَ لا يُسْأَلُ لِعَظَمَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَجَلالِهِ، لَكِن لَيْسَ هَذَا وَحْدَهُ فَقَطْ، بَلْ لا يُسْأَلُ أَيْضاً لأَنَّ أَعْمَالَهُ مُتْقَنَةٌ لا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهَا نَقْصٌ أَوْ خَلَلٌ بِالكُلِّيَّةِ، بِخِلافِ المَخْلُوقِ فَإِنَّهُ يُسْأَلُ عَنْ فِعْلِهِ؛ لأَنَّهُ يُخْطِئُ وَيَنْقُصُ عَمَلُهُ، وَيَكُونُ عَلَيْهِ مُلاحَظَاتٌ، فَهُوَ يُسْأَلُ لأَنَّهُ نَاقِصٌ مِنْ كُلِّ الوُجُوهِ، إِلاَّ مَنْ كَمَّلَهُ اللهُ وَأَعَانَهُ وَسَدَّدَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ هَذَا مِنَ الفَرْقِ بَيْنَ الخَالِقِ وَالمَخْلُوقِ: أَنَّ اللهَ لا يُسْأَلُ والمَخْلُوقُ يُسْأَلُ.

قَوْلُهُ: **(وَلاَ يُقَالُ: لِمَ وكَيْفَ؟ وَلاَ يَدْخُلُ أحَدٌ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ)**

وَلا يُعْتَرَضُ عَلَى الله، فَيُقَالُ: لِمَاذَا خَلَقَ اللهُ كَذَا؟ ومَا كَيْفِيَّةُ خَلْقِ اللهِ لِهَذِهِ الأشْيَاءِ؟ هَذَا لا يَجُوزُ فِي حَقِّ اللهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى، بَلْ عَلَيْنَا التَّسْلِيمُ والانْقِيَادُ، واعْتِقَادُ أنَّ أفْعَالَ اللهِ كَامِلَةٌ لا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهَا نَقْصٌ وَلا خَلَلٌ، وَإِنْ خَفِيَتْ عَلَيْنَا بَعْضُ الحِكَمِ أوْ بَعْضُ العِلَلِ فَلا نَسْأَلُ عَنْهَا، بَلْ نُسَلِّمُ إِنْ أدْرَكْنَا الحِكْمَةَ وَالعِلَّةَ فِيهَا وَنِعْمَتْ، وَإِنْ لَمْ نُدْرِكْهَا فَإِنَّنَا نُسَلِّمُ، وَلا نَعْتَرِضُ عَلَى اللهِ أوْ نَتَوَقَّفُ عَنِ العَمَلِ حَتَّى نَعْرِفَ الحِكْمَةَ أوِ العِلَّةَ.

[٦٦] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وإذا سَمِعْتَ الرَّجُلَ يَطْعَنُ عَلَى الآثَارِ وَلاَ يَقْبَلُهَا، أَوْ يُنْكِرُ شَيْئاً مِنْ أَخْبَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَاتَّهِمْهُ عَلَى الإِسْلاَمِ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ رَدِيءُ الْمَذْهَبِ وَالْقَوْلِ، وَلاَ يُطْعَنُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلاَ عَلَى أَصْحَابِهِ ﷺ؛ لأَنَّا إِنَّمَا عَرَفْنَا اللهَ وَعَرَفْنَا رَسُولَهُ وَعَرَفْنَا الْقُرْآنَ وَعَرَفْنَا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ وَالدُّنْيَا وَالآخِرَةَ بِالآثَارِ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ إِلَى السُّنَّةِ أَحْوَجُ مِنَ السُّنَّةِ إِلَى الْقُرْآنِ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: **(وإذا سَمِعْتَ الرَّجُلَ يَطْعَنُ عَلَى الآثَارِ وَلاَ يَقْبَلُهَا أَوْ يُنْكِرُ شَيْئاً مِنْ أَخْبَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَاتَّهِمْهُ عَلَى الإِسْلاَمِ)** لأَنَّ مِنْ مَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ: طَاعَتَهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقَهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَاجْتِنَابَ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ، وَأَنْ لا يُعْبَدَ اللهُ إِلاَّ بِمَا شَرَعَ. هَذَا مَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، وَاللهُ جَلَّ وَعَلا يَقُولُ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩] فَالوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَمْتَثِلَ مَا جَاءَ فِي الأَحَادِيثِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ لأَنَّهَا الوَحْيُ الثَّانِي بَعْدَ القُرْآنِ. لأَنَّ أُصُولَ الأَدِلَّةِ فِي الإِسْلامِ الْمُجْمَعَ عَلَيْهَا:

أَوَّلاً: القُرْآنُ.

ثَانِياً: السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ.

ثَالِثاً: الإِجْمَاعُ.

هَذِهِ أدلَّةٌ لا يَجُوزُ للإنْسَانِ أنْ يَقُولَ: أنا لا أسْتَدِلُّ إلا بِالقُرآنِ فقط، ولا أسْتَدِلُّ بالسُّنَّةِ، كَمَا تَقُولُهُ الخَوارِجُ، وَمَنْ نَحَا نَحْوَهُمْ، وَيَقُولُونَ: إنَّ القُرآنَ مُتَوَاتِرٌ، وَمَعْصُومٌ مِنَ الخَلَلِ، وَأمَّا السُّنَّةُ فَهِيَ مِنْ رِوَايَةِ الرُّوَاةِ يَتَطَرَّقُ إلَيْهَا الخَلَلُ. هَذَا اتِّهَامٌ لِلأُمَّةِ وَعُلَمَائِهَا والصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ الَّذِينَ نَقَلُوا الأَخْبَارَ بِعَدَمِ الثِّقَةِ وَعَدَمِ الأَمَانَةِ. وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ هَؤُلاءِ بِقَوْلِهِ: **«يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلالٍ اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ»** ثُمَّ قَالَ ﷺ: **«ألا وَإِنِّي أُوتِيتُ القُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»**[1] وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: **«نَضَّرَ اللهُ امْرَءاً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا وَبَلَّغَهَا كَمَا سَمِعَهَا، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أوْعَى مِنْ سَامِعٍ»**[2].

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ لَمَّا خَطَبَ فِي عَرَفَةَ: **«لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمُ الغَائِبَ»**[3]، فَالَّذِي سَمِعَ يُبَلِّغُ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ، هَذِهِ أَمَانَةٌ قَامَ بِهَا

(1) رَوَاهُ الإمَامُ أَحْمَدُ فِي المُسْنَدِ(٤/١٣٢)، والدارمي في سننه(١/١٥٣رقم٥٨٦)، وَأَبُو دَاوُدَ فِي سننه(٤/٢٠٠رقم٤٦٠٤)، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي سننه(٥/٣٥ رقم٢٦٦٤)، وابن ماجه في سننه(١/٦رقم١٢)، وابن حبان في صحيحه(١/١٨٩رقم١٢)، وَالحَاكِمُ فِي المُسْتَدْرَكِ عَلَى الصحيحين(١/١٩١) وَغَيْرُهُمْ عن المقدام بن معدي كرب. قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حسن غريب، وَقَالَ الحاكم: إسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

(2) رواه الإمام أحمد في المسند(٥/١٨٣)، وابن ماجه(رقم٢٣٠)، وابن أبي عاصم في السنة(٩٤)، وابن حبان في صحيحه(رقم٦٧)، وغيرهم عن زيد بن ثابت رضي الله عنه وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة(٣/٢٠٦).

(3) رَوَاهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(١/٣٧رقم٦٧)، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(٣/١٣٠٥رقم١٦٧٩) عن أبي بكرة رضي الله عنه.

رُوَاةُ الحَدِيثِ وَرِجَالُ الحَدِيثِ جَزَاهُمُ اللهُ خَيْراً، وَصَانُوا السُّنَّةَ النَّبَوِيَّةَ عَنِ الدَّخِيلِ وَالكَذِبِ، وَبَلَّغُوهَا نَقِيَّةً صَافِيَةً كَمَا وَرَدَتْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِأَمَانَةٍ، وَهَذَا مِنْ مُعْجِزَاتِ هَذَا الرَّسُولِ ﷺ؛ فَالسُّنَّةُ لَيْسَتْ مَحَلَّ تَوَقُّفٍ أَوِ اتِّهَامٍ، بَلْ يَجِبُ التَّصْدِيقُ بِهَا، وَيَجِبُ العَمَلُ بِهَا، كَمَا يَجِبُ العَمَلُ بِالقُرْآنِ؛ لأَنَّهَا وَحْيٌ مِنَ اللهِ، قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ الرَّسُولِ ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣- ٤]، فَالأَحَادِيثُ وَحْيٌ مِنَ اللهِ، وَإِنْ كَانَتْ أَلْفَاظُهَا مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، أَمَّا القُرْآنُ فَلَفْظُهُ وَمَعْنَاهُ مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَلا، أَمَّا السُّنَّةُ وَالأَحَادِيثُ النَّبَوِيَّةُ فَمَعْنَاهَا مِنَ اللهِ وَأَلْفَاظُهَا مِنْ كَلامِ الرَّسُولِ ﷺ الَّذِي لا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى، فَأَلْفَاظُهُ ﷺ مَعْصُومَةٌ وَصِدْقٌ، وَلا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهَا شَكٌّ، فَمَنْ أَنْكَرَ السُّنَّةَ فَإِنَّهُ كَافِرٌ؛ لأَنَّهُ عَطَّلَ الأَصْلَ الثَّانِي. وَالقُرْآنُ لابُدَّ لَهُ مِنَ السُّنَّةِ، لأَنَّهَا تُبَيِّنُهُ وَتُوَضِّحُهُ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] فَالسُّنَّةُ مُوَضِّحَةٌ لِلقُرْآنِ وَمُفَسِّرَةٌ لِلقُرْآنِ. لأَنَّ القُرْآنَ جَاءَ بِأَشْيَاءَ مُجْمَلَةٍ مِثْلُ: الصَّلاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَالصِّيَامِ، السُّنَّةُ بَيَّنَتْهَا وَوَضَّحَتْهَا، وَبَيَّنَتِ الزَّكَاةَ وَمَقَادِيرَهَا، وَالصِّيَامَ مَتَى يَبْدَأُ وَمَتَى يَنْتَهِي، وَمَنَاسِكَ الحَجِّ كَيْفَ يَحُجُّ الإِنْسَانُ، قَالَ ﷺ: **«لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ»**[1] وَقَالَ: **«صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»**[2]، قَالَ اللهُ

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(٢/٩٤٣رقم١٢٩٧) عن جابرٍ رضي الله عنه.
(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(١/٢٢٦رقم٦٠٥) وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(١/٤٥٦رقم٦٧٤) عن مالكِ بنِ الحُوَيْرِثِ رضي الله عنه.

تَعالَى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فَالسُّنَّةُ تُفَسِّرُ القُرآنَ وتُوضِّحُهُ وتَدُلُّ عَلَيْهِ، والَّذِي يَقُولُ: أَعْمَلُ بِالقُرآنِ ولا أَعْمَلُ بِالسُّنَّةِ كَذَّابٌ. لَمْ يَعْمَلْ بِالقُرآنِ لأنَّ القُرآنَ فِيهِ: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧]، وَفِيهِ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣- ٤]، وَفِيهِ: وتُوضِّحُهُ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤]، لَمَّا تَرَكَ العَمَلَ بِالسُّنَّةِ لَمْ يَعْمَلْ بِالقُرآنِ الَّذِي يَدَّعِي أَنَّهُ يَعْمَلُ بِهِ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُفَرِّقُ بَيْنَ الأَحادِيثِ فَيَقُولُ: الحَدِيثُ المُتَواتِرُ يُفِيدُ العِلْمَ، والحَدِيثُ الآحادُ يُفِيدُ الظَّنَّ. وَهَذَا بَاطِلٌ؛ لأَنَّ كُلَّ مَا صَحَّ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ وَثَبَتَ فَإِنَّهُ يُفِيدُ العِلْمَ، سَوَاءٌ كَانَ مُتَواتِراً أَوْ آحاداً، فَلا تَفْرِيقَ بَيْنَ دَلالاتِ الحَدِيثِ الصَّحِيحِ، الكُلُّ يَجِبُ امْتِثالُهُ وَالعَمَلُ بِهِ بِدُونِ تَفْرِيقٍ.

وَالصُّوفِيَّةُ أَيْضاً لا يَعْمَلُونَ بِالسُّنَّةِ، بَلْ وَلا بِالقُرآنِ، إِنَّمَا يَعْمَلُونَ بِأَذْوَاقِهِمْ وَمَوَاجِيدِهِمْ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ نَأْخُذُ عَنِ اللهِ مُبَاشَرَةً، وَلا نَأْخُذُ عَنْ طَرِيقِ الرَّسُولِ لأَنَّا وَصَلْنَا إِلَى اللهِ فَلَسْنَا بِحَاجَةٍ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، وَإِنَّمَا الرَّسُولُ لِلعَوَامِّ الَّذِينَ مَا وَصَلُوا إِلَى اللهِ. وَهَذَا مِنْ أَبْطَلِ البَاطِلِ، وَأَفْضَحِ الكُفْرِ وَالعِيَاذُ بِاللهِ.

قَوْلُهُ: (أَوْ يُنْكِرُ شَيْئاً) الَّذِي يُنْكِرُ السُّنَّةَ عُمُوماً، وَيَقُولُ: إِنَّهُ لا يُعْمَلُ بِالسُّنَّةِ، وَإِنَّمَا يُعْمَلُ بِالقُرآنِ، أَوْ يُنْكِرُ بَعْضَ السُّنَّةِ وَهِيَ الأَحَادِيثُ

الصَّحِيحَةَ، وَيَقُولُ: لا يُعْمَلُ بِهَا، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: لا يُعْمَلُ بِالحَدِيثِ إلاَّ بِشَرْطٍ: أَنْ يُوَافِقَ القُرْآنَ. وَهَذَا بَاطِلٌ، وَاتِّهَامٌ لِلرَّسُولِ ﷺ بِأَنَّهُ قَدْ يَأْتِي بِشَيْءٍ يُخَالِفُ القُرْآنَ، فَهَذَا القَوْلُ لا يَجُوزُ. وَقَدْ يَأْمُرُ الرَّسُولُ ﷺ بِأَشْيَاءَ لَيْسَتْ فِي القُرْآنِ مِثْلُ: تَحْرِيمِ الجَمْعِ بَيْنَ المَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا وَالمَرْأَةِ وَخَالَتِهَا، هَذَا لَيْسَ فِي القُرْآنِ، القُرْآنُ فِيهِ النَّهْيُ عَنِ الجَمْعِ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ، وَالرَّسُولُ ﷺ قَالَ: **«لا يُجْمَعُ بَيْنَ المَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا، وَلا بَيْنَ المَرْأَةِ وَخَالَتِهَا»**[1] فَيَجِبُ العَمَلُ بِمَا قَالَهُ الرَّسُولُ ﷺ.

قَوْلُهُ: **(فَاتَّهِمْهُ عَلَى الإِسْلامِ؛ فَإِنَّهُ رَجُلٌ رَدِيءُ المَذْهَبِ وَالقَوْلِ)** قَائِلُ هَذَا إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الخَوَارِجِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الجَهْمِيَّةِ وَالمُعْتَزِلَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الصُّوفِيَّةِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُم لَيْسُوا بِحَاجَةٍ إِلَى الأَحَادِيثِ، لأَنَّهُم وَصَلُوا إِلَى اللهِ، وَيَأْخُذُونَ عَنِ اللهِ مُبَاشَرَةً، وَيَقُولُونَ: أَنْتُمْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ مِنْ مَيِّتٍ عَنْ مَيِّتٍ، وَنَحْنُ نَأْخُذُ عَنِ الحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ.

قَوْلُهُ: **(وَلاَ يُطْعَنُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلاَ عَلَى أَصْحَابِهِ ﷺ)** لا يُطْعَنُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لأَنَّهُ مَعْصُومٌ مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَلا، فَالَّذِي يَتَّهِمُ الرَّسُولَ أَوْ يَطْعَنُ فِيهِ، وَأَنَّهُ عِنْدَهُ هَوًى، وَأَنَّهُ يَحِيفُ، وَأَنَّهُ يَظْلِمُ وَنَحْوُ ذَلِكَ؛ فَهَذَا كَافِرٌ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(١٩٦٥/٥رقم٤٨٢٠)، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(١٠٢٨/٢رقم١٤٠٨) عن أبي هريرة ﷺ.

كذلِكَ الذي يَطعَنُ في الصَّحابةِ ﷺ، صَحابَةِ الرَّسُولِ ﷺ، لأنَّ الله رَضِيَ عَنْهُمْ وَمَدَحَهُمْ، والنَّبيُّ ﷺ رَضِيَ عَنْهُمْ وَمَدَحَهُمْ وأَثْنى عَلَيْهِم وَهُمْ خَيْرُ القُرُونِ، قالَ ﷺ: «خَيْرُكُمْ قَرْنِي...»[1] وَقالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «لا تَسُبُّوا أَصْحابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً ما بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ»[2] قالَ تَعالَى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨] تَحْتَ الشَّجَرَةِ شَجَرَةِ البَيْعَةِ في الحُدَيْبِيَةِ ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨] وَقالَ في آخِرِ السُّورَةِ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ يَعْني الصَّحابَةَ ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ﴾ يَعْني صِفَتُهُمُ المَذْكُورَةُ بِالتَّوْراةِ، ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ أيْ: صِفَتُهُمْ في الإنْجِيلِ الَّذي أُنْزِلَ عَلى عِيسَى

---

(١) رَواهُ البُخارِيُّ في صَحِيحِهِ(٢/٩٣٨رقم٢٥٠٨)، وَمُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ(٤/١٩٦٤رقم٢٥٣٥) عن عمران بن الحصين ﷺ، واللفظ للبخاري.

(٢) رَواهُ البُخارِيُّ في صَحِيحِهِ(٣/١٣٤٣رقم٣٤٧٠)، وَمُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ(٤/١٩٦٧رقم٢٥٤٠) عن أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ.

﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩] فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الَّذِي يَغْتَاظُ مِنَ الصَّحَابَةِ أَوْ يُبْغِضُهُمْ أَنَّهُ كَافِرٌ ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾.

قَوْلُهُ: **(لأَنَّا إِنَّمَا عَرَفْنَا اللهَ، وَعَرَفْنَا رَسُولَهُ، وَعَرَفْنَا القُرْآنَ، وَعَرَفْنَا الخَيْرَ وَالشَّرَّ، وَالدُّنْيَا وَالآخِرَةَ؛ بِالآثَارِ)** أَيْ: بِالآثَارِ الَّتِي رَوَوْهَا، وَهِيَ الأَحَادِيثُ الَّتِي رَوَوْهَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَالَّذِي يَطْعَنُ فِيهِم؛ يَطْعَنُ فِي الشَّرِيعَةِ، لأَنَّهَا مِنْ رِوَايَةِ رُوَاةٍ كَذَبَةٍ وَغَيْرِ مَوْثُوقِينَ. وَهَذَا قَصْدُ اليَهُودِ وَالمَجُوسِ يَدُسُّونَ عَلَى المُسْلِمِينَ، جَمَاعَةً يَسُبُّونَ الصَّحَابَةَ، وَقَصْدُهُم أَنْ يُبْطِلُوا الشَّرِيعَةَ؛ لأَنَّهُم إِذَا أَبْطَلُوا حَمَلَتَهَا وَرُوَاتَهَا وطَعَنُوا فِي أَفْضَلِ الأُمَّةِ فَطَعْنُهُمْ فِي غَيْرِ الصَّحَابَةِ مِنْ بَابٍ أَوْلَى.

قَوْلُهُ: **(فَإِنَّ القُرْآنَ إِلَى السُّنَّةِ أَحْوَجُ مِنَ السُّنَّةِ إِلَى القُرْآنِ)** القُرْآن أَحْوَجُ إِلَى السُّنَّةِ كَمَا ذَكَرْنَا لأَنَّ السُّنَّةَ مُبَيِّنَةٌ وَمُفَسِّرَةٌ لِلْقُرْآنِ، فَهُنَاكَ أَشْيَاءُ مُجْمَلَةٌ فِي القُرْآنِ بَيَّنَتْهَا السُّنَّةُ، اللهُ أَمَرَ بِالصَّلاةِ لَكِنَّهُ لَمْ يُبَيِّنْ عَدَدَ رَكَعَاتِهَا، وَلَمْ يُبَيِّنْ صِفَةَ الصَّلاةِ، وَهَذَا بَيَّنَهُ الرَّسُولُ ﷺ وَقَالَ: **«صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»**[1]، الحَجُّ جَاءَ مُجْمَلاً فِي القُرْآنِ، وَوُكِّلَ بَيَانُهُ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، حَجَّ بِالمُسْلِمِينَ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ وَقَالَ: **«لِتَأْخُذُوا عَنِّي**

(١) حديثٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ سَبَقَ تَخْرِيجُهُ(ص/٢٧٦).

مَنَاسِكَكُمْ»[1] أي: تعلَّمُوا مِنْ أَفْعَالي وَأَقْوالي مَا تُؤَدُّونَ بِهِ مَنَاسِكَكُمْ، واللهُ جَلَّ وَعَلا يَقُولُ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ فَالقُرْآنُ مُحْتَاجٌ إِلَى السُّنَّةِ لِتُبَيِّنَهُ، فَالَّذِي يَأْخُذُ القُرْآنَ فَقَطْ؛ يَكُونُ قَدْ قَطَعَ القُرْآنَ عَمَّا يُبَيِّنُهُ وَمَا يُوَضِّحُهُ، وَهَذَا هَدَفُ أَهْلِ الضَّلالِ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ؛ لأَنَّ أَهْلَ الزَّيْغِ يَأْخُذُونَ بِطَرَفٍ مِنَ الأَدِلَّةِ وَيَتْرُكُونَ الطَّرَفَ الآخَرَ الَّذِي يُفَسِّرُهُ وَيُوَضِّحُهُ. وَيَأْخُذُونَ بِطَرَفٍ مِنَ الأَدِلَّةِ مُتَشَابِهٍ وَيَتْرُكُونَ الطَّرَفَ المُحْكَمَ الَّذِي يُبَيِّنُهُ وَيُوَضِّحُهُ، هَذِهِ طَرِيقَةُ أَهْلِ الزَّيْغِ، وَطَرِيقَةُ المُتَعَالِمِينَ وَالجُهَّالِ الَّذِينَ يَدَّعُونَ العِلْمَ وَلا يَعْرِفُونَ طَرِيقَةَ الاسْتِدْلالِ وَقَوَاعِدَ الاسْتِدْلالِ، فَيُحَرِّمُونَ وَيُحَلِّلُونَ دُونَ بَصِيرَةٍ وَالعِيَاذُ بِاللهِ؛ لأَنَّهُم مَا سَلَكُوا المَنْهَجَ العِلْمِيَّ، وَإِنَّمَا تَعَلَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَوْ عَلَى كُتُبِهِمْ، أَوْ عَلَى مَنْ هُوَ مِثْلُهُمْ فِي الجَهْلِ.

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ(٢/٩٤٣رقم١٢٩٧) عن جابر ﷺ.

[٦٧] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالكَلَامُ وَالجِدَالُ وَالخُصُومَةُ فِي القَدَرِ خَاصَّةً مَنْهِيٌّ عَنْهُ عِنْدَ جَمِيعِ الفِرَقِ؛ لِأَنَّ القَدَرَ سِرُّ اللهِ، وَنَهَى الرَّبُّ جَلَّ تَعَالَى الأَنْبِيَاءَ عَنِ الكَلَامِ فِي القَدَرِ، وَنَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الخُصُومَةِ فِي القَدَرِ، وَكَرِهَهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ و﵁، وَكَرِهَهُ التَّابِعُونَ، وَكَرِهَهُ العُلَمَاءُ وَأَهْلُ الوَرَعِ، وَنَهَوا عَنِ الجِدَالِ فِي القَدَرِ، فَعَلَيْكَ بِالتَّسْلِيمِ وَالإِقْرَارِ وَالإِيمَانِ، وَاعْتِقَادِ مَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي جُمْلَةِ الأَشْيَاءِ وَاسْكُتْ عَمَّا سِوَى ذَلِكَ.

الشَّرْحُ:

مِنْ أُصُولِ الإِيمَانِ وَأَرْكَانِ الإِيمَانِ: الإِيمَانُ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ، وَالقَضَاءُ وَالقَدَرُ هو: مَا قَضَاهُ اللهُ وَقَدَّرَهُ فِي الأَزَلِ مِنَ الحَوَادِثِ الَّتِي تَقَعُ، وَكُلُّ مَا يَحْدُثُ فَإِنَّهُ لَمْ يَحْدُثِ اعْتِبَاطاً، أَوْ دُونَ سَابِقَةِ تَقْدِيرٍ مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؛ بَلِ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلِمَ مَا كَانَ، وَمَا يَكُونُ، مَا كَانَ فِي المَاضِي، وَمَا يَكُونُ فِي المُسْتَقْبَلِ، ثُمَّ كَتَبَ ذَلِكَ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ، فـ**«أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ؛ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، فَجَرَى القَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»**[(١)].

---

(١) رواه أبو داود في سننه(رقم٤٧٠٠)، والطَّبَرانيُّ في مسند الشاميين(رقم٥٩)، والبيهقيُّ في السنن الكبرى(١٠/٢٠٤)، وصحَّحه الضياء في المختارة(رقم٣٣٦)، ورواه بنحوه الطيالسي في مسنده(رقم٥٧٧)، والإمام أحمد في المسند(٥/٣١٧)، والترمذيُّ في سننه(رقم٢١٥٥، ٣٣١٩) والفريابي في كتاب القدر(رقم٤٢٥)، وابن أبي عاصم في السنة(رقم١٠٧) والآجُرِّيُّ في الشريعة(رقم١٨٠، ٣٤٦) وغيرهم

وكان خلقُ القلم سابقًا **لِخَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وكَانَ عَرْشُ اللهِ جَلَّ وَعَلا عَلَى المَاءِ**[1]، وَمِنْ هُنَا أُشْكِلَ عَلَى العُلَمَاءِ: هَلِ العَرْشُ مَخْلُوقٌ قَبْلَ القلم، أَوْ أَنَّ القَلَمَ مَخْلُوقٌ قَبْلَ العَرْشِ؟ وَالصَّحِيحُ[2]: أَنَّ العَرْشَ مَخْلُوقٌ قَبْلَ القَلَمِ؛ لأَنَّهُ وَقْتَ خَلْقِ اللهِ لَهُ وَأَمْرِهِ بِالكِتَابَةِ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، ولِهَذَا يَقُولُ العَلاَّمَةُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ:

والنَّاسُ مُخْتَلِفُونَ فِي القَلَمِ الَّذِي	كُتِبَ القَضَاءُ بِهِ مِنَ الدَّيَّانِ
هَلْ كَانَ قَبْلَ العَرْشِ أَوْ هُوَ بَعْدَهُ	قَوْلانِ عِنْدَ أَبِي العَلا الهَمَذَانِي
وَالحَقُّ أَنَّ العَرْشَ كَانَ قَبْلُ لأَنَّهُ	قَبْلَ الكِتَابَةِ كَانَ ذَا أَرْكَانِ
وكِتَابَةُ القَلَمِ الشَّرِيفِ تَعَقَّبَتْ	إِيجَادَهُ مِنْ غَيْرِ فَرْقِ زَمَانِ[3]

والكلامُ فِي القَدَرِ قَدْ سَبَقَ، ولَكِنَّ المرادَ الآنَ النَّهْيُ عنِ الخَوضِ فِيْهِ.

قَوْلُهُ: **(وَالكَلاَمُ وَالجِدَالُ وَالخُصُومَةُ فِي القَدَرِ خَاصَّةً مَنْهِيٌّ عَنْهُ)**

عَرَفْنَا أَنَّ الإِيْمَانَ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ بِدَرَجَاتِهِ أَنَّهُ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الإِيْمَانِ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالقَضَاءِ والقَدَرِ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ؛ لأَنَّهُ جَحَدَ رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ الإِيْمَانِ.

---

(1) رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(4/2044رقم2653) عَنْ عَبْدِاللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العَاصِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى كَتَبَ مَقَادِيرَ الخَلائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ» قَالَ: «وَعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ».

(2) وَهُوَ قولُ جمهورِ العُلَمَاءِ؛ انْظُرْ: بُغْيَةَ المُرْتَادِ لشيخِ الإسْلامِ ابنِ تيميةَ(ص/285- 295)، والبدايةَ والنهايةَ للإمامِ ابنِ كَثِيرٍ(1/8- 9)

(3) انْظُرْ: شَرْحَ نُونِيَّةِ ابنِ القَيِّمِ للعلامةِ ابنِ عِيسَى(1/275).

وَكَذَلِكَ لا يَجُوزُ الجِدَالُ فِي القَضَاءِ وَالقَدَرِ، لِمَاذَا يُعَذِّبُ اللهُ كَذَا؟ لِمَاذَا يَفْعَلُ اللهُ كَذَا؟ كَمَا سَبَقَ أَنَّهُ لا يُقَالُ: لِمَ؟ وَكَيْفَ؟، فَلا يُعْتَرَضُ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلا تَدْخُلَ فِي القَضَاءِ وَالقَدَرِ بِالجِدَالِ فَإِنَّكَ لَنْ تَصِلَ إِلَى نَتِيجَةٍ، عَلَيْكَ التَّسْلِيمُ وَالإِيمَانُ وَلا تَدْخُلْ فِي أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ اللهِ، هَذَا لا يَعْلَمُهُ إِلاَّ اللهُ جَلَّ وَعَلا، وَلا تَنْتَهِي إِلَى نَتِيجَةٍ، وَلِهَذَا يُقَالُ: **«القَدَرُ سِرُّ اللهِ»**[1] فَسِرُّ اللهِ لا يُدْرَكُ وَلا يُحَاطُ بِهِ أَبَداً، فَلا تَدْخُلْ فِيهِ، عَلَيْكَ أَنْ تُؤْمِنَ بِمَا جَاءَ فِي النُّصُوصِ مِنَ القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَتَقِفَ عِنْدَ هَذَا، وَتَتَوَجَّهَ إِلَى العَمَلِ الصَّالِحِ وَتَرْكِ الذُّنُوبِ وَالمَعَاصِي، وَلا تَقُلْ: إِنْ كَانَ اللهُ قَدَّرَ لِي أَنِّي مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ صِرْتُ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ وَلَوْ مَا عَمِلْتُ شَيْئاً، إِنْ كَانَ اللهُ قَدَّرَ لِي أَنِّي مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَسَأَكُونُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَهَذَا كَلامٌ بَاطِلٌ.

فَلا يَجُوزُ الدُّخُولُ فِي هَذِهِ الأُمُورِ؛ لأَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِ العِبَادِ، هَذَا مِنْ شَأْنِ اللهِ، أَنْتَ مِنْ شَأْنِكَ العَمَلُ، هَذَا هُوَ المطلوبُ مِنْكَ، أَمَّا الدُّخُولُ فِي القَضَاءِ وَالقَدَرِ فَهُوَ دُخُولٌ فِي مَتَاهَةٍ لا يَخْرُجُ مِنْهَا العَبْدُ أَبَداً.

قَوْلُهُ: **(مَنْهِيٌّ عَنْهُ عِنْدَ جَمِيعِ الفِرَقِ؛ لأَنَّ القَدَرَ سِرُّ اللهِ)** عِنْدَ جَمِيعِ الأُمَمِ؛ لأَنَّ القَدَرَ سِرُّ اللهِ، وَالسِّرُّ لا يُمْكِنُ الإِحَاطَةُ بِهِ، اللهُ جَلَّ وَعَلا يَقُولُ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَلَا

---

(١) قَالَ ابنُ عَبْدِالبَرِّ فِي الاسْتِذْكَارِ (٢٦٣/٨): «وَقَالَ العُلَمَاءُ وَالحُكَمَاءُ قَدِيماً: القَدَرُ سِرُّ اللهِ فَلا تَنْظُرُوا فِيهِ».

يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠]، لا تَدْخُلْ في شُؤُونِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، عَلَيْكَ بِشُؤُونِ نَفْسِكَ، عَلَيْكَ بِالعَمَلِ الصَّالِحِ وَتَرْكِ الذُّنُوبِ، وبالتَّوبَةِ منها، وَصَفِّ حِسابَكَ ما دُمْتَ على قَيْدِ الحَياةِ، اشْتَغِلْ مَعَ نَفْسِكَ، أمَّا أنْ تُشْغِلَ نَفْسَكَ بالقَضاءِ والقَدَرِ ولِماذا كانَ؟ ولِماذا يَكُونُ؟ وإنْ كانَ اللهُ مُقَدِّرَ المَقادِيرِ فَأنا لَسْتُ بِحاجَةٍ لِلْعَمَلِ، هذا كُلُّهُ كَلامٌ باطِلٌ، ولا قِيمَةَ لَهُ، ولَمَّا قالَ الصَّحابَةُ لِلرَّسُولِ ﷺ: ألا نَتَّكِلُ عَلَى كِتابِنا؟ ما قُدِّرَ لَنا، قالَ: **«اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ لَهُ»** فَأنْزَلَ اللهُ تَعالَى ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٤- ١٠][1]، فَأنْتَ تَفْعَلُ السَّبَبَ إمَّا في نَجاةِ نَفْسِكَ، وإمَّا في هَلاكِها، بِأفْعالِكَ الَّتي تَفْعَلُها بِاخْتِيارِكَ وَإرادَتِكَ، قالَ ﷺ: **«كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو؛ فَمُعْتِقٌ نَفْسَهُ أوْ مُوبِقُها»**[2].

قَوْلُهُ: **(وَنَهَى الرَّبُّ جَلَّ تَعالَى الأنْبِياءَ عَنِ الكَلامِ في القَدَرِ)** نَهَى اللهُ الخَلْقَ الأنْبِياءَ وَغَيْرَهُمْ عَنِ الكَلامِ في القَدَرِ، وَالأنْبِياءُ ما ذُكِرَ عَنْهُمْ أنَّهُمُ اعْتَرَضُوا عَلَى القَدَرِ أبَداً؛ لأنَّهُمْ يَعْلَمُونَ عَظَمَةَ اللهِ جَلَّ وَعَلا وَحِكْمَتَهُ، وَيَسْتَسْلِمُونَ وَيَتَأدَّبُونَ مَعَ اللهِ جَلَّ وَعَلا، وَلا يَسْألُونَ عَنْ شَيْءٍ لَيْسَ لَهُمْ فِيهِ مَصْلَحَةٌ وَلا مَنْفَعَةٌ، فَالأنْبِياءُ لَمْ يَسْألُوا عَنْهُ، وَكَذلِكَ لَمْ يَسْألْ عَنْهُ أتْباعُ الأنْبِياءِ أبَداً.

---

(١) رَواهُ البُخارِيُّ في صَحِيحِهِ(٤/١٨٩٠رقم٤٦٦١)، وَمُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ(٤/٢٠٣٩رقم٢٦٤٧) عن عليٍّ ﷺ.

(٢) رَواهُ مُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ(١/٢٠٣رقم٢٢٣) عن أبي مالكٍ الأشعري ﷺ.

إنما كَانَ الأنْبِيَاءُ وأتْبَاعُهُمْ يَتَّجِهُونَ إِلَى العَمَلِ، ويَعْتَنُونَ بِهِ، وما كَانُوا يَسْأَلُونَ عَنِ القَضَاءِ والقَدَرِ، إلاَّ مِنْ بَابِ الاعْتِقَادِ وَالإِيمَانِ بِهِ.

وَالإِيمَانُ بِالقَضَاءِ والقَدَرِ يُرِيحُكَ مِنَ الشُّكُوكِ وَالأَوْهَامِ وَالأَحْزَانِ، قَالَ ﷺ: **«اعْلَمْ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ»**[1] فَلا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ لَكَانَ كَذَا وكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ[2].

قَوْلُهُ: **(وَنَهَى النَّبِي ﷺ عَنِ الخُصُومَةِ فِي القَدَرِ، وكَرِهَهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وﷺ، وكَرِهَهُ التَّابِعُونَ، وكَرِهَهُ العُلَمَاءُ وَأَهْلُ الوَرَعِ)** لَمَّا ظَهَرَتِ القَدَرِيَّةُ فِي أَوَاخِرِ عَصْرِ الصَّحَابَةِ أَنْكَرَ الصَّحَابَةُ عَلَيْهِم غَايَةَ الإِنْكَارِ، وَحَذَّرُوا مِنْهُمْ، وَبَيَّنُوا أَنَّ العَبْدَ عَلَيْهِ أَنْ يُؤْمِنَ بِأَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، وَأَنَّ مَنْ لَمْ يَعْتَقِدْ هَذَا فَإِنَّ اللهَ يُحْرِقُهُ بِالنَّارِ[3]. هَكَذَا اتَّفَقَتْ كَلِمَتُهُمْ لَمَّا ظَهَرَتْ فِرْقَةُ القَدَرِيَّةِ فِي وَقْتِهِمْ.

---

(١) سبق تخريجه (ص/٢٩٢) من حديث عبادة ﷺ، (ص/٣٢٠) من حديث ابن عباس ﷺ.

(٢) عن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: **«المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وفي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ على ما يَنْفَعُكَ، واسْتَعِنْ باللهِ ولا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلا تَقُلْ: لو أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ، وما شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لو تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»** رواه مسلم في صحيحه (٤/٢٠٥٢ رقم ٢٦٦٤).

(٣) عن عبدالله بن فيروز الديلمي قال: وَقَعَ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنْ هَذَا القَدَرِ خَشِيتُ أَنْ يُفْسِدَ عَلَيَّ دِينِي وَأَمْرِي، فَأَتَيْتُ أُبَيَّ بنَ كَعْبٍ، فَقُلْتُ: أَبَا المُنْذِرِ، إِنَّهُ قَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنْ هَذَا القَدَرِ، فَخَشِيتُ عَلَى دِينِي وَأَمْرِي، فَحَدِّثْنِي مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَنْفَعَنِي بِهِ فَقَالَ: لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْراً لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ كَانَ لَكَ مِثْلُ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَباً أَوْ مِثْلُ جَبَلِ أُحُدٍ تُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا قُبِلَ مِنْكَ حَتَّى =

قَوْلُهُ: **(فَعَلَيْكَ بِالتَّسْلِيمِ وَالإِقْرَارِ وَالإِيمَانِ)** هَذَا هُوَ الوَاجِبُ عَلَيْكَ نَحْوَ القَضَاءِ والقَدَرِ: التَّسْلِيمُ لِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، وَعَدَمُ الاعْتِرَاضِ عَلَيْهِ، وَاعْتِقَادُ أَنَّ اللهَ لا يَفْعَلُ شَيْئاً إِلاَّ لِحِكْمَةٍ، وَأَنَّهُ لا يُعَذِّبُ أَحَداً إِلاَّ بِعَمَلِهِ، فَالخَلَلُ إِنَّمَا هُوَ مِنْ عِنْدِكَ أَنْتَ، بَدَلَ أَنْ تَلُومَ القَدَرَ؛ عَلَيْكَ أَنْ تَلُومَ نَفْسَكَ، وَأَنْ تَتُوبَ إِلَى اللهِ. فَلا أَحَدَ يَمْنَعُ مِنَ التَّوْبَةِ، وَاللهُ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ مِمَّنْ تَابَ، فَلِمَاذَا تُشْغِلُ نَفْسَكَ بِشَيْءٍ لَيْسَ لَكَ مِنْهُ مَصْلَحَةٌ؟!!

فَعَلَيْكَ بِالتَّسْلِيمِ وَالانْقِيَادِ، وَعَدَمَ الخَوْضِ فِيمَا لا يَعْنِيكَ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ ﷺ: **«مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ»**[1].

= تُؤْمِنَ بِالقَدَرِ فَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، **وَإِنَّكَ إِنْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا دَخَلْتَ النَّارَ**. وَلا عَلَيْكَ أَنْ تَأْتِيَ أَخِي عَبْدَاللهِ بنَ مَسْعُودٍ فَتَسْأَلَهُ. فَأَتَيْتُ عَبْدَاللهِ فَسَأَلْتُهُ، فَذَكَرَ مِثْلَ مَا قَالَ أُبَيٌّ، وَقَالَ لِي: وَلا عَلَيْكَ أَنْ تَأْتِيَ حُذَيْفَةَ، فَأَتَيْتُ حُذَيْفَةَ فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ مِثْلَ مَا قَالا، وَقَالَ: ائْتِ زَيْدَ بنَ ثَابِتٍ فَاسْأَلْهُ، فَأَتَيْتُ زَيْدَ بنَ ثَابِتٍ فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **((لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْراً لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ كَانَ لَكَ مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَباً أَوْ مِثْلُ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَباً تُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْكَ، حَتَّى تُؤْمِنَ بِالقَدَرِ كُلِّهِ، فَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَأَنَّكَ إِنْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا دَخَلْتَ النَّارَ))** رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي المُسْنَدِ (٥/ ١٨٥-١٨٩) وَأَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ (رقم ٤٦٩٩) وَابْنُ مَاجَهْ فِي سُنَنِهِ (رقم ٧٧) وَاللَّفْظُ لَهُ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَشَيْخُ الإِسْلامِ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِالوَهَّابِ فِي كِتَابِ التَّوْحِيدِ (بَاب رقم ٥٩).

(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ (٥٥٨/٤ رقم ٢٣١٧) وَقَالَ: غَرِيبٌ. وَابْنُ مَاجَهْ فِي سُنَنِهِ (١٣١٥/٢ رقم ٣٩٧٦)، وَالبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الإِيمَانِ (٢٥٥/٤ رقم ٤٩٨٧)، وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ (٤٦٦/١ رقم ٢٢٩) وَغَيْرُهُمْ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ.

قوله: **(واعتقاد ما قال رسول الله ﷺ في جملة الأشياء، واسكت عما سوى ذلك)** أي: اعتقد ما قاله الرسول ﷺ؛ لأنه لا ينطق عن الهوى، ولا تتهم الأحاديث، أو تشك فيها ما دامت أنها ثابتة عن الرسول ﷺ، فليست مجالاً للتردد، ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وأمثال هذه الآيات، فالواجب عليك: الامتثال والتسليم والانقياد.

(في جملة الأشياء) يعني في كل الأشياء، الرسول ﷺ بلغ عن الله كل ما يحتاجه الناس من أمور دينهم، وبينه، وأكمل الله به الدين، ولا خير إلا دل أمته عليه، ولا شر إلا حذرها منه، وتركها على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

(واسكت عما سوى ذلك) هذا كما في الحديث: **«إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها»**[1] أنت لا تسأل إلا عن شيء؛

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير(٢٢/٢٢١رقم٥٨٩)، والدارقطني في سننه(٤/١٨٤)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين(٤/١٢٩)، والبيهقي في السنن الكبرى(١٠/١٢)، وغيرهم عن أبي ثعلبة الخشني ﷺ، وقد صحح متن الحديث: الحافظ ابن كثير في تفسيره(١/٢٧٨).

تحتاجُهُ في دينِكَ أوْ دُنياكَ، و«**مِنْ حُسْنِ إسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ**»، أمَّا ما لا تحتاجُ إليهِ فالسُّؤالُ عنهُ مِنَ الفضُولِ، والنَّبيُّ ﷺ **نَهَى عَنْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةِ المَالِ**[1]؛ فتكونُ أسئلتُكَ بقدرِ حاجتِكَ، ولا تسألْ عمَّا لا تحتاجُ.

❁ ❁ ❁

(١) رَوَاهُ البُخاريُّ في صَحيحِهِ(٢/٥٣٧رقم١٤٠٧)، وَمُسْلِمٌ في صَحيحِهِ(٣/١٣٤١رقم٥٩٣) عن المغيرة بن شعبة ﷺ.

[٦٨] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيمَانُ بِأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُسْرِيَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَصَارَ إِلَى الْعَرْشِ وَكَلَّمَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَدَخَلَ الْجَنَّةَ، وَاطَّلَعَ إِلَى النَّارِ، وَرَأَى الْمَلَائِكَةَ، وَسَمِعَ كَلَامَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَنُشِرَتْ لَهُ الأَنْبِيَاءُ، وَرَأَى سُرَادِقَاتِ الْعَرْشِ وَالْكُرْسِيِّ وَجَمِيعَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِينَ فِي الْيَقَظَةِ، حَمَلَهُ جِبْرِيلُ عَلَى الْبُرَاقِ حَتَّى أَدَارَهُ فِي السَّمَوَاتِ، وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَرَجَعَ إِلَى مَكَّةَ لَيْلَتِهِ، وَذَلِكَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: **(والإِيمَانُ بِأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُسْرِيَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ)** هَذَا مِنْ مُعْجِزَاتِ الرَّسُولِ ﷺ، فَمِنَ الإِيمَانِ بِالرَّسُولِ ﷺ: الإِيمَانُ بِمُعْجِزَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِ رِسَالَتِهِ ﷺ، وأَعْظَمُ مُعْجِزَاتِهِ: القُرْآنُ، وَالسُّنَّةُ، هَذِهِ أَعْظَمُ مُعْجِزَاتِ الرَّسُولِ ﷺ، وَهِيَ الْمُعْجِزَةُ البَاقِيَةُ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ.

وَكَذَلِكَ مِنْ مُعْجِزَاتِهِ ﷺ: الإِسْرَاءُ وَالْمِعْرَاجُ، الإِسْرَاءُ: وَهُوَ السَّيْرُ فِي اللَّيْلِ، والْمِعْرَاجُ: وَهُوَ الصُّعُودُ. وَقَدْ أُسْرِيَ بِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فِي مَكَّةَ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى فِي فِلَسْطِينَ، فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ، بِصُحْبَةِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ. وَكَيْفَ أَنَّهُ سَارَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ مَكَّةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ؟ هَذَا بِقُدْرَةِ اللهِ جَلَّ

وعَلا التِي لا يُعجِزُهَا شَيءٌ، لا بِقُدرَتِهِ هُوَ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ. بَلْ بِقُدرَةِ اللهِ التِي لا يُعجِزُهَا شَيءٌ، أُتِيَ بِالبُرَاقِ وهِي دَابَّةٌ سَرِيعَةُ المَشْي، خَطْوُهَا عِنْدَ مَدِّ بَصرِهَا، فَرَكِبَهَا النَّبِيُّ ﷺ وَصَحِبَهُ جِبْرِيلُ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ، هَذَا هُوَ الإِسْرَاءُ.

وأَمَّا المِعْرَاجُ: فَقَدْ عُرِجَ بِهِ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ إِلَى السَّمَاءِ، وَجَاوَزَ السَّبْعَ الطِّبَاقَ وَانْتَهَى إِلَى سِدْرَةِ المُنْتَهَى، وَسَمِعَ كَلامَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَمَرَهُ بِالصَّلاةِ، وَرَأَى فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ الجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَرَأَى فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ الرُّسُلَ وَالأَنْبِيَاءَ فِي السَّمَوَاتِ، وَجَمَعَهُمُ اللهُ لَهُ، وَصَلَّى بِهِمْ؛ إِظْهَاراً لِفَضْلِهِ عَلَيْهِمْ، وَفَرَضَ اللهُ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ وَهُوَ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ نَزَلَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ، ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ إِلَى مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَأَصْبَحَ فِي مَكَّةَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ.

وَكَانَ الإِسْرَاءُ وَالمِعْرَاجُ بِجِسْمِهِ وَرُوحِهِ[1]، لَمْ يَكُنْ بِرُوحِهِ فَقَطْ كَمَا يَقُولُهُ بَعْضُ المُنْكِرِينَ أَوِ المُسْتَغْرِبِينَ لِهَذَا الشَّيْءِ، وَيَقُولُونَ إِنَّهُ أُسْرِيَ بِرُوحِهِ دُونَ جِسْمِهِ. وَلَيْسَ الإِسْرَاءُ مَنَاماً يَعْنِي حُلْماً، وَلَكِنَّهُ يَقَظَةٌ، أُسْرِيَ بِهِ ﷺ فِي اليَقَظَةِ وَلَيْسَ مَنَاماً، وَهُوَ مُعْجِزَةٌ مِنْ مُعْجِزَاتِهِ ﷺ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ لأَيِّ شَيْءٍ؟ ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾

(1) انظر: تفسير ابن كثير(٣/٢٣- ٢٤)، وفتح الباري(١/٤٦٠)، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز(ص/٢٤٥- ٢٤٦)

[الإسراء: ١]، وَرَأى فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ العَجَائِبَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٨]، وَفِي سُورَةِ الإِسْرَاءِ يَقُولُ: ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾ فَرَأى ﷺ مِنْ آيَاتِ اللهِ فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ المُبَارَكَةِ مَا رَأى، فَيَجِبُ عَلَى المُسْلِمِ أَنْ يُؤْمِنَ بِذَلِكَ، وَأَنْ يُصَدِّقَ بِهِ، وَأَنْ لا يَعْتَرِيهِ أَدْنَى شَكٍّ فِي ذَلِكَ، وَمَنْ أَنْكَرَهُ فَإِنَّهُ يَكُونُ كَافِراً؛ لأَنَّهُ مُكَذِّبٌ للهِ ومُكَذِّبٌ لِلرَّسُولِ ﷺ، ومُكَذِّبٌ لإِجْمَاعِ المُسْلِمِينَ.

قَوْلُهُ: **(وَدَخَلَ الجَنَّةَ وَاطَّلَعَ إِلَى النَّارِ)** دَخَلَ الجَنَّةَ، وَرَأى مَا فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ، وَاطَّلَعَ عَلَى النَّارِ وَرَأى مَا فِيهَا مِنَ العَذَابِ؛ لأَنَّ اللهَ يُرِيدُ أَنْ يُرِيَهُ مِنْ آيَاتِهِ.

قَوْلُهُ: **(وَرَأى المَلائِكَةَ)** رَأى جِبْرِيلَ عَلَى خِلْقَتِهِ المَلَكِيَّةِ لَهُ ثَلاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ جَنَاحاً، كُلُّ جَنَاحٍ سَدَّ الأُفُقَ. فَالمَلَكُ خِلْقَتُهُ عَظِيمَةٌ، وَجِبْرِيلُ هُوَ أَعْظَمُ المَلائِكَةِ، وَسَيِّدُ المَلائِكَةِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ. فَرَأى المَلائِكَةَ، وَرَأى الرُّسُلَ وَهُمْ أَمْوَاتٌ، جَمَعَهُمُ اللهُ لَهُ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

قَوْلُهُ: **(وَرَأى سُرَادِقَاتِ العَرْشِ وَالكُرْسِيِّ)** وَرَأى مَا حَوْلَ العَرْشِ، وَمَا حَوْلَ الكُرْسِيِّ، وَهُمَا مَخْلُوقَانِ عَظِيمَانِ أَعْظَمُ المَخْلُوقَاتِ وَمَا حَوْلَهُمَا.

قَوْلُهُ: **(وَجَمِيعَ مَا فِي السَّمَوَاتِ فِي اليَقَظَةِ)** هَذَا رَدٌّ عَلَى الَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّهُ مَنَامٌ، وَلَو كَانَ مَنَاماً لَمَا اسْتَنْكَرَهُ الكُفَّارُ، لأَنَّ الرُّؤْيَا لا تُسْتَنْكَرُ، هُمُ اسْتَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ يَقَظَةً. واللهُ جَلَّ وَعَلا يَقُولُ: ﴿ أَسْرَىٰ

يَعْبُدُوهُ ﴾ والعَبْدُ اسْمٌ لِلرُّوحِ وَالجِسْمِ مَعاً، فَالرُّوحُ وَحْدَهَا لا تُسَمَّى عَبْداً، الجِسْمُ وَحْدَهُ بِدُونِ رُوحٍ لا يُسَمَّى عَبْداً، فَلا يُسَمَّى عَبْداً إلاّ لِلْجِسْمِ وَالرُّوحِ مَعاً.

قَوْلُهُ: **(حَمَلَهُ جِبْرِيلُ عَلَى البُرَاقِ)** البُرَاقُ دَابَّةٌ.

قَوْلُهُ: **(وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ)** وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى عِظَمِ هَذِهِ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ، أنها فُرِضَتْ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ فِي السَّمَاءِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ بِدُونِ واسِطَةٍ، خِلافَ بَقِيَّةِ الشَّرَائِعِ فَإِنَّهَا كَانَتْ تَنْزِلُ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ فِي الأَرْضِ بِوَاسِطَةِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلام. فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى عِظَمِ قَدْرِ هَذِهِ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَكَانَ زَمَنُ الإِسْرَاءِ قَبْلَ الهِجْرَةِ إِلَى المَدِينَةِ، وَصَلَّى الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ فِي مَكَّةَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ.

قَوْلُهُ: **(وَرَجَعَ إِلَى مَكَّةَ لَيْلَتَهُ، وَذَلِكَ قَبْلَ الهِجْرَةِ)** وَرَجَعَ إِلَى مَكَّةَ لَيْلَتَهُ، وَلِذَلِكَ الكُفَّارُ اسْتَغْرَبُوا هَذَا، وَفَرِحُوا بِذِكْرِ هَذَا الحَادِثِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَنَقَّصُوا الرَّسُولَ ﷺ، وَيَتَهَكَّمُوا بِهِ، وَيَسْخَرُوا مِنْهُ، فَاللهُ جَلَّ وَعَلا رَدَّ كَيْدَهُمْ وَصَدَّقَ رَسُولَهُ ﷺ، وَأَنْزَلَ فِي ذَلِكَ القُرْآنَ.

❀ ❀ ❀

[٦٩] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: واعلَمْ أنَّ أرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَسْرَحُ فِي الجَنَّةِ، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ تَحْتَ العَرْشِ، وَأَرْوَاحَ الفُجَّارِ وَالكُفَّارِ فِي بِئْرِ بَرَهُوتَ، وَهِيَ فِي سِجِّينٍ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: **(واعلَمْ أنَّ أرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَسْرَحُ فِي الجَنَّةِ)** فَإِنَّ الرُّوحَ الَّتِي بِهَا يَحْيَى الإِنْسَانُ وَيَتَحَرَّكُ وَيُدْرِكُ؛ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ اللهِ جَلَّ وَعَلا، لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ اللهُ، أَيْ: لا يَعْلَمُ حَقِيقَتَهَا إِلاَّ اللهُ جَلَّ وَعَلا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]، عَلَى أَنَّ المُرَادَ بِالرُّوحِ هُنَا: مَا يَحْيَى بِهِ الإِنْسَانُ وَالحَيَوَانُ وَسَائِرُ ذَوَاتِ الأَرْوَاحِ، وَقِيلَ: إِنَّ المُرَادَ بِالرُّوحِ: نَوْعٌ مِنَ المَلائِكَةِ. وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَالرُّوحُ فِي اللُّغَةِ: تُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهَا مَا بِهِ حَيَاةُ ذَوَاتِ الأَرْوَاحِ؛ لأَنَّ الحَيَاةَ عَلَى قِسْمَيْنِ:

- حَيَاةُ حَرَكَةٍ، وَهَذِهِ تَكُونُ فِي ذَوَاتِ الأَرْوَاحِ.
- وَحَيَاةُ نُمُوٍّ، وَهَذِهِ تَكُونُ فِي الأَشْجَارِ وَالنَّبَاتَاتِ[١]، وَمِنْهَا: حَيَاةُ الجَنِينِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ قَبْلَ أَنْ تُنْفَخَ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِذَا نُفِخَتْ فِيهِ الرُّوحُ صَارَتْ فِيهِ رُوحُ الحَرَكَةِ، أَمَّا قَبْلَ ذَلِكَ فَفِيهِ رُوحُ النُّمُوِّ.

(١) انظر لأنواع الحياة: زاد المعاد(٥/٧٥٥)

وَقدْ اضْطَرَبَ المُتَكَلِّمُونَ وَالفلاسِفةُ فِي حَقِيْقَة الرُّوحِ وَعَجِزُوا عَنْ إدْرَاكِهَا، تَخَبَّطُوا فِيْهَا تَخَبُّطَاتٍ كَثِيْرةٍ وَعَجِزُوا عَنْ إدْرَاكِهَا.

[٧٠] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيمَانُ بِأَنَّ الْمَيِّتَ يُقْعَدُ فِي قَبْرِهِ، وَتُرْسَلُ فِيهِ الرُّوحُ حَتَّى يَسْأَلَهُ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ عَنِ الإِيمَانِ وَشَرَائِعِهِ، ثُمَّ تُسَلُّ رُوحُهُ بِلاَ أَلَمٍ.

[٧١] وَيَعْرِفُ الْمَيِّتُ الزَّائِرَ إِذَا زَارَهُ، وَيَتَنَعَّمُ الْمُؤْمِنُ فِي الْقَبْرِ، وَيُعَذَّبُ الْفَاجِرُ كَيْفَ شَاءَ اللهُ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: **(وَالإِيمَانُ بِأَنَّ الْمَيِّتَ يُقْعَدُ فِي قَبْرِهِ)** يَجِبُ الإِيمَانُ بِأَنَّ الْمَيِّتَ يُقْعَدُ جَالِساً فِي قَبْرِهِ، وَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ: أَحَدُهُمَا مُنْكَرٌ، وَالآخَرُ النَّكِيرُ؛ فَيَسْأَلانِهِ وَهَذِهِ هِيَ الْفِتْنَةُ فِي الْقَبْرِ، وَهِيَ أَشَدُّ مَا عَلَى الْمَيِّتِ، إِنْ نَجَا مِنْ هَذِهِ الْفِتْنَةِ نَجَا مِمَّا بَعْدَهَا، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْ هَذِهِ الْفِتْنَةِ فَهُوَ هَالِكٌ لا نَجَاةَ لَهُ. يَسْأَلانِهِ عَنْ ثَلاثِ مَسَائِلَ؛ مَنْ رَبُّكَ؟ فَالْمُؤْمِنُ يَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، الْمُنَافِقُ يَقُولُ: هَا هَا لا أَدْرِي، ثُمَّ يَقُولانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ الْمُؤْمِنُ يَقُولُ: دِينِيَ الإِسْلامُ، وَالْمُنَافِقُ وَالْمُرْتَابُ يَقُولُ: هَا هَا لا أَدْرِي، ثُمَّ يَقُولانِ له: مَنْ نَبِيُّكَ؟ الْمُؤْمِنُ يَقُولُ: نَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ، الْمُنَافِقُ يَقُولُ: هَا هَا لا أَدْرِي.

فَالْمُؤْمِنُ يُوَسَّعُ لَهُ فِي قَبْرِهِ، وَيُفْرَشُ لَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ، وَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيَتَنَعَّمُ فِي قَبْرِهِ.

وَالكَافِرُ والمُنَافِقُ: يُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، وَيُفْرَشُ مِنَ النَّارِ، وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ وَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا.

وهذا مَعْنَى قَوْلِهِ: **(وَتُرْسَلُ فِيهِ الرُّوحُ حَتَّى يَسْأَلَهُ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ عَنِ الإِيمَانِ وَشَرَائِعِهِ)**.

قَوْلُهُ: **(وَيَعْرِفُ المَيِّتُ الزَّائِرَ إِذَا زَارَهُ)** وَلِذَلِكَ تُشْرَعُ زِيَارَةُ القُبُورِ لأَنَّ المَيِّتَ يَأْنَسُ بِزَائِرِهِ، وَهَذَا مِنْ أُمُورِ البَرْزَخِ، نَحْنُ لا نَقُولُ فِي أُمُورِ الآخِرَةِ وَأُمُورِ البَرْزَخِ إِلاَّ مَا ثَبَتَ بِهِ الدَّلِيلُ؛ لأَنَّهُ مِنْ عِلْمِ الغَيْبِ الَّذِي لا يَعْلَمُهُ إِلاَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى. وَلا يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا أَنَّ المَيِّتَ يُطْلَبُ مِنْهُ شَيْءٌ، فَيُقَالُ: مَا دَامَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَنْ يَأْتِي إِلَيْهِ لِمَاذَا لا نَطْلُبُ مِنْهُ حَوَائِجَنَا؟ نَقُولُ: هَذَا لَمْ يَشْرَعْهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى، المَيِّتُ لا يُطْلَبُ مِنْهُ شَيْءٌ، مَا كَانَ الصَّحَابَةُ يَطْلُبُونَ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ شَيْئاً؛ مَعَ أَنَّهُ حَيٌّ فِي قَبْرِهِ ﷺ حَيَاةً بَرْزَخِيَّةً لَيْسَتْ هِيَ حَيَاةً دُنْيَوِيَّةً.

قَوْلُهُ: **(وَيَتَنَعَّمُ المُؤْمِنُ فِي القَبْرِ، وَيُعَذَّبُ الفَاجِرُ كَيْفَ شَاءَ اللهُ)** مِنْ أُصُولِ الإِيمَانِ: الإِيمَانُ بِعَذَابِ القَبْرِ أَوْ نَعِيمِهِ، خِلافاً لِلْمُعْتَزِلَةِ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ هَذَا، يَقُولُونَ: المَيِّتُ فِي قَبْرِهِ مِثْلُ مَا وَضَعْنَاهُ لَيْسَ عِنْدَهُ عَذَابٌ وَلا نَعِيمٌ. يَعْتَمِدُونَ عَلَى عُقُولِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَتَفْكِيرِهِمْ، وَلا يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ، وَلا تُقَاسُ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ، أَوِ الآخِرَةُ بِالدُّنْيَا، فَعَلَيْكَ أَنْ تُؤْمِنَ بِالغَيْبِ.

وَعَذَابُ القَبْرِ وَنَعِيمُ القَبْرِ ثَابِتٌ، بَلْ مُتَوَاتِرٌ فِي الأَحَادِيثِ، أَنَّ المَيِّتَ إِمَّا أَنْ يُعَذَّبَ فِي قَبْرِهِ، وَإِمَّا أَنْ يُنَعَّمَ؛ فَمَنْ يُنْكِرُ عَذَابَ القَبْرِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِالنُّصُوصِ وَيَعْلَمُ بِالأَدِلَّةِ فَهُوَ كَافِرٌ، أَمَّا إِذَا أَنْكَرَهُ مِنْ بَابِ التَّأْوِيلِ أَوِ التَّقْلِيدِ أَوِ الجَهْلِ فَهَذَا يُبَيَّنُ لَهُ الحَقُّ، فَإِنْ أَصَرَّ بَعْدَ البَيَانِ حُكِمَ بِكُفْرِهِ.

[٧٢] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي كَلَّمَ مُوسَى بنَ عِمْرَانَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ يَوْمَ الطُّورِ وَمُوسَى يَسْمَعُ مِنَ اللهِ الكَلامَ بِصَوْتٍ وَقَعَ فِي مَسَامِعِهِ مِنْهُ، لا مِنْ غَيْرِهِ، فَمَنْ قَالَ غَيْرَ هَذَا فَقَدْ كَفَرَ بِاللهِ العَظِيمِ.

الشَّرْحُ:

إِثْبَاتُ الكَلامِ للهِ جَلَّ وَعَلا مِنْ أُصُولِ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، أَنَّ اللهَ يَتَكَلَّمُ بِكَلامٍ حَقِيقِيٍّ، سَمِعَهُ جِبْرِيلُ، وَسَمِعَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ لَمَّا ذَهَبَ إِلَى النَّارِ لِيَأْتِيَ مِنْهَا بِقَبَسٍ وَوَجَدَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُكَلِّمُهُ مِنَ الشَّجَرَةِ، كَمَا ذَكَرَ اللهُ ذَلِكَ فِي القُرْآنِ. وَسَمِعَ مُوسَى كَلامَهُ قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلا: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[النساء: ١٦٤]، ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾[الأعراف: ١٤٣]، هَذِهِ مَرَّةٌ ثَانِيَةٌ لَمَّا وَاعَدَهُ اللهُ أَنْ يُعْطِيَهُ التَّوْرَاةَ ذَهَبَ مُوسَى لِلْمَوْعِدِ كَلَّمَهُ رَبُّهُ وَأَعْطَاهُ أَلْوَاحَ التَّوْرَاةِ مَكْتُوبَةً، فَسَمِعَ مُوسَى كَلامَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَكَلَّمَ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ لَيْلَةَ المِعْرَاجِ، وَفَرَضَ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ، فَاللهُ يَتَكَلَّمُ جَلَّ وَعَلا بِكَلامٍ يُسْمَعُ، وَبِحَرْفٍ وَصَوْتٍ.

أَمَّا الجَهْمِيَّةُ وَالمُعْتَزِلَةُ فَيَقُولُونَ: اللهُ لا يَتَكَلَّمُ؛ لأَنَّا لَوْ أَثْبَتْنَا لَهُ الكَلامَ شَبَّهْنَاهُ بِالمَخْلُوقِينَ، لأَنَّ المَخْلُوقَ يَتَكَلَّمُ.! وَهَلْ يُقَاسُ كَلامُ اللهِ بِكَلامِ المَخْلُوقِ؟!! هُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ كَلامِ اللهِ وَكَلامِ المَخْلُوقِ، فَهُمْ لا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ

اللهِ وبَيْنَ المَخْلُوقِ والعِيَاذُ بِاللهِ، نَتِيجَةً لِتَبَلُّدِ أَفْهَامِهِمْ وَعُقُولِهِمْ. فَاللهُ جَلَّ وَعَلا يَتَكَلَّمُ حَقِيقَةً بِكَلامٍ يُسْمَعُ، وَالقُرْآنُ مِنْ كَلامِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، تَكَلَّمَ اللهُ بِهِ، وَتَكَلَّمَ بِالتَّوْرَاةِ وَتَكَلَّمَ بِالإِنْجِيلِ، وَيَتَكَلَّمُ مَتَى شَاءَ، إِذَا شَاءَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَكَلامُهُ مِنْ فِعْلِهِ جَلَّ وَعَلا، وَفِعْلُهُ لا نِهَايَةَ لَهُ وَلا بِدَايَةَ لَهُ، يَتَكَلَّمُ مَتَى شَاءَ إِذَا شَاءَ بِمَا شَاءَ جَلَّ وَعَلا، فَالكَلامُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ الفِعْلِيَّةِ.

قَوْلُهُ: **(مِنْهُ سُبْحَانَهُ لا مِنْ غَيْرِهِ)** لا مِنَ الشَّجَرَةِ، وَلا مِنَ اللَّوْحِ المَحْفُوظِ، وَلا مِنْ جِبْرِيلَ، وَلا مِنْ مُحَمَّدٍ، فَهُوَ كَلامٌ بَدَا مِنَ اللهِ حَقِيقَةً، وَإِنَّمَا جِبْرِيلُ وَمُحَمَّدٌ نَاقِلانِ عَنِ اللهِ وَمُبَلِّغَانِ عَنِ اللهِ جَلَّ وَعَلا.

قَوْلُهُ: **(فَمَنْ قَالَ غَيْرَ هَذَا فَقَدْ كَفَرَ بِاللهِ العَظِيمِ)** مَنْ قَالَ: إِنَّ كَلامَ اللهِ مَخْلُوقٌ، وَأَنَّ اللهَ لا يَتَكَلَّمُ، وَعَطَّلَ اللهَ مِنَ الكَلامِ فَهُوَ كَافِرٌ، لأَنَّهُ مُكَذِّبٌ للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلإِجْمَاعِ المُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ جَاهِلاً أَوْ مُتَأَوِّلاً أَوْ مُقَلِّداً لِمَنْ يُحْسِنُ بِهِمُ الظَّنَّ فَهَذَا يُبَيَّنُ لَهُ، فَإِنْ أَصَرَّ حُكِمَ بِكُفْرِهِ، لأَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلا عَابَ عَلَى المُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ التَّمَاثِيلَ الَّتِي لا تَتَكَلَّمُ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٤٢]، وَقَالَ لِلْكُفَّارِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الأَصْنَامَ: ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] وَاللهُ جَلَّ وَعَلا يَقُولُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الرَّبَّ يَتَكَلَّمُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَنَّ الَّذِي لا يَتَكَلَّمُ لَيْسَ رَبًّا، كَيْفَ يَأْمُرُ؟ وَكَيْفَ يَنْهَى؟ وَكَيْفَ يُدَبِّرُ؟ وَهُوَ لا يَتَكَلَّمُ، تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ، وَفِي سُورَةِ طَهَ: ﴿ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ [طه: ٨٩]، ﴿ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ﴾ أَيْ: لا يُجِيبُهُم إِذَا خَاطَبُوهُ.

❀ ❀ ❀

[٧٣] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ أَنَّ الشَّرَّ وَالخَيْرَ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ.

الشَّرْحُ:

يَجِبُ الإِيمَانُ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ، وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَحْدُثُ فِي هَذَا الكَوْنِ فَإِنَّهُ لَيْسَ اعْتِبَاطاً، وَإِنَّمَا هُوَ مُقَدَّرٌ وَمَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ، وَقَدْ عَلِمَهُ اللهُ جَلَّ وَعَلا، وَكَتَبَهُ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ، ثُمَّ قَدَّرَهُ، ثُمَّ خَلَقَهُ وَأَوْجَدَهُ وَشَاءَهُ، لا يُوجَدُ فِي هَذَا الكَوْنِ شَيْءٌ بِدُونِ أَنْ يُسْبَقَ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ؛ كُلُّ شَيْءٍ فَإِنَّهُ مُقَدَّرٌ، وَمِنْ ذَلِكَ: الخَيْرُ وَالشَّرُّ، الخَيْرُ الَّذِي يَحْصُلُ لِلنَّاسِ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، وَالشَّرُّ الَّذِي يَحْصُلُ لَهُمْ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، وَالكُفْرُ وَالإِيمَانُ، وَالمَرَضُ وَالصِّحَّةُ، وَالجُوعُ وَالشِّبَعُ، وَالغِنَى وَالفَقْرُ، كُلُّ هَذَا بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

[٧٤] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالعَقْلُ مَوْلُودٌ، أُعْطِيَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنَ العَقْلِ مَا أَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، يَتَفَاوَتُونَ فِي العُقُولِ مِثْلَ الذَّرَّةِ فِي السَّمَوَاتِ، وَيُطْلَبُ مِنْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنَ العَمَلِ عَلَى قَدْرِ مَا أَعْطَاهُ مِنَ العَقْلِ، وَلَيْسَ العَقْلُ بِاكْتِسَابٍ، إِنَّمَا هُوَ فَضْلٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

الشَّرْحُ:

العَقْلُ: هُوَ قُوَّةٌ يَجْعَلُهَا اللهُ فِي الإِنْسَانِ يُدْرِكُ بِهَا الأَشْيَاءَ، يَعْرِفُ بِهَا الضَّارَّ مِنَ النَّافِعِ، وَالخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ. لا أَحَدَ يَدْرِي مَا كَيْفِيَّةُ العَقْلِ، تَخَبَّطَ النَّاسُ فِيهِ وَلَمْ يَصِلُوا إِلَى نَتِيجَةٍ؛ لأَنَّهُ مِنْ أَسْرَارِ اللهِ الَّتِي لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَالعَقْلُ: سُمِّيَ عَقْلاً لأَنَّهُ يَعْقِلُ الإِنْسَانَ عَمَّا يَضُرُّهُ، مِثْلُ مَا يَعْقِلُ الحَبْلُ الدَّابَّةَ مِنَ الانْفِلاتِ.

وَيُسَمَّى: حِجْراً، ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ [الفجر: ٥]، الحِجْرُ هُوَ العَقْلُ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لأَنَّهُ يَحْجُرُ الإِنْسَانَ عَمَّا يَضُرُّهُ.

وَيُسَمَّى: النُّهَى، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾ [طه: ٥٤]، يَعْنِي: أَصْحَابَ العُقُولِ.

وَيُسَمَّى: اللُّبُّ، ﴿ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، يَعْنِي: أَصْحَابَ العُقُولِ.

فَهَذَا العَقْل مِنْ آيَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى. وَقَوْلُ الْمُؤَلِّفِ **(هُوَ مَوْلُودٌ)** الظَّاهِرُ أَنَّهُ يَقْصِدُ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ، وَلَيْسَ قَدِيماً، أو أَنَّهُ يُولَدُ مَعَ الإِنْسَانِ. وَهَذَا العَقْلُ كَمَا ذَكَرْنَا لا يَعْلَمُ حَقِيقَتَهُ إِلاَّ اللهُ، وَلِذَلِكَ اضْطَرَبَ فِيهِ عُلَمَاءُ الكَلامِ والفَلاسِفَةُ وَلَمْ يَصِلُوا إِلَى نَتِيجَةٍ فِي العَقْلِ؛ لأَنَّ هَذَا لَيْسَ مِن اخْتِصَاصِهِمْ.

وَالعَقْلُ يَتَفَاوَتُ:

مِنَ النَّاسِ: مَنْ عَقْلُهُ كَامِلٌ كَالأَنْبِيَاءِ- عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ- .

وَمِنَ النَّاسِ: مَنْ لَيْسَ لَهُ عَقْلٌ أَصْلاً، كَالْمَجْنُونِ وَالْمَعْتُوهِ، وَالطِّفْلِ.

وَمِنَ النَّاسِ: مَنْ هُوَ بَيْنَ وَبَيْنَ، بَيْنَ كَمَالِ العَقْلِ وَبَيْنَ عَدَمِ العَقْلِ، يَعْنِي: عِنْدَهُ عَقْلٌ لَكِنَّهُ لَيْسَ تَامًّا، وَيَتَفَاوَتُ فِي النَّقْصِ، مِنْهُمْ مَنْ عِنْدَهُ نَقْصٌ فِي عَقْلِهِ كَثِيرٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ عِنْدَهُ نَقْصٌ قَلِيلٌ وَهَكَذَا، وَهَذَا حَسَبَ مَا يَجْعَلُهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى.

وَيُطْلَقُ العَقْلُ عَلَى الفَهْمِ أَيْضاً، يُقَالُ: عَقَلَ الآيَاتِ القُرْآنِيَّةِ، ﴿ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[النحل: ١٢]، يَعْنِي: يَفْهَمُونَ الآيَاتِ الكَوْنِيَّةِ وَالآيَاتِ القُرْآنِيَّةِ، ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤٣]، فَالعَقْلُ يُطْلَقُ عَلَى الفَهْمِ وَالإِدْرَاكِ، وَالفِقْهِ فِي دِينِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[القصص: ٦٠].

وَمِنَ النَّاسِ: مَنْ يُطْمَسُ عَلَى عَقْلِهِ، بِسَبَبِ كُفْرِهِ، وَبِسَبَبِ غَفْلَتِهِ، فَلا يُمَيِّزُ بَيْنَ الضَّارِّ وَالنَّافِعِ، فَهُوَ عَاقِلٌ؛ لَكِنَّهُ لَمْ يَنْتَفِعْ بِعَقْلِهِ، حُرِمَ مِنَ

عَقْلِهِ والعِيَاذُ باللهِ بِسَبَبِ كُفْرِهِ فَصَارَ لا يَعْقِلُ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ ﴾[الفرقان: ٤٤]، فَيحْرِمُهُ اللهُ عَقْلَهُ عُقُوبَةً لَهُ حَيْثُ لَمْ يَسْتَعْمِلْهُ فِيمَا يَنْفَعُهُ، وَإِنَّمَا اسْتَعْمَلَهُ فِيمَا لا فَائِدَةَ فِيهِ، أَوْ فِيمَا يَضُرُّهُ. فَالعَقْلُ مِنْ آيَاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

قَوْلُهُ: **(وَيُطْلَبُ مِنْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنَ العَمَلِ عَلَى قَدْرِ مَا أَعْطَاهُ مِنَ العَقْلِ)** التَّكْلِيفُ وَالأَوَامِرُ وَالنَّوَاهِي، وَالثَّوَابُ وَالعِقَابُ، كُلُّهَا مَنُوطَةٌ بِالعَقْلِ.

قَوْلُهُ: **(وَلَيْسَ العَقْلُ بِاكْتِسَابٍ، إِنَّمَا هُوَ فَضْلٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ)** العَقْلُ مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَلا هُوَ الَّذِي يُرَكِّزُهُ فِي الإِنْسَانِ، وَهُوَ مِنْ أَسْرَارِ اللهِ جَلَّ وَعَلا فِي خَلْقِهِ، لَيْسَ الإِنْسَانُ هُوَ الَّذِي يَكْتَسِبُ العَقْلَ، نَعَمْ، الإِنْسَانُ يُقَوِّي عَقْلَهُ بِالتَّفْكِيرِ فِي آيَاتِ اللهِ، فِي تَدَبُّرِ القُرْآنِ، أَمَّا أَنَّهُ يَكْتَسِبُ عَقْلاً لَيْسَ مَوْجُوداً فَلا، اللهُ هُوَ الَّذِي أَوْجَدَ فِيهِ عَقْلاً لا يُمْكِنُ هُوَ أَنْ يُوجِدَ عَقْلاً مِنْ نَفْسِهِ وَيَكْتَسِبُهُ، لَكِنْ بِإِمْكَانِهِ أَنْ يُقَوِّيَهُ، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[الحج: ٤٦]؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ التَّفَكُّرَ فِي الكَوْنِ وَالتَّفَكُّرَ فِيمَا حَصَلَ لِلأُمَمِ السَّابِقَةِ مِنَ الهَلاكِ بِسَبَبِ الكُفْرِ وَالذُّنُوبِ يُفِيدُ الإِنْسَانَ وَيُقَوِّي عَقْلَهُ، لا أَنَّهُ يُوجِدُ لَهُ عَقْلاً كَانَ مَعْدُوماً.

[٧٥] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ فَضَّلَ العِبَادَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ، عَدْلاً مِنْهُ، لاَ يُقَالُ: جَارَ وَلاَ حَابَى، فَمَنْ قَالَ: إِنَّ فَضْلَ اللهِ عَلَى المُؤْمِنِ والكَافِرِ سَوَاءٌ فَهُوَ صَاحِبُ بِدْعَةٍ، بَلْ فَضَّلَ اللهُ المُؤْمِنَ عَلَى الكَافِرِ. والطَّائِعَ عَلَى العَاصِي، وَالمَعْصُومَ عَلَى المَخْذُولِ، عَدْلاً مِنْهُ، هُوَ فَضْلُهُ يُعْطِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَمْنَعُهُ مَنْ يَشَاءُ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: (**وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ فَضَّلَ العِبَادَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ**) النَّاسُ فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَضَّلَ المُؤْمِنَ عَلَى الكَافِرِ بِمَا أَعْطَاهُ اللهُ مِنَ الإِيمَانِ بِسَبَبِ إِيمَانِهِ، وَحَرَمَ الكَافِرَ بِسَبَبِ كُفْرِهِ، وَفَضَّلَ اللهُ المُؤْمِنِينَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، والرُّسُلُ فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فَهَذَا فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى، وَلا أَحَدَ يَعْتَرِضُ عَلَى اللهِ لأَنَّ هَذَا مُلْكُهُ سُبْحَانَهُ، يُعْطِيهِ مَنْ يَشَاءُ.

فَالْمُلْكُ مُلْكُهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ سُبْحَانَهُ، وَالفَضْلُ فَضْلُهُ يُعْطِيهِ مَنْ يَشَاءُ، فَلا اعْتِرَاضَ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى. المُعْتَزِلَةُ يَقُولُونَ: يَجِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يَعْدِلَ بَيْنَ النَّاسِ وَيُعْطِيهِم سَوَاءً، وهذا سُوءُ أَدَبٍ مَعَ اللهِ واعْتِرَاضٌ عَلَيْهِ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا. فَاللهُ جَلَّ وَعَلا يُفَضِّلُ بَعْضَ خَلْقِهِ عَلَى بَعْضٍ، وَهَذَا مُلْكُهُ لا اعْتِرَاضَ عَلَيْهِ، لا يُعَذِّبُ أَحَداً بِغَيْرِ

جَرِيْمَتِهِ؛ لأنَّ هَذَا يُنَافِي العَدْلَ وَاللهُ لا يَظْلِمُ، فلا يُعَذِّبُ أحَدًا مِنْ دُونِ جُرْمٍ، أوْ يُعَذِّبُ أحَداً بِجَرِيْمَةِ غَيْرِهِ، ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾[فاطر: ١٨]، فَاللهُ جَلَّ وَعَلا مِنْ نَاحِيَةِ الجَزَاءِ مَا يُجْرِيْهِ عَدْلٌ، أمَّا مِنْ نَاحِيَةِ العَطَاءِ فَهَذَا فَضْلٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى، وَلا أحَدَ يَعْتَرِضُ عَلَيْهِ.

قَوْلُهُ: **(فَمَنْ قَالَ: إنَّ فَضْلَ اللهِ عَلَى المُؤْمِنِ وَالكَافِرِ سَوَاءٌ فَهُوَ صَاحِبُ بِدْعَةٍ)** هَذَا قَوْلُ المُعْتَزِلَةِ، يَقُولُونَ: إنَّ اللهَ يَجِبُ أنْ يَجْعَلَ النَّاسَ كُلَّهُمْ مُؤْمِنِيْنَ، وَلا يَجْعَلَ بَعْضَهُمْ كَافِراً وَبَعْضَهُمْ مُؤْمِناً، يَجْعَلَهُمْ كُلَّهُمْ أغْنِيَاءَ، يَجْعَلَهُمْ كُلَّهُمْ عُلَمَاءَ، وهَذَا اعْتِرَاضٌ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى، لأنَّ اللهَ حَكِيمٌ، ولَيْسَ مِنْ حِكْمَتِهِ أنَّهُ يَجْعَلُ النَّاسَ كُلَّهُمْ سَوَاءً فِي العِلْمِ، أوْ فِي الثَّرْوَةِ، أوْ فِي الثَّوَابِ وَالعِقَابِ.

وَلَيْسَ مِنْ حِكْمَتِهِ أنْ يَجْعَلَ النَّاسَ كُلَّهُمْ أغْنِيَاءَ، لَوْ كَانَ كُلُّهُمْ أغْنِيَاءَ خَرِبَ الكَوْنُ، لأنَّهُم لا يَجِدُونَ مَنْ يَقُومُ بِالأعْمَالِ، وَيَتَوَقَّفُ الإنْتَاجُ، وَلِهَذَا فَاللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى فَضَّلَ بَعْضَ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ، جَعَلَ هَذَا غَنِيًّا، وَهَذَا فَقِيراً لأجْلِ عِمَارَةِ الكَوْنِ، لَوْ كَانُوا كُلُّهُمْ أغْنِيَاءَ مَا أنْتَجُوا شَيْئاً، وَلَو كَانَ كُلُّهُمْ فُقَرَاءَ مَا اسْتَطَاعُوا يَشْتَغِلُونَ وَيُنْتِجُونَ.

فَاللهُ فَاوَتَ بَيْنَهُمْ لأَجْلِ عِمَارَةِ الكَوْنِ. ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾[الزخرف: ٣٢]، يَعْنِي: يُسَخِّرُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً لِلْعَمَلِ بِالأُجْرَةِ، عِنْدَ ذَلِكَ يَتَنَامَى الكَوْنُ، وَتَحْصُلُ المَصَالِحُ.

قَوْلُهُ: (**بَلْ فَضَّلَ اللهُ المُؤْمِنَ عَلَى الكَافِرِ. والطَّائِعَ عَلَى العَاصِي، وَالمَعْصُومَ عَلَى المَخْذُولِ**) فَضَّلَ اللهُ المُؤْمِنَ عَلَى الكَافِرِ، وَفَضَّلَ اللهُ المُطِيعَ عَلَى العَاصِي، هَذَا عَدْلُهُ سُبْحَانَهُ وَفَضْلُهُ، فَلا أَحَدَ يَعْتَرِضُ عَلَيْهِ.

[٧٦] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: ولاَ يَحِلُّ أنْ تَكْتُمَ النَّصِيحَةَ أحَداً مِنَ المُسْلِمِينَ، بَرِّهِمْ وَفَاجِرِهِمْ في أمْرٍ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ، فَمَنْ كَتَمَ فَقَدْ غَشَّ المُسْلِمِينَ، وَمَنْ غَشَّ المُسْلِمِينَ فَقَدْ غَشَّ الدِّينَ، وَمَنْ غَشَّ الدِّينَ فَقَدْ خَانَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالمُؤْمِنِينَ.

الشَّرْح:

قَوْلُهُ: **(ولاَ يَحِلُّ أنْ تَكْتُمَ النَّصِيحَةَ أحَداً مِنَ المُسْلِمِينَ، بَرِّهِمْ وَفَاجِرِهِمْ)** النَّصِيحَةُ هِيَ الخُلُوصُ مِنَ الغِشِّ، وَالشَّيْءُ النَّاصِحُ: هُوَ الشَّيْءُ الخَالِصُ.

فَالمُؤْمِنُ يَجِبُ أنْ يَكُونَ نَاصِحاً يَعْنِي: خَالِصاً مِنَ النِّفَاقِ، وَخَالِصاً مِنَ الغِشِّ، وَخَالِصاً مِنَ الخَدِيعَةِ، يَكُونُ ظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ سَوَاءً فِي الصِّدْقِ.

وَالنَّصِيحَةُ هِيَ الدِّينُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«الدِّينُ النَّصِيحَةُ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ»** قُلْنَا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **«للهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»**[1] وَالمُرَادُ بِهَا هُنَا: أنْ يَخْلُصَ الإِنْسَانُ مِنْ كُلِّ خُلُقٍ ذَمِيمٍ، وَأنْ يَتَحَلَّى بِالأَخْلاَقِ الفَاضِلَةِ.

---

(١) عَلَّقَهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(٣٠/١)، ووصله مُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ(٧٤/١رقم٥٥) عن تميم الداري ﷺ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ تكرار قَوْلِهِ ﷺ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ»، وَإِنَّمَا وقع كَذَلِكَ عِنْدَ الإمَامِ أَحْمَدَ فِي المُسْنَدِ(١٠٢/٤) أبي داود(٢٨٦/٤رقم٤٩٤٤)، والتِّرْمِذِيّ في سُنَنِهِ(٣١٤/٤رقم١٩٢٦) وَغَيْرُهُمْ قَالَ التِّرْمِذِيّ: «حَسَنٌ صَحِيحٌ».

فَالرَّجُلُ النَّاصِحُ هُوَ الَّذِي لَيْسَ عِنْدَهُ غِشٌّ لأَحَدٍ، قال ﷺ: **«مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»**[1]، فَضِدُّ النَّصِيحَةِ: الغِشُّ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ كَرَّرَ قَوْلَهُ: **«الدِّينُ النَّصِيحَةُ»** ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ بَابِ التَّأْكِيدِ وَالاهْتِمَامِ، وَقَدْ حَصَرَ الدِّينَ كُلَّهُ فِي النَّصِيحَةِ.

النَّصِيحَةُ للهِ وَلِرَسُولِهِ هَذَا فِي العَقِيدَةِ؛ فَلا يَكُونُ الإِنْسَانُ مُسْلِماً إِلاَّ إِذَا كَانَتْ عَقِيدَتُهُ سَلِيمَةً، وَخَالِيَةً مِنَ الشِّرْكِ، وَكَانَ عَمَلُهُ خَالِياً مِنَ البِدَعِ، مُتَّبِعاً لِلرَّسُولِ ﷺ. فَهَذَا هُوَ النَّاصِحُ للهِ وَلِرَسُولِهِ: الَّذِي يَكُونُ عَمَلُهُ خَالِياً مِنَ الشِّرْكِ، وَخَالِياً مِنَ البِدَعِ.

وَالنُّصْحُ لِلرَّسُولِ ﷺ: هُوَ الإِيمَانُ بِرِسَالَتِهِ، وَمَحَبَّتُهُ وَتَوْقِيرُهُ وَاحْتِرَامُهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، وَاتِّبَاعُهُ، والاقْتِدَاءُ بِهِ، وَتَقْدِيمُ قَوْلِهِ عَلَى قَوْلِ كُلِّ أَحَدٍ، وَتَرْكُ البِدَعِ وَالمُحْدَثَاتِ الَّتِي حَذَّرَ مِنْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ مِنَ المُغَيَّبَاتِ المَاضِيَةِ وَالمُسْتَقْبَلَةِ، وَاجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ ﷺ. هَذِهِ النَّصِيحَةُ لِلرَّسُولِ ﷺ.

قَوْلُهُ: **(وَلِكِتَابِهِ)** كِتَابُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، هُوَ القُرْآنُ، بِأَنْ تُؤْمِنَ بِأَنَّهُ كَلامُ اللهِ مُنَزَّلٌ، غَيْرُ مَخْلُوقٍ، لا كَلامَ غَيْرِهِ، كَمَا يَقُولُهُ أَهْلُ الضَّلالِ، وَأَنْ تَتَعَلَّمَهُ وَتُعَلِّمَهُ، وَأَنْ تَعْمَلَ بِهِ، وَأَنْ تَتَفَقَّهَ فِي مَعَانِيهِ، وَتَتَدَبَّرَهُ. هَذِهِ النَّصِيحَةُ لِكِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، تَعَلُّماً وَتَعْلِيماً، وَفَهْماً، وَفِقْهاً،

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(١/٩٩رقم١٠١) عن أبي هريرة ﷺ، وَرَوَاهُ أيضاً(١/٩٩رقم١٠٢) بلفظ: **«مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي»**

وَعَمَلاً بِهِ. وَكَذَلِكَ مِنَ النَّصِيحَةِ لِكِتَابِ اللهِ: الإِكْثَارُ مِنْ تِلاوَتِهِ، وَعَدَمُ الغَفْلَةِ عَنْهُ.

وَالنَّصِيحَةُ **(لأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ)** وَهُمُ الأُمَرَاءُ وَالوُلاةُ بِأَنْ تُطِيعَهُمْ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلا تَنْزِعَ يَداً مِنْ طَاعَةٍ، وَلا تَخْرُجَ عَلَيْهِمْ، وَلا تَتَلَمَّسْ أَخْطَاءَهُمْ وَعَوْرَاتِهِمْ وَتُفْشِيهَا بَيْنَ النَّاسِ.

وَمِنَ النَّصِيحَةِ لَهُم: إِذَا كَانَ عِنْدَكَ عِلْمٌ وَقُدْرَةٌ أَنْ تَنْصَحَهُمْ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، تُوصِلُ إِلَيْهِمُ النَّصِيحَةَ، وَتُبَلِّغُهُمْ بِالأَخْطَاءِ الَّتِي تَحْصُلُ مِنْهُمْ أَوْ مِنْ رَعِيَّتِهِم تُبَلِّغُهُمْ بِذَلِكَ، وَلا تَتَحَدَّثْ بِهَا فِي المَجَالِسِ، هَذَا مِنَ الغِشِّ، فَالنَّصِيحَةُ: أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَيْهِمُ النَّصِيحَةَ مِنْكَ إِلَيْهِمْ، هَذِهِ هِيَ النَّصِيحَةُ لِوَلِيِّ الأَمْرِ.

وَكَذَلِكَ مِنَ النَّصِيحَةِ لِوَلِيِّ الأَمْرِ: القِيَامُ بِالعَمَلِ الَّذِي يُوَلِّيكَ عَلَيْهِ، وَظِيفَةً، أَوْ رِئَاسَةً، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا؛ بِأَنْ تَقُومَ بِالعَمَلِ الَّذِي وَلاَّكَ عَلَيْهِ وَلِيُّ الأَمْرِ، خَيْرَ قِيَامٍ، وَلا تُنْقِصْ مِنْهُ شَيْئاً، وَإِذَا رَأَيْتَ خَلَلاً تُبَلِّغُ وَلِيَّ الأَمْرِ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، تُبَلِّغُهُ بِالخَلَلِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَلافَاهُ. هَذَا مِنَ النَّصِيحَةِ.

وَمِنَ النَّصِيحَةِ لِوُلاةِ الأُمُورِ: الدُّعَاءُ لَهُمْ بِالصَّلاحِ؛ لأَنَّهُم إِذَا صَلَحُوا صَلَحَتِ الرَّعِيَّةُ، وَتَدْعُو لَهُم. فَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ طَالِبَ العِلْمِ لا يَدْعُو لَهُمْ أَوْ يَسْتَنْكِرَ الدُّعَاءَ لَهُمْ فَاعْلَمْ أَنَّهُ غَاشٌّ وَلَيْسَ نَاصِحاً لِوَلِيِّ الأَمْرِ.

والنَّصِيحَةُ **(لِعَامَّةِ المُسْلِمِينَ)** أَنْ تُرْشِدَهُم إِلَى الصَّوَابِ، وَتُحَذِّرَهُمْ مِنَ الأَخْطَاءِ، وَأَنْ تَأْمُرَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ، وَأَنْ تُعَلِّمَ الجَاهِلَ، وَتُذَكِّرَ الغَافِلَ، وَتَوَدَّ لَهُ مِنَ الخَيْرِ مَا تَوَدُّهُ لِنَفْسِكَ، وَالعَطْفِ عَلَى الفَقِيرِ، وَالصَّدَقَةُ عَلَى المُحْتَاجِ. هَذَا مِنَ النَّصِيحَةِ.

وَكَذَلِكَ يَبْذُلُ المَشُورَةَ الطَّيِّبَةَ لِمَنِ اسْتَشَارَهُ، وَحِفْظُ الأَسْرَارِ لِمَنِ اسْتَأْمَنَهُ، حِفْظُ الوَدَائِعِ، يَكُونُ نَاصِحاً مِنْ جَمِيعِ الوُجُوهِ، والنَّصِيحَةُ فِي البَيْعِ وَالشِّرَاءِ، لا يَغُشُّ وَلا يَخْدَعُ.

هَذِهِ هِيَ النَّصِيحَةُ بِاخْتِصَارٍ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَإِنَّهُ غَاشٌّ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»**.

[٧٧] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: واللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى سَمِيعٌ بَصِيرٌ عَلِيمٌ، يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ، قَدْ عَلِمَ أَنَّ الخَلْقَ يَعْصُونَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ، عِلْمُهُ نَافِذٌ فِيهِمْ، فَلَمْ يَمْنَعْهُ عِلْمُهُ فِيهِمْ أَنْ هَدَاهُمْ لِلإِسْلَامِ، وَمَنَّ بِهِ عَلَيْهِمْ كَرَماً وَجُوداً وَتَفَضُّلاً فَلَهُ الحَمْدُ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: **(وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سَمِيعٌ بَصِيرٌ عَلِيمٌ)** هَذَا هُوَ النَّوْعُ الثَّالِثُ مِنْ أَنْوَاعِ التَّوْحِيدِ: إِثْبَاتُ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا جَاءَتْ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مَعَ اعْتِقَادِ مَعْنَاهَا وَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ، وَعَدَمِ التَّعَرُّضِ لِكَيْفِيَّتِهَا؛ لأَنَّ كَيْفِيَّتَهَا لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ اللهُ، أَمَّا مَعْنَاهَا فَإِنَّهُ مَعْلُومٌ. فَيَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تُثْبِتَهَا وَأَنْ تَعْتَقِدَ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ الإِمَامُ مَالِكٌ: **«الاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ»** مَعْلُومٌ مَعْنَاهُ، **«وَالكَيْفُ مَجْهُولٌ»**.

قَوْلُهُ: **(قَدْ عَلِمَ أَنَّ الخَلْقَ يَعْصُونَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ)** اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، عَلِمَ مَا يَكُونُ مِنَ الإِيمَانِ وَالكُفْرِ، وَالطَّاعَةِ وَالمَعْصِيَةِ، لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ.

قَوْلُهُ: **(فَلَمْ يَمْنَعْهُ عِلْمُهُ فِيهِمْ أَنْ هَدَاهُمْ لِلإِسْلَامِ)** مَعَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا يَعْمَلُونَهُ مِنَ الكُفْرِ وَالإِيمَانِ فَإِنَّ اللهَ دَعَاهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، وَدَعَاهُمْ إِلَى الإِيمَانِ، وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ، وَأَنْزَلَ الكُتُبَ لِهِدَايَتِهِمْ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا يَفْعَلُونَ، لَكِنَّهُ مِنْ رَحْمَتِهِ لَمْ يَتْرُكْهُمْ وَيَكِلْهُمْ إِلَى عِلْمِهِ بِهِمْ؛ بَلْ إِنَّهُ أَقَامَ الحُجَّةَ

عَلَيْهِمْ وَأَعْطَاهُمُ الاخْتِيَارَ وَالْمَشِيئَةَ وَالْقُدْرَةَ فَهُمْ يَقْدِرُونَ عَلَى الْعَمَلِ فَإِذَا تَرَكُوهُ فَالذَّنْبُ ذَنْبُهُمْ وَالتَّقْصِيرُ تَقْصِيرُهُمْ، وَاللهُ جَلَّ وَعَلَا يَهْدِي جَمِيعَ الْخَلْقِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكُفَّارَ، بِمَعْنَى: أَنَّهُ يُبَيِّنُ لَهُمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾، هَدَيْنَاهُمْ: يَعْنِي بَيَّنَّا لَهُمْ وَأَرْشَدْنَاهُمْ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَقْبَلُوا؛ عَانَدُوا وَكَابَرُوا، ﴿ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [فصلت:١٧] أَيْ: بِسَبَبِ كَسْبِهِمْ، وَلَيْسَ لِأَنَّ اللهَ عَلِمَ ذَلِكَ وَقَدَّرَهُ عَلَيْهِمْ؛ بَلْ: بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ بِاخْتِيَارِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ وَعَمَلِهِمْ.

فَالْهِدَايَةُ هِدَايَتَانِ:

- هِدَايَةُ الإِرْشَادِ، وَهَذِهِ عَامَّةٌ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ.
- وَهِدَايَةُ التَّوْفِيقِ، وَهَذِهِ خَاصَّةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ قَبِلُوا هُدَى اللهِ وَإِرْشَادَهُ وَفَّقَهُمُ اللهُ وَثَبَّتَهُمْ.

قَوْلُهُ: **(وَمَنَّ بِهِ عَلَيْهِمْ كَرَماً وَجُوداً وَتَفَضُّلاً فَلَهُ الْحَمْدُ)** كَرَماً مِنْهُ يَعْنِي أَنَّهُ دَعَاهُمْ وَبَيَّنَ لَهُمْ وَوَضَّحَ لَهُمْ كَرَماً مِنْهُ، وَتَفَضُّلاً لِحَاجَتِهِمْ هُمْ إِلَى ذَلِكَ. أَمَّا اللهُ جَلَّ وَعَلَا فَإِنَّهُ غَنِيٌّ عَنْهُمْ، كَفَرُوا أَوْ آمَنُوا، أَطَاعُوا أَوْ عَصَوْا، لَا يَضُرُّونَ اللهَ جَلَّ وَعَلَا، وَلَا يَنْفَعُونَهُ؛ لِأَنَّهُ غَنِيٌّ عَنْهُمْ، وَإِنَّمَا هَذَا رَاجِعٌ عَلَيْهِمْ نَفْعُهُ أَوْ ضَرَرُهُ، فَهُوَ مِنْ رَحْمَتِهِ بِهِمْ أَنَّهُ بَيَّنَ لَهُمْ طَرِيقَ الْخَيْرِ وَطَرِيقَ الشَّرِّ، وَأَعْطَاهُمُ الْقُوَّةَ، وَأَعْطَاهُمُ الْقُدْرَةَ، وَأَعْطَاهُمُ الْعُقُولَ الَّتِي يُمَيِّزُونَ بِهَا بَيْنَ الضَّارِّ وَالنَّافِعِ.

[٧٨] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: واعْلَمْ أنَّ البِشَارَةَ عِنْدَ المَوْتِ ثَلاثُ بِشَارَاتٍ؛ يُقَالُ: أَبْشِرْ يَا حَبِيبَ اللهِ بِرِضَى اللهِ وَالجَنَّةِ، وَيُقَالُ: أَبْشِرْ يَا عَبْدَاللهِ بِالجَنَّةِ بَعْدَ الإِسْلامِ، وَيُقَالُ: أَبْشِرْ يَا عَدُوَّ اللهِ بِغَضَبِ اللهِ وَالنَّارِ. هَذَا قَوْلُ ابنِ عَبَّاسٍ ﷺ.

الشَّرْحُ:

المُحْتَضَرُ مُؤْمِناً كَانَ أَوْ كَافِراً يُبَشَّرُ عِنْدَ المَوْتِ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِناً يُبَشَّرُ بِرَحْمَةِ اللهِ وبالجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ كَافِراً يُبَشَّرُ بِغَضَبِ اللهِ وَبِالنَّارِ، فَلا يَمُوتُ إلاَّ وَهُوَ يَعْلَمُ أَيْنَ يَكُون، وَلا يُمكنه التَّوْبَة والتَّخَلُّص، أَوِ التزود مِنَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَهَذَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ أَنَّ **«مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ»** قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ، كُلُّنَا يَكْرَهُ المَوْتَ، قَالَ: **«لَيْسَ كَذَلِكَ يَا عَائِشَةُ؛ وَإِنَّمَا المُؤْمِنُ يُبَشَّرُ عِنْدَ المَوْتِ فَيُحِبُّ لِقَاءَ اللهِ فَيُحِبُّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَالكَافِرُ يُبَشَّرُ بِالنَّارِ فَيُبْغِضُ لِقَاءَ اللهِ فَيُبْغِضُ اللهُ لِقَاءَهُ»**[1].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[الأحقاف: ١٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ في صَحِيحِهِ(٥/٢٣٨٦رقم٦١٤٢)، وَمُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ(٤/٢٠٦٥رقم٢٦٨٣) عن عبادة بنِ الصامت ﷺ، وعلقه البُخَارِيُّ(٥/٢٣٨٦)، وروَاهُ مُسْلِمٌ(٤/٢٠٦٥ رقم٢٦٨٤) عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[فصلت: ٣٠] وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [الأنفال: ٥٠].

[٧٩] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي الجَنَّةِ الأَضِرَّاءُ، ثُمَّ الرِّجَالُ، ثُمَّ النِّسَاءُ، بِأَعْيُنِ رُؤُوسِهِمْ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ»، وَالإِيمَانُ بِهَذَا وَاجِبٌ وَإِنْكَارُهُ كُفْرٌ.

الشَّرْحُ:

سَبَقَ البَحْثُ فِي إِثْبَاتِ الرُّؤْيَةِ[١]، وهذا تأكيدٌ لِمَا سَبَقَ، وَأَمَّا هَذَا التَّرْتِيبُ الَّذِي ذَكَرَهُ المُؤَلِّفُ فَيَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ.

❀ ❀ ❀

(١) انظر ما سبق (١/١٢٢)

[٨٠] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ أنَّها لَمْ تَكُنْ زَنْدَقَةٌ وَلاَ كُفْرٌ وَلاَ شُكُوكٌ وَلاَ بِدْعَةٌ وَلاَ ضَلاَلَةٌ وَلا حَيْرَةٌ فِي الدِّيْنِ إلاَّ مِنَ الكَلامِ وَأَهْلِ الكَلام وَالجَدَلِ وَالمِرَاءِ وَالخُصُومَةِ وَالعُجْبِ، وكَيْفَ يَجْتَرِئُ الرَّجُلُ عَلَى المِرَاءِ وَالخُصُومَةِ والجِدَالِ، وَاللهُ تَعالى يَقُولُ: ﴿ مَا يُجَدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [غافر: ٤] فَعَلَيْكَ بِالتَّسْلِيمِ وَالرِّضَى بِالآثَارِ وَالكَفِّ وَالسُّكُوتِ.

الشَّرْحُ:

هَذا سَبَقَ بَيَانُهُ وَالتَّحْذِيرُ مِنْهُ(١).

قَوْلُهُ: **(فَعَلَيْكَ بِالتَّسْلِيمِ وَالرِّضَى بِالآثَارِ وَالكَفِّ والسُّكُوتِ)** عَلَيْكَ بِالتَّسْلِيْمِ لكَلامِ اللهِ وَكَلامِ رَسُولِهِ، وَالكَفُّ عَنِ الجَدَلِ وَالتَّشْكِيكِ، فَإنَّكَ مَنْهِيٌّ عَنْ ذَلِكَ؛ بَلْ تَزِيدُ حَيْرَةً. خُذْ بِكَلامِ اللهِ وَكَلامِ رَسُولِهِ وَاقْتَنِعْ بِذَلِكَ لِتَهْتَدِيَ وَتَسْتَرِيحَ مِنَ الوَسَاوِسِ وَالشُّكُوكِ وَالأَوْهَامِ، وَتُصْبِحَ عَلَى بَصِيْرَةٍ، فَاللهُ أَنْزَلَ هَذا القُرآنَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ.

(١) انظر ما سبق (١/١٠١-١٠٣).

[٨١] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ يُعَذِّبُ الخَلْقَ فِي النَّارِ فِي الأَغْلَالِ وَالأَنْكَالِ وَالسَّلَاسِلِ، وَالنَّارُ فِي أَجْوَافِهِمْ وَفَوْقَهُمْ وَتَحْتَهُمْ، وَذَلِكَ أَنَّ الجَهْمِيَّةَ مِنْهُمْ هِشَامٌ الفُوَطِيُّ قَالَ: إِنَّمَا يُعَذِّبُ اللهُ عِنْدَ النَّارِ، رَدًّا عَلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: **(وَالإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ يُعَذِّبُ الخَلْقَ فِي النَّارِ فِي الأَغْلَالِ وَالأَنْكَالِ وَالسَّلَاسِلِ، وَالنَّارُ فِي أَجْوَافِهِمْ وَفَوْقَهُمْ وَتَحْتَهُمْ)** اللهُ جَلَّ وَعَلَا يُسَعِّرُ النَّارَ بِأَجْسَادِ الكُفَّارِ، فَهِيَ حَطَبٌ لِجَهَنَّمَ، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠] تَشْتَعِلُ بِهِمْ، وَتَتَّقِدُ بِأَجْسَامِهِمْ وَالعِيَاذُ بِاللهِ، ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ١٩- ٢١]، فَاللهُ ذَكَرَ أَنَّ التَّعْذِيبَ يَقَعُ عَلَى أَبْدَانِ الكُفَّارِ، وَأَنَّ النَّارَ تَلْتَهِبُ بِهِمْ وَتَشْتَعِلُ بِهِمْ، ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ وَمِنَ المُعْتَزِلَةِ مَنْ قَالَ: إِنَّهُم لَا يُعَذَّبُونَ، لَا تَشْتَعِلُ النَّارُ بِأَجْسَامِهِمْ، وَإِنَّمَا يُعَذَّبُونَ عِنْدَ النَّارِ فَقَطْ، وَأَمَّا أَجْسَامُهُمْ فَلَا تَشْتَعِلُ! وَاللهُ جَلَّ وَعَلَا يَقُولُ فِي القُرْآنِ: إِنَّهُم وَقُودُ النَّارِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: **«أَوَّلُ مَنْ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ القِيَامَةِ: العَالِمُ الَّذِي لَا**

يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ، وَالْمُتَصَدِّقُ الَّذِي يُرَائِي فِي صَدَقَتِهِ، وَالْمُجَاهِدُ الَّذِي يُرَائِي بِجِهَادِهِ»[1].

(الأغْلالِ) مَعْنَاهُ: أَنَّهُ تُغَلُّ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ وَالعِيَاذُ بِاللهِ.

(الأَنْكَالِ) آلاتُ التَّعْذِيبِ، ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤]، ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ [المزمل: ١٢]، الأَنْكَالُ أَدَوَاتُ التَّعْذِيبِ وَالعِيَاذُ بِاللهِ، سَلاسِلُ وَأَغْلالٌ وَسَعِيرٌ.

(وَالنَّارُ فِي أَجْوَافِهِمْ وَفَوْقَهُمْ وَتَحْتَهُمْ) ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١].

❀ ❀ ❀

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (١٥١٣/٣ رقم ١٩٠٥) عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ.

[٨٢] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ أَنَّ صَلاةَ الفَرِيضَةِ خَمْسُ صَلَوَاتٍ، لاَ يُزَادُ فِيهِنَّ وَلاَ يُنْقَصُ فِي مَوَاقِيتِهَا، وَفِي السَّفَرِ رَكْعَتَانِ، إِلاَّ الْمَغْرِبَ، فَمَنْ قَالَ: أَكْثَرُ مِنْ خَمْسٍ؛ فَقَدِ ابْتَدَعَ، وَمَنْ قَالَ: أَقَلُّ مِنْ خَمْسٍ؛ فَقَدِ ابْتَدَعَ، لاَ يَقْبَلُ اللهُ شَيْئاً مِنْهَا إِلاَّ لِوَقْتِهَا، إِلاَّ أَنْ يَكُونَ نِسْيَاناً فَإِنَّهُ مَعْذُورٌ، يَأْتِي بِهَا إِذَا ذَكَرَهَا، أَوْ يَكُونَ مُسَافِراً فَيَجْمَعُ بَيْنَ الصَّلاتَيْنِ إِنْ شَاءَ.

الشَّرْحُ:

شَأْنُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ شَأْنٌ عَظِيمٌ، وَهِيَ الرُّكْنُ الثَّانِي مِنْ أَرْكَانِ الإِسْلامِ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ، وَمَنْ تَرَكَهَا جَاحِداً لِوُجُوبِهَا فَهُوَ كَافِرٌ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ، وَمَنْ تَرَكَهَا تَكَاسُلاً مَعَ اعْتِرَافِهِ بِوُجُوبِهَا فَإِنَّهُ كَافِرٌ عَلَى الصَّحِيحِ مِنْ قَوْلَيِ العُلَمَاءِ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ ﷺ: **«بَيْنَ العَبْدِ وَبَيْنَ الكُفْرِ تَرْكُ الصَّلاةِ»** رَوَاهُ مُسْلِمٌ[1]، وَقَوْلُهُ: **«العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلاةُ؛ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»**[2] هَذَا وَاضِحٌ، وَلَمْ يَقُلْ مَنْ تَرَكَهَا جَاحِداً لِوُجُوبِهَا؛ بَلْ عَمَّمَ ﷺ، فِي أَدِلَّةٍ كَثِيرَةٍ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُ اسْتِقْصَائِهَا.

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (١/٨٨ رقم ٨١، ٨٢) عن جابر ﷺ.

(٢) رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي المُسْنَد (٥/٣٤٦)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٥/١٣ رقم ٢٦٢١)، وابن مَاجَهْ (١/٣٤٢ رقم ١٠٧٩) وَالنَّسَائِيُّ (١/٢٣١ رقم ٤٦٣) عن بريدة ﷺ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: «حَسَنٌ صَحِيحٌ»، وَصَحَّحَهُ ابن حبان (٤/٣٠٥ رقم ١٤٥٤)، وَالحاكم في المستدرك (١/٤٨).

وَالصَّلَوَاتُ اسْتَقَرَّتْ عَلَى خَمْسِ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، قَالَ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذاً إِلَى الْيَمَنِ قَالَ لَهُ: **«فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، فَإِنْ أَجَابُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِم خَمْسَ صَلَوَاتٍ..»**(١) وَقَدْ فُرِضَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَى أُمَّتِهِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ فَوْقَ السَّمَوَاتِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَهَمِّيَّتِهَا.

أَوَّلُ مَا فُرِضَتْ خَمْسُونَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَاجَعَ رَبَّهُ فِي التَّخْفِيفِ حَتَّى جَعَلَهَا اللهُ خَمْساً فِي الْعَمَلِ، وَهِيَ خَمْسُونَ فِي الْمِيزَانِ؛ لأَنَّ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، الصَّلاةُ الْوَاحِدَةُ عَنْ عَشْرِ صَلَوَاتٍ، فَهِيَ بِالْمُضَاعَفَةِ خَمْسُونَ صَلاةً، وَأَمَّا بِالْعَمَلِ فَهِيَ خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ.

فَمَنْ قَالَ: إِنَّ الصَّلَوَاتِ أَكْثَرُ مِنْ خَمْسٍ فَهُوَ مُبْتَدِعٌ؛ لأَنَّهُ زَادَ فِي الدِّينِ مَا لَيْسَ مِنْهُ. وَمَنْ قَالَ: إِنَّهَا أَنْقَصُ مِنَ الْخَمْسِ، كَمَا تَقُولُهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُبْتَدِعَةِ وَأَهْلِ الضَّلالِ إِنَّهَا ثَلاثٌ!

الصَّلَوَاتُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ خَمْسُ صَلَوَاتٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾[الإسراء: ٧٨]، وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيَّنَهَا بِقَوْلِهِ وَبِعَمَلِهِ، وَلَهَا أَوْقَاتٌ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(رقم١٣٣١)، وَمُسْلِمٌ(رقم١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

[النساء: ١٠٣]، أيْ: مَفْرُوضَةً في أَوْقاتٍ مُحَدَّدَةٍ، بيَّنَها رَسُولُ اللهِ ﷺ بقَوْلِهِ وَعَمَلِهِ، لا يَجُوزُ إخْرَاجُهَا عَنْ مَوَاقِيتِهَا إلاَّ في حَالِ العُذْرِ، بِأَنْ نَامَ أَوْ نَسِيَ حتَّى خَرَجَ الوَقْتُ فَإذا ذَكَرَ أو استَيْقَظَ يَجِبُ عَلَيْهِ المُبَادَرَةُ بالصَّلاةِ في أيِّ وَقْتٍ، قَالَ ﷺ: **«مَنْ نَسِيَ صَلاةً أوْ نَامَ عَنْهَا فَلْيُصَلِّهَا إذَا ذَكَرَهَا، لا كَفَّارَةَ لَهَا إلاَّ ذَلِكَ»**[1].

وأَمَّا مَنْ تَعَمَّدَ إخْرَاجَهَا عَنْ وَقْتِهَا فَلا تَصِحُّ مِنْهُ وَلَو صَلاَّهَا؛ لأَنَّهُ لَمْ يُصَلِّ الصَّلاةَ الَّتي أَمَرَهُ اللهُ بِهَا، وَإنَّمَا صَلَّى صَلاةً عَلَى حَسَبِ هَوَاهُ، فَإذَا تَعَمَّدَ إخْرَاجَهَا عَنِ الوَقْتِ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهُ وَلو صَلاَّهَا، فَعَلَيْهِ التَّوْبَةُ إلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالمُحَافَظَةُ عَلَى الصَّلاةِ.

وَعَدَدُ الرَّكَعَاتِ: بيَّنَهَا الرَّسُولُ ﷺ: الفَجْرُ: رَكْعَتَانِ، وَالمَغْرِبُ: ثَلاثُ رَكَعَاتٍ؛ لأَنَّهَا وِتْرُ النَّهَارِ، وَالظُّهْرُ: أَرْبَعُ رَكَعَاتٍ، وَالعَصْرُ: أَرْبَعُ رَكَعَاتٍ، وَالعِشَاءُ: أَرْبَعُ رَكَعَاتٍ.

وفِي السَّفَرِ: تُقْصَرُ الرُّبَاعِيَّةُ إلَى رَكْعَتَيْنِ: الظُّهْرُ وَالعَصْرُ وَالعِشَاءُ، كَمَا جَاءَتْ بِذَلِكَ السُّنَّةُ الثَّابِتَةُ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ، وَجَاءَ بِهَا القُرْآنُ ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾[النساء: ١٠١]

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ في صَحِيحِهِ(١/٢١٥رقم٥٧٢)، وَمُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ(١/٤٧٧رقم٦٨٤) عن أنس ﷺ.

أَمَّا الفَجْرُ فَهِيَ بَاقِيَةٌ عَلَى رَكْعَتَيْنِ، وَأَمَّا المَغْرِبُ فَلا تُقْصَرُ لأنَّهَا وِتْرُ النَّهَارِ، فَلَوْ قُصِرَتْ صَارَتْ شَفْعاً. هكَذَا جَاءَتِ الأَحَادِيثُ فِي هَذِهِ الصَّلاةِ، فَلا يَجُوزُ لأَحَدٍ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِيهَا بِزِيَادَةٍ أَوْ نَقْصٍ، أَوْ إِخْرَاجٍ عَنْ وَقْتِهَا.

[٨٣] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالزَّكَاةُ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالتَّمْرِ وَالحُبُوبِ وَالدَّوَابِّ، عَلَى مَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَإِنْ قَسَّمَهَا فَجَائِزٌ، وَإِنْ دَفَعَهَا إِلَى الإِمَامِ فَجَائِزٌ وَاللهُ أَعْلَمُ.

الشَّرْحُ:

الرُّكْنُ الثَّالِثُ مِنْ أَرْكَانِ الإِسْلَامِ: الزَّكَاةُ، وَهِيَ قَرِينَةُ الصَّلَاةِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الآيَاتِ القُرْآنِيَّةِ.

وَالزَّكَاةُ حَقٌّ مَعْلُومٌ فِي أَمْوَالِ الأَغْنِيَاءِ لِلْفُقَرَاءِ.

وَالأَمْوَالُ الَّتِي تَجِبُ فِيهَا الزَّكَاةُ أَرْبَعَةُ أَنْوَاعٍ:

النَّوْعُ الأَوَّلُ: النَّقْدَانِ: الذَّهَبُ وَالفِضَّةُ، وما يقومُ مَقَامَهُمَا مِنَ الأَوْرَاقِ النَّقْدِيَّةِ.

النَّوْعُ الثَّانِي: بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ: الإِبِلُ، وَالبَقَرُ، وَالغَنَمُ.

النَّوْعُ الثَّالِثُ: الخَارِجُ مِنَ الأَرْضِ: مِنَ الحُبُوبِ وَالثِّمَارِ.

النَّوْعُ الرَّابِعُ: عُرُوضُ التِّجَارَةِ: وَهِيَ السِّلَعُ الَّتِي تُعْرَضُ لِلْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ.

هَذِهِ هِيَ الأَمْوَالُ الزَّكَوِيَّةُ الَّتِي تَجِبُ فِيهَا الزَّكَاةُ، وَأَمَّا مَا عَدَا هَذِهِ الأَمْوَالِ الأَرْبَعَةِ إِذَا أَرَادَ الإِنْسَانُ أَنْ يَتَصَدَّقَ وَيَتَبَرَّعَ فَهَذَا إِلَيْهِ، بَابُ الصَّدَقَةِ وَالتَّبَرُّعِ وَاسِعٌ.

قَوْلُهُ: **(فَإِنْ قَسَّمَهَا فَجَائِزٌ وَإِنْ دَفَعَهَا إِلَى الإِمَامِ فَجَائِزٌ)** يَجِبُ عَلَيْهِ إِخْرَاجُ الزَّكَاةِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[البقرة: ٤٣]، آتُوا: أَيِ: ادْفَعُوهَا، فَيَجِبُ عَلَى صَاحِبِ المَالِ أَنْ يَدْفَعَهَا، وَهُوَ المَسْؤُولُ عَنْهَا. فَإِذَا طَلَبَهَا الإِمَامُ لِيَتَوَلَّاهَا فَإِنَّهُ يَجِبُ دَفْعُهَا إِلَيْهِ؛ لأَنَّ طَاعَتَهُ وَاجِبَةٌ، وَتَبْرَأُ ذِمَّةُ الدَّافِعِ؛ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُرْسِلُ الجُبَاةَ فِي الزَّكَاةِ مِنْ أَصْحَابِهَا وَيُوَزِّعُهَا عَلَى مُسْتَحِقِّيهَا، وَوُلَاةُ الأُمُورِ يَقُومُونَ مَقَامَ الرَّسُولِ ﷺ فِي ذَلِكَ مِنْ بَعْدِهِ، أَمَّا إِذَا لَمْ يَطْلُبْهَا فَالمَسْؤُولُ عَنْهَا صَاحِبُ المَالِ.

[٨٤] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ أَنَّ أَوَّلَ الإِسْلامِ شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَه إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

[٨٥] وَأَنَّ مَا قَالَ اللهُ كَمَا قَالَ، وَلاَ خُلْفَ لِما قَالَ، وَهُوَ عِنْدَ مَا قَالَ.

[٨٦] وَالإِيمَانُ بِالشَّرَائِعِ كُلِّهَا.

الشَّرْحُ:

قال رَحِمَهُ اللهُ: وَاعلَمْ أَيُّهَا المُسْلِمُ يَا طَالِبَ العِلْمِ أي: تَحقَّقْ وَتَبَيَّنْ أَنَّ أَوَّلَ الإِسْلامِ: شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ. هُمَا الرُّكْنُ الأَوَّلُ مِنْ أَرْكَانِ الإِسْلامِ، كَمَا فِي حَدِيثِ جِبْرِيلَ لَمَّا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ **«قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلامِ؟ قَالَ: الإِسْلامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً»**[١].

فَالشَّهَادَتَانِ أَوَّلُ مَا يُدْعَى إِلَيْهِ النَّاسُ، قَالَ ﷺ: **«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّ الإِسْلامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ»**[٢] وَلَمَّا أَرْسَلَ مُعَاذاً إِلَى اليَمَنِ قَالَ لَهُ: **«إِنَّكَ تَأْتِي قَوْماً مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ فَلْيَكُنْ أَوَّلُ مَا تَدْعُوهُمْ**

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ(رقم٨) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ في صَحِيحِهِ(١/١٧رقم٢٥)، وَمُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ(١/٥٣رقم٢٢) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِاللهِ بن عُمَرَ رضي الله عنهما.

إِلَيْهِ: شَهَادَةَ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ[1] فَهَذَا أَوَّلُ مَا يُدْعَى إِلَيْهِ النَّاسُ؛ لأَنَّهُ هُوَ المَدْخَلُ إِلَى دِينِ الإِسْلامِ. أَمَّا مَنْ يَتَهَاوَنُ بِالتَّوْحِيدِ وَلا يَهْتَمُّ بِهِ مِنْ أَصْحَابِ الدَّعَوَاتِ أَوِ المَنَاهِجِ الدَّعَوِيَّةِ المُعَاصِرَةِ، فَهَذَا مُخَالِفٌ لِهَذَا الأَصْلِ العَظِيمِ. وَلَيْسَ المَقْصُودُ مِنَ الشَّهَادَتَيْنِ التَّلَفُّظَ بِهِمَا فَقَطْ، وَلَكِنِ المَقْصُودُ التَّلَفُّظُ بِهِمَا مَعَ مَعْرِفَةِ مَعْنَاهُمَا وَالعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُمَا. لَكِنْ مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ فَإِنَّهُ يُقْبَلُ مِنْهُ، فَإِنِ اسْتَقَامَ عَلَيْهِمَا فَهُوَ المُسْلِمُ، وَإِنْ ظَهَرَ مِنْهُ مَا يُنَاقِضُهُمَا فَإِنَّهُ يَكُونُ مُرْتَدّاً.

وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ: أَنْ تَعْتَقِدَ بِقَلْبِكَ وَأَنْ تَنْطِقَ بِلِسَانِكَ وَتُقِرَّ وَتَعْتَرِفَ: بِأَنَّهُ لا يَسْتَحِقُّ العِبَادَةَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ كُلَّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَعِبَادَتُهُ بَاطِلَةٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الحج: ٦٢].

وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ: أَنْ تَعْتَرِفَ ظَاهِراً وَبَاطِناً بِأَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، أَمَّا مَنْ يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ وَهُوَ لا يَعْتَرِفُ فِي بَاطِنِهِ بِرِسَالَتِهِ؛ فَهَذَا مُنَافِقٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون: ١]، ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

---

(١) رواه البخاريُّ في صحيحه (رقم ١٣٣١)، ومسلمٌ (رقم ١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فَيَتَلَخَّصُ مَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ في: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَاجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ، وَأَنْ لا يُعْبَدَ اللهُ إِلاَّ بِمَا شَرَعَ.

طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ: فَإِذَا أَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ بِأَمْرٍ فَإِنَّكَ تَمْتَثِلُهُ ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

تَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ: أَخْبَرَ ﷺ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ أُمُورِ الغَيْبِ المَاضِيَةِ وَالمُسْتَقْبَلَةِ؛ فَيُصَدَّقُ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ ﷺ، وَهُوَ لا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٤]، فَأَخْبَارُهُ ﷺ صِدْقٌ وَيَقِينٌ، لا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهَا شَكٌّ إِذَا صَحَّتْ عَنْهُ ﷺ.

وَاجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ: اجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ الرَّسُولُ ﷺ وَزَجَرَ عَنْهُ، وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٧].

وَأَنْ لا يُعْبَدَ اللهُ إِلاَّ بِمَا شَرَعَ: مَا شَرَعَهُ الرَّسُولُ ﷺ مُبَلِّغاً عَنِ اللهِ جَلَّ وَعَلا، وَهَذَا يَنْفِي البِدَعَ وَالمُحْدَثَاتِ وَالخُرَافَاتِ الَّتِي لَمْ يَأْمُرْ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ، قَالَ ﷺ: **«مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»، «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»**[1]، **«وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ»، «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي**

(١) سبق تخريجهما (ص/٥٩).

وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ»(1) وَكُلُّ عِبَادَةٍ لَمْ يَشْرَعْهَا الرَّسُولُ ﷺ فَهِيَ بَاطِلَةٌ، وَلا ثَوَابَ فِيهَا، بَلْ فِيهَا الإِثْمُ؛ لأَنَّهَا بِدْعَةٌ، وَالبِدْعَةُ تُبْعِدُ عَنِ اللهِ وَلا تُقَرِّبُ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

قَوْلُهُ: **(وَاعْلَمْ أَنَّ أَوَّلَ الإِسْلامِ شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ)** هَذَا الرُّكْنُ الأَوَّلُ، وَهُوَ الْمَدْخَلُ، ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَهُ الصَّلاةُ، ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَهُ الزَّكَاةُ، ثُمَّ صَوْمُ رَمَضَانَ، ثُمَّ حَجُّ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ، ثُمَّ بَقِيَّةُ شَرَائِعِ الدِّينِ كُلُّهَا تَابِعَةٌ لِلشَّهَادَتَيْنِ: شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ.

قَوْلُهُ: **(وَأَنَّ مَا قَالَ اللهُ كَمَا قَالَ، وَلاَ خُلْفَ لِمَا قَالَ، وَهُوَ عِنْدَ مَا قَالَ)** مَا قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلا فَإِنَّهُ كَمَا قَالَ لا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ شَكٌّ أَبَداً، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، أَيْ: لا أَحَدَ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَإِذَا وَعَدَ سُبْحَانَهُ وَعْداً فَإِنَّهُ لا يُخْلِفُهُ ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦]، فَإِذَا وَعَدَ فَإِنَّهُ لا يُخْلِفُ وَعْدَهُ، وَإِذَا تَوَعَّدَ فَقَدْ يَعْفُو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَرْقٌ بَيْنَ الوَعْدِ وَالتَّوَعُّدِ، الوَعْدُ: لا يَتَخَلَّفُ

---

(١) سبق تخريجها (ص/٤٢)

أبداً، وأمَّا التَّوعُّدُ: فاللهُ جلَّ وعَلا قدْ يَعفُو ويَسْمَحُ وقدْ لا يُوقِعُ الوَعِيدَ رَحْمَةً مِنْهُ سُبْحانَهُ، وفَضْلاً مِنْهُ سُبْحانَهُ وتَعالَى.

قَوْلُهُ: **(وَالإِيمَانُ بِالشَّرَائِعِ كُلِّهَا)** يَجِبُ الإِيمَانُ بِالشَّرَائِعِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ عَلَى رُسُلِهِ كُلِّهَا، إِجْمَالاً فِي الإِجْمَالِ وَتَفْصِيلاً فِي التَّفْصِيلِ ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦]، ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٤]، فَنَحْنُ نُؤْمِنُ بِالشَّرَائِعِ الإِلَهِيَّةِ جَمِيعِهَا، وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلا يَشْرَعُ لِكُلِّ وَقْتٍ مَا يُنَاسِبُهُ ثُمَّ يَنْسَخُ ذَلِكَ بِشَرِيعَةٍ أُخْرَى تُنَاسِبُ الَّذِينَ جَاؤُوا مِنْ بَعْدُ، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ جَاءَ بِشَرِيعَةٍ رَاسِخَةٍ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، لا تُنْسَخُ، وَلا تُغَيَّرُ أَبَداً، صَالِحَةً لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ.

❀ ❀ ❀

[٨٧] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ أَنَّ الشِّرَاءَ وَالْبَيْعَ حَلَالٌ إِذَا بِيعَ فِي أَسْوَاقِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حُكْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدْخُلَهُ تَغْرِيرٌ أَوْ ظُلْمٌ أَوْ غَدْرٌ أَوْ خِلَافٌ لِلْقُرْآنِ أَوْ خِلَافٌ لِلْعِلْمِ.

الشَّرْحُ:

نَعْتَقِدُ أَنَّ الْبَيْعَ وَالشِّرَاءَ حَلَالٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي: اطْلُبُوا الرِّزْقَ، ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ٩-١٠]، وَقَالَ فِي الْمَسَاجِدِ: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٦-٣٧]، لا تُلْهِيهِمْ، لَمْ يَقُلْ: لا يَبِيعُونَ وَيَتَاجِرُونَ، بَلْ قَالَ: لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَتُهُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ، بَلْ يَحْضُرُونَ إِلَى الْمَسَاجِدِ وَيُصَلُّونَ مَعَ الْجَمَاعَةِ ثُمَّ يَنْصَرِفُونَ إِلَى بَيْعِهِمْ وَشِرَائِهِمْ. وَالْبَيْعُ وَالشِّرَاءُ مِنْ أَطْيَبِ الْمَكَاسِبِ إِذَا سَلِمَا مِنَ الْغِشِّ وَمِنَ الْخَدِيعَةِ، سَلِمَا مِنْ بَيْعِ الْمَوَادِّ الْمُحَرَّمَةِ، وَالتَّعَامُلِ الْحَرَامِ وَالرِّبَا، فَإِذَا سَلِمَ الْبَيْعُ وَالشِّرَاءُ مِنَ الْمُفْسِدَاتِ فَإِنَّهُمَا مِنْ أَطْيَبِ الْمَكَاسِبِ.

(إِذَا بِيعَ فِي أَسْوَاقِ الْمُسْلِمِينَ) مَا يُجْلَبُ فِي أَسْوَاقِ الْمُسْلِمِينَ فَلَا تَسْأَلْ عَنْهُ، لِأَنَّ الْأَصْلَ الْإِبَاحَةُ إِلَّا إِذَا عَلِمْتَ أَنَّهُ مُحَرَّمٌ.

(عَلَى حُكْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ) بِأَنْ تَتَوَفَّرَ شُرُوطُ الْبَيْعِ الْمَعْرُوفَةُ، وَإِذَا تَوَفَّرَتْ شُرُوطُ الْبَيْعِ السَّبْعَةُ الْمَعْرُوفَةُ[1] فَالْبَيْعُ صَحِيحٌ، وَمَا يُبَاعُ فَإِنَّهُ حَلَالٌ، وَالْأَصْلُ أَنَّ أَسْوَاقَ الْمُسْلِمِينَ قَائِمَةٌ عَلَى ذَلِكَ.

قَوْلُهُ: **(مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدْخُلَهُ تَغْرِيرٌ أَوْ ظُلْمٌ أَوْ غَدْرٌ)** أَمَّا إِذَا دَخَلَ فِي الْبَيْعِ تَغْرِيرٌ وَجَهَالَةٌ وَمُخَاطَرَةٌ فَإِنَّهُ حَرَامٌ لِأَنَّهُ يُصْبِحُ مِنَ الْقِمَارِ. أَوْ مِنَ الْخِدَاعِ بِأَنْ يُظْهِرَ شَيْئاً غَيْرَ حَقِيقِيٍّ، يُظْهِرُ السِّلْعَةَ بِمَظْهَرٍ غَيْرِ حَقِيقِيٍّ وَهَذَا مَا يُسَمَّى بِالتَّدْلِيسِ وَهُوَ: إِظْهَارُ السِّلَعِ بِمَظْهَرٍ يُعْجِبُ النَّاظِرَ إِلَيْهَا وَهِيَ فِي الْبَاطِنِ بِخِلَافِهِ.

(أَوْ ظُلْمٌ) بِأَنْ يُبَاعَ قَهْراً عَلَى صَاحِبِهِ، بِأَنْ يُجْبَرَ عَلَى الْبَيْعِ، إِنَّمَا الْبَيْعُ عَنْ تَرَاضٍ، قَالَ ﷺ: **«إِنَّمَا الْبَيْعُ عَنْ تَرَاضٍ»**[2]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ [النساء: ٢٩]؛ فَيُشْتَرَطُ لِصِحَّةِ الْبَيْعِ رِضَى

---

(١) وهي: الرِّضى، والرشد، كَوْنُ المبيع مالاً مُبَاحَ المَنْفَعَة، كون المبيع ملكاً للبائع أو مأذوناً له فيه وقت العقد من مالكه أو الشارع، القدرة على تسليمه، معرفة الثَّمَنِ والمُثْمَنِ، أن يكون منجزاً لا معلقاً. انظر: المبدع لابن مفلح(٤/٧فما بعدها)، والروض المربع(٢/٢٦-٤٣)، ومنار السبيل(١/٢٨٧-٢٩٠).

(٢) رواه وابن ماجة(٢/٧٣٧رقم٢١٨٥)، وابن حبان في صحيحه(١١/٣٤٠رقم٤٩٦٧) عن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال البوصيري في مصباح الزجاجة(٣/١٧): «إسناد صحيح رجاله ثقات».

البائِعِ، أنْ يَكُونَ بَعْدَ اختِيارِهِ لا مُجْبَراً عَلى ذلِكَ؛ لأنَّ إجْبارَهُ ظُلْمٌ، إلاّ إذا كانَ إجْبارُهُ بِحَقٍّ كأنْ يَكُونَ عَلَيْهِ دُيُونٌ وأبى أنْ يُسَدِّدَ، فإنَّ الحاكِمَ يَتَدَخَّلُ فَيَبِيعُ مِنْ مالِهِ ما يُسَدِّدُ بِهِ دُيُونَهُ ولَو لَمْ يَرْضَ بِذلِكَ؛ لأنَّ هذا إكْراهٌ بِحَقٍّ، ولِهذا قالُوا: لا يَصِحُّ بَيْعُ المُكْرَهِ إلاّ بِحَقٍّ.

[٨٨] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ تَصْحَبَهُ الشَّفَقَةُ أَبَداً مَا صَحِبَ الدُّنْيَا؛ لأَنَّهُ لاَ يَدْرِي عَلَى مَا يَمُوتُ، وَبِمَ يُخْتَمُ لَهُ، وَعَلَى مَا يَلْقَى اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنْ عَمِلَ كُلَّ عَمَلٍ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَنْبَغِي لِلرَّجُلِ الْمُسْرِفِ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ لاَ يَقْطَعَ رَجَاءَهُ مِنَ اللهِ تَعَالَى عِنْدَ الْمَوْتِ، وَيُحْسِنَ ظَنَّهُ بِاللهِ، وَيَخَافَ ذُنُوبَهُ، فَإِنْ رَحِمَهُ اللهُ فَبِفَضْلٍ، وَإِنْ عَذَّبَهُ فَبِذَنْبٍ.

الشَّرْحُ:

هَذِهِ مَسْأَلَةٌ عَظِيمَةٌ وَهِيَ: أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَجْمَعُ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ فَيَسِيرُ فِي أَعْمَالِهِ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، فَلا يَخَافُ فَقَطْ وَيَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]، ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، فَلا يَخَافُ خَوْفاً زَائِداً يُقَنِّطُهُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَهَذَا خَوْفٌ مَذْمُومٌ، وَكَذَلِكَ يَرْجُو اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، لَكِن لا يُخْرِجُهُ الرَّجَاءُ إِلَى أَنْ يَأْمَنَ مِنْ مَكْرِ اللهِ، بَلْ يَكُونُ خَائِفاً مِنْ مَكْرِ اللهِ، وَمَكْرُ اللهِ جَلَّ وَعَلا يَلِيقُ بِهِ وَهُوَ مِنْ كَمَالِهِ، لَيْسَ هُوَ كَمَكْرِ الْمَخْلُوقِ، الْمَكْرُ فِي اللُّغَةِ: هُوَ إِيصَالُ الأَذَى إِلَى الغَيْرِ بِخُفْيَةٍ، بِحَيْثُ لا يَشْعُرُ بِذَلِكَ، فَإِذَا كَانَ هَذَا بِحَقٍّ فَإِنَّهُ عَدْلٌ، وَهَذَا هُوَ مَكْرُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَإِنَّهُ يَمْكُرُ بِالظَّالِمِينَ

وَالفَاسِقِينَ، فَيُوصِلُ إِلَيْهِمُ العُقُوبَةَ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ، وَهَذَا عَدْلٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ يُحْمَدُ عَلَيْهِ.

أَمَّا إِذَا كَانَ إِيصَالُ الأَذَى إِلَى الغَيْرِ بِغَيْرِ حَقٍّ فَهَذَا ظُلْمٌ وَلا يَجُوزُ، وَهَذَا هُوَ مَكْرُ المَخْلُوقِينَ، أَمَّا مَكْرُ الخَالِقِ جَلَّ وَعَلا فَهُوَ مَحْمُودٌ؛ لأَنَّهُ عَدْلٌ وَقِسْطٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَهَذَا فَرْقٌ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ، بَيْنَ مَكْرِ اللهِ وَمَكْرِ المَخْلُوقِ، ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٤]، هَذَا مِنْ بَابِ الجَزَاءِ لَهُمْ، فَهُوَ لَيْسَ ظُلْماً مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَإِنَّمَا هُوَ مُرَتَّبٌ عَلَى مَكْرِهِمْ، مَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ بِهِمْ عُقُوبَةً لَهُمْ، وَهَذَا عَدْلٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَفِي الحَدِيثِ: **«إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا»** يَدْخُلُ النَّارَ بِسَبَبِ أَنَّهُ عَمِلَ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَالجَزَاءُ مُرَتَّبٌ عَلَى العَمَلِ، وَلَمَّا كَانَتْ خَاتِمَتُهُ أَنَّهُ يَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ دَخَلَ النَّارَ، وَالعَكْسُ: **«إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا»**[1] يَدْخُلُهَا بِأَنَّهُ عَمِلَ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمَاتَ عَلَيْهِ. فَالنَّارُ لا تُدْخَلُ إِلاَّ بِعَمَلٍ، وَالجَنَّةُ لا تُدْخَلُ إِلاَّ بِعَمَلٍ وَالأَعْمَالُ بِالخَوَاتِيمِ. فَلا يَغْتَرُّ الإِنْسَانُ بِصَلاحِهِ وَاسْتِقَامَتِهِ وَيَأْمَنُ مِنَ الزَّيْغِ، كَمْ زَاغَ مِنْ مُؤْمِنٍ وَمِنْ مُسْلِمٍ وَمِنْ

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(٣/١٢١٢رقم٣١٥٤)، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(٤/٢٠٣٦رقم٢٦٤٣) عن عبدالله بن مسعود ﷺ.

عالِمٍ، اللهُ جَلَّ وَعَلا أزاغَهُم لمَّا حَصَلَ مِنْهُمْ ما حَصَلَ مِن المُخالَفاتِ، فَلا يَأمَنُ الإنْسانُ عَلَى نَفْسِهِ ويُزَكِّي نَفْسَهُ، فَلا يَأمَنُ مِنَ الزَّيْغِ ويُخالِطِ الأَشْرارَ، ويَستَمِعُ إلَيْهِمْ، ويَنْظُرُ فِي الفِتَنِ، لا يَأمَنُ عَلَى نَفْسِهِ، **«قُلُوبُ العِبادِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أصابِعِ الرَّحْمَنِ»**[1] لا يَأمَنُ عَلَى نَفْسِهِ، والخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ يَقُولُ: ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [إبراهيم: ٣٥- ٣٦]، فَالإِنْسانُ لا يَأمَنُ عَلَى نَفْسِهِ الفِتْنَةَ وَسُوءَ الخاتِمَةِ وَلَو كانَ مِنْ أصْلَحِ النّاسِ، ولا يَقْنَطُ مِن رَحْمَةِ اللهِ وَلَو كانَ مِنْ أكْفَرِ النّاسِ، فَقَدْ يَمُنُّ اللهُ عَلَيْهِ بِالتَّوْبَةِ فَيَمُوتُ عَلَى الإسْلامِ فَيَدْخُلُ الجَنَّةَ، لأنَّهُ ما دامَ عَلَى قَيْدِ الحَياةِ فإنَّهُ مُعَرَّضٌ لِهَذا وَهَذا، فَالأعْمالُ بِالخَواتِيمِ.

قَوْلُهُ: **(ويُحْسِنَ ظَنَّهُ بِاللهِ، ويَخافُ ذُنُوبَهُ)** يُحْسِنُ ظَنَّهُ بِاللهِ وَلا يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ.

(ويَخافُ ذُنُوبَهُ) يَعْنِي لا يَرْجُو رَجاءً لَيْسَ مَعَهُ خَوْفٌ، بَلْ يَجْمَعُ بَيْنَ الخَوْفِ والرَّجاءِ، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، هَؤُلاءِ أنْبِياءُ وكانُوا يُسارِعُونَ فِي الخَيْراتِ، ويَدْعُونَ اللهَ رَغَباً يَعْنِي: طَمَعاً فِي ثَوابِهِ، ورَهَباً: أيْ: خَوْفاً مِنْ عِقابِهِ، فَالأنْبِياءُ يَجْمَعُونَ بَيْنَ الخَوْفِ والرَّجاءِ، لا يَأخُذُونَ جانِباً ويَتْرُكُونَ الجانِبَ الآخَرَ،

(١) رَواهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (٤/٢٠٤٥ رقم ٢٦٥٤) عن عبدالله بن عمرو ﷺ.

لا يَأْخُذُونَ جَانِبَ الرَّجَاءِ وَيَتْرُكُونَ جَانِبَ الخَوْفِ، وَلا يَأْخُذُونَ جَانِبَ الخَوْفِ وَيَتْرُكُونَ جَانِبَ الرَّجَاءِ.

وَيُحَسِّنُ العَبْدُ ظَنَّهُ بِاللهِ خُصُوصاً عِنْدَ المَوْتِ، قَالَ العُلَمَاءُ: إِنَّهُ فِي حَالِ الصِّحَّةِ يُغَلِّبُ جَانِبَ الخَوْفِ احْتِيَاطاً، وَعِنْدَ المَوْتِ يُغَلِّبُ جَانِبَ الرَّجَاءِ. لأَنَّهُ فِي حَالِ الحَيَاةِ يَقْدِرُ عَلَى العَمَلِ وَالتَّوْبَةِ وَالاسْتِغْفَارِ، لَكِنْ عِنْدَ المَوْتِ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ فَيُغَلِّبُ جَانِبَ الرَّجَاءِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ: **«لا يَمُوتُ أَحَدُكُمْ إِلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ»**(1).

قَوْلُهُ: **(فَإِنْ رَحِمَهُ اللهُ فَبِفَضْلٍ، وَإِنْ عَذَّبَهُ فَبِذَنْبِهِ)** هَذَا كَمَا سَبَقَ أَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلا لا يُنَعِّمُ النَّاسَ وَلا يُعَذِّبُهُمْ إِلاَّ عَلَى أَعْمَالِهِمْ **﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾**[الكهف: 49].

❀ ❀ ❀

(1) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(4/2205رقم2877) عن عبدالله بن عمرو ﷺ.

[٨٩] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَالإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَطْلَعَ نَبِيَّهُ ﷺ عَلَى مَا يَكُونُ فِي أُمَّتِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ.

الشَّرْحُ:

النَّبِيُّ ﷺ لا يَعْلَمُ الغَيْبَ، وَلا أحد مِنَ المَخْلُوقِين يَعْلَمُ الغَيْبَ، ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[النمل: ٦٥]، والغَيْبُ: مَا غَابَ عنَّا، فِي المَاضِي وَفِي المُسْتَقْبَلِ نَحْنُ لا نَعْلَمُهُ، لَكِنْ الأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ يُطْلِعُهُمُ اللهُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الغَيْبِ لأَجْلِ مَصْلَحَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى، وَمِنْهُم: نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ فَقَدْ أَطْلَعَهُ اللهُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ المُغَيَّبَاتِ فَأَخْبَرَ بِهَا ﷺ لأَجْلِ مَصْلَحَةِ الأُمَّةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾[الجن: ٢٦- ٢٧] إلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ أي: فَإِنَّ اللهَ يُطْلِعُهُ عَلَى مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى.

مَثَلاً: كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَمْشِي مَعَ أَصْحَابِهِ فَمَرُّوا بِقَبْرَيْنِ قَالَ: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ**»[1] الصَّحَابَةُ مَا شَعَرُوا أَنَّ صَاحِبَي هَذَيْنِ القَبْرَيْنِ يُعَذَّبَانِ، اللهُ أَطْلَعَ رَسُولَهُ ﷺ عَلَى تَعْذِيبِ المَيِّتَيْنِ قَالَ: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ**» هَذَا مِمَّا أَطْلَعَهُ اللهُ عَلَيْهِ، وَهَذَا مِنْ خَصَائِصِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ.

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(١/٨٨رقم٢١٥)، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(١/٢٤٠رقم٢٩٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وَأَطْلَعَهُ اللهُ عَلَى مَا يَأْتِي فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَأَخْبَرَنَا ﷺ عَنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، أَخْبَرَنَا عَنِ الْفِتَنِ، مِنْ أَجْلِ أَنْ نَحْذَرَ وَنَخَافَ أَنْ تُدْرِكَنَا هَذِهِ الْأُمُورُ فَنَكُونَ عَلَى بَيِّنَةٍ، أَخْبَرَنَا لِمَصْلَحَتِنَا، مِنْ نَاحِيَةِ التَّحْذِيرِ لِأَجْلِ أَنْ نَأْخُذَ حِذْرَنَا، قَالَ ﷺ: **«وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً»**[1] هَذَا خَبَرٌ مِنْهُ ﷺ أَنَّهُ سَيَحْصُلُ الِافْتِرَاقُ فِي الْأُمَّةِ، وَحَصَلَ كَمَا أَخْبَرَ ﷺ مِنْ أَجْلِ أَنْ نُثْبُتَ عَلَى الْحَقِّ وَلَا نَذْهَبَ مَعَ الْمُخَالِفِينَ.

❀ ❀ ❀

(١) سنن ابن ماجه (٢/١٣٢٢).

[٩٠] قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلاَّ وَاحِدَةً، وَهِيَ الجَمَاعَةُ»، قِيلَ: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ اليَوْمَ وَأَصْحَابِي».

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: **(وَاعْلَمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلاَّ وَاحِدَةً، وَهِيَ الجَمَاعَةُ»)** اللهُ جَلَّ وَعَلا أَمَرَنَا بِالاجْتِمَاعِ عَلَى الحَقِّ ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، فَنَهَانَا عَنِ التَّفَرُّقِ وَأَمَرَنَا بِالاجْتِمَاعِ وَالاعْتِصَامِ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، فَقَالَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فَلا يَجُوزُ التَّفَرُّقُ وَالاخْتِلافُ تَبَعاً لِلأَهْوَاءِ، أَوْ تَقْلِيداً لِلآبَاءِ وَالأَجْدَادِ، أَوْ تَقْلِيداً لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، الاخْتِلافُ لا يَجُوزُ فِي أُمُورِ العَقِيدَةِ وَأُصُولِ الدِّينِ، وَإِنَّمَا يَجِبُ الاتِّفَاقُ وَالاجْتِمَاعُ عَلَيْهَا.

وَأَمَّا الاخْتِلافُ فِي المَسَائِلِ الفِقْهِيَّةِ فَهَذَا يَحْصُلُ وَلَكِنْ يَجِبُ الرُّجُوعُ إِلَى مَا قَامَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ مِنَ الأَقْوَالِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ

إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩]، إذاً الاخْتِلافُ في العَقِيدَةِ لا يَجُوزُ؛ لأنَّ العَقِيدَةَ تَوْقِيفِيَّة، لَيْسَتْ مَحَلَّ اجْتِهَادٍ.

وَأَمَّا في مَسَائِلِ الفِقْهِ والاسْتِنْبَاطِ: فَكُلٌّ يَجْتَهِدُ وَيَسْتَنْبِطُ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ المُؤَهَّلِينَ لِلاجْتِهَادِ، وَقَدْ يَخْتَلِفُونَ في وُجُهَاتِ نَظَرِهِمْ وَلَكِنْ لا يَبْقَونَ عَلَى الاخْتِلافِ، بَلْ يَرْجِعُونَ إِلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، فَمَنْ كَانَ مَعَهُ الدَّلِيلُ تَبِعُوهُ وَأَخَذُوا بِقَوْلِهِ، وَتَرَكُوا رَأْيَهُمْ. هَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، وَهَذَا الَّذِي أَرْشَدَنَا الرَّسُولُ ﷺ إِلَيْهِ، أَمَّا أَنْ نَقُولَ: اتْرُكُوا النَّاسَ كُلٌّ يَأْخُذ بِرَأْيِهِ، وَاخْتِلافُ الأُمَّةِ رَحْمَةٌ كَمَا يَقُولُونَ، فَنَقُولُ: هَذَا بَاطِلٌ، اللهُ جَلَّ وَعَلا يَقُولُ: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ [هود: ١١٨- ١١٩]، فَدَلَّ قَوْلُهُ: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ عَلَى أَنَّ الَّذِينَ رَحِمَهُمُ اللهُ لَمْ يَخْتَلِفُوا، وَعَلَى أَنَّ الاخْتِلافَ عَذَابٌ وَلَيْسَ رَحْمَةً، الرَّحْمَةُ: لِلَّذِينَ لَمْ يَخْتَلِفُوا، وَإِنِ اخْتَلَفُوا رَجَعُوا إِلَى الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَأَخَذُوا بِالصَّحِيحِ وَتَرَكُوا الخَطَأَ، هَذِهِ طَرِيقَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ، أَمَّا أَنْ يَبْقَى كُلٌّ عَلَى رَأْيِهِ، وَمَا قَالَ بِهِ فُلانٌ، وَفُلانٌ، فَلَيْسَتْ هَذِهِ طَرِيقَةَ المُسْلِمِينَ، هَذِهِ طَرِيقَةُ أَهْلِ الأَهْوَاءِ وَأَهْلِ الشَّهَوَاتِ، يَتَلَمَّسُونَ مَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ مِنَ الأَقْوَالِ، وَيُوَافِقُ رَغْبَتَهُمْ، وَمَا يُخَالِفُ رَغْبَتَهُمْ يَتْرُكُونَهُ، وَلَوْ قَالَ بِهِ الإِمَامُ الَّذِي يَأْخُذُونَ بِقَوْلِهِ، يَعْنِي لا يَأْخُذُونَ مِنْ أَقْوَالِ الأَئِمَّةِ

وَالعُلَمَاءِ إِلاَّ مَا يُوَافِقُ رَغَبَاتِهِمْ، أمَّا مَا يُخَالِفُ رَغَبَاتِهِمْ فَإِنَّهُمْ يَرْفُضُونَهُ. فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ، مَا وَافَقَ هَوَاهُمْ أَخَذُوا بِهِ، وَمَا خَالَفَ هَوَاهُمْ تَرَكُوهُ وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُنَادَى بِهِ الآنَ فِي الصُّحُفِ وَالمَجلاَّتِ وَالنَّدَوَاتِ وَالمُؤْتَمَرَاتِ فِي الغَالِبِ وَفِي الفَضَائِيَّاتِ، يُرَوِّجُونَ الخِلافَ وَيَقُولُونَ: نُوَسِّعُ لِلنَّاسِ! بِمَاذَا نُوَسِّعُ لِلنَّاسِ؟ بِتَرْكِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالذَّهَابِ مَعَ الأَقْوَالِ الَّتِي أَهْلُهَا لَيْسُوا مَعْصُومِينَ، يُخْطِئُونَ وَيُصِيبُونَ؟!، وَهُمْ يَنْهَوْنَنَا أَنْ نَأْخُذَ مِنْ أَقْوَالِهِمْ إِلاَّ مَا وَافَقَ الدَّلِيلَ، هُمْ يَنْهَوْنَنَا عَنْ أَخْذِ أَقْوَالِهِمْ إِذَا خَالَفَتِ الدَّلِيلَ، فَهَذَا أَمْرٌ يَجِبُ مَعْرِفَتُهُ؛ لأَنَّ النَّاسَ اليَوْمَ ابْتُلُوا بِهَؤُلاءِ الَّذِينَ يَلْبِسُونَ عَلَى النَّاسِ.

فَقَوْلُهُ: **(وَاعْلَمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلاَّ وَاحِدَةً»[1])** هَذَا الحَدِيثُ صَحِيحٌ بِمَجْمُوعِ طُرُقِهِ وَرِوَايَاتِهِ الكَثِيرَةِ، قَدْ خَرَّجَهُ الأَئِمَّةُ وَأَثْنَوا عَلَيْهِ، وَالوَاقِعُ يُصَدِّقُهُ، حَيْثُ أَخْبَرَ ﷺ أَنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ المُحَمَّدِيَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً. وَهَذِهِ أُصُولُ الفِرَقِ، وَهُنَاكَ أَكْثَرُ مِنْ هَذِهِ الفِرَقِ، لَكِنْ هَذِهِ أُصُولُهَا، كُلُّهَا فِي النَّارِ، يَعْنِي اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ كُلُّهَا فِي النَّارِ، إِلاَّ وَاحِدَةً، وَهِيَ الثَّالِثَةُ وَالسَّبْعُونَ وَهِيَ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، فَهَذِهِ نَاجِيَةٌ مِنَ النَّارِ، وَلِذَا تُسَمَّى الفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ، وَيُسَمَّوْنَ

(١) سبق تخريجه (١/ ٦٧).

أَهْلَ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ، ومَا عَدَاهُم فَهُمْ مُخَالِفُونَ، وَمُتَوَعَّدُونَ بِالنَّارِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ لِكُفْرِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ لِفِسْقِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ لِمَعْصِيَتِهِ. لَيْسُوا سَوَاءً في دُخُولِهِمُ النَّارَ. فَلا يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا الحَدِيثِ أَنَّ هَذِهِ الفِرَقَ كُلَّهَا كَافِرَةٌ.

قَوْلُهُ: **(وَهِيَ الجَمَاعَةُ)** الجَمَاعَةُ: مَنْ كَانَ عَلَى الحَقِّ وَلَو كَانَ وَاحِداً هَذَا هُوَ الجَمَاعَةُ، أَمَّا الكَثْرَةُ وَحْدَهَا فَلا تَدُلُّ عَلَى الحَقِّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠٢]، فَلَيْسَتِ العِبْرَةُ بِالكَثْرَةِ، العِبْرَةُ بِمَنْ كَانَ عَلَى الحَقِّ وَلَو كَانُوا قَلِيلِينَ، وَلَو كَانَ وَاحِداً فَهُوَ الجَمَاعَةُ.

قَوْلُهُ: **(قِيلَ: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ اليَوْمَ وَأَصْحَابِي»)** هَذَا هُوَ الطَّرِيقُ الصَّحِيحُ، مَنْ كَانَ عَلَى مَا عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ وأَصْحَابُهُ فَهُوَ الجَمَاعَةُ.

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: هَكَذَا كَانَ الدِّينُ إِلَى خِلَافَةِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ﷺ الجَمَاعَةُ كُلُّهَا، وَهَكَذَا فِي زَمَنِ عُثْمَانَ، فَلَمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ ﷺ جَاءَ الاخْتِلَافُ وَالبِدَعُ، وَصَارَ النَّاسُ أَحْزَاباً، وصَارُوا فِرَقاً، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ ثَبَتَ عَلَى الحَقِّ عِنْدَ أَوَّلِ التَّغْيِيرِ، وَقَالَ بِهِ، وَعَمِلَ بِهِ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَيْهِ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: **(هَكَذَا كَانَ الدِّينُ إِلَى خِلَافَةِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ﷺ الجَمَاعَةُ كُلُّهَا، وَهَكَذَا فِي زَمَنِ عُثْمَانَ)** فِي حَيَاةِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ كَانَ المُخَالِفُونَ مُخْتَفِينَ مُنْدَسِّينَ بَيْنَ النَّاسِ كَالقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ، وَذَلِكَ لِقُوَّةِ الإِسْلَامِ وَقُوَّةِ المُسْلِمِينَ، إِلَى أَنْ دَسَّ اليَهُودُ رَجُلاً يَهُودِيًّا مِنَ اليَمَنِ يُقَالُ لَهُ: ابنُ السَّوْدَاءِ عَبْدُاللهِ بنُ سَبَإٍ اليَهُودِيُّ، فَجَاءَ إِلَى المَدِينَةِ وَأَظْهَرَ الإِسْلَامَ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ ﷺ، وَجَعَلَ يَسُبُّ عُثْمَانَ فِي المَجَالِسِ، لأَنَّهُ ادَّعَى الإِسْلَامَ خُدْعَةً، ثُمَّ أَخَذَ يَنْفُثُ سُمُومَهُ فِي المَجَالِسِ وَيَحْضُرُهُ السُّفَهَاءُ وَالأَوْغَادُ وَالجُهَّالُ، وَبَعْضُ النَّاسِ أَوْ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَهْوَوْنَ السَّبَّ وَالقِيلَ وَالقَالَ، فَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ، وَلَمَّا فُطِنَ لَهُ وَطُرِدَ مِنَ المَدِينَةِ، ذَهَبَ إِلَى مِصْرَ، وَوَجَدَ قَرْيَةً فِي مِصْرَ مَشْهُورَةً بِالشِّقَاقِ فَانْغَمَسَ فِيهَا، وَنَشَرَ سُمُومَهُ فِيهَا، وَسَبَّ عُثْمَانَ، ثُمَّ فِي النِّهَايَةِ تَكَوَّنَ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ مَعَهَا سِلَاحٌ وَقُوَّةٌ، فَجَاؤُوا إِلَى عُثْمَانَ ﷺ يَعْتَرِضُونَ عَلَيْهِ، وَيُخَطِّؤُونَهُ، فَعُثْمَانُ ﷺ أَجَابَهُمْ وَدَحَضَ شُبَهَهُمْ، ثُمَّ رَجَعُوا، ثُمَّ تَلَاوَمُوا فِي الطَّرِيقِ وَقَالُوا مَا عَمِلْنَا شَيْئاً، ثُمَّ رَجَعُوا عَلَى عُثْمَانَ ﷺ وَحَاصَرُوهُ فِي بَيْتِهِ، وَالصَّحَابَةُ أَرَادُوا أَنْ يُدَافِعُوا

عَنِ الْخَلِيفَةِ وَلَكِنْ عُثْمَانَ ﷺ نهى عَنْ ذَلِكَ خَشْيَةَ الفِتْنَةِ، وَخَشْيَةَ سَفْكِ الدِّمَاءِ، نَهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ عَلَى أَمَلِ أَنَّ المَسْأَلَةَ فِيهَا مُحَاوَرَةٌ وَمُرَاجَعَةٌ، يُرِيدُ أَنْ يُقْنِعَهُمْ، لَكِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا أَنَّهُم لَمْ يُدْرِكُوا شَيْئاً بِالْحُجَّةِ فَقَزُوا عَلَيْهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، وَقَتَلُوهُ ﷺ، لَمَّا رَأَوْا أَنَّ شُبُهَاتِهِمْ دَاحِضَةٌ وَلا قَبُولَ لَهَا؛ انْتَهَزُوا الفُرْصَةَ فِي غَفْلَةٍ، وَأَغْلَبُ النَّاسِ فِي الحَجِّ وَالنَّاسُ فِي المَدِينَةِ كَانُوا نَائِمِينَ وَآمِنِينَ، عَلَى أَنَّ المَسْأَلَةَ فِيهَا مُحَاوَرَةٌ وَمُرَاجَعَةٌ؛ فَقَزُوا عَلَيْهِ فِي اللَّيْلِ قَبَّحَهُمُ اللهُ، فِي بَيْتِهِ، وَقَتَلُوهُ، شَهِيداً ﷺ، وَهُوَ يَتْلُو القُرْآنَ وَمَعَهُ مُصْحَفٌ حَتَّى سَالَ دَمُهُ عَلَى المُصْحَفِ ﷺ. فَحِينَئِذٍ حَدَثَتِ الفِتْنَةُ[1]، وَادَّعَى هَذَا الخَبِيثُ أَنَّ الخِلافَةَ لِعَلِيٍّ وَأَنَّهَا لَيْسَتْ لأَبِي بَكْرٍ وَلا لِعُمَرَ وَلا لِعُثْمَانَ، وَإِنَّمَا هِيَ لِعَلِيٍّ وَأَنَّ عَلِيًّا هُوَ وَصِيُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَنَّ هَؤُلاءِ ظَلَمُوا الخِلافَةَ وَأَخَذُوهَا اغْتِصَاباً مِنْ عَلِيٍّ. وَالعَجِيبُ أَنَّ عَلِيًّا ﷺ مَا ادَّعَى هَذَا، وَلا طَالَبَ بِالخِلافَةِ، وَلا قَالَ أَنَا أَحَقُّ بِهَا، بَلْ كَانَ مُبَايِعاً وَسَامِعاً وَمُطِيعاً لإِخْوَانِهِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ ﷺ جَمِيعاً، عِنْدَ ذَلِكَ حَصَلَتِ الفِتْنَةُ بَيْنَ المُسْلِمِينَ وَحَصَلَ القِتَالُ بَيْنَ المُسْلِمِينَ بِسَبَبِ هَذَا الخَبِيثِ الَّذِي انْدَسَّ فِي صُفُوفِ المُسْلِمِينَ، وَلَكِنَّ اللهَ خَيَّبَ ظَنَّهُ، صَحِيحٌ أَنَّهُ حَصَلَ عَلَى المُسْلِمِينَ مِحْنَةٌ قُتِلَ مِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ، لَكِنَّهُ مَا عَمِلَ شَيْئاً بِالإِسْلامِ، الإِسْلامُ وَللهِ الحَمْدُ بَقِيَ عَزِيزاً وَقَائِماً وَلَمْ يَنَلْ مِنْهُ شَيْئاً، وَمَا أَدْرَكَ هُوَ وَاليَهُودُ شَيْئاً مِنْ هَذَا الدِّينِ وَالحَمْدُ للهِ. نَعَمْ حَصَلَ عَلَى الصَّحَابَةِ بَعْضُ المُصِيبَةِ وَالفِتْنَةِ

(١) انظر: إتحاف الجماعة للشيخ حمود التويجري(١/١٤٦)، وكتاب «فتنة مقتل عثمان ﷺ» د. محمد الغبان(١/ ١١٥- ١٣٣).

وَالقَتْلِ لَكِنْ هَذَا فِي سَبِيلِ اللهِ ﷺ وَأَرْضَاهُمْ، وَلَمْ يَحْصُلْ هَذَا الحَيْثُ عَلَى طَائِلٍ وَالحَمْدُ للهِ.

هَذَا مُلَخَّصُ قَضِيَّةِ الفِتْنَةِ بِمَقْتَلِ عُثْمَانَ ﷺ. وَهَذَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لا يَجُوزُ الخُرُوجُ عَلَى وَلِيِّ الأَمْرِ، وَأَنَّ الخُرُوجَ عَلَيْهِ يُسَبِّبُ شَرًّا فِي الأُمَّةِ وَسَفْكَ دِمَاءٍ، وَلا يَزَالُ النَّاسُ فِي فِتَنٍ مِنْ ذَلِكَ العَهْدِ. وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ دُعَاةَ الفِتْنَةِ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الفِتْنَةِ وَالخُرُوجِ عَلَى وُلاةِ الأُمُورِ وَبِحُجَّةِ إِنْكَارِ المُنْكَرِ، ظَهَرَتِ المُعْتَزِلَةُ وَالخَوَارِجُ كُلُّهُ مِنْ هَذَا البَابِ، وَلا تَزَالُ إِلَى الآنَ.

قَوْلُهُ: **(فَلَمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ ﷺ جَاءَ الاخْتِلافُ وَالبِدَعُ)** يَجِبُ الحَذَرُ مِنْ دُعَاةِ الضَّلالِ وَلا يُتَسَاهَلُ فِي أَمْرِهِمْ، وَأَنَّهُ لا يَجُوزُ الكَلامُ فِي وُلاةِ الأُمُورِ، وَلِهَذَا أَوْصَى ﷺ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَعَدَمِ الخُرُوجِ عَلَى وُلاةِ الأُمُورِ وَإِنْ جَارُوا، وَإِنْ ظَلَمُوا وَإِنْ فَسَقُوا مَا لَمْ يَصِلُوا إِلَى حَدِّ الكُفْرِ الصَّرِيحِ، هَكَذَا أَوْصَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ.

قَوْلُهُ: **(وَصَارَ النَّاسُ فِرَقًا، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ ثَبَتَ عَلَى الحَقِّ عِنْدَ أَوَّلِ التَّغْيِيرِ، وَقَالَ بِهِ وَعَمِلَ بِهِ وَدَعَا إِلَيْهِ)** لَمَّا حَصَلَتِ الفِرَقُ وَالاخْتِلافُ ثَبَّتَ اللهُ أَهْلَ الحَقِّ عَلَى الحَقِّ وَالسُّنَّةِ، وَسَارُوا عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ وَأَصْحَابُهُ ﷺ. وَالفِرَقُ الأُخْرَى خَالَفَتْ مَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، فَاسْتَحَقُّوا الوَعِيدَ بِالنَّارِ، بِحَسَبِ مَا حَصَلَ مِنْهُمْ.

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: فَكَانَ الأَمْرُ مُسْتَقِيمًا حَتَّى كَانَتِ الطَّبَقَةُ الرَّابِعَةُ فِي خِلَافَةِ بَنِي فُلَانٍ انْقَلَبَ الزَّمَانُ، وَتَغَيَّرَ النَّاسُ جِدًّا، وَفَشَتِ البِدَعُ، وَكَثُرَ الدُّعَاةُ إِلَى غَيْرِ سَبِيلِ الحَقِّ وَالجَمَاعَةِ، وَوَقَعَتِ المِحْنَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَلَا أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: **(فَكَانَ الأَمْرُ مُسْتَقِيمًا حَتَّى كَانَتِ الطَّبَقَةُ الرَّابِعَةُ فِي خِلَافَةِ بَنِي فُلَانٍ انْقَلَبَ الزَّمَانُ، وَتَغَيَّرَ النَّاسُ جِدًّا، وَفَشَتِ البِدَعُ)** زَادَ الخِلَافُ وَزَادَتِ الفِتَنُ بَعْدَ انْقِضَاءِ القُرُونِ المُفَضَّلَةِ حَتَّى جَاءَ عَهْدُ العَبَّاسِيِّينَ وَظَهَرَ فِيهِمُ المَأْمُونُ العَبَّاسِيُّ، وَتَبِعَهُ المُعْتَصِمُ وَالوَاثِقُ، وَأَخَذُوا بِقَوْلِ الجَهْمِيَّةِ، وَأَرَادُوا أَنْ يُجْبِرُوا أَهْلَ السُّنَّةِ عَلَيْهِ وَهُوَ القَوْلُ بِخَلْقِ القُرْآنِ، وَقَتَلُوا بَعْضَ الأَئِمَّةِ، وَضَرَبُوا البَعْضَ الآخَرَ، وَلَكِنَّ الحَقَّ ثَابِتٌ وَللهِ الحَمْدُ لَا يَتَزَحْزَحُ.

قَوْلُهُ: **(وَكَثُرَ الدُّعَاةُ إِلَى غَيْرِ سَبِيلِ الحَقِّ وَالجَمَاعَةِ)** كَثِيرٌ الآنَ مَنْ يَقُولُونَ: إِنَّهُم دُعَاةٌ؛ وَيَكُونُونَ جَمَاعَاتٍ وَفِرَقًا تَحْتَ هَذَا الغِطَاءِ، وَهُمْ يُرِيدُونَ دَعْوَةَ النَّاسِ إِلَى الضَّلَالِ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ مِمَّنِ اسْتَقَامَ عَلَى دَعْوَةِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَنْهَجِ الرَّسُولِ ﷺ فِي دَعْوَتِهِ فَهَذَا عَلَى حَقٍّ، وَهَذِهِ هِيَ الدَّعْوَةُ الحَقُّ، مَا كُلُّ مَنْ تَسَمَّى بِالدَّعْوَةِ يَكُونُ صَحِيحًا حَتَّى يُنْظَرَ فِي مَنْهَجِهِ الَّذِي يَسِيرُ عَلَيْهِ، فَإِنْ كَانَ يَسِيرُ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ وَأَصْحَابُهُ فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ إِلَى حَقٍّ، وَإِنْ كَانَ مُخَالِفًا لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ

في مَنْهجِ الدَّعْوةِ فهوَ على بَاطِلٍ، ولا يُغترّ بقولِهِ: إنَّهُ منَ الدُّعاةِ، هُناكَ دُعاةٌ على أبوابِ جهنّمَ منْ أطاعَهُمْ قذفُوهُ فيها كمَا قالَ ﷺ[1]، ولهذَا قالَ المؤلّفُ: **(وكَثُرَ الدُّعاةُ إلى غيرِ سَبيلِ الحَقِّ والجماعةِ)** كمَا هُوَ واقِعٌ الآنَ، كَثيرٌ يزْعُمُونَ أنَّهم يدْعُونَ إلى الإسْلامِ تحْتَ هذَا الغِطاءِ، وإذَا نُظِرَ في منْهجِهِمْ وتصرُّفاتِهِمْ وُجِدتْ مُخالِفةً للإسْلامِ تمَاماً.

قوْلُهُ: **(ووقَعتِ المحنَةُ في كُلِّ شيءٍ لمْ يتكلَّمْ بهِ رسُولُ اللهِ ﷺ، ولا أحَدٌ مِنْ أصْحابِهِ ﷺ)** كَثُرَ الكلامُ والاخْتِلافُ والقِيلُ والقَالُ ودَعْوى العِلْمِ ولَكِنْ كُلُّ هذَا يضْمَحِلُّ ويبْقَى مَا دَلَّ عليْهِ الكِتابُ والسُّنَّةُ وهُوَ المنْهجُ السَّليمُ والصِّراطُ المُسْتقيمُ، لكِنْ هذَا يحْتاجُ إلى أمْرَيْنِ:

أوّلاً: العِلْمُ النّافِعُ، الّذي تَعْرِفُ بهِ مَا كانَ عليْهِ الرَّسولُ ﷺ وأصْحابُهُ ومَنْ تبِعَهُمْ بإحْسانٍ.

ثانِياً: الصَّبْرُ والثَّباتُ، ولا تتزَحْزَحْ معَ الفِتَنِ أوْ معَ دُعاةِ الضَّلالِ، بلْ تكُونُ ثابِتاً، وتَصْبِرُ على مَا أصابَكَ مِنَ اللَّوْمِ والعِتابِ أوِ التَّهْديدِ مَا دُمْتَ على الحَقِّ تَصْبِرُ ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

(١) جزء من حديث حذيفة ﷺ وفيه: قُلْتُ: فهَلْ بعْدَ ذلكَ الخيْرِ مِنْ شرٍّ؟ قالَ: **«نعَمْ دُعاةٌ على أبْوابِ جهنَّمَ منْ أجابَهُمْ إليْهَا قذفُوهُ فيهَا»** قُلْتُ: يا رسُولَ اللهِ، صِفْهُمْ لَنَا. فقالَ: **«هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، ويتكلَّمُونَ بألسِنَتِنَا»** قُلْتُ: فمَا تأمُرُني إنْ أدْركَني ذلكَ؟ قالَ: **«تلْزَمُ جماعةَ المسْلمينَ وإمامَهُمْ»** رواهُ البُخاريُّ في صَحيحِهِ(٣/١٣١٩رقم٣٤١١)، ومُسْلمٌ في صَحيحِهِ(٣/١٤٧٥رقم١٨٤٧).

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَدَعَوْا إِلَى الْفُرْقَةِ وَقَدْ نَهَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ الْفُرْقَةِ، وَكَفَّرَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً وَكُلٌّ دَعَا إِلَى رَأْيِهِ وَإِلَى تَكْفِيرِ مَنْ خَالَفَهُ فَضَلَّ الْجُهَّالُ وَالرَّعَاعُ وَمَنْ لا عِلْمَ لَهُ، وَأَطْمَعُوا النَّاسَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا، وَخَوَّفُوهُمْ عِقَابَ الدُّنْيَا، فَاتَّبَعَهُمُ الْخَلْقُ عَلَى خَوْفٍ فِي دِينِهِمْ، وَرَغْبَةٍ فِي دُنْيَاهُمْ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: **(وَدَعَوْا إِلَى الْفُرْقَةِ وَقَدْ نَهَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ الْفُرْقَةِ)** نَهَى اللهُ عَنِ الْفُرْقَةِ فَقَالَ: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ [البينة: ٤]، فَهُمُ افْتَرَقُوا لا عَنْ جَهْلٍ وَإِنَّمَا عَنْ عِلم.

قَوْلُهُ: **(وَكَفَّرَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً)** صَارَتِ الفِرَقُ يُكَفِّرُ بَعْضُهَا بَعْضاً، هَذِهِ سِمَةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ عَلَى بَاطِلٍ كُلُّهُمْ، أَمَّا أَهْلُ الْحَقِّ، وَأَهْلُ السُّنَّةِ فَلا يُكَفِّرُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وَإِنَّمَا يُوَالِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وَيُحِبُّ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وَيَتَعَاضَدُونَ وَيَتَنَاصَحُونَ؛ وَكَذَلِكَ لا يُكَفِّرُونَ الفِرَقَ الأُخْرَى إِلاَّ مَنْ دَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ عَلَى كُفْرِهِ، وَإِلاَّ فَهُمْ مُعْتَدِلُونَ فِي مَسْأَلَةِ التَّكْفِيرِ، لا يُكَفِّرُونَ إِلاَّ مَا قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى كُفْرِهِ، وَلا يَسْتَعْجِلُونَ فِي هَذَا الأَمْرِ.

قَوْلُهُ: **(وكُلٌّ دَعَا إِلَى رَأْيِهِ وَتَكْفِيرِ مَنْ خَالَفَهُ)** هَذِهِ سِمَةُ أَهْلِ الضَّلالِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، ﴿زُبُرًا﴾ يَعْني: كُتُباً، يُؤَلِّفُونَ كُتُباً، وَهَذَا وَاقِعٌ، يُؤَلِّفُونَ الكُتُبَ لِنُصْرَةِ مَذْهَبِهِمْ وَحِزْبِهِمْ، وَيَفْرَحُونَ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ، هُمْ لَوْ كَانُوا عَلَى جَهْلٍ لَرُجِيَ أَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ، لَكِنْ هُمْ فَرِحُونَ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ البَاطِلِ، وَيَعْتَقِدُونَهُ حَقًّا، وَهَذِهِ عُقُوبَةٌ مِنَ اللهِ لَهُمْ.

قَوْلُهُ: **(فَضَلَّ الجُهَّالُ وَالرَّعَاعُ وَمَنْ لا عِلْمَ عِنْدَهُ)** ضَلَّلُوا الجُهَّالَ وَالرَّعَاعَ وَمَنْ لا عِلْمَ لَهُمْ، أَمَّا أَهْلُ الحَقِّ، وَأَهْلُ العِلْمِ فَإِنَّهُمْ لا يَتَأَثَّرُونَ بِهَذِهِ الفِرَقِ، وَهَذِهِ الضَّلالاتِ؛ لأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّهَا بَاطِلٌ.

قَوْلُهُ: **(وَأَطْمَعُوا النَّاسَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا، وَخَوَّفُوهُمْ عِقَابَ الدُّنْيَا)** كَذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ فِتْنَتِهِمْ أَنَّهُمْ يُعْطُونَ أَتْبَاعَهُمْ شَيْئاً مِنَ الطَّمَعِ.

قَوْلُهُ: **(فَاتَّبَعَهُمُ الخَلْقُ عَلَى خَوْفٍ فِي دِينِهِمْ، وَرَغْبَةٍ فِي دُنْيَاهُمْ)** كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يُحِبُّونَ الدُّنْيَا فَيَتْبَعُونَ مَنْ يَبْذُلُ شَيْئاً مِنَ المَالِ وَلَوْ كَانَ عَلَى بَاطِلٍ طَمَعاً فِي المَالِ.

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: فَصَارَتِ السُّنَّةُ وَأَهْلُ السُّنَّةِ مَكْتُومِينَ وَظَهَرَتِ البِدْعَةُ وَفَشَتْ، وَكَفَرُوا مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ مِنْ وُجُوهٍ شَتَّى، وَوَضَعُوا القِيَاسَ، وَحَمَلُوا قُدْرَةَ الرَّبِّ وَآيَاتِهِ وَأَحْكَامِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ عَلَى عُقُولِهِمْ وَآرَائِهِمْ فَمَا وَافَقَ عُقُولَهُمْ قَبِلُوهُ، وَمَا خَالَفَ عُقُولَهُمْ رَدُّوهُ فَصَارَ الإِسْلامُ غَرِيباً، وَالسُّنَّةُ غَرِيبَةً، وَأَهْلُ السُّنَّةِ غُرَبَاءَ فِي جَوْفِ دِيَارِهِمْ

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: **(فَصَارَتِ السُّنَّةُ وَأَهْلُ السُّنَّةِ مَكْتُومِينَ وَظَهَرَتِ البِدْعَةُ وَفَشَتْ)** بَعْدَ أَنْ كَانَ أَهْلُ السُّنَّةِ ظَاهِرِينَ فِي القُرُونِ المُفَضَّلَةِ، وَأَهْلُ الشَّرِّ مَكْبُوتِيْنَ انْقَلَبَ الأَمْرُ؛ وَصَارَ أَهْلُ السُّنَّةِ مَكْبُوتِيْنَ، وَأَهْلُ البَاطِلِ ظَاهِرِينَ لَكِنْ هَذَا لا يَدُومُ، وَإِنْ ظَهَرَ أَهْلُ البَاطِلِ فِي فَتْرَةٍ فَسَيَنْحَطُّونَ فِي المُسْتَقْبَلِ وَيَتَكَسَّرُونَ فِي المُسْتَقْبَلِ، وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِيْنَ دَائِماً وَأَبَداً، وَالإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ يَقُولُ:

وَالحَقُّ مَنْصُورٌ وَمُمْتَحَنٌ فَلا   تَعْجَبْ فَهَذِي سُنَّةُ الرَّحْمَنِ(١)

قَوْلُهُ: **(وَوَضَعُوا القِيَاسَ)** القِيَاسُ يَعْنِي فِي العَقِيدَةِ، لأَنَّ العَقِيدَةَ لَيْسَ فِيهَا قِيَاسٌ، لأَنَّهَا تَوْقِيفِيَّةٌ لا يُعْمَلُ إِلاَّ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ وَلا يُقَاسُ فِي العَقَائِدِ، القِيَاسُ إِنَّمَا هُوَ فِي الفِقْهِ.

(١) الكافية الشافية(١/١٢٤ - مع شرح ابن عيسى).

قَوْلُهُ: **(وَحَمَّلُوا قُدْرَةَ الرَّبِّ وَآيَاتِهِ وَأَحْكَامِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ عَلَى عُقُولِهِمْ وَآرَائِهِمْ)** هَذَا هُوَ القِيَاسُ البَاطِلُ، القِيَاسُ فِي حَقِّ اللهِ جَلَّ وَعَلا، الَّذِي لا تَتَصَوَّرُهُ عُقُولُهُمْ وَآرَاؤُهُمْ، فَإِنَّهُمْ يَرُدُّونَ بِقِيَاسِ عُقُولِهِمْ كَلامَ اللهِ وَكَلامَ رَسُولِهِ.

قَوْلُهُ: **(فَمَا وَافَقَ عُقُولَهُمْ قَبِلُوهُ، وَمَا خَالَفَ عُقُولَهُمْ رَدُّوهُ)** فَهُمْ يُحَكِّمُونَ عُقُولَهُمْ وَآرَاءَهُمْ؛ فَمَا خَالَفَهَا رَدُّوهُ؛ إِمَّا بِالتَّأْوِيلِ، وَإِمَّا بِالرَّفْضِ وَعَدَمِ القَبُولِ.

قَوْلُهُ: **(فَصَارَ الإِسْلامُ غَرِيباً، وَالسُّنَّةُ غَرِيبَةً، وَأَهْلُ السُّنَّةِ غُرَبَاءَ فِي جَوْفِ دِيَارِهِمْ)**؛ كَمَا قَالَ ﷺ: **«بَدَأَ الإِسْلامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»**[1] قَالُوا: مَنِ الغُرَبَاءُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **«الَّذِينَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ»**[2] وَفِي رِوَايَةٍ: **«يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ»**[3]

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(١/١٣٠رقم١٤٥) عن أبي هُرَيْرَةَ، دُونَ ذِكْرِ السؤال والجواب عن الغرباء. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ أيضاً(رقم١٤٦) عن ابن عمر عن النبيِّ ﷺ قَالَ: **«إِنَّ الإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كما بَدَأَ، وهو يَأْرِزُ بين المَسْجِدَيْنِ كما تَأْرِزُ الحَيَّةُ إلى جُحْرِهَا»**.

(٢) رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي المُعْجَمِ الكبير(٦/١٦٤رقم٥٨٦٧)، والأوسط(٣/٢٥٠رقم٣٠٥٦)، والصغير(١/١٨٣رقم٢٩٠)عن سهل بن سعد الساعدي، قَالَ الهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ»(٧/٢٧٨): «ورجاله رجال الصحيح غير بكر بن سليم وهو ثقة».

(٣) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ(٥/١٨رقم٢٦٣٠)، والطَّبَرَانِيُّ فِي الكَبِيرِ(١٧/١٦) عن عَمْرِو بن عَوْفٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **«...إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَيَرْجِعُ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ من بَعْدِي من سُنَّتِي»**.قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَرَوَاهُ ابن أَبِي شَيْبَةَ فِي المصنف(٧/٨٣رقم٣٤٣٦٦)، والإِمَامُ أَحْمَدُ فِي المُسْنَدِ(١/٣٩٨)، والدارمي(٢/٤٠٢رقم٢٧٥٥)، وابن مَاجَهْ(٢/١٣٢٠رقم٣٩٨٨) وَغَيْرُهُمْ عن ابن مسعود ﷺ وفيه: قِيلَ: وَمَنِ الغُرَبَاءُ؟ قَالَ: «النُّزَّاعُ من القَبَائِلِ». قال الإمام البخاريُّ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ» نقله عَنْهُ التِّرْمِذِيُّ في العلل الكبير(ص/٣٣٨رقم٦٢٨)، وقَالَ البغوي في شرح السنة(١/١١٨): «حَدِيثٌ صَحِيحٌ غريبٌ».

يَصْلُحُونَ بِأَنْفُسِهِمْ وَيُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ، هَؤُلاءِ هُمُ الغُرَبَاءُ، لِمَاذَا سُمُّوا غُرَبَاءَ؟ لأَنَّ مَنْ يُخَالِفُهُمْ كَثِيرٌ، وَمَنْ يُنْكِرُ عَلَيْهِمْ كَثِيرٌ، فَهُمْ غُرَبَاءُ بَيْنَ مُوَاطِنِيهِمْ وَمُعَاصِرِيهِمْ.

[٩٦] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُتْعَةَ - مُتْعَةَ النِّسَاءِ - وَالاسْتِحْلَالَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

الشَّرْحُ:

هَذِهِ مَسْأَلَةٌ فِقْهِيَّةٌ وَلَكِنْ أَتَى بِهَا؛ لأَنَّ لَهَا تَعَلُّقاً بِالعَقِيدَةِ؛ لأَنَّ الْمُتْعَةَ تَحْلِيلٌ لِمَا حَرَّمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْمُتْعَةُ: مَعْنَاهَا أَنْ يَتَزَوَّجَ امْرَأَةً مُدَّةً مُحَدَّدَةً طَوِيلَةً أَوْ قَصِيرَةً، وَبَعْدَهَا يَنْتَهِي الزَّوَاجُ تِلْقَائِيًّا، وَلا يَحْتَاجُ إِلَى طَلَاقٍ.

كَانَتِ الْمُتْعَةُ جَائِزَةً فِي أَوَّلِ الإِسْلَامِ، ثُمَّ حَرَّمَهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ[1]، ثُمَّ أَبَاحَهَا يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، ثُمَّ حَرَّمَهَا تَحْرِيماً مُؤَبَّداً[2]، فَهِيَ أَوَّلاً كَانَتْ حَلَالاً، ثُمَّ حُرِّمَتْ، ثُمَّ أُبِيحَتْ، ثُمَّ حُرِّمَتْ إِلَى الأَبَدِ، وَأَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى تَحْرِيمِهَا وَأَنَّهَا نِكَاحٌ بَاطِلٌ، وَإِجْمَاعُ الأُمَّةِ عَلَى تَحْرِيمِهَا لَمْ يُخَالِفْ فِيهَا إِلاَّ الشِّيعَةُ الجَعْفَرِيَّةُ الرَّافِضَةُ، هُمُ الَّذِينَ خَالَفُوا فِيهَا، وَخِلافُهُمْ لا عِبْرَةَ بِهِ، وَلا قِيمَةَ لَهُ، فَالإِجْمَاعُ وَالنَّصُّ عَلَى تَحْرِيمِ الْمُتْعَةِ، وَهِيَ نِكَاحٌ بَاطِلٌ، وَلَهَا حُكْمُ الزِّنَى.

---

(١) رَوَى البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(٥/١٩٦٦رقم٤٨٢٥)، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(٢/١٠٢٧رقم١٤٠٧) عن عليٍّ ﷺ قَالَ: **«نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عن مُتْعَةِ النِّسَاءِ يوم خَيْبَرَ، وَعَنْ أَكْلِ لُحُومِ الْحُمُرِ الأنسية».**

(٢) رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(٢/١٠٢٥رقم١٤٠٦) عن سَبْرَةَ الْجُهَنِيِّ: أَنَّهُ كَانَ مع رَسُولِ اللهِ ﷺ فقال: «يا أَيُّهَا النَّاسُ، إني قد كنت أَذِنْتُ لكم في الاسْتِمْتَاعِ من النِّسَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ قد حَرَّمَ ذلك إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَمَنْ كان عِنْدَهُ مِنْهُنَّ شَيْءٌ فَلْيُخَلِّ سَبِيلَهُ، وَلا تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شيئاً»، وفي لفظ: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْمُتْعَةِ عَامَ الْفَتْحِ حين دَخَلْنَا مَكَّةَ، ثُمَّ لم نَخْرُجْ منها حتى نَهَانَا عنها».

قَوْلُهُ: **(الْمُتْعَةُ - مُتْعَةُ النِّسَاءِ)** يَخْرُجُ بِذَلِكَ مُتْعَةُ الحَجِّ، أَنْ يَتَمَتَّعَ بِالعُمْرَةِ إِلَى الحَجِّ لَيْسَتْ هَذِهِ هِيَ المُرَادُ، التَّمَتُّعُ عَلَيْهِ جُمْهُورُ أَهْلِ العِلْمِ، لَمْ يُخَالِفْ فِيهِ إِلاَّ عَدَدٌ قَلِيلٌ. أَمَّا مُتْعَةُ النِّسَاءِ فَهِيَ مُحَرَّمَةٌ بِالإِجْمَاعِ لَمْ يُخَالِفْ فِيهِ أَحَدٌ يُعْتَدُّ بِخِلافِهِ، وَالْمُتْعَةُ فِي الحَجِّ مَسْأَلَةٌ فِقْهِيَّةٌ، أَمَّا الْمُتْعَةُ فِي النِّكَاحِ فَهِيَ مَسْأَلَةٌ تَتَعَلَّقُ بِالعَقِيدَةِ؛ لأَنَّهَا اسْتِحْلالٌ لِمَا حَرَّمَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

[٩٧] قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: واعْرِفْ لِبَنِي هَاشِمٍ فَضْلَهُمْ؛ لِقَرَابَتِهِمْ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَاعْرِفْ فَضْلَ قُرَيْشٍ وَالعَرَبِ وَجَمِيعِ الأَفْخَاذِ، فَاعْرِفْ قَدْرَهُمْ وَحُقُوقَهُمْ فِي الإِسْلامِ، وَمَوْلَى القَوْمِ مِنْهُمْ، وَتَعْرِفُ لِسَائِرِ النَّاسِ حَقَّهُمْ فِي الإِسْلامِ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: **(لِبَنِي هَاشِمٍ)** بَنُو هَاشِمِ بنِ عَبْدِمَنَافٍ؛ لأَنَّ عَبْدَ مَنَافٍ لَهُ أَوْلادٌ هُمْ: هَاشِمٌ جَدُّ الرَّسُولِ ﷺ، وَعَبْدُ شَمْسٍ جَدُّ عُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ رضي الله عنه، وَنَوْفَلُ بنُ عَبْدِ مَنَافٍ جَدُّ حَكِيمِ بنِ حِزَامٍ رضي الله عنه، وَالْمُطَّلِبُ بنُ عَبْدِ مَنَافٍ جَدُّ بَنِي الْمُطَّلِبِ، هَؤُلاءِ هُمْ أَوْلادُ عَبْدِمَنَافٍ، وَالرَّسُولُ ﷺ بُعِثَ فِي بَنِي هَاشِمِ بنِ عَبْدِمَنَافٍ، فَهُوَ هَاشِمِيٌّ قُرَشِيٌّ، وَقَالَ ﷺ: **«إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشاً، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»**[1] فَهَؤُلاءِ هُمْ قَرَابَةُ الرَّسُولِ ﷺ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، هَؤُلاءِ هُمُ القَرَابَةُ الَّذِينَ لَهُمْ حَقٌّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، تَحْرُمُ عَلَيْهِمُ الصَّدَقَةُ وَتُبَاحُ لَهُمُ الهَدِيَّةُ، أَمَّا غَيْرُ الْمُؤْمِنِينَ فَلا قِيمَةَ لَهُمْ وَلَوْ كَانُوا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، إِنَّمَا إِذَا اجْتَمَعَ القَرَابَةُ مَعَ الإِيمَانِ فَلا شَكَّ أَنَّهُمْ يَمْتَازُونَ عَلَى غَيْرِهِمْ، وَلَهُمْ حَقُّ الإِكْرَامِ وَالتَّوْقِيرِ وَالاحْتِرَامِ وَالتَّقْدِيمِ؛

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(٤/١٧٨٢رقم٢٢٧٦) عن وَاثِلَةَ بنِ الأَسْقَعِ رضي الله عنه.

لأنَّ هذا مِن توقيرِ الرَّسولِ ﷺ، وأمَّا إذا لم يكونوا مؤمنين غاية ما هناك أنَّهم من بني هاشم وهم كفَّار، فلا كرامة لهم؛ وكذلك كلُّ من كان يَنتسِبُ إلى بني هاشم وهو ليس على مذهب أهل السُّنَّة والجماعة والاستقامة فلا قيمة له، فليس مجرَّد القرابة هو المقتضي للحقِّ، وإنَّما القرابةُ مع الإيمان، قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى: ٢٣] أي: قرابة الرسول ﷺ على قولٍ، وجعل الله لهم حظًّا من الخُمس، قال تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [الأنفال: ٤١] قرابة الرسول ﷺ.

قولُه: (واعرِفْ فضلَ قُريشٍ والعَرَبِ) ثُمَّ من بعد بني هاشم فضلَ المسلمين من قريشٍ، لهم فضلٌ على بقيَّة العرب، ثُمَّ العربُ لهم فضلٌ على العجم، لماذا؟ لأنَّ الله أنزل القرآن بلغتهم، وبعث الرسول ﷺ منهم، واختارهم لتبليغ رسالته؛ ولهذا قال ـ جلَّ وعلا ـ في القرآن: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ ﴾ أي: القرآنُ شرفٌ لك، ﴿ وَلِقَوْمِكَ ﴾ العرب ﴿ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٣، ٤٤]، سوف تُسألون عن القيام بهذا القرآن والدعوة إليه، وتبليغه؛ لأنَّ الله حمَّلكم إيَّاه أن تُبلِّغوه لبقيَّة العالم فهذا وجهُ تفضيل العرب، ما فُضِّلوا لأجل أنَّهم عربٌ فقط، بل فُضِّلوا من أجل ما خصَّهم الله به من القرآن والسُّنَّة وبعثة الرسول ﷺ، وأنَّهم يقومون بتبليغ هذا الدِّين، قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ

وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وَقَالَ: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، فَهَذَا وَجْهُ مَزِيَّةِ الْعَرَبِ، إِذَا تَمَسَّكُوا بِهَذَا الدِّينِ وَبَلَّغُوهُ صَارَ لَهُمْ فَضْلٌ عَلَى غَيْرِهِمْ، أَمَّا مَنْ لَمْ يَتَمَسَّكْ بِهَذَا الدِّينِ فَلَيْسَ لَهُ فَضْلٌ، لأَنَّ اللهَ ـ جَلَّ وَعَلا ـ يَقُولُ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: **«لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلا لأَبْيَضَ عَلَى أَسْوَدَ إِلاَّ بِالتَّقْوَى، كُلُّكُمْ لآدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ»** فَهَذَا وَجْهُ تَفْضِيلِ الْعَرَبِ إِذَا قَامُوا بِمَا حَمَّلَهُمُ اللهُ مِنْ نَشْرِ هَذَا الدِّينِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَبَيَانِهِ لِلنَّاسِ، فَهُمْ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِمْ.

قَوْلُهُ: **(وَجَمِيعِ الأَفْخَاذِ)** الأَفْخَاذُ بِضْعٌ مِنَ الْقَبَائِلِ؛ أَوَّلاً الْقَبِيلَةُ ثُمَّ الأَفْخَاذُ، فَهِيَ قِطْعَةٌ مِنَ الْقَبِيلَةِ.

قَوْلُهُ: **(فَاعْرِفْ قَدْرَهُمْ وَحُقُوقَهُمْ فِي الإِسْلامِ)** كُلٌّ عَلَى قَدْرِ فَضْلِهِ وَحَقِّهِ.

قَوْلُهُ: **(وَمَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ)** هَذَا حَدِيثٌ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ[1]، يَعْنِي الْعَتِيقَ، إِذَا كَانَ عَتِيقاً لِلْهَاشِمِيِّينَ يَكُونُ حُكْمُهُ حُكْمَ الْهَاشِمِيِّينَ، أَوْ عَتِيقاً لِغَيْرِهِمْ يَكُونُ حُكْمُهُ حُكْمَهُمْ.

---

(١) رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ(٦/٢٤٨٤رقم٦٣٨٠) عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«مولى القوم من أنفسهم»**.

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: وَاعْرِفْ فَضْلَ الْأَنْصَارِ وَوَصِيَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِيهِمْ، وَآلَ الرَّسُولِ فَلَا تَسُبَّهُمْ، وَاعْرِفْ فَضْلَهُمْ وَكَرَامَاتِهِمْ، وَجِيرَانَهُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فَاعْرِفْ فَضْلَهُمْ.

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: **(وَاعْرِفْ فَضْلَ الْأَنْصَارِ)** مِنَ الأوسِ والخَزْرَجِ، وصَحَابَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَفْضَلِ القُرُونِ؛ لِقَوْلِهِ: **«خَيْرُكُمْ قَرْنِي»**[1]؛ وَلِأَنَّ اللهَ اخْتَارَهُمْ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ وَلِأَنَّهُمْ بَايَعُوا الرَّسُولَ ﷺ وَجَاهَدُوا مَعَهُ وَحَمَلُوا العِلْمَ عَنْهُ وَبَلَّغُوهُ لِلنَّاسِ، فَالصَّحَابَةُ أَفْضَلُ القُرُونِ، وَلا يلحقهم أحد في فضلهم، قَالَ ﷺ: **«لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ»**[2] يَعْنِي: لَوْ أَحَدٌ تَصَدَّقَ بِذَهَبٍ مِثْلِ جَبَلِ أُحُدٍ لا يُسَاوِي مُدًّا مِنَ الشَّعِيرِ تَصَدَّقَ بِهِ صَحَابِيٌّ، فَهَذَا فِيهِ فَضْلُ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم.

فَهَذَا فَضْلٌ عَظِيمٌ يَجِبُ أَنْ يُعْرَفَ لَهُمْ رضي الله عنهم، وَاللهُ - جَلَّ وَعَلا - قَالَ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ في صَحِيحِهِ(رقم ٣٤٥٠)، وَمُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ(رقم ٢٥٣٥) من حَدِيث عِمْرَان بن الحصين رضي الله عنه.

(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ في صَحِيحِهِ(١٣٤٣/٣رقم ٣٤٧٠)، وَمُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ(١٩٦٧/٤رقم ٢٥٤١) عن أبي سَعِيد الخدري رضي الله عنه.

رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [التوبة:١٠٠]، وقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح:١٨]، قال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ أي: صفتهم في التوراة ﴿ وَمَثَلُهُمْ ﴾ أي: صفتهم ﴿ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ [الفتح:٢٩]، هذه الآياتُ في الصَّحابَةِ ﷺ تَدلُّ على فَضْلِهِمْ ومَكانَتِهِمْ عِنْدَ اللهِ وعِنْدَ رَسُولِهِ ﷺ، وَهُمْ يتفاضلُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، فالخُلَفاءُ الأَرْبَعَةُ هُمْ أَفضلُ الصَّحابَةِ، ثُمَّ بَقيَّةُ العَشَرَةِ المُبَشَّرِينَ بالجَنَّةِ، ثُمَّ المُهاجِرُونَ؛ لأنَّ اللهَ قَدَّمَهُمْ في الذِّكْرِ على الأَنْصارِ، ولأنَّهُمْ تَرَكُوا دِيارَهُمْ وأَمْوالَهُمْ وأَوْطانَهُمْ للهِ عزَّ وجلَّ، وهاجَرُوا في سَبيلِ اللهِ، فَهُمْ أَفضلُ مِنَ الأَنْصارِ، ثُمَّ الأَنْصارُ ﷺ لأنَّهم قامُوا بإيواءِ الرَّسُولِ، وإيواءِ المُسْلِمِينَ ومُناصَرَتِهِمْ، وواسَوْهُمْ بأَمْوالِهِمْ، وتَآلَفُوا مَعَهُمْ وأَحَبُّوهُمْ، وأَصْحابُ بَدْرٍ الَّذِينَ شَهِدُوا بَدْرًا أَيْضًا لَهُمْ فَضِيلَةٌ ومَزِيَّةٌ، وأَصْحابُ بَيْعَةِ الرِّضْوانِ قالَ تَعالَى: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح:١٨]، ثُمَّ الَّذِينَ أَسْلَمُوا قَبْلَ الفَتْحِ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا بَعْدَ الفَتْحِ ـ فَتْحِ مَكَّةَ ـ فَهُمْ يَتَفاضَلُونَ

بيْنَهُمْ، لكِن هُمْ في الجُمْلَةِ أفضَلُ مِن غيْرِهِمْ مِن جَمِيعِ الأجْيَالِ إلى أنْ تَقُومَ السَّاعَةُ لا أحَدَ يُساوِيهِم.

قَوْلُهُ: **(وَوَصِيَّةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِيهِم)** أيْ: وَصِيَّةُ الرَّسُولِ ﷺ بِالأنصَارِ، قَالَ ﷺ: **«لا يُحِبُّ الأَنصَارَ إلاَّ مُؤمِنٌ، وَلا يُبْغِضُهُمْ إلاَّ مُنَافِقٌ»**[1].

قَوْلُهُ: **(وَجِيْرَانُهُ مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ فَاعْرِفْ فَضْلَهُمْ)** أيِ: الَّذِي يَسْكُنُ في المَدِينَةِ وَيَصْبِرُ عَلَيْهَا احْتِسَاباً وَيَصْبِرُ عَلَى أجْوَائِهَا احْتِسَاباً لِلأجْرِ، وَيُلازِمُ الصَّلاةَ في مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ لَهُ أجْرٌ في ذَلِكَ لَيْسَ هُنَاكَ شَكٌّ، أمَّا الَّذِي يَسْكُنُهَا وَيُفْسِدُ فِيهَا، وَيُشْرِكُ بِاللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وَيَنْشُرُ البِدَعَ؛ فَهَذَا عَذَابُهُ أشَدُّ، عَذَابُهُ مُضَاعَفٌ، قَالَ ﷺ: **«مَن أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا، أو آوَى مُحْدِثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ، وَالْمَلَائِكَةِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»**[2].

❀ ❀ ❀

انتهى بحمد لله الجزء الأول

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ في صَحِيحِهِ(٣/١٣٧٩رقم٣٥٧٢)، وَمُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ(١/٨٥رقم٧٥) عن البراء ﷺ.

(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ في صَحِيحِهِ(٢/٦٦١رقم١٧٧١)، وَمُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ(٢/٩٩٤-٩٩٨رقم١٣٧٠) عن عليٍّ ﷺ.

فهرس الموضوعات

الموضــــــوع	الصفحة

الموضوع — الصفحة